أعلام الإصلاح في الجزائر

من عام ١٣٤٠هـ ١٩٢١م . إلى عام ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م .

تأليف

محمد علي دبّوز

أستاذ الأدب والتاريخ في معهد الحياة بالجزائر

الجزء الأول

في الكتاب صور فتوغرافية تاريخية مهمة عديدة

الطبعة الاولى

1394 هـ ـ 1974 م

مطبعة البعث
قسنطينة ـ الجزائر

أعلام الإصلاح في الجزائر

من عام ١٣٤٠هـ ١٩٢١م . إلى عام ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م .

تأليف

محمد علي دبّوز

أستاذ الأدب والتاريخ في معهد الحياة بالجزائر

الجزء الأول

في الكتاب صور فتوغرافية تاريخية مهمة عديده

الطبعة الاولى

1394 هـ ـ 1974 م

مطبعة البعث
قسنطينة ـ الجزائر

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

العلامة العبقرى المجاهد
الشيخ محمد البشير الابراهيمى

الاهـــــداء

الى روح العلامة الجليل العبقرى المصلح الشيخ محمد البشير الابراهيمى والى كل العلماء الصالحين المصلحين الـذين يعملـون لله ، ويصلحون نفوس الأمة بدين الله !

والى كل متعلم يطلب العلم لله ، ليكون نور أمته يهديها الى طريق الله ، فينقذها من المهاوى والـدواهى ، فتسعد وتسـود باذن الله . أهدى هذا الكتاب .

محمد عـلى دبـوز

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على من بعث الى الخلق أجمعين ، فأصلح النفوس بدين الله القويم ، فسادت وسعدت في الدارين ، وكان امام المصلحين وقدوتهم في كل حين ، سيدنا محمد وعلى كل الأنبياء والمرسلين ٠

عزيزي القارىء ٠ ها أنا أعود اليك يا حبيبي فأوفي بوعدي لك في الجزء الثاني والثالث من كتابي : (نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة) فأقدم اليك الجزء الأول من كتاب (أعلام الاصلاح في الجزائر) وهو تاريخ للجزائر أيضا في عهد من أهم عهود جهادها ،وهو العهد المبارك الذي ازدهرت فيه النهضة الجزائرية الحديثة ، وازدهر الاصلاح فيه ، من بعد الحرب العالمية الأولى الى الآن ٠

وقد حدثتك في الأجزاء الثلاثة من كتاب نهضة الجزائر الحديثة عن نهضتنا في كل أدوارها ، والنهضة بنت الاصلاح وثمرته ، فعلى حسبه تكون ، وهو مقدمة لازمة لها وهي نتيجته ٠ واذا قلنا النهضة فقد قلنا الاصلاح ٠ وواعدتك أن أحدثك في توسع عن شباب نهضتنا الجزائرية الحديثة وازدهارها في تاريخ قادتها وأعلامها ، لأن تاريخهم هو تاريخ النهضة والاصلاح وتاريخ الجزائر كلها في عهد مهم من عهودها ٠ فها أنا أفي بوعدي لك يا عزيزي فأقدم اليك هذا الجزء الذي يشتمل على تاريخ بعض أعلام الاصلاح في الجزائر في الشمال والجنوب ، وسأزيدك بقية تاريخهم وأحدثك عن جهادهم العظيم في الأجزاء الأخرى ان شاء الله ؛ وأحدثك الحديث الضافي بتاريخ أعلام الاصلاح الآخرين في الشمال والجنوب بحول الله ٠ وسأبدأ من الشيخ مبارك الميلي اذا انتهيت من تاريخ الشيخ العربي اتبسي لأنهما متشابهان في الشخصية والنشأة ، ولأن الشيخ مبارك عصامي من صناديد علمائنا المصلحين يجب على الشباب سيما المتعلم أن يعرف تاريخه ٠ وقد حدثتك عن جهاد الشيخ مبارك في الجنوب ، وألممت بشخصيته في الجزء الثالث من كتاب نهضة الجزائر في باب (نهضة الاغواط الحديثة المباركة) ولكن لم يتسع المقام لأحدثك عن وراثته والعوامل التي كونت

شخصيته العظيمة ، ونشأته وأحواله في شبابه ، وهو ما لا يعرفه الا القليل من الناس فان أخرناه ربما ضاع ، ثم انه درس عظيم يفيد تلاميذنا وشبابنا في هذا الجيل . وسأحدثك عن الشيخ البشير الابراهيمي ، والشيخ توفيق المدني وغيرهما من أعلام الاصلاح في الجزائر في الشمال والجنوب ان شاء الله .

ان تاريخ أعلام الاصلاح في الجزائر تاريخ للأمة الجزائرية كلها ، سيما الصفوة التي أيدتهم وكانت معهم في أنواع جهادهم : التربوي والاصلاحي ، والعلمي ، وغيرها . فهم أجنحة أولئك الأعلام وأعضادهم ، لولاهم ما استطاعوا الطيران الى الأجواء العالية التي وصلوها ، وحمل أثقال الاصلاح الثقيلة التي حملوها ، ولولاهم ما بلغوا المراد في ميادين الجهاد .

وتاريخ هؤلاء الأعلام تاريخ للعلماء الصالحين المصلحين في الجزائر في عهدهم ، لأنهم شركاء لهم في أنواع جهادهم ، وهم أبناء الزمان المبارك الذي أنشأ أعلامنا ، وان كانوا تلاميذهم قد نشأوا في زمان غير زمانهم فانهم يحملون روحهم ، وهم على شخصية تصبغها صبغتهم الثابتة ، وعاضدوهم في جهادهم الاصلاحي في الحياة ، وخلفوهم فيه بعد الممات ، فهذا التاريخ الذي يجلو جهاد أعلامنا تاريخهم .

وقد توسعت في العوامل التربوية التي كونت عبقرية أعلام الاصلاح في الجزائر وخلقهم العظيم ، لأن التاريخ للقدوة الحسنة والموعظة والمعرفة ، فاذا خلا من هذه فهو قشور لا نفع فيه ، وكلام غث لا فائدة منه . ان الحديث عن العوامل التربوية العظيمة التي كونت الشخصية العظيمة في أعلام الاصلاح من أهم ما يجب أن يعتنى به المؤرخ لهم ، لأنها أسرار خفية تنسى، لا يستطيع الاهتداء اليها جميع الناس وان كانوا علماء . أما جهادهم فخالد في آثارهم المرئية فيستطيع هذا الزمان والأجيال المقبلة أن تعرفه . ثم ان بيان العوامل التربوية التي كونت أعلامنا هو الذي يجعلنا نأخذ بها فيكون لأمتنا دائما مثلهم . ما أشد حاجتنا الى معرفة التربية الاسلامية العظيمة التي تمسك بها أجدادنا فأنجبوا بها أعلام الاصلاح وكتائب عديدة من الصالحين المصلحين الذين آزروهم ، وكانوا حزب الله الذي صالوا به ، وحققوا مراد الأمة . ان زماننا أكثر علما وغنى ،ولكن أجدادنا على ضعفهم في هذه أحسن منا في الأخذ بالتربية الاسلامية في أولادهم ، فاستطاعوا أن يحققوا للأمة ما لم نستطع .

ان توسيع الاطار في تاريخ أعلامنا بشرح البيئة الطبيعية والاجتماعية التي كونتهم تسجيل وبيان لتاريخ ذلك الزمان المبارك الذي لم يسجل . وانه عرضة

للضياع ، وهو أمانة فى أعناقنا نحن أبناء هذا الجيل للأبناء والأحفاد · لهذه الاعتبارات كلها أقف وقفة طويلة فى العوامل التربوية التى كونتهم وفى زمانهم ·

وبدأت بتاريخ بعض الأحياء من أعلام الاصلاح لأن تاريخهم تاريخ للأمة الجزائرية وللاصلاح · وهم أعلم به من سواهم · وهم أغنى وأهم موارده ، فاذا ذهبوا ذهب معهم ذلك التاريخ ، لأنه لم يسجل ، فهو فى حافظتهم الواعية · ولا يستطيع أى مؤرخ مهما بلغ علمه فى تاريخ الاصلاح والمصلحين فى الجزائر أن يستغنى عنهم ، سيما فى تاريخهم هم ، وخصوصا نشأتهم والعوامل التى كونتهم فى صباهم ، وهو ما بينا أهميته وضرورته لعصرنا · يجب التعجيل بتاريخهم وهم أحياء لأنهم موارده الكافية ومعادنه الغنية · وقد حدثنى الشيخ أبو اليقظان رحمه الله من تاريخه بكل ما ظننت أنه يكفى لكتابة تاريخه ، ولما بدأت التأليف بعد وفاته تبدت لى جوانب غامضة من تاريخه لابد من معرفتها وتسجيلها للقراء · فكنت أفزع الى العجائز والشيوخ العالمين الثقاة من أسرته وأصدقائه فأسألهم ، فأنفق الوقت الطويل والجهد الكبير فى شىء كنت أستفيده من الشيخ لو كان حيا بدون مشقة وفى وقت قليل وعلى نحو أكمل · وقد لا أجد ما أريد عند هؤلاء فأفزع الى مكتبته وآثاره فأنقب ساعات ثم لا أجد ، فأعتصر النصوص التاريخية التى أعرف، وقد لا تسعفنى تلك النصوص بما أعتقده حقيقة، فتضيع محاولتى وجهودى ، فأندم الندم الكبير على أننى لم أكتب تاريخه وهو حى ليمدنى بما أشاء من المعلومات التى أحتاجها · لو كتبنا تاريخ الشيخ البشير الابراهيمى وغيره من أعلامنا وتاريخ زمانهم الذى نشأوا فيه وهم أحياء لغنمنا غنائم عظيمة ولحافظنا على تاريخ عظيم للجزائر والمغرب ضاع بوفاتهم ، ولكان ما نكتبه من تاريخهم أتم ، يرضى كل القراء ويليق بالاسلوب التحليلى الذى ألتزمه فى هذا التاريخ ، وهو يستلزم العلم بكثير من الجزئيات التى لا يعرفها الا من نكتب تاريخه ·

ان بعض الناس يظنون أننا نستطيع كتابة تاريخ أعلامنا بعد وفاتهم كاملا ، ويرون ارجاء كتابته الى أن يذهبوا الى ربهم، كأن تاريخهم الواسع العظيم تسبيح الجنازة لا يليق الا وراء نعشهم ! انهم لا يعرفون أسلوب التاريخ الحى ، ولا يقدرون تاريخ أعلامنا · يظنون التاريخ هى الخلاصات القصيرة القاصرة والأخبار الجافة التى ألفوها فى تراجم بعض الكتب القاصرة · وهو لعمرى تاريخ الجزائر العظيمة فى عهد من أعظم عهودها وأغناها بالمثل العليا ، وسفر للتربية وفلسفة الاجتماع ·

لقد كنت مهتما بتاريخ علمائنا المصلحين وأعلام الاصلاح منهم بالخصوص منذ طفولتى ، منذ تلك الأسمار اللذيذة التى كان والدى رحمه الله وأنا طفل فى العاشرة

من سنى يحدثنى فيها عن أعلام الاصلاح الذين يعرفهم ، ويعجب بهم وبجهادهم : الشيخ عبد الحميد بن باديس الذى يعاشره فى قسنطينة ، والشيخ الطيب العقبى والشيخ البشير الابراهيمى ، والشيخ بيوض ، والشيخ أبى اليقظان ، والشيخ سليمان بن الحاج داود وغيرهم • يحدثنى عن هؤلاء الأعلام فى حب شديد لهم ، واعجاب كبير بصلاحهم وعلمهم وجهادهم ، ليغرسهم مثلا عليا فى نفسى فأكون مثلهم للدين والعلم ، وأكون جنديا مخلصا تحت راية القرآن التى يحملونها • يرحمه الله ، فهو أول وأكبر من حبب اليَّ التاريخ ووجهنى اليه بما يحكى لى فى الطفولة والشباب مما يحفظ من تاريخ أسرتنا وتاريخ ميزاب وقسنطينة والجزائر بأسلوبه العذب الجميل القوى • يرحمه الله • فنشأت شديد الحب لأعلام الاصلاح ، عظيم الاعجاب بهم ، كثير الاهتمام بتاريخهم • فكنت أسأل كل من ألتقى منهم فى أول شبابى عن جوانب من تاريخه سيما أيام تلمذته لأقتدى ، وأسأل من أجد من العارفين بتاريخهم ، فعلمت الشىء الكثير عن بعض أعلام الاصلاح • وفى عام 1371 هـ 1952 م بدأت البحث الجدى المنظم عن تاريخ الاصلاح فى الجزائر وأعلامه ، وأجتمع فى مجالس طويلة بمن أجد من هؤلاء الأعلام فأروى عنهم تاريخ الاصلاح وتاريخهم وتاريخ زمانهم الذى نشأوا فيه ، وأسأل عن هذا الموضوع غيرهم من العلماء الثقاة العارفين ، وأنصار وتلاميذ أعلامنا من الثقاة الحافظين ، فكان الله معى فسخر لى كل من قصدته للرواية سيما أعلام الاصلاح فى الجنوب ، فقد استطعت أن أروى عنهم أكثر لقربهم منى ، جزاهم الله عنى وعن الجزائر والأمة الاسلامية ومحبى المعرفة كلهم أحسن الجزاء ، ومتعنا الله طويلا بمن لا يزال منهم فى الوجود • وكنت فى أول الأمر أكتب ما أسمع فى مجلس الرواية ، ثم آثرت التسجيل بالآلة الماسكة للصوت ، لأربح الوقت معهم ، وأنقل كلامهم بعد ذلك كله حرفيا فلا تفوتنى التفاصيل الكثيرة التى يجب على المؤرخ أن يعرفها • وبعد الرواية الطويلة من الأعلام والعارفين الثقاة وتسجيل حديثهم المستفيض ، أنقله حرفيا من الأشرطة • وقد يكون حديثهم بالبربرية أو الدارجة فأكتبه بالفصحى ، وأمضى أياما وليالى فى هذا العمل الصعب الذى يرهق السمع والبصر والفكر • انه أصعب على من التأليف فى المواضيع الصعبة• فكان الله معى فنقلت من الأشرطة كل ما أريد،وتكونت لى مادة ارتضيها فى تاريخ الاصلاح وأعلامه • والحمد لله على فضله ، وأسأله المزيد من كل نعمه •

ان ما تجده من المادة التاريخية يا عزيزى فى هذا الكتاب رويته عن أعلام الاصلاح أنفسهم ، أو عن أقربائهم الثقاة العارفين ، وأنصارهم وأصدقائهم الذين لابسوهم فى

مختلف أدوارهم فعرفوهم وعرفوا جهادهم ، وعن تلاميذهم العلماء المقربين الذين كانوا لهم أعضادا وبطانة · فليس لى فى الموضوع الا أسلوب التأليف ، وتحليل المؤرخ ، واستنباطه المنطقى · أما أصول هذا التاريخ فممن ذكرنا · وقد ذكرت بعضهم فى مقدمة الجزء الأول ومقدمة الجزء الثالث من كتابى (نهضة الجزائر الحديثة) فارجع اليهما ، وذكرت لك فى هذا الكتاب من رويت عنه كل باب · جزى الله عنى خير الجزاء كل من قصدته من هؤلاء الأقرباء والأنصار والتلاميذ فقد رحبوا بى ترحيبا عظيما وأفادونى بما عندهم ، ولم يضنوا على بما أريد · ان هذا من جزاء العاملين لله · نسأل الله أن يديم علينا هذه النعمة ويزيدنا منها ، فانها الوسيلة المنجحة فى كل الأعمال ·

وكان الله معى والحمد لله فتم تأليف هذا الكتاب فى الربيع الماضى· وكنت أضرع الى الله سبحانه وتعالى أن يعجل بطبعه فى أحسن حال وأحسن مكان · فهدانى الله الى مطبعة « البعث » الاسلامية فى قسنطينة ، فوجدت فى مديرها الحازم السيد محمود ابن عبد القادر عياط ، وفى رئيس القسم العربى فيها الشيخ الهانى بن عبد المجيد بستانجى ، وفى المطبعة ما أريد من نشاط ونظام ووفاء بالمواعيد ، ولطف واحترام وتقدير لعملى · أسأل الله أن يعينهم فيتم طبع هذا الكتاب على أحسن وجه على أيديهم ويكون لهم وللجزائر والعربية أحسن عنوان ·

وهدانى الله الى طبع كتاب أعلام الاصلاح فى مدينة قسنطينة بلد الشيخ حمدان الاونيسى ، والشيخ المولود بن الموهوب ، والشيخ صالح بن مهنا والشيخ عبد الحميد ابن باديس وغيرهم من المصلحين يرحمهم الله جميعا ، هدانى الله الى قلعة من قلاع الاصلاح الكبرى التى أشعر فيها بأرواح هؤلاء الأعلام المصلحين ترفرف على وتعانقنى فتملؤنى بالنشاط، وتزيدنى حبا للعمل، وتؤكد في التفاؤل والثقة بالنفس·والحمد لله·

وقد زرت بيروت والقاهرة منذ شهرين ، فألح على من أعرف من الناشرين الأصدقاء أن يطبعوا هذا الكتاب على أحسن وجه وبأحسن نتيجة لى ، فأبيت ، فطبعته فى الجزائر ، والطباعة العربية فيها صعبة وغالية جدا أضعاف المشرق العربى مرات كثيرة ، وسأطبع كل كتبى فى الجزائر ان شاء الله · رغم ما أعانيه من جهود ونفقات كثيرة ، لأن تكوين الطباعة العربية في الجزائر فرض علينا · انها من ثمار الاستقلال الغالية ، واذا لم تكن كان استقلالنا ناقص النتيجة نقصا كبيرا · والطباعة العربية أساس الفكر الجزائرى فاذا لم تزدهر استمر على خموله ، واستمر العلماء والأدباء على وأد نبوغهم فتفلس الجزائر افلاسا عظيما دونه الافلاس فى كل الميادين لاقدر الله ·

يجب أن تنظر الى مطابعنا العربية بالنظرة المعنوية الكبرى ، ونوليها كل ما نستطيع من التأييد ، فانها أساس الفكر الجزائرى ، رأس مال الجزائر الأعظم مع دينها الاسلامى العظيم ! ان كل أشياء الجزائر العظيمة لا يراها الا من فى الجزائـــر ، الا الكتـــاب الجزائرى فهو سفيرها الذى يرفعها فى الخارج ويشرفها ! وكل ما نبنيه فى هذا العصر مما نفخر به من الأشياء المادية مآله البلى والزوال الا الكتاب الجزائرى ، فهـــو الشىء الوحيد الخالد من حضارتنا لا يبلى ، وهو عنواننا البـاقى ومظهرنا وميراثنا الخـــالد للأجيال ، فيجب العناية الكاملة بالكتاب الجزائرى ، والعناية الكاملة بالطباعة العربية لأنها أساسه ٠

وفى الختام أضرع الى الله سبحانه وتعالى أن يجازى الجزاء الأوفى فى الداريـــن كل من أعاننى فى تأليف وطبع هذا الكتاب٠ وجزى الله أحسن الجزاء مشايخى وأبنائى الأساتذة فى معهد الحياة العظيم ، فقد رفعـــوا عنى أثقال التربية والتعليم التى كانت تمنعنى عن التأليف ، فوجدت الوقت الكافى والجهد الوافى ٠ ان عملى هذا لهم أيضا ، يغنمون من أجره العظيم عند الله ، وهو من حظوظهم الكبرى التى يغنمونها فى الحياة ٠

٠ اذا كان الحديث عن الصالحين مما يغرس الصلاح وكل ما يرضى الله فى النفوس فانه عبادة وقربة كبرى الى الله ٠ أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منى هذه العبادة ويوالى على المزيد من توفيقه وعونه وحفظه وكل نعمه ، فأكتب تاريخ أعلام الاصلاح فى الجزائر على النحو المرضى ، فأبر بدينى ومشايخى ووطنى ان شاء الله ٠

قسنطينة صباح يوم الخميس المبارك 11 شعبان 1394 هـ
29 اغسطس 1974 م

محمـد عـلى دبـــوز

بسم الله الرحمن الرحيم

ايـاك نعبـد وايـاك نستعـين

الإصلاح والمصلحون في الجزائر

كانت الجـزائر فى القـرن التاسع الهجرى الخـامس عشر المسيحى قد شاخت وتعبت بالبناء الطويل . لقد نهضت نهضتها الكبرى بعد نومها فى القرن الثـانى الميلادى فى عهد الرومان فجالدتهم لتتخلص منهم ، فاستمرت ثوراتها عليهم ، وعـلى الوندال ، والبيزنطيين . ولما جاء الاسـلام فى أول القـرن السـابع المسيحى كانت قد وقفت على قدميها مشمخـرة ، وأنشأت ممالك عديدة فى أنحائهـا ، (1) واستعدت لانشاء الدولة الكبرى التى تشملها وتشمل المغرب الكبير ، فتحقق أمل مصينيسـا ويوغورطة ويوبا الأول وأمل المغرب الكبير . ولما من الله بالاسلام على المغرب فى القرن الاول الهجرى هبت الجزائر وهب المغرب كله لبناء دولتهم الاسلامية فى عهد الامويين والعباسيين ، وأسرع المغرب والجزائر فى طريق الحضارة الاسلامية لانها كانت مستعدة من قبل للبناء ، ثم أنشأت الجزائر والمغرب دولها الكبرى الزاهـرة فى القرن الثانى الهجرى وما يليه : الدولة الرستمية العظمى ، والدولة الاغلبية ، والدولة الادريسية ، والدولة العبيدية ، والدولة الصنهاجية ، والدولة الحمادية ، ودولة المرابطين ، ودولـة الموحدين ، والدولة الحفصية ، ودولة بنى مرين ، والدولة الزيانية ، تسـع قـرون اسلامية والجزائر والمغرب تجهد فى البناء ، وترفع أثقال هذه الدول العظمى ، فلا بد أن يصيبها التعب والوهـن فتنام ، وابتـدأ النوم يخامر جفـونها ، وبـدا عليها ضعف الشيخوخة ، فطمعت فيها أروبا الصليبية الناهضة ، وعزمت على احتلال الجـزائـر والمغرب لتنكل بالاسلام والمسلمين فيها ، وتشفى أحقادها الموروثة على المغرب ، وتستولى على حضارة المغرب الزاهرة ، وكنوزه العظيمة ، وعلى غناه الواسع ، وجماله الفتان .

(1) انظر الممالك البربرية قبل الاسلام فى كتابنا « تاريخ المغرب الكبير » الجزء الاول ص 426 ط اولى فى 1384 هـ ـ 1964 م

فاحتلت اسبانيا والبرتغال فى القرن التاسع والعاشر الهجرى الخامس عشر والسادس عشر المسيحى بعض الثغور المهمة فى شواطىء الجزائر والمغرب . فصارت تستعد وتعمل للافاضة على الجزائر والمغرب لتمتلكها . وتعيد فيها فظائعها فى مسلمى الاندلس ، وتجعلها امتدادا لبلادها فى افريقية الغنية الجميلة الدافئة . ولكن الله أتاح للجزائر والمغرب دولتنا العثمانية الاسلامية العظمى فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى ، فبسطت جناحها الحنون على الجزائر والمغرب : تونس وليبيا ، فجددت شباب الجزائر والمغرب . فدحر أعداء دينه ، وطهر شواطئه منهم . فاستأنف بناءه وسيره فى طريق الحضارة الاسلامية الزاهرة ، وعاودته فى ظل دولته العثمانية المباركة الميمونة أيامه الغراء ، وعهوده السعيدة . فصارت الجزائر دولة قوية زاهرة ، بدينها وعلمها وأخلاقها الاسلامية العظمى ، فكالت الضربات القاصمة لأعدائها الصليبيين ، ولبست شبابها الجديد بفضل العثمانيين الاقوياء الميامين الذين لابسوها ملابسة الربيع للشجرة الذابلة فتورق وتزدهر . وكان العثمانيون خيرا وبركة للجزائر والمغرب والأمم الاسلامية كلها . فلولاهم لنال الصليبيون العتاة فيها أغراضهم ، وجعلوها أكلتهم .

ودامت دولتنا العثمانية المباركة العظمى على قوتها وازدهارها خمسة قرون كاملة . وفى قرنها السادس وهو القرن الثالث عشر الهجرى الثامن عشر الميلادى ، تعبت بالبناء ، واستوفت عمرها . فأصابها الهرم ، وهرمت معها الجزائر ، وبدت على وطننا أمراض الشيخوخة والانغماس فى ملاذ الحضارة والنعيم ، فضعفت أخلاقها ، وفشا فيها التمرد على الدين . وانتشرت فيها الأنانية والحسد والعصبية المذهبية والجنسية والجهوية ، فتمزق شملها الجميع ، وانثلم بنيانها المرصوص الرفيع ، واصيبت من الحسد والتعصب والانانية بقاصمة الظهور ، وحتوف الأمم ، وجعلها أفن الشيخوخة على غرارة الطفولة ، فانتشرت فيها البدع التى تفسد الدين . وصدقت الخرافات التى ينشرها فيها الجهلة أبناء بطونهم ، ومطية شياطينهم ، فأفسدوا عقيدة كثير من دهمائها . فانتشرت فيها الموبقات والادبار عن الله ونسوا الله فأنساهم أنفسهم ، ووكلهم الى قوتهم الواهنة ، وسلط عليهم عدوهم ، فطمعت فيهم أروبا ثانية ، فاحتلت فرانسا الجزائر ، فى يوم 12 محرم عام 1246 هـ — 5 يولية 1830 م . والجزائر ترصف فى أغلال امراضها . قد أنهكها التهالك على اللذات والانغماس فى الشهوات . ولو دامت فى طريق الدين كما كانت لدامت على قوتها ، ولدام الله معها فلا يستطيعها أعداؤها . وصرع الجزائر الفساد الخلقى بالانحراف عن دينها الاسلامى العظيم . فوجدتها

فرانسا فريسة مقيدة فاجهزت عليها ، وعمدت الى الفساد الذى يقتلها تقويه وتؤكده في نفوسها ، واتخذت كل الوسائل لقتل الدين فى نفوسها وتجريدها مما تبقى فيها من أخلاق دينها ، ودخلت الجزائر عهود ظلامها فى القرن الثالث عشر الهجـــرى لمـــا استولت عليها فرانسا فزادت فى امراضها ،واحكمت وثاق قيودها · فما هى تلـك الامراض التى أصابتها فى الشيخوخة قبل الاستعمار فزاد فيها فغاصت فى عهـــود ظلامها · وقبل ان آخذ فى هذا الباب لابد من كلمة حق فى دولتنا العثمانية العظمى ، وتنبيه الناس الى ما نزل عليها من ظلم المستعمرين وأكاذيبهم على تاريخها ليشـــوهوه ، وجناية الشعوبيين المتعصبين المتفرنجين من ابناء الامم الاسلامية عليها ·

جنـاية المستعمرين والشعوبيين المتعصبين وأكاذيبهم على دولتنا العثمانية العظيمة

لا زال تاريخ الدولة العثمانية فى البلاد العربية وفى المغرب لم يكتب بنزاهـــة وصدق ، لقد تجنى عليها المستعمرون الصليبيون فلم يذكروا من تاريخها العظيم فى البلاد العربية الا ما كان أيام شيخوختها ، وكذبوا عليها وصوروها للمغرب والبـــلاد العربية تنينا كان ملتفا عليها فخلصوها منه ، وهى كانت روح البلاد العربية وشبابها وحصنها الحصين ، وخيرا عظيما للاسلام والمسلمين · وقد والوا عليها أكاذيبهم ودعايتهم المسمومة لينفروا قلوب المسلمين عنها ، ويجعلوا المسلمين يعتقدون أنهـــا نـــار كانت تتقد عليها ، فهو اجرهم ظل ظليل ونسيم عليل قد انقذهم منها · وقد قلد الشعوبيون المتعصبون المتفرنجون من ابناء المسلمين أساتذتهم المستعمرين وآمنوا باكاذيبهم عـــلى الدولة العثمانية،فنشروها فى البلاد العربية وفى شبابنا ، وصاروا أبواقا جوفاء ـ لجهلهم وسفاهتهم ـ للاستعمار ينفخ فيها أكاذيبه على دولتنا العثمانية الاسلاميـــة العظمى ، وتكونت عقد نفسية فى كثير من شبابنا ومؤرخينا المقلدين ، فصاروا ينظرون فى حقد وازدراء الى الدولة العثمانية التى من الله بها على الاسلام والمسلمين ، فكانت أعظـــم نعمة علينا فى القرن الثامن الهجرى لما عزمت أوربا الصليبيـــة أن تحتـــل البـــلاد الاســـلامية وتقضى فيها على الاســـلام والمسلمين ! فلـــولا الدولة العثمانية التى رفعت راية الاســـلام ، وقلمت أظفار أوربا المتـــكالبة ، ونشرت فيها الاســـلام ، وحمت بلاد المسلمين وجددت شبابها ، لحققت أوربا الصليبية كثيرا من أغراضها الجهنمية فى بلاد الاســـلام ·

إن الدولة العثمانية خير وبركة للعالم الاسلامى كله ، وهى الخير العظيم الذى من الله به على المغرب والجزائر ، فظفرت بأعراسها وبعهودها السعيدة الطويلة فى حجرها • ان الدولة العثمانية ككل الدول فى العالم اذا شاخت لابد أن ترفع العصا ، ويقع فيها الظلم والفساد ، ولم يقع فى الجزائر والمغرب من ظلمها وفسادها بعض ما صبته وتصبه أروبا والامم الصليبية على البلاد الاسلامية التى تقع فى قبضتها •

ان الدولة العثمانية أمنا الحنون ، تقلبت الجزائر والمغرب فى حجرها أربعة قرون ، وحظيت منها بكل نعيم واحسان حتى شاخت ، فيجب ان نتأدب معها بأدب ديننا الذى أوجبه مع الوالدين اذا هرما وقل نفعهما • « إمَّا يبلغن عندك الكبر احدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً » صدق الله العظيم ، ولكن هذا القول الكريم لا يصدر الا من البررة بدينهم وأمتهم الاسلامية العظمى • أما الملحدون المتفرنجون الجهلة اعداء دينهم فمطية الاستعمار فى أفكاره المفرقة ، فيرددون فى أمهم الحنون دعاية أعدائهم ، فيفقؤون عيونهم البصيرة الحسناء بأصابعهم ، ويرفعون أصواتهم بالشعوبية الضيقة التى تمزق شمل المسلمين •

يجب على الجزائر أن تعتنى كل الاعتناء بتاريخها الحديث ، فتكتب عهود اعراسها وقوتها فى ظل الدولة العثمانية العظمى • ان صفاء نفوسنا الموروث ودیننا يجعلنا نتصف بالبر والوفاء ونأبى الشعوبية الضيقة التى تصور الدولة العثمانية شخصا غريبا وهى أمنا الحنون البارة وأمهم •

لقد عاشت الجزائر اثني عشر قرنا وهى فى قوتها ، فشاخت فى الابان فتسلط عليها الاستعمار ، فأكد فيها الفساد الخلقى الذى أودى بها ووسع رقعته ، فدخلت فى عهد ظلامها • فما هى امراضها واحوالها فى ذلك العهد الحالك الأليم ؟ !

عهد الظلام فى الجزائر

كان الاستعمار الفرنسى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر الهجرى قد أخنى على الجزائر وتمكن منها ، فأيد فيها جميع امراض شيخوختها ، وسد فى وجهها جميع أبواب الصلاح والشفاء ، وافرخ فيها بشروره ، فاضعف الدين فى النفوس، ونشر الفساد فى المجتمع، وعمد الى العقيدة الاسلامية التى هى أصل الدين فى النفوس فأفسدها بشتى وسائله ، بتجهيل الناس ، وغلق المعاهد العلمية ، ومنع

العلماء الصالحين المصلحين من الوعظ فى المساجد ، ومطاردتهم وعزلهم لكى لا يؤثروا فى العامة ، وينشروا علمهم وصلاحهم فى المجتمع · واعان الاستعمار الصليبى المفسدين (والمرابطين الجهلة) شيوخ الطرق الصوفية الضالة المدجلين بكل الوسائل لتكون العامة فى قبضتهم ، يفسدون عقيدتها الدينية ، ويربتون عليها لتنام ، ويحدون لها فى طرق الضلال والجهل والجمود والخمول لتستمر فيها ، فتكون للاستعمار أكلة هادئة ينهشها كما يريد ، ويعيث فيها كما يشاء · وكان هؤلاء الجهلة المدجلون الذين يتظاهرون بالتصوف أكبر اعوان الاستعمار على الجزائر ، وافظع الشرور التى تسلطت عليها · لقد خدروها فطال نومها ، ومزقوا شملها فلم تتحد ضد عدوها · وكانوا يمسكونها باسم الدين فى طريق الجمود والخمول والضلال فاستمرت فيه زمنا طويلا · وهم الذين حاربوا المصلحين وكانوا عليهم نارا ، وهم الذين كانوا يغرون العامة الجاهلة بالمصلحين ويقولون انهم أعداء الدين ، مبتدعون ، تجب محاربتهم والقضاء عليهم ! وأن الدين والاصلاح والسعادة هو ما نحن عليه ! فتصدق العامة فتنظر بالعداء والمقت الشديد الى المصلحين · وقد تهجم عليهم لاغتيالهم كما وقع للشيخ عبد الحميد ابن باديس والشيخ بيوض ، والشيخ مبارك الميلى ، ولاعلام الاصلاح كلهم فى الجزائر هذا ولا نقصد بهذا كل الزوايا فى الجزائر ، بل الفاسدة التى انحرفت عن طريق الزاوية واغراضها الحسنة ·

الزوايا الصالحة فى الجزائر والمغرب وجدواها العظيمة على الدين والامة (1)

الزاوية فى لغة المغرب هى الطريقة الصوفية ومحلها ، والمرابطون هم الصوفية · واذا قلنا الزوايا فى هذا الباب : (عهد الظلام فى الجزائر) والمرابطين فلا نقصد كل الزوايا فى الجزائر ومشايخها ، بل المنحرفة الضالة منها · أما الزوايا الصالحة فى الجزائر والمغرب فهى معدن العلم والهداية ، وأوتاد الدين والصلاح ، ومنبع اليقظة والنهضة ، وهى خير وبركة للجزائر والمغرب فى كثير من عهوده ، وهى عون للاصلاح ، ومنبع لثورات عديدة فى الجزائر على الاستعمار ، وعون للامير عبد القادر الجزائرى ، والبطل محمد المقرانى فى جهادهما العظيم · انها معدن العلم والقرآن ، أنشئت للتربية

(1) انظر اصل الزوايا الكريم فى المغرب وآثارها الحسنة فى كتابنا نهضة الجزائر الحديثة الجزء الاول ص 39 الى ص 81 ط أولى عام 1385 هـ - 1965 م

الاسلامية وتحفيظ القرآن ، وتعليم العلوم العربية والدينية للصغار ، والوعظ والارشاد للكبار ، ولانواع البر والاحسان • انها كالجمعيات الخيرية التي انشأها مصلحونا في عصر النهضة • ان فضل هذه الزوايا الصالحة عظيم على الجزائر في عهد ظلامها أيام الاستعمار وقبله • لقد اعتنت كل الاعتناء بتحفيظ القرآن ، والتعليم الديني ، وحافظت على العربية في المغرب ، وانشأت لنا علماء أجلاء كانوا اعلام الاصلاح في الجزائر • فالشيخ البشير الابراهيمي تعلم في زاوية سيدي ابن علي ابن اشريف في شلاطة بجبال القبائل • درس فيها على العالم الجليل والمعلم المربي الماهر الشيخ الطيب بن مبارك اليعلاوي الزواوي ، ونبغ الشيخ البشير في زاويته هذه في العلوم العربية والشرعية • وتولى تدريسها قبل رحيله الى الحجاز في زاوية سيدي الحواس في جنوب اسطيف ونبغ عليه تلاميذ كثيرون في العلوم العربية والشرعية • وقد تعلم في زاوية السيد ابن علي ابن اشريف أربع سنوات ونبغ فيها في العلوم العربية والشرعية وكان عالما فيها • واذا ازداد علما في الشرق العربي فبمكاتبه الغنية التي يعكف فيها للقراءة • اما تتلمذه ففي الجزائر في الزاوية • وعلم في زاوية الحواس في قرية أولاد سي احمد في ناحية عين أولمان بجنوب سطيف نحو اربع سنوات • ولما رجع من المشرق العربي في عام 1921 صار مديرا لاوقاف الزاوية التي تعلم فيها زاوية ابن اشريف وفاء لها واعترافا بجميلها • ولما انشأ مدرسته العصرية العربية الحرة في مدينة اسطيف في عام 1924 أعانته هذه الزاوية المباركة ماديا واستمرت على اعانتها • (1)

والشيخ العربي اتبسي ابن الزاوية • ختم القرآن في زاوية خنقة سيدي ناجي ، وتعلم المبادىء في العربية والشريعة الاسلامية في زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز في مدينة نفطة في جنوب تونس ، فهي التي بنت فيه أصول العلوم ، ووجهته التوجيه الصحيح في العلم • وانجبت الزوايا الصالحة علماء آخرين رفعوا راية الاصلاح في المغرب • هذه هي جدوى الزوايا على الجزائر والمغرب • ولا زال البعض منها الى الآن على صلاحه يعلم ويحفظ كتاب الله للصغار ويرشد الكبار ، وينشر العربية • ولعل الزوايا هي المعاهد الوحيدة التي تعتني بتحفيظ كتاب الله في عهدنا هذا في شمال الجزائر ولولاها لضاع • ان فضلها عظيم ، نسأل الله أن يحفظها ويعينها • ويمتعنا بنتائجها

---

(1) حدثني بهذا الشيخ الحاج محمد بن الحاج عمار صديق الشيخ البشير الابراهيمي ورفيق صباه وجهاده ومواطنه في الصبا والشباب وهو من رجال جمعية العلماء الباوزين في ناحية سطيف. وحدثني به السيد محمد بن الطيب المطاعي من أعيان مدينة سطيف واحد تلاميذ الشيخ البشير الباوزين في مدرسته التي انشأها في اسطيف . وحدثني بتاريخ الشيخ البشير طويلا صديقه ورفيق صباه الشيخ عبد الرحمن يبيي ، أدامهم الله ونفع بهم الاسلام والجزائر .

الحسنة طويلا · ولكن الزوايا الجاهلة الفاسدة التى حادت عن طريق الدين هى التى أضرت بالجزائر ضررا كبيرا · وكانت معولا للدين فى أيدى الاستعمار ، وحبالا للشنق يقتل بها الجزائر ، وبلاء وفتنة · فما هى بعض شرورها التى جعلت الجزائر مع امراض الشيخوخة الاخرى وأدواء الاستعمار تدخل فى عهد ظلامها · وسنسميها الطرقية الاستعمارية لانها سلاحه ، وربيبته ، وجنده المخلص الذى حارب به الدين والاصلاح فى الجزائر والمغرب ·

وباء الطرقية الاستعمارية

كانت هذه الطرقية الاستعمارية بلاء على الدين والجزائر ، أفسدت العقائد ونشرت المفاسد،وفرقت الأمة،وحاربت الاصلاح،وكانت حليفا للاستعمار الصليبى·

وكانت العامة الجاهلة فى الجزائر تعتقد فى المرابطين شيوخ الطرق الاستعمارية ، ما ينافى التوحيد ، وينابذ الاسلام · كانوا يعتقدون أنه لابد لكل امرىء من شيخ يتبعه وينتسب اليه ، ليشفع فيه فى الآخرة ، ويغفر له كل ذنوبه فى الدنيا ، ويهبه السعادة والهناء وكل ما يريده فى الحياة ؛ وأن السعادة فى الدنيا وفى الاخرى بيد الشيخ ، فرضاه يفتح ابوابها ، وسخطه يسلط عليهم المصائب والشقاء · وكانوا يعتقدون ان لشيوخ الطرق سيطرة على الكون · فهم الذين يمنون بالخصب والصحة والرخاء اذا رضوا ، وهم الذين يبتلون بالقحط والامراض والشقاء اذا سخطوا ·

وكان شيوخ الطرق الاستعمارية جهلة فاسدين · قد ورثوا مشيخة الزاوية ورئاستها من أجدادهم وآبائهم الصالحين · ليس فيهم الا عمامة الشيخ ومظاهره يتنبلون بها ، ويخدعون بها العامة · وكان هؤلاء الشيوخ يرتكبون كل الموبقات فتأول العامة الجاهلة المفتونة بهم معاصيهم ، فتعتقد ان الخمر التى يشربها شيخها تصير فى فمه عسلا فلا تدخل جوفه خمرا ، ويؤولون مثل هذا التأويل ضروب المحرمات الاخرى ! وكان هؤلاء الشيوخ قدوة سيئة للعامة ، تندفع بها فى طرق الفساد ، وتطبعها بالضلال والانغماس فى الشهوات المحرمة !

وكانت بعض الزوايا المنحرفة تنشر عقائد مخالفة للدين ، وهى كفر والحاد مبين · أنظر ما قالته مجلة الشهاب للشيخ باديس عن بعضها : « يدعى المنتسبون للطريقة··· ان قراءة (صلاة الفاتح) أفضل من تلاوة القرآن ستة آلاف مرة ! متأولين بأن ذلك

بالنسبة لمن لم يتأدب بآداب القرآن . ويزعمون ان (صلاة الفاتح) من كلام الله القديم ولا يترتب عليها ثوابها الا لمن اعتقد ذلك ؛ وان صلاة الفاتح علمها النبيء صلى الله عليه وآله وسلم لصاحب الطريقة ولم يعلمها لغيره ، وأن مؤسس الطريقة أفضل الاولياء ، وأن من انتسب الى تلك الطريقة يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب ، وتغفر ذنوبه الصغار والكبار حتى التبعات،وغير ذلك من الخرافات المضللة التى هى كفر والحاد لا يقبلها امرؤ يؤمن بالاسلام » (1) وقد رد الشيخ باديس فى مجلة الشهاب على هذه الطريقة ، وبين مخالفتها للدين ، واضرارها للمسلمين .

وقد بلغت الوقاحة والجرأه على الاسلام ببعض هؤلاء المشائخ الملحدين الجاهلين أذناب الاستعمار الملطخة الى أن يدعى الألوهية ويهجو النبيء محمدا صلى الله عليه وسلم بشعر بثه في الناس . انظر ما قاله بالشعر الملحون لجهله بالعربية ، وليفهمه اتباعه الأميون الضالون . قال فى قصيدة طويلة منها :

فَتَّشْتُ عْلِيكْ يَا اللَّهْ وَالْقِيتْ نَفْسِى أَنَا اللَّهْ !

وقال فى النبيء عليه السلام :

عَبَسْ بَالْقُولْ يَتْهَدَّدْ نَزْلَتْ فِى حَقِّيكْ
إِنْ مَتْ بِالشُّوقْ مْنَكَّدْ مَا عُذْرْ يُنْجِيكْ
عَبَسْ بَالْقُولْ اتْسَاعَدْ لِلْمَوْلَى نَشْكِيكْ

وقد رد على هذه القصيدة الحمقاء الكافرة الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله فى جريدة المنتقد ، ثم نشر الرد فى رسالة خاصة بثها فى الناس .

وكانت العامة الجاهلة تعتقد أنها تستطيع ان تأتى كل ما تريد من ذنوب ، وترتكب كل ما تشاء من معاصى السرقة والزنا ، والقتل وكل الموبقات ثم تتطهر من كل الذنوب بالانتساب الى طريقة ، وبقربان تقدمه الى شيخ الزاوية فيغفر لها ذنوبها وجرائمها . وكان المذنب فى كل عام يقدم الى الشيخ ما يرضيه فيقول له : اذهب فقد غفرت لك . ان الجنة لك ، مفتحة الأبواب فى وجهك تدخلها بدون حساب ، وسعادة الدنيا لك أيضا ستنهال عليك .

---

(1) مجلة الشهاب ج 7 مجلد 14 سنة 1357 هـ 1938 م .
انظر بقية كفريات هذه الطريقة الضالة فى الجزء 7 م 10 ص 302 من مجلة الشهاب .

وكانت الزانية تفسق طول عامها وهي تعتقد أن ذنوب الفسق ستزول عنها اذا قربت الى الشيخ قربانا فغفر لها . وقد تقدم نفسها . وفى الخلوة اذا اعجبت الشيخ سيغفر لها كل الذنوب ! وتذهب ببركة الشيخ فى جسمها ، وبدعواته الصالحة التى تفتح لها كل أبواب السعادة والرحمة فى الدنيا والآخرة .

وكان هؤلاء المشائخ مطية للاستعمار يركبها الى اغراضه . انه يريد ان يفسد الاخلاق ، ويهدم الدين فى النفوس ، فوجد هؤلاء المشايخ احسن ركوبة ، واطوع وسيلة ، واخلص خادم ، فصيرهم جنوده فى قتل الامة ، فأفسدوا دينها وعلموها الخمول والجمود والذلة والاستسلام للعدو ، وجردوها من الثقة بالنفس ، فصارت العامة تعتقد أن الافرنج أكرم معدنا ، وأنهم الأقوياء دائما والسادة ، والمسلمون هم الضعفاء ، وان حظ المسلم فى الآخرة ، أما فى دنياه فهو للشقاء والتعاسة والذلة والحرمان ! وأغروا العامة بالفساد،وبغضوا العلم والصلاح ، وكل أسباب التقدم لها .

كان هؤلاء المشايخ جاهلين فاسدين لا تهمهم الا شهواتهم فحرصوا على بقاء الجهل الذى يقيد العامة لهم ليستغلوها كما يريدون ، ويبتزوا أموالها ، ويسيطروا عليها ، ويسخروها فى شهواتهم ، وتكون لهم خدما وعبيدا تركع على أقدامهم ، وتزحف بالوجوه امامهم . وكانت هذه العامة اذا زارت المشايخ الاحياء تزحف على وجوهها من مسافة بعيدة قبل وصول مجلسه . فاذا وصلت مجلسه انهالت بالتقبيل على الفراش الذى يجلس عليه ، ثم تقبل فى حرارة طرف ردائه ، وقد يتنزل الشيخ من علبائه فيمد يده فتنهال عليه بالتقبيل،وقد يأبى فلا يظفر أتباعه من بركاته الا ببساطه الذى يجلس عليه فيكون موضع قبلاتهم الحارة ، يوالونها حتى تدمى شفاههم ، وتمجل مناخرهم . وكانوا اذا أرادوا الانصراف تقهقروا زاحفين ووجوههم الى مشايخهم الى ان يغادروا المكان!خضوع وخشوع لا يكون حتى للملوك الجبابرة من العبيد الأذلاء المسخرين!

أما قبور المشايخ فهى أماكن الرحمة والبركات.ترى العامة الجاهلة قبل أن تصل قبر الشيخ تتمسح بجدار مقبرته ، وتخشع وتنادى به باكية : يا سيدى فلان جئتك مستجيرا فاغفر لى ذنبى ، واقض حوائجى ، ودمر أعدائى . فتعدد حاجاتها على المقبرة، واذا وصلت القبر تمرغت فى حجرته ، وتمسحت بقضبان ناقذته ، أو بقبة ضريحه وتشعل فيها القناديل أو الشموع ، وتطلق فيها البخور ، وتتضرع الى صاحب القبر تسأله أن يقضى حاجاتها ! وقد يصطحب بعضهم معه قربانا من الغنم أو البقر أو الابل فيذبحه فى مذبح القبر مناديا وهو يذبحه : اليك يا سيدى فلان أقرب هذا القربان !

وثنية عفنـــة هى التى ذكرها الله فى القرآن ، وأنذر اصحابها ، وبين آفاتها على المجتمع والاخـــلاق !

وضعف الايمان بالله فى نفوس العامة للجهل المنتشر ، ولتسلط مشايخ الطرق الذين يؤيدهم الاستعمار ، ويعينهم فى التسلط على العامة ، ليبعـــدوها عن الـــدين ، ويغمسوها فى الفساد وكل الويلات التى تجعلها لقه حطاما لا ينهض،وهشيما لا يقاوم ، وترابا مهينا يدوسه بنعاله ! وانتشرت الخرافات التى تفسد العقول ، واتجهت العامة الجاهلة الى مشايخ الطرق تراهم زعماءها وقادتها وملاذها ، لا تخالف لهم رأيا ، تعتقد فيهم العصمة ، وترى فيهم القدسية ، يعرفون الغيب ويعلمون ما فى السرائر · فالويل لمن ينطوى على دغل لشيخه ! ان المصائب تمحقه ، وشيخه ينزل عليه بقـــوارعه · ومن الغريب أن العامة تخشى الأموات من هؤلاء المشايخ أكثر · ان خلفاءهم قد غرسوا فى نفوس العامة لهم التقديس والتبجيل ، واسندوا اليهم الكرامات التى لا تكـــون حتى للأنبياء ، فصارت العامة تخشاهم أكثر ، وتحج الى قبورهم · وتطلب منهم الغفران ، وترجو بحجها البركات والنمـــاء والسعادة ! !

وكانت العامة مع تقديسها لمشايخ الطرق تقدس بعض الاحجار وبعض الاشجار وبعض الأماكن ، فتسرج فيها الشموع ، وترسل فيها البخور ، وتضمخها بالحناء والعطر وتقـــرب اليها القرابين وتعتقد انها تنفع وتضر · وكان مشـــايخ الطرق يؤيدون هـــذه الخرافات والبدع ويركزونها فى نفوس العامة ·

وهل يعقل الغرائز عن الفساد الا خوف الله ، وهل يقيدها عن الشر ويعـــودهـــا الخير الا دين الله ؟ ! وهل يبعث الأمة على الطموح والتقدم ومقاومة الاستعمار الا الثقة بالنفس ؟ ! لقد ضعف الدين فى نفوس العامة الجاهلة فلم يعد لها رادعا ، وزال خـــوف الله من نفوس الدهماء فلم يبق لها عقال يردها عن طرق الشيطان ، ويمسكها على دين الرحمن · ان مشايخ الطرق هم قبلتها ، ومحل رجاء العامة وخوفهم · وسبب رضاهم عنها سهل وهو الضلالات التى ذكرنا ، والقرابين التى اسلفنا · فانطلقت الغرائـــز من عقالها لما انعدم فى النفوس خوف الله · وصارت العامة تعتقد أن الجنة والنار فى الآخرة ، والسعادة والشقاء فى الدنيا انما تكون برضى الشيـــخ وسخطه ، وأن اتقـــاء سخطه ونيل رضاه ميسور لديها · فبقليل من القربان تقدمه ، وبهدية مقبولة تتقرب بها يرضى عنها ، ويقربها ، ويغفر لها كل الذنوب ! فانطلق الناس فى سبل الفســـاد وصارت الغرائز الدنيا هى المسيطرة على كثير من العامة ، فهى التى تأخذ بقيادهـــا ·

فكثر الزنا ، والسرقة ، وانتشرت جرائم القتل والضرب والعدوان ، وتنادى الناس بالعصبية الجاهلية : المذهبية ، والجنسية ، والجهوية ، والطبقية ، فصار القوي يأكل الضعيف • وكنت لا تستطيع السير بعد الغروب وحدك في شوارع الجزائر العاصمة والمدن الكبرى في الحارات الجزائرية الا اذا كنت مسلحا مرهوب الجانب • والا فان عصابات اللصوص وأحلاس العصبية ينقضون عليك ، فيجردونك ويفتكون بك • قد تكون صحراويا فينقض عليك أهل الشمال ، أو من الشمال فتجد المتعصبين عليك الذين يكرهونك من عصابات الصحراء • وكان الشرقي في الجزائر يكره الغربي ، والقروي يرى الحضري عدوه ، والعربي يكره البربري والعكس ، (1) فويل له ان ظفر به في الخلاء وكان ضعيفا ! لقد مزق الاستعمار الجزائر هذا التمزيق ، وفرقها هذا التفريق ، وأذكى العداوات الشديدة بين الاقسام • وكان مشايخ الطرق الفاسدون أكبر عون له في هدم الدين في النفوس ، وفي اثارة الغرائز الحيوانية ، فانطلقت في عرامة من عقالها ، وفي اذكاء العصبيات وبثها في الجزائر •

الفساد الخلقي

وكان الاستعمار قد أغلق ابواب الكسب الكبيرة في وجوه الجزائريين وخص بها أبناءه ، وقصرها على نفسه ، وحرم الجزائريين من ميادين الرزق الكبرى التي تبني أخلاقهم ، وتذهب عنهم الخصاصة ، وعودهم البطالة ، وفتح لهم أبواب الفساد الخلقي ودفعهم اليها دفعا بكل وسائله ، فتسلط الفقر على المسلمين • والفقر مع خلو النفس من الدين سبب كل الجرائم ، وأم كل الموبقات ، فانتشر الزنا ، وانعدمت الغيرة من نفوس الآباء والازواج الفاسدين ، وكثرت الجرائم والفتن وحب السطو والانتقام •

العصبية المذهبية

وكان الاستعمار يذكي العداوة والبغضاء بين الجزائريين ويمزقهم الى طوائف تتناحر ، فاتجهت عداوتهم من بعضهم الى البعض ، فغفلوا عن عدوهم الصليبي الذي يؤجج عليهم في أتونه ، ويعمل لمحقهم ومحق دينهم •

---

(1) لقد اختلط الجنسان البربري والعربي فصار منهما الشعب الجزائري فالكل تسري فيهم الدماء العربية والبربرية لا فرق بينهم ، ولكن الاستعمار خلق فرية البربر والعرب فأوهم بعض الجهلة انهم بربر خلص أو عرب خلص ، مستندا الى اللغة البربرية التي تتحدثها بعض المناطق وتجهلها اخرى . اننا في المغرب الكبير كلنا ابناء مازيغ وكنعان والحمد لله على فضله ونعمه الكبرى علينا .

وكان الاستعمار الفرنسي قد وجد في الجزائر المذاهب الاسلامية الثلاثة : الاباضية والمالكية والحنفية ، ولكل أتباعه وشيعته ، وهم جميعا يرجعون الى الكتاب والسنة · فأصولهم واحدة ، وهم الى أب واحد وأم واحدة في الدين ، لا فرق بينهم الا في بعض المسائل الفرعية التي تعددت فيها أقوال العلماء · وهذا الخلاف بسيط لا يسبب العداوة · يوجد أكثر منه بين العلماء في المذهب الواحد فلا يتعادون ، ولكن السياسة القديمة المفرقة ، وهوى الملوك وطغيانهم في القديم ، خلقت هذه الوراثة الخبيثة في نفوس أهل المذاهب ، فاستغلها الاستعمار الفرنسي في الجزائر كل الاستغلال ، فأذكاها وضاعفها · وقد استعان الاستعمار بمشايخ الطرق الفاسدين المتعصبين في اذكاء العداوة المذهبية، وبثها في النفوس· وجعلوا الدين سببا للفرقة وهو للاتحاد والامتزاج والتحابب · وأضروا ضررا كبيرا ·

استيلاء الجهل والجمود

وكان الجهل والجمود يستوليان على اغلب العامة · فالدين عندهم هي خزعبلات هؤلاء الطرقيين · وكان الطرقيون الاستعماريون يريدون أن تظل العامة جاهلة مقفلة العقول جامدة لتظل من أتباعهم لا تنفض عنهم · وكانوا يزينون لها الخمول والجمود ، ويكرهون اليها أسباب النهضة ، والتعليم العصري المجدي ، فكرهت التعليم العصري الذي دعا اليه زعماء النهضة ، فاقتصروا على الكتاتيب القاصرة التي تدير الكثير منها هذه الطرق ، فتملأ النفوس بالجمود والخمول ، وتنشيء التلاميذ على تقديس شيخ الطريقة لا على خوف الله وتعظيمه ، وعلى التمسك بالطريقة المنحرفة ، وخزعبلاتها المضرة لا بالدين ، وبحفظ الأناشيد التي تمجد شيخ الطريقة واصحابها لا بحفظ القرآن والحديث وتفسير القرآن والعلوم النافعة · فانصرف الناس عن العلم الصحيح ، فاستغلقت العقول ، وانتشر الجمود والخمول،وكثرت الجهالة وآفاتها ، وهي هذه الطرقية الضالة ، ومفاسد الاخلاق والعصبية والمناكر التي ذكرنا ·

بث الالحاد والتفرنج بمدارس الاستعمار وصحافته في النفوس

وكان الاستعمار يغري المسلمين بغشيان مدارسه في الطفولة قبل أن يحصنوا بالدين ، وتغرس فيهم العقيدة الاسلامية ، ويعرفوا حقيقة الاسلام · فنجح في دخول

جماعة من أطفال المسلمين في مدارسه ، فصبغهم بسواده ، وأوحى اليهم ما يريد ، وكان يلفت نظرهم الى خرافات الطرقيين وفسادهم وجمودهم،ويجعلهم مظهرا للاسلام ، ويقول لهم : انما كانوا كذلك بالاسلام ؛ ويريهم تقدم الاروبيين وغناهم وعلمهم فيقول : انما كانوا كذلك لانهم لا يتقيدون بالاسلام الذى يورث الخمول ، ويمنع من النهوض والتقدم !

وكان هؤلاء الاغرار لخلوهم من ثقافة الدين ، وجهلهم بالعربية ، وثقتهم بأساتذتهم واعجابهم بهم يصدقون هذه الدعاية ضد الاسلام ، فرأوه فى مشايخ الطرق والزوايا الفاسدة حلقا للذكر تترنح ، ورأوه في مجتمعهم المريض فى العامة زمرا للفساد والخمول تغرق في الموبقات ، وتتصف بالبهيمية . فنشأت طائفة منهم على بغض الاسلام والعربية فخلق الاستعمار للاسلام والعربية عدوا جديدا من أبناء الجزائر يناهض بهم العربية ، ويقضى بهم على الاسلام فى الجزائر .

محاربة اللغة العربية واحتقارها

وبسط الاستعمار ألسنته فى اللغة العربية الشريفة أصل الدين الاسلامى العظيم فوصفها بالعجز والقصور والجمود والجفاء والصعوبة ، وأنها لا تليق للحضارة الحديثة ولا تتسع للعلوم العصرية ، وأنها خالية من سلاسة الفرنسية وحلاوتها وسهولتها فى النطق والتعلم . ان الفرنسية لسلاستها وعذوبتها تسلسل كالماء الصافى فى سواقيه المصقولة ، وهذه لجفائها وخشونتها تسمعك الاصوات الجشة التى تكون للصخور اذا تدحرجت من الجبال ! فوصفوا العربية لتلاميذهم الجزائريين فى المدارس بكل ما يمليه عليهم حقدهم على الدين وجهلهم بالعربية ، فأنشأوا طائفة من الجزائريين على روحهم ينظرون الى دينهم ولغتهم العربية والى حضارتهم الاسلامية كلها بنظرة الاستعمار العدوة ففرحت بهم فرانسا وجعلتهم أظفارها ومداها تجهز بهم على الجزائر التى أوهنتها الشيخوخة والامراض الخلقية التى ذكرنا . وسر المستعمرون الصليبيون الغلاة بوهن الجزائر وظلامها ، وظنوا أنهم بالغون فيها كل اغراضهم ، وهى محق الاسلام والمسلمين !

ونظر الاستعمار الفرنسى منتشيا الى الجزائر فى آخر القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين ، فرأى الفساد الخلقى يفتك بها ، وظلام الجهل يقع بها فى الهوى ، والجمود يقيدها عن النهوض والتقدم ، والأحقاد الشديدة تمزقها ، فأيقن أنه بالغ فيها غرضه . وكانت مداه يشحذها على الاسلام أكثر ، وأسلحته يسددها جميعها الى

القرآن والعربية أصل الاسلام ليقتلهمافى الجزائر والمغرب ، (I) فمنع الحج عن الجزائريين ، وحرم عليهم فتح المدارس العربية للعلوم ، وحجر على العلماء الوعظ فى المساجد ، ومنع الاجتماعات العامة ، وأخذ بتلابيب الدين ، وشدد عليه الخناق ليقتله . ولكن دين الجزائر هو روحها وحياتها تحفظه فى القلوب ، فمهما تَوَّرت مكانس الارض عجاجها لتخنقه لا تبلغه أوساخها ! وكتب الله للجزائر أن تشفى من أمراض شيخوختها فتنهض ، ففتح الله عليها بعلماء مصلحين من أبنائها ، فأخذوا بيدها الى طريق الدين الصحيح ، وصححوا عقيدتها ، واشفوها بالدين الاسلامى العظيم من كل أمراضها النفسية ، وسلحوها بالاخلاق الاسلامية والعلم الصحيح ، فرضى الله عنها وكان لها ، فاستطاعت أن تحقق آمالها وتصرع أعداءها .

وكان الاستعمار الفرنسى وفظائعه عملية جراحية للجزائر فتحت عينيها ، واشعرتها بأمراضها التى أسخطت الله فسلط عليها عدوها ، فعزمت على التوبة ، وابتدأ اجدادنا فى الجزائر معارك الاصلاح لما أيسوا من جدوى معارك السلاح . ان السلاح يرفعه الصحيح الشاب ، والجزائر مريضة قد شاخت ، فلا بد أن تشفى أولا من كل أمراضها النفسية ، ويتجدد شبابها ، فتثور وحدها الى السلاح ، فتتخلص من العدو .

وقد ابتدأ جهاد المصلحين فى الجزائر فى الشمال بعد الاحتلال الفرنسى بقليل ، ثم تقوى الاصلاح فى الجزائر فى آخر القرن الثالث عشر الهجرى آخر القرن التاسع عشر المسيحى لما رفع لواءه أعلام الاصلاح الاولون. الشيخ عبد القادر المجاوى، والشيخ محمد بن مصطفى المضربة ، والشيخ عبد الحليم بن سماية ، والشيخ حمدان الاونيسى، والشيخ محمد الميلى ، والشيخ المولود بن الموهوب ، والشيخ أحمد الاحبيباتنى ، والشيخ العباسى وغيرهم من تلاميذ الشيخ عبد القادر المجاوى النبغاء المصلحين فى شرق الجزائر وغربها .

---

(1) لما أغلق الاستعمار العسكرى الفرنسى فى الاربعينات مدرسة تهذيب البنين التى انشأتها الجمعية الخيرية الاصلاحية فى مدينة تبسة فى عام 1931 او 32 وكان يديرها ويعلم فيها الشيخ العربى اتبسى رحمه الله ، ذهب الى الحاكم العسكرى الفرنسى فى اتبسة ويسمى « باتيستينى » وهو من جزيرة كورسيكا ، فظ غليظ متجبر شديد العداوة للاسلام والاصلاح . ذهب اليه رئيس الجمعية السيد الحاج حواس بن اسماعيل ، ونائبه السيد الصادق بودراع . فسالاه ان يأذن لهم فى فتح المدرسة فقال لهما الحاكم:ماذا تفعلون فيها ؟ فقالا : نعلم فيها القرآن فحسب . فقال لهما الحاكم: « لقد جئنا الى الجزائر لندفن القرآن لا ليحيا ! » هذا هو مقصد كل المستعمرين فى المغرب والبلاد الاسلامية انطق الله به هذا الجاهل المستبد المغرور .

ومن أعلام الاصلاح الاولين الامير خالد والشيخ عمر راسم ، والشيخ عمـــر بن قدور ، والدكتور ابن العربى ، والدكتور محمد بن أبى شنب ، والشيخ محمد بن رحال وغيرهم • وقد حدثتك أخى عن هؤلاء المصلحين الاولين الاعلام فى كتابى (نهضة الجزائر الحديثة) الجزء الاول والثانى ، وبداية الاصلاح فى الجزائر فارجع اليه • وهم الـذين أيقظوا الجزائر ، وبدأوا فى اصلاح نفوسها ودفعوها فى طريق النهضة •

وبعد الحـرب العالمية الاولى وقبيلها بقليل رفع راية الاصـلاح فى الجزائر خلفهم الصالح مشايخنا الاعلام : الشيخ عبد الحميد بن باديس ، والشيخ البشير الابراهيمى، والشيخ الطيب العقبى ، والشيخ العربى اتبسى ، والشيخ مبارك الميلى ، والشيخ أحمد توفيق المدنى ، والشيخ محمد خير الدين وغيرهم من مشايخنا أعلام الاصلاح الذين بلغوا بنهضة الجزائر واصلاحها درجـــة النضوج ، فوقفت عـــلى قدميها فصارعت أعداءها فصرعتهم • وقد آثر الله اليه أعلام الاصلاح فى الشمال فلم يبق منهم الا الشيخ احمد توفيق المدنى ، والشيخ محمد خير الدين اطال الله عمرهم ونفع بهم أحفادهم •

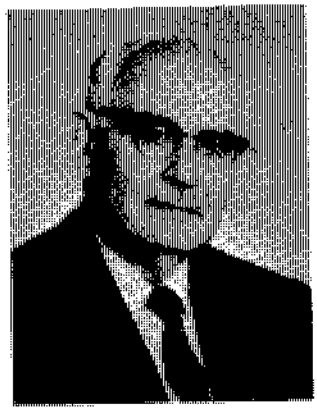

الشيخ احمد توفيق المدنى
حفظه الله وابقاه

أما نهضة جنوب الجزائر فى وادى ميزاب واصلاحه فقد بدأ فى آخر العهد التركى قبل بدإ الاصلاح فى الشمال • لقد نام وادى ميزاب وجنوب الجزائر قبل الشمـــال وتيقظ وبدأ اصلاحه قبل بدإ الاصلاح فى الشمال • لقد ابتدأ الاصلاح والنهضـــة فى وادى ميزاب فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى حوالى العقد الخـامس من القرن الثامن عشر المسيحى • وأعلام الاصلاح الاولون فيه هم الشيخ يحيى بن صـالح

لأفضلي وتلاميذه البارزون ، ومنهم الشيخ عبد العزيز التميني ، وتلاميذه البارزون ، ومنهم الشيخ بالحاج بن كاسي ، والشيخ الحاج امحمد اطفيش وتلاميذه الكثيرون البارزون : الشيخ الحاج محمد بن الحاج قاسم ، والشيخ بابكر بن الحاج مسعود ، والشيخ الحاج صالح بن عمر ، والشيخ الحاج الناصر كَرُّوشْ ، والشيخ الحاج ابراهيم الأَبْرِيكِي ، والشيخ الحاج عمر بن يحيى ، والشيخ الحاج بكير العُنُقْ ، والشيخ يحيى بن صالح باعمارة ، والشيخ الحاج صالح بن الحاج احمد الداودي ، والشيخ الحاج عمر بن حمو بكلي ، والشيخ الحاج مسعود بن ابراهيم قباض ، والشيخ الحاج داود بن سعيد وغيرهم • هؤلاء هم الذين آزروا الشيخ الحاج امحمد اطفيش في جهاده واصلاحه،وكانوا أعلام الاصلاح في نواحيهم في حياته وبعد وفاته • وهم الذين نازلوا الفساد والجمود والجهل والاستبداد العسكري الفرنسي • وقد حدثتك عن جهاد هؤلاء الاعلام في الاصلاح وتراجمهم في الجزء الاول والثاني من كتابي (نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة) فارجع اليهما •

ورفع راية الاصلاح في جنوب الجزائر بعد مشايخ مشايخنا خلفهم الصالح وتلاميذهم الميامين بعد الحرب العالمية الاولى في العشرينات وهم مشايخنا المجاهدون العظماء أعلام الاصلاح : الشيخ بَيُّوضْ ، والشيخ ابو اليقظان ، والشيخ ابراهيم اطفيش ، والشيخ محمد التميني ، والشيخ عبد الرحمن بكلي ، والشيخ سليمان بن الحاج داود ، والشيخ عَدُّونْ بن الحاج ، والشيخ صالح بَابْكَرْ وغيرهم من انصارهم الكبار اركان الاصلاح في الجنوب • وهؤلاء الاعلام شاركوا في اصلاح الشمال ايضا ، والجزائر جسم واحد ، فاصلاح جزء منه هو اصلاح للكل ، لان الاصلاح يسري ، فهو كالكهرباء والشمس في الانتشار . وقد نازل هؤلاء الجهل والجمود والفساد والظلم والاستبداد العسكري الفرنسي ، فطهروا النفوس ، ودخل الاصلاح في شبابه وقوته على أيديهم • وقد أطال الله عمر هؤلاء الأعلام كلهم الى بعد الاستقلال • ولا زالوا كلهم يواصلون جهادهم في اصلاح النفوس وتربية النشء ، وبناء الجزائر الى الآن ، ما عدا ثلاثة منهم : الشيخ ابراهيم اطفيش الذي توفاه الله في عام 1385 هـ 1965 ، والشيخ محمد التميني الذي توفاه الله في عام 1390 هـ 1970 م والشيخ ابو اليقظان الذي توفي في عام 1393 – 1973 والأعلام الآخرون العديدون الباقون لا زالوا يواصلون جهادهم في نشاط في بناء الجزائر في أصعب ثغر وأجداه ، وهو اصلاح النفوس ، وانشاء الاجيال الصالحة ، وهم ذخر عظيم للجزائر والمغرب والاسلام • أطال الله أعمارهم ، ومتع احفاد أحفادهم بجهادهم •

أولئك هم اعلام الاصلاح في الجزائر في مختلف أدواره ، منّ الله بهم على الجزائر فحاموا عن دينها ، ونفخوا الروح فيها ، فقامت تنفض الغبار عنها ، وتستعد للقضاء على الاستعمار ·

ان الشيخ عبد القادر المجاوى ، والشيخ عبد الحميد بن سماية ، والشيخ محمد ابن مصطفى المضربة وصحبهم هم اعلام الاصلاح الاولون الذين رفعوا صوتهم ينادون الجزائر فاستفاقت ، وأخذوا بيدها الى طريق الاستقامة ، وأخذوا في تطهيرها من العقائد الفاسدة ، والاخلاق المضرة ، وخاضوا مع الاستعمار واذنابه وانصار الفساد معارك شديدة استمرت زمنا طويلا فنصرهم الله لاخلاصهم ، وكفاءتهم ، وعملهم لله · وتكون حزب الاصلاح في الجزائر على أيديهم · وكان الله قد حفظ في المدن والقرى كثيرا من الاسر النبيلة فدامت على نقاء الدين ، وصفاء العقيدة ، وعلى الغيرة الاسلامية ، فسارعت الى هؤلاء الأعلام الأولين فالتفت حولهم ، وشدت أزرهم ، فلم يستطع الاستعمار وأنصار الفساد أن يقضى عليهم ·

وجاء الخلف الابطال المخلصون لهؤلاء الاعلام الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ بَيُّوضْ وصحبهما الميامين أعلام الاصلاح في الشمال والجنوب ، فرفعوا راية الاصلاح عاليا ، فدخل بجهادهم في شبابه وعهود قوته ، فجالدوا الاستعمار ومكائده والحاده فقضوا عليه في النفوس ، وجاهدوا الطرقية الجبارة المتمكنة الهائجة فصرعوها وأجهزوا عليها ، فطهروا عقول العامة من خرافاتها ، وملأوها بالعقيدة الصحيحة ، ونازلوا الجمود والخمول فقضوا عليهما ، وقتلوا العصبية المذهبية والجنسية والجهوية فتآخت الجزائر واتحدت ، وأورثوها الثقة بالنفس والطموح فزاحمت الاوربيين في ميادين الاقتصاد ، وأخذت بالاساليب العصرية في التجارة والفلاحة ، وأنشأوا المدارس العربية للتربية الاسلامية والعلوم العربية ، وأنشأوا النوادى والصحافة العربية الاسلامية ، والمساجد الحرة ، فغسلوا فيها بالوعظ والارشاد نفوس العامة وأفكار المثقفين الضالة وملأوها بنور الدين والفضيلة · وجاهد كل علماء الجزائر ومثقفيها بقيادة هؤلاء الأعلام في اصلاح النفوس · انه حريق شب في كل أنحاء الجزائر فهب اليه كل علماء الجزائر المصلحين فتعاونوا على إطفائه · ثم نشأت الجمعيات الخيرية للتربية الاسلامية والتعليم العربى والاحسان في العشرينات في أنحاء الجزائر ، سيما في ميزاب والاغواط فتأيد بها الاصلاح ، وصارت منابعه فانتشر وازدهر · ونشأت جمعية العلماء العتيدة في عام 1350 هـ 1931 م فنصر الله بها الاصلاح في الجزائر نصرا عظيما · وكانت هذه الجمعيات

كلها عونا عظيما للاصلاح ، وحصنا حصينا للدين والعربية فى الجزائر • وكانت مدرسة الاغواط العربية الحرة وغيرها فى الشمال والجنوب ، ومدارس ميزاب العربية الحرة فى الجنوب وبعض مدن الشمال ، ومدارس جمعية العلماء هى الشموس التى تخلق للجزائر نهاره • وكان معهد الحياة فى ميزاب ، ومعهد ابن باديس فى قسنطينة ، ودار الحديث فى تلمسان ، ومعهد الشيخ اتبسى فى اتبسة ، ومعهد الشيخ مبارك فى ميلة ، هى قطب الاصلاح ومعينه الثرار ، فشفيت بفضل علماء الدين المخلصين جزائرنا الحبيبة من أمراضها ، وشيخوختها ، وتمسكت بالدين قولا وعملا فتاب الله عنها ، فعاودها نصره وقوته وأيامها البيضاء ، فرفرفت بأجنحتها وانقضت على أعدائها ، وجاهدت بالسلاح أيضا فنصرها الله ، فاستقلت والحمد لله • ولولا علماؤها المصلحون ما صحت وتحررت •

مَنْ هؤلاء العلماء المحسنون الذين أطفأوا الحريق ، ودججوا الجزائر بأمضى سلاح من دينها ، ودخلوا بها فى عهود شبابها وازدهارها ؟ انهم كثيرون • سنقتصر فى هذا الكتاب على أعلام الاصلاح وأئمته وحدهم • ومنهم العلامة البطل الورع الشهيد الشيخ العربى اتبسى • من هو ؟ وما أدوار نشأته ؟ والعوامل التى كونت شخصيته العظيمة ؟ وما جهاده ؟

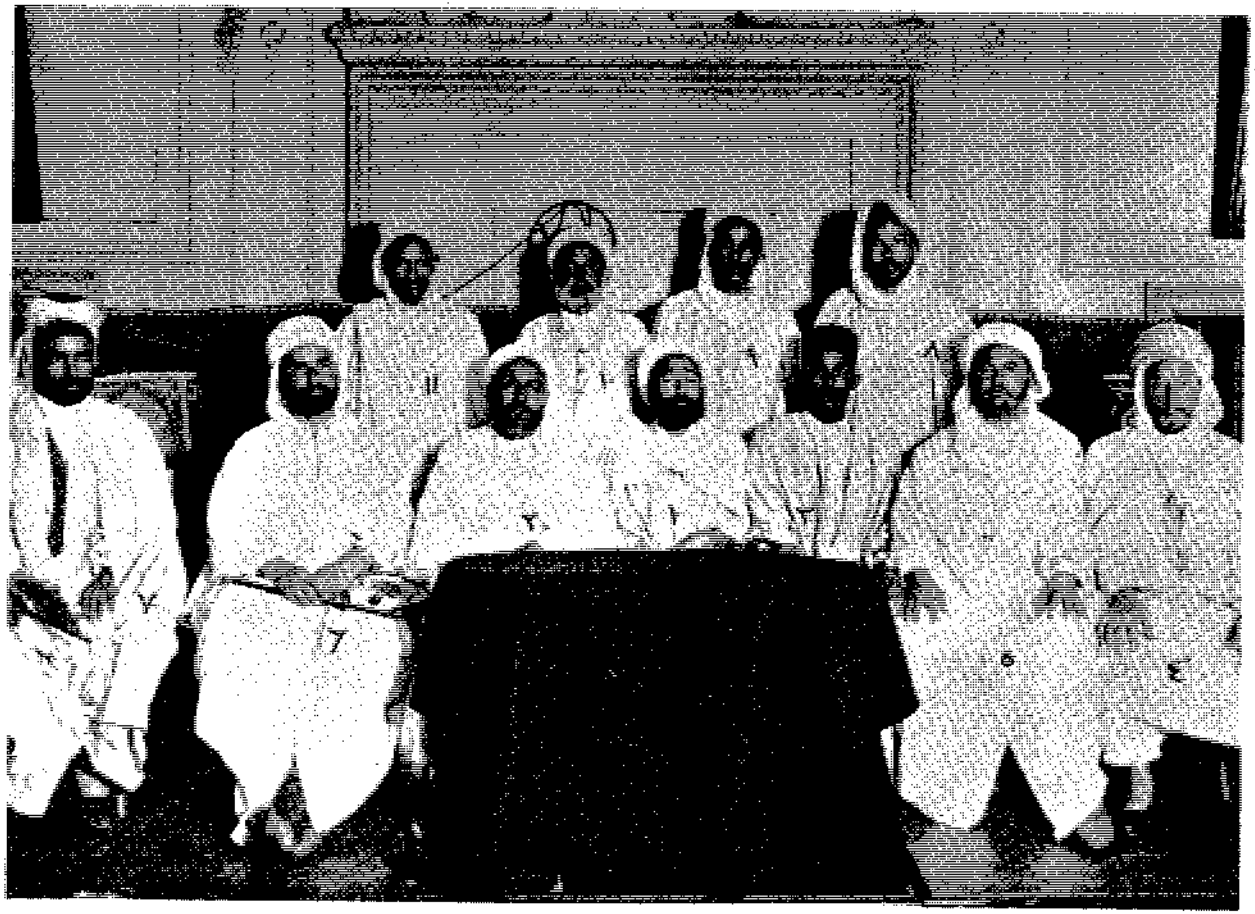

ادارة جمعية العلماء المنتخبة يوم الثلثاء 1353/4/5 هـ ـ 1934/7/17 م فيها بعض اعلام الاصلاح تذكـــرهم
حسب الارقام التى وضعها صاحب الصورة ، وهم المشائخ الاجلاء :
ـ 1 ـ عبد الحميد بن باديس ـ 2 البشير الابراهيمى ـ 3 ـ الامين العمودى ـ 4 عبد القادر بن زيان
ـ 5 العربى التبسى ـ 6 ـ مبارك الميلى ـ 7 ـ الطيب العقبى ـ 8 ـ السعيد الزاهرى

العلامة الجليل الشهيد

الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي

العلامة الجليل الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي

العلامة الجليل الشهيد

الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي

نسبه الكريم ووراثته وبيئته

هو الشيخ العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات · ولقبه ولقب أسرته فرحات ، وهو اسم جده الثاني الذى تعتز به أسرته كل الاعتزاز لصلاحه ومجده فتلقبت باسمه الكريم · والعربى بفتح العين وسكون الراء ، وهو علم يسمى به أهل المغرب أبناءهم سيما الامازيغ مما يدل على اعتدادهم بالعربية أصل الدين ، وبالعرب الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم ·

وأسرة فرحات الكريمة من قبيلة آجدور النموشية · وآجدور بطن من بطون قبيلة النمامشة الكبرى التى تشتمل على بطون كثيرة هى الآن ستة عشر فرعا ، ما منها الا ويكون قبيلة لكثرة عدده وقوة أثره ·

والنمامشة قبيلة بربرية كبرى تسكن فى جبالها الشماء ، وهى من مدينة خنشلة الى شرق اتبسة ، تلك هى مواطنها منذ القدم الى اليوم · وكانت النمامشة كبكل القبائل البربرية الكبرى ، تتصف بالشجاعة الخارقة ، وبالاباء والطموح ، والاعتداد بالنفس والتمسك بالدين والغيرة عليه ، والغيرة على الوطن والوفاء له ، والسعى والمكابدة لبنائه فى كل النواحى ·

وكانت النمامشة قوية الجانب منذ القدم · وكانت تشمخ على الرومان الذين استولوا على المغرب وتتنمر عليهم وتثور كلما وجدت فرصة للثورة · وثارت على الوندال فى القرن الخامس الميلادى وأنشأت مملكة فى جبالها بشرق آوراس · وكان ملكها (قطزيناس) (I) فقارعت الوندال والروم فلم يستطيعوا القضاء عليها ·وعاشت الجبال النموشية حرة فى ظل مملكتها وملوكها الابطال الى أن جاء الاسلام فحسن اسلامها وتعربت ، وصارت من قلاع الدين والعربية فى الجزائر ، ومن النواحى التى انتشر فيها اصلاح العلماء فأعدها للثورة · ولما وقعت ثورة الجزائر المباركة فى عام 1374 هـ 1954 م كانت جبالها من أعظم قلاعها ، وهى الحلقة الكبرى التى تصل الجزائر بتونس ، فلم يستطع الاستعمار الفرنسى القوى المدجج بأسلحة الحلف الاطلسى أن

(1) انظر الممالك البربرية فى عهد الوندال فى كتابنا تاريخ المغرب الكبير ج 1 ص 426 ط اولى .

يحتل جبالها ليقطع صلة الثورة بتونس فيخنق الثورة ، وذلك لبطولة النمامشة وبطولة المجاهدين الجزائريين الذين سارعوا من كل ناحية فرابطـــوا فى جبالهم ، فـوجدوا منهم التأييد والمناصرة ، ووجدوا فيهم الشجاعة والثبات والصمود رغم تنكيل الجنـــد الفرنسى بقراهم وفظائعه فيهم ·

وقد أنجبت النمامشة للجزائر أبنـاء برزة كثـيرين ، ذوى كفـاءة واخـــلاص وأخلاق اسلامية متينة ، فسدوا ثغـورا كثيرة فى الدولة بعد الاستقـلال ، وكـــانوا من بناتها الاكفاء المخلصين ، وذلك بفضل وراثتهم الزكية ، وبيئة النمامشة القويـــة الطيبة ، وبفضل مسارعتها للعلم فأخذت نصيبها منه ، فتكون فيها مثقفون كثيرون ، وكانت من أول النواحى التى نهضت فى الجزائر فى الشمال فى القرن الرابع عشـــر الهجـرى ، وأنجبت زعيما من زعماء الاصلاح فى الجزائر هو السيد الحـاج عباس بن حمانة · هذا الرجل العظيـم الذى أنشـأ هو وصحبه المصلحـون أول مدرسة عربيـة اسلامية عصرية فى الجزائر ، فذاقت الجزائر حلاوتها فحذت حذوها ، فكثرت مدارسها العربية الاسلامية العصرية التى جددتها وسلحتها (I)

تلك هى القبيلة العتيدة التى تحدر أجداد الشيخ العـربى اتبـسى من أحـــد فروعها ، فزودتهم بالوراثة الزكية فى كل نواحيهم ، وأيدت فيهم بيئة جبالهم الشماء الصالحة تلك الوراثة وأنعشتها ، فكانوا على الصلاح والذكاء والبطولة · هذه الصفات التى سنراها فى أعمالهم ، وفى جهاد ابنهم الشيخ العربى العظيم !

أسـرته وأجـــداده

وكانت أسرة فرحات ، أسرة الشيخ العربى ، مشهورة بالدين والورع والتقوى والشجاعة الخارقة ، والصراحة التامة ، والامر بالمعروف والنهى عن المنكر باليـــــد واللسان · وكانت شديدة الحب للخير والعلم تنشره بكل وسائلها ، وتحترم أهلـــه وتبجلهـــم ·

وكانت لأسرته أشجـار كثـيرة من الزيتون ، وأراض عديدة يحرثونها ، فتـدر

(1) انظر نهضة تبسة وزعيمها السيد عباس بن حمانة فى كتابنا «نهضـة الجزائر الحديثة» ص 261 ـ ط اولى عام 1391 هـ ـ 1971 م .

مؤلف الكتاب في مكتبة الشيخ العربي اتبسي العامة في تبسة يروى تاريخ الشيخ العربي عن اخيه وكبار تلاميذه ويسجله بالآلة . وترى المؤلف وامامه مسجلة الصوت وعلى يمينه الشيخ الحفصي اخو الشيخ العربي وعلى شماله الشيخ محمد بن عبد الله اشبوكي ، والشيخ العيد بن احمد مطروح . ووقف وراء المؤلف والشيخ الحفصي المصلح الغيور المرحوم السيد احمد بن قاسم لزعل وبجانبه ابنه محمد .

اخذت الصورة في صباح الاربعاء 3 ربيع الاول 1386 هـ 23 يونية 1966 م .

عليهم في كل عام من القمح والشعير والزيتون ما يكفيهم ، فعاشوا في يسر وسعة متوسطين في الغناء لم يعيشوا عيشة البذخ التي تفسد أخلاقهم .

وقد أجدت الفلاحة على الأسرة في الشخصية فكانوا على المتانة والفراهة في الاجسام ، وعلى القوة في الخلق ، وعلى الجلد والنشاط والشجاعة ، والصفاء والكرم ، وحب الوطن ، والغيرة عليه والاعتزاز به .

وكان السيد مبارك بن فرحات جد الشيخ العربي الاول من أعيان قومه ، والشخصيات البارزة في ناحيته بالجبل الابيض . وكان حافظا لكتاب الله ، مثقف العقل ذكي النفس . عالما بالدين . وكان يتقرب الى الله بتربية الصغار تربية اسلامية قوية في كُتّابه في بلده (اسطح) شمال الجبل الأبيض في الجنوب الغربي لتبسة ويحفظهم القرآن ، ويغرس في نفوسهم حب العلم . وكان يعظ الكبار ويرشدهم . ويأمر

بالمعروف وينهى عن المنكر بكل الوسائل بلسانه ويده ، لا تأخذه في الله لومة لائم · وكان بطلا شديد الغيرة على دينه ووطنـــه · ولما أرهقت فرانسا قومه بظلمها ، ورأى أغراضها الصليبية،وشدة عداوتها للدين،ثار عليها هو وقومه في الجبل الأبيـض في عام 1901 م · نقاد ثورتهم فدامت هذه الثورة مشتعلة ستة أشهر ، ثم أخمدتها فرانسا بقوتها · ولو أنجدت الجهات المجاورة الثورة وانتشرت في انحاء الجـزائر الاخرى مـا استطاعت فرانسا اخمادها ، ولكانت للجـزائر منها نتـائج حسنـة · وقد اعتقلـت فرانسا الشيخ مبارك في مدينة (شلالة) في غرب الجزائر بعيدا عن قومـــه عامين ، ثم أطلقت سراحه · ولولا مكانته السامية في قومه ، وشدة بأس قبيلته واستعدادها للثورة على فرانسا لأعـدمته كما فعلت بـكثيرين ·

وكان أبو العَرْبي السيد بلقاسم في الشخصية كأبيه وأجداده · اعتنى أبـــواه بتربيته تربية اسلامية ، فكان مثل أبيه وأمه الصالحة وأجـــداده في التقوى والورع وشدة الحب للعلم والخير وكل الخصال الطيبة · حفظ القرآن العظيـم في كتـاب والده وأتقن حفظه ، ثم أرسله أبوه الى معهد زاوية الشيخ مصطفى بـن عزور الرحمانية في مدينة نفطة فزادت في تربيته الدينية وفي ثقافة عقله ، وأتقـن فيها مبادىء العلـوم العربية وتفقه في الدين ، فرجع الى بلده (اسْطَحْ) فقـر فيه ، فخلف والده في كُتَّابه يربي الصغار ويحفظهم كتاب الله ، ويعظ الكبار ويرشدهم ، وكان يقوم بفلاحـــة أراضيهم ويعتمد على نفسه في العيش · وتعليمه للصغار وأعماله الخيرية يقوم بهـا لله · انها عبـادة وقربة الى الله لا يريد بها جزاء ولا شـكورا ·

وكان السيد بلقاسم كاتبا موثقا يؤثره الناس لكتابة عقودهم ، لصحة عبارته ، وثقتهم بدينه وعلمه·وكان يصلح بين الناس ، يهرعون اليه فيفظ خصامهم بحكم الله ، فيرضون بحكمه لشدة ثقتهم به ، فينصرفون من مجلسه اخوة متصالحين · وكـــان الناس يضعون ودائعهم النفيسة عنده لأمانتـه وحـزمه ·

كان أبو العربي اجتماعيا يبعثـه خلقه الاسـلامي القوى على التضحية بأعـز ما عنده لنفع عباد الله · واذا رأينا ابنه الشيخ العربي يضحي بنفسه في سبيل الاسلام ، وعلى البطولة والذكاء والأخلاق الاسلامية العظيمة كلها فمن أبيـه وأجـداده ومن أمـه وأجدادها ورث خصائصه العظمى ·

قضى أبو العربي حياته في بلده (اسْطَحْ) شمـال الجبل الأبيض حتى وافتـــه المنية في كهولته وعمره نحو خمسين عاما وعمر ابنه العربي ثماني سنين · وكانـت وفاته في عام 1903 يرحمه الله · هذا هو والد الشيخ العربي ، فمن أمـه ؟

أمـــه الفـــاضلـة

هي السيدة البـارة التقية آمنة بنت اعبيد بن فرحات · وهي من أسـرة والـد الشيخ العربي آل فرحات ، تلتقي به في جده الثالث فرحات ، وهي من بلـد زوجهـا أبي العربي منطقة اسطح شمال الجبل الأبيض في الجنوب الغربي لتبسة ·

وكانت أسرة آمنة ماجدة كأسرة زوجها بلقاسم ، تتصف بجميع ما تتصف بـــه أسرة زوجها · ان النسب للاسرتين واحد ، والبيئة الطبيعية والاجتماعية واحـــدة ، وعملهما واحد وهو الفلاحة · فكانت أسرتها شديدة التمسك بالدين ، غيورة عليـه ، محبة للخير ، متصفة بكل الصفات التي تتصف بها أسرة زوجها · وقد طبعت الفلاحة أسرتها في كل نواحيها بكل الخلال العظيمة التي يتصف بها زوجها وأسرته،فتضاعفت الوراثة الطيبـة الواحـدة للعربي من أبويه ، فكان في النبـوع والصـلاح والبطولة كمـا سترى ·

وكان السيد اعبيد والد آمنة فاضلا حازما ذكيا ، تقيا لله·وكان من أعيان قومه، فجـازاه الله على صلاحـه وشدة حبه للخير فتوفى حاجا في خير البقـاع ، وفي الاماكن المقدسة التي يؤثر كل مسلم ان تدركه منيته فيها وهو طاهر مطهر من ذنوبه ، ويدفن بجوار النبيء والصحابة الأبرار ·

وكانت أم آمنة هي السيدة مسعودة بنت صالح ولقبها يونس ، وهي من ناحية اسطح ، نموشية · وكانت تقية فاضلة ، من أسرة كريمة ماجدة · وهي التي ربـــت ابنتها آمنة ، وغرست فيها دينها وأخلاقها الطيبـة ·

وكانت آمنة أول زوجـة لأبي العربي ، تزوجها بـكرا · وكانت فتاة صحيحـة الجسم ، قوية الشخصية ، جميلة الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ ، قد اعتنى والداها بتربيتها ، فحملت دينهما وكل خلالهما الطيبـة ، كما ورثت منهما في كل النواحي صفاتهما الطيبة التي ذكرنا · فرغب فيها السيد مبارك لولـده بلقاسم ، وأعجب بها الولد أيضا ، فأكرمـه الله بها فكانت عرسه الحبيبة ، فأسعدته · وكانت مثله في شدة التمســك بالدين في كل أشيائها ، وفي الحشية لله « حتى أنها كانت لا ترضع أولادها الا وهي طاهـرة من الجنابة» (1) ان تربية الأولاد وارضاعهم عبادة ،يجب أن تكون على طهارة·ان الجنابة

(1) رواية الشيـخ الحفصي اخي الشيـخ العربي . كان أسلافنا الصالحون لتذكرهم الـدائم للمـوت واستعدادهم له ، وحرصهم على الطهارة والنظافة يقومون من ساعتهم للاغتسال من الجنابة . لا ينامون الا على الطهارة . ومنهم من يصلي ركعتين بعد الاغتسال من كل جنابة . طوبى لهم الغنائم الكثـيرة .

التي لا تجوز معها الصلاة والصوم والتلاوة ودخول بيت الله،لا ينبغي أن ترضع أولادها وهي متلبسة بها · انها حريصة على اتصاف اولادها وامتلائهم بالطهر ، فيجب أن تكون هي طاهرة · ان هذا دليل على شدة تمسكها بالدين في كل أشيائها ، وعلى ذكائهـا · وكانت آمنة كزوجها شديدة الحب للعلم وذويه ، تبجلهم كل التبجيل ، وتكرمهم كـل الاكرام · وتراهم أعلى طبقة في المجتمع ، وخلفاء الانبياء في الارض ، «بودها أن تجود بسواد عينيها لأهل العلم » (1) ورثت هذا الحب للعلم من أسرتها ، وأيده وضاعفه في نفسها زوجها ، فكان العلم والصلاح عندها هما رأس المال الرابح للانسان،وما يسعده وينيله رضى الله ، فتمنته لأبنائها وأسرتها · وكانت تضـرع الى الله هي وزوجها أن يرزقهما أبناء نجباء صالحين علماء · وكان الولد النجيب الصالح هو غاية أمنيتهما في الحياة · انهما يجدان في دنياهما كل ما يشتهيان من ضروب المتعة ، ولكن لما خلت من الاولاد صارت سمجة كالشجرة المجرودة في الشتاء ، عدمة الحلاوة كانها حصـــاة يمصانها · لقد عقم الوالدان في أول عمرهما فلم يلدا ، فاشتد حزن آمنة وزوجها بهذا العقم الذي يلازمهما ، وازداد تضرعهما الى الله · وما علما ان الله يعدهم لانجاب الابن النابغة البطل ، وأن هذا الابن نجمة الصباح التي تلد النهار تطلع في آخر الليل ! وأن كثيرا من النبغاء العظماء قد أخر الله ولادتهم الى أن ينضج الوالدان ، ويبلغا أتمهما في الجسم والعقل والخلق ، ليكون أبناؤهم على التمام في القوى ، ويجدون منهما الحنكـة اللازمة للتربية الحسنة ، والقدوة الطيبة التي يحذون حذوها · وقع ذلك لأم الشيـخ بيوض وأبيه ، ولأم الشيخ عدون بن بالحاج ووالده ، ولأبوى كثير من النبغاء العظمـاء تأخرت ولادة أمهاتهم لهم الى العقد الرابع فوق الثلاثين ، وآباؤهم كانوا في العقـد الخامس بعد الاربعين ، لأن أم العبقري وأب العبقري قاعدة الصاروخ الاعظم الذي يطير بأمته الى السماء ، تستلزم البناء الطويل ! ولما بلغت آمنة الخامسة والثلاثين ، وزوجها الثانية والاربعين أقر الله عينهما ، فحملت حملها البكر فكان ابنا نجيبا كما يتمنيان ·

ميـــلاده

كان ميلاد الشيخ العربي رحمه الله في بلده ناحية اسطح في شمال الجبل الأبيض في الجنوب الغربي لمدينة اتبسة على بعد 70 كيلو مترا منها في عام 1895 م — 1312 او 13 هـ ، وأبوه في الثانية والاربعين وأمه في الخامسة والثلاثين وهو ولدهما البـكر ·

(1) رواية الشيخ الحفصي أخي الشيخ العربي من أمه .

وكان يوم ميلاده عيدا عظيما للأسرة ولبلده اسطح ، فسرت أسرة فرحات سرورا كبيرا ، وأولم أبو العربى وليمة كبرى لأهل بلـده شكرا لله ، وتجـددت الآمال العظيمـة فى الحياة في نفسه ونفس زوجته • لقد كان ميلاد العربى بدأ حياة جديدة سعيدة عامرة لهما ، ولدت بميلاده أفراحهما وآمالهما وتفاؤلهما بالحياة، وسرا سرورا بالغا بابنهما، وتفاءلا بمستقبله ، ونذراه للعلم والدين • لقد كان ابنا كما يريدان ، جميل الطلعة ، تبدو فى قسماته ونظراته من شهوره الاولى علامات الشخصية القوية ، والذكـاء الوقاد • فلما وصل الثانية من سنه فصار يسعى ويغرزم بكلماته الأولى ازداد ذكاؤه وقوة شخصيته ظهورا ، فازدادت آمالهما فيه ، واتصل تضرعهما الى الله ان يحقـق آمالهما العظيمة الكبيرة فيه ، فيكون للدين والعلم ، يرفع لواءهما فى وطنه • فاعتنيا بتربيتـه تربية اسلامية من سنيـه الأولى ، وفاض عليه وجـدان خوف اللـه من أبويه وأسرته،فنشأ على خشية الله،وغرسا فيه العقيدة الاسلامية فى طفولته الاولى بوجدانهما وأقوالهما وأفعالهما ، وفعلت مثل ذلك الأسرة وبلـده ، فتغلغلت العقيـدة الدينيـة فيه منذ الصغر ، فاتجه الى الله ، وصار دائـم الذكر له ، يقوم بأعماله الـكبرى كلها لوجهه الكريم ، ابتغاء لرضاه ، وخشية لسخطه ، فتكونت فية الشخصية الاجتماعية لما تغلغلت فيه العقيدة الاسلامية التى تستلزم التضحية وتجعل صاحبها للامة لا لنفسه وامتلأ بخشية الله التى تلزم صاحبها الجادة ، وتبعثه على كل الاعمال الصالحة • وكانت هذه العقيدة الدينية هى أساس شخصية العربى بن بلقاسم نبعت منها ومن وراثتـه الزكية ، فكانت أخلاقه اسلامية على النحو الذى يأمر به الله • وكان على الورع وشدة الخشية فى حياته • فلولا دين أبويه وأسرته وبلده الصـالح ما كان على الـورع وشدة الخشية لله التى هى أساس صلاحه وبطولته فى جهاده •

نشأ العربى فى حجر والديه فتأثر بهما كل التأثر لشدة حبه لهما ، لعشرتهمـا الطيبة ، واعجابه بصلاحهما ، ولشدة حبهما له ، واعجابهما به ، فعلقا فيه آمالهمـا العظيمة ، فصار محل عنايتهما الكبيرة ، ومتجه أفكارهما ، وملأ نفوسهمـا ، فازداد بهذا الاتجاه النفسى القوى من الطرفين تأثر الولد بأبويه ، فأخذ اخلاقهما الاسلامية العالية ، وشدة حبهما للدين والعلم ، وقوة الاعتداد بالنفس والثقة بها ، وكان مثلهما فى الصلاح •

وتأثر العربى كل التأثر بالبيئة الاجتماعية الزكية الطاهرة لبلـده الناحيـة المنيفة (اسطح) فأكدت فيه بصلاحها وتمسكها بالدين ما ورثه من صـلاح أبـويه ، وكانت أحسن عون لوالديه فى تربيته ، وهى من أسباب نبـوغه •

وكانت البيئة الطبيعية الجميلة الصحية لبلده (اسطح) ذات أثر عظيم فى العربى فى كل نواحيه • لقد اثرت فيه الآثار الحسنة الدائمة بهدوئها المريح ، وبهوائها الصحى المنعش ، فكان على القوة فى الجسم ، وعلى النشاط والاقدام والجد ، وعلى الثبات فى الاهوال المتتالية عليه فى اغلب عمره كجباله لا يتزلزل ، قوى القلب كصخور الصوان تضرمه المطارق المنهالة ولا تحطمه ، طموحا قد علمته الهضاب العالية التى قضى فيها كل طفولته أن ينظر الى السماء لا الى الأرض • وأثرت فيه الجبال العالية بمناظرها الجميلة اذا اكتست حولها بالقمح والشعير ، وضروب الاعشاب والخضروات فى الشتاء إنها جبال منيفة تكتنفها سهول واسعة خصبة تكسوها غابات الشجر والزيتون والتين والاشجار البرية الاخرى • انها بلاد الامازيغ الخضراء التى أكرمهم الله بها ليذكرهم بجمالها الفتان حسن الجنة ، فيجتهدوا فى الخير والعبادة فتكون حظهم فى الآخرة فينتقلوا من جمال الى جمال • وكان العربى يعجب بالثلوج البيضاء التى تكسو بلده والجبال حولها أحيانا ، فيسرع الناس الى المواقد يستدفئون ، فيجلس بجانب ابويه ويداه ورجلاه الى النار يصطلى ، واذناه الى قصص ابيه وامه الجميلة التى تعلمه علم الحياة ، وتطبعه بالصلاح ، وتغذى فكره الوقاد وخياله ، فتغمره نشوة هذا المجلس مع أبويه ، فيرى بياض الثلج القارس الذى يجلل نواحيه ويغطى أرضها وخيامها بياض القمر الجميل الذى يكسو الأرض فيوقظ النفوس الشاعرة للسمر فى انواره • ويرى الامطار تتهاطل غزيرة فى الخريف والربيع والشتاء فتسيل الاودية فيراها من السطح تخترق بصفرتها الفاقعة المزارع الخضراء والغابات اللفاء ، وتزأر الرعود ، وتشتعل البروق ، ويتكون فى رباه جو قوى رائع يخلق القوة فى النفوس، ويجعل صاحبها كالسحاب المجلجل الممطر يشتمل على نيرانه وصواعقه أيضا • مناظر جليلة فى بلاد الأمازيغ كونت نفوسهم القوية الخيرة ، فكانوا من أكرم الأجناس وأقواها فى كل عهودهم • وأثرت فى العربى الاثر الجميل ، وأثارت وجدانه بمناظرها الجميلة فى كل الفصول ، فكان على القوة • لا يكاد يألف جمال فصل ويقل تأثره به حتى تزف اليه هضابه الشماء فى الفصل التالى جمالا رائعا جديدا يثير وجدانه • فنشأ قوى الوجدان ، بطلا ثائرا ، وأنيسا خيرا ، يشعر شعورا قويا بالجمال فى كل شىء فيحبه وينصره ، وبالقبح فى كل الامور فيعمل لازالته • ولقوة وجدانه الموروث من والديه وجباله الجميلة اتجه الى الادب البليغ فأغرم به ، فأخذ بحظه الوافر منه فكان فصيحا بليغا ، واتجه الى المعالى فى المعانى فنالها !

تلك هى آثار بيئة البادية فى العَرَبى أكرمه الله بها فكان جبلا أشم فى أمته ، بعلاه وكثرة جدواه ، فلو كان ابن المدن المترفة لكان دودة الحرير التى يقتلها حريرها !

اسطح بلد العربى ومنشؤه

بلد العربى الذى ولد فيه وقضى فيه كل طفولته وهو بلد أبيه وأسرته وجده مبارك هو ناحية (اسطح) فى الجنوب الغربى لمدينة تبسة ، تبعد عنها بنحو سبعين كيلو مترا اذا سرت اليها على طريق القوافل القديم ، وعلى طريق السيارات تبعد عنها بنحو مائة وسبعة عشر كيلو مترا. وهى ناحية واسعة تحل فيها أسر كثيرة من انامشة قوم الشيخ العربى . وسميت (اسطح) لارتفاعها . انها ربى وهضاب منبسطة تحوطها الجبال من نواحيها الثلاثة الشرق والغرب والجنوب ، وفيها أراض كثيرة خصبة يزرعها أهلها قمحا وشعيرا فتغل لهم خيرا كثيرا . وقد تشح السماء على تلك النواحى فتجدب فى بعض السنين . ولقرب هذه النواحى من الصحراء فهى تمتاز أيضا بجو قريب من الجو الصحراوى الجاف الصحى . فلذلك كان سكن أهل اسطح كلهم فى القديم وأيام طفولة الشيخ العربى كلها فى خيام الشعر.وترى فيها الجمل يختال ويمرح ، ويستعمله أهل اسطح فى حاجاتهم ، وفيها الغنم وهو أكثر ما يملك أهل تلك الناحية من المواشى. وهم أهل عناية بالغنم يرعونه ويحسنون القيام به.وكان رعى الغنم سببا تربويا كبيرا بنى نفوس آباء الشيخ العربى وأجداده ونفسه هو أيضا.لقد كان يصطحبه أهله وهو صغير الى المراعى القريبة من منازلهم فيرعى غنمهم معهم ويكلفونه من شئون الرعى ما يستطيع . فمن الله على العربى بهذه الوسيلة التربوية الكبرى التى من بها على نبينا محمد عليه السلام وعلى غيره من الأنبياء ليبنى نفوسهم ويهيئها للرسالة العظمى. فأخذ العربى بحظه منها فتركت فيه آثارا حسنة .

وكان مسكن العربى فى طفولته كلها الى أن هاجر للتعلم فى عهد البلوغ فى بيوت من الشعر تعتنى الأسر النموشية بنسجها ، ويخلطون شعرها بالصوف أو وبر الجمال لتكون متينة دافئة واقية . وهى كبيرة ومتوسطة وصغيرة على حسب درجة الأسرة فى الغنى والكثرة .

وبعد وفاة أبى العربى بنى عمه عمار وزوج أمه الذى كفله دارا لا زالت آثارها فى ربوة فى منازل أسرته فى اسطح . ولا أرى العربى قد سكنها فمسكنه كان فى الخيمة . ومن الله على العربى بعيشة البداوة التى تخلق اذا اقترنت بالدين المتين والأعراق الطيبة القوة وكل أخلاق الرجولة الحسنة فى النفوس .

وتبعد اسطح عن الجبل الأبيض الاشم مركز الثورة الجزائرية المشهور في جبال انمامشة بنحو خمسة وثلاثين كيلو ميترا ، وهو في جنوب اسطح · وكان سكان اسطح رجالهم ونساؤهم من جنود الثورة الجزائرية البواسل · لذلك يصب عليهم الجيش الفرنسي المسعور أنواع الانتقام والتقتيل · وقد هدموا كل الديار التي وجدوها في اسطح وهي الآن أطلال · ولا زالت في تلك النواحي كثير من الخيام الجميلة السوداء المطرزة بخيوط حمراء · وفي فنائها الخيل المطهمة الجميلة مربوطة ، وعلى مقربة منها حضائر الغنم قد رجعت من مراعيها بطانا فربضت فيها · ولقرب اسطح من الصحراء في جنوب الجزائر ترى فيها مناظر البادية في الصحراء وجو الصحراء الصحي الجاف ، وشمس الصحراء الساطعة ، مع ما تتصف به أيضا من أشياء الشمال الحسنة · وقد آثرت أسرة العربي اسطح فجعلته بلدها لهذه الخصائص الحسنة الكثيرة في هذا البلد المبارك الجميل ·

وقد تزوج عم العربي السيد عمار بن مبارك أم العربي بعد وفاة أبي العربي ، رغب فيها لصلاحها وخصائصها الحسنة التي ذكرنا ، وليضم أسرة أخيه الى أسرته فتعيش في داره يرعاها ويحسن كفالتها ، وليضم العربي اليه أكثر فيحسن تربيته اذا كان زوج أمه أيضا يعيش معه في داره ، ويراه أباه · وقد عاش العربي في بيت عمه الذي تقوم به أمه عيشة عزيزة حسنة ، فنشأ رافع الرأس لا يخفض ذل الحاجة رأسه ·

وكان العربي هو وحيد والده ، ثم أنجبت أمه مع عمه عمار أولادا منهم الشيخ الحفصي بن عمار وهو أخو الشيخ العربي من أمه ، يحفظ تاريخ الشيخ وتاريخ أسرته ، وهو ممن رويت عنهم تاريخ الشيخ العربي · وهو الآن معلم في مدينة تبسة أدامه الله·

وقد زرت منطقة اسطح وطن الشيخ العربي أمس في صباح الاربعاء 17 شعبان 1394 هـ 4 سبتامبر 1974 م وفي صحبتي الشيخ العيد بن احمد مطروح وهو من كبار تلاميذ الشيخ العربي ، يحبه الشيخ العربي حبا جما لصلاحه وذكائه وشغفه بالعلم ونجاحه في الدراسة · وهو الآن مدرس في تبسة وامام الجمعة في مسجد الشيخ العربي · وفي صحبتي أيضا صديقي الهمام الخير الطيب السيد احمد بن سليمان ابن الناصر وهو من القرارة بميزاب تاجر في تبسة ومن أصدقاء الشيخ العربي المخلصين ، فسهلا لي زيارة اسطح التي تقع في مكان لم يعبد الطريق اليه · وصحباني · وقضينا في اسطح ساعات أنيسة جميلة مفيدة ، تجولت في أنحائها وصورت مناظر كثيرة لها ،

سأنشر بعضهـا فى الجزء الثانى من تاريخ الشيخ العربى مع منـاظـر تبسة المتصلة بتاريخه ان شاء الله ٠

وكان أهل اسطح وأهل اشريعة وأهل العقلة وهما مدينتان فى طريقنا من تبسة الى اسطح ، كانوا مثالا فى الكرم وطيبة النفوس وشدة الحب للخير والعلم ٠ سارعوا الى خدمتنا وتمسكوا بنا للضيافة فاعتذرت لهم بكثرة الأعمال ٠ ورأيت فى اسطح وتلك النواحى الطيبة الكريمة فطرة حسنة ونبوغا قويا ٠ وستخلق هذه البقاع ان شاء الله نبغاء أبطالا صالحين كالشيخ العربى اذا أخذت بأساليب التربية الاسلامية التى أخـذ بها زمانه وذووه ٠ حقق الله هذا الأمل العظيم ٠

ولما وصلنا منازل أسرة الشيخ العربى فى اسطح أسرع الينا السيد على بن محمد فرحات ابن عم الشيخ العربى وأخو زوجته الثانية وهو شيخ عمـره الآن 65 سنـة ، لطيف الحاشية ، هادىء الطبع ، وقور ، وهو من أعيان اسطح٠سجن أيام الثورة عامين وهدمت داره لانها من مراكز الثورة فى اسطـح ، وتعرض لأهـوال الجيش الفرنسى المسعور ، ولكن الله حفظه ٠ ففرح بنا وجلسنا معه فى داره التى أعاد بناءها ، فحدثنى بما أريد من تاريخ الشيخ العربى فى طفولته وتاريخ أسرته وأفادنى بارك اللـه فيه وجـزاه خـيرا ٠

وكنت وأنا أتجول فى منازل أسرة فرحات أتخيل العربى يمـرح فى تلك الربى الطيبة ، ويرعى الغنـم فى تلك البقاع ، ويعمل فى الحقل ٠ فما أثـر الحقل والعمـل الفـلاحى فى العـربى ؟

الفـلاحـة وأثـرها الحسـن فى العـربى

كان والد العَرْبى فلاحا فكان يذهب معه الى المزرعة فيلعب فيها ، ويكلفه والده من أشغال الفلاحة بكل ما يستطيع القيام به ، تدريبا له على العمل ، وغرسا للجـد والجلد والنشاط فيه،ولان المزرعة مدرسة الرجولة الكبرى ، ومصنع البطولة للنفوس، فيريد أبو العربى أن يأخذ ابنه منها بنصيبه الكامل ٠ انه يعده للكفاح وللنجاح فى الحياة ، فلابد من قوة فى ارادته ، ومن أخلاق الرجولة كلها فيه ٠ وهذه من أقـوى أسبابها الفلاحة ٠ فكان العَرْبى يعمل مع والده فى مزرعته اذا خرج من الكُتَّاب كـل ما يستطيع عمله ٠ ولما توفى والده صار يعمل فى حقلهم مع عمه ، ويسعى الى الحقـل

بعد الكُتّاب فيقضى فيه وقت فراغه يعمل ويكدح ، وفى عطله الدراسية لما كان تلميذا فى الزيتونة ، يسرع الى حقلهم فيقضى فيه وقتا طويلا فى أعمال الفلاحة ، لا يلـــذه المقام فى الدار كما يفعل الضعفاء،ولا يرضى له أهله ذلك ، فطبعته الفلاحة بأخلاقهـا القوية ، وأكدت فيه كل الاخلاق التى ورثها من والديه ومجتمعه ، فكان على الشجاعة الخارقة ، والارادة القوية الحديدية ، اذا هم بشيء يصله ولو كان صعبا يستحيل عـلى غيره من الضعفاء • وقد نجح فى دراسته وذهب الى مصر مغامرا بفضل ارادته القوية ، لولاها لاستحال عليه ذلك • وعلمته الفلاحة كرم النفس ، وحسن النية ، وصفـــاء الطوية ، والتضحية ، وشدة الحب والهيام بالوطن ، وغير ذلك من الاخلاق الطيبة •

وأتاح الله للعربى كل أسباب التربية القوية الصالحة من والديه ومجتمعه ، ومن الفـلاحة التى شارك فيها فى طفولته وشبـابه ، فكان قوى الشخصيـة ، عَلَمـاً للاصلاح • ولولا خلقه العظيم الذى هو سبب نبوغه فى العلم ، ونجاحه فى العمـــل ما كان من نعجب به •

دراستـــه الابتـــدائيـة

كانت أم العربى وابوه فى شدة الغرام بالعلم كما ذكرنا ، ففرسا حب العلـــم فى ابنهما بوجدانهما وحديثهما وعملهما فى طفولته الأولى ، فنشأ محبا للعلم كأبويه • وكان يرى بلاده كلها تجل العلماء ، وتحب حفظة القـرآن وتقدمهم ، وتـكرم تلاميـذ الكُتّاب وتمجدهم ، وتفسح للعلماء وحفظة القـــرآن فى صـــدور المجالس ، ولهـم ـ لفضلهم ـ الصف الأول فى المسجد لا يتقدمهم أحد • وهم محل ثقة البـلاد كلـها لدينهم وعلمهم ، فتعلم حب العلم واكباره من بلاده أيضا ، فـكان أمله العظيـم الذى يملأ نفسه أن يتعلم ويصير عالما • وغرست فيه أمه وأبوه بكل وسائلهما : أن العلـــم هو سبب السعادة فى الدارين ، وهو العدة الناجعة فى الكفـــاح ، وطلبه فريضـــة على كل مسلم ومسلمة !فصار هذا عقيدة راسخة فيه ، وجهته فى كل أدوار حياتـه ، وجعلته يرابط فى سبيل العلم لا يحيد عنه •

وكان العربى يرى أباه محبا للقراءة ، لا يجد وقتا الا ويفتح كتابه فيقرأ ، وكان يراه حريصا على تلاوة القرآن ، يتلوه فى المسجد مع الجماعة ، ويتلوه فى الـــدار فى الصباح ، وفى الحقل اذا كان يعمل • ان القرآن أنيسه ونشوته الكبرى ، فنشأ محبا للقرآن ، مشغوفا به ، يتمنى حفظه كله واستظهاره ليكون كأبيه من حملة كتاب الله •

وكان يرى مسارعة والده الى كُتَّابه للتعليم اذا حان وقته ، وفى وجهه الارتياح والغبطة والرضى ، ورأى اسراع تلاميذ والده الى الكتاب وهم يتأبطون ألواحهم فى اعتزاز ، ويحملون محابرهم وأقلامهم ، وفى وجوههم البشر والحبور ، ورأى ما يحفظون ويستظهرون من ألواحهم فى كل يوم ، ومن سورهم فى كل أسبوع · وكان يذهب مع والده الى كُتَّابه فيجلس بجانبه أو حوله ، فيفيض عليه وجدان حب العلم من أبيه وتلاميذه فيؤجج فى نفسه ما ورثه من حب العلم · وقد تكون أمه وأبوه قد حفظاه بالتلقين بعض السور القصيرة قبل دخوله الكُتَّاب ، وقد يكون حفظها بسماعها من تلاميذ والده كما يفعل النبغاء ذوو الحافظة القوية أمثاله ·

ولما وصل العربى السادسة من عمره صار من تلاميذ والده فى كُتَّابه ، فحفظه القرآن الكريم ، وعلمه القراءة والكتابة ، والعقيدة الدينية ، وصار من تلاميذه يربيه تربية اسلامية قوية فى الكُتَّاب · فوجد العربى فى الكتاب لذته وأنسه ونشوته ، وازداد حبا لوالده لأنه معلمه أيضا ، وشرح الله صدره للعلم وحفظ القرآن ، فجد واجتهد ، فحفظ من القرآن جزءا كبيرا على والده ·

وفاة والده وكفالة عمه له

وكان ابو العربى يتمنى ان يطيل الله عمره ، فيختم ابنه القرآن عليه ، ويحفظه ويستظهره كله ، ويدخله المعاهد الاسلامية فيكون من العلماء ، ويراه عالما صالحا يرفع راية الدين والعلم فى الأمة · ولكن الله آثر للعَرَبى اليُتْم كما آثره للنبىء محمد عليه السلام لينشأ يتيما فقيرا يذوق مرارة اليتم فيعتمد على نفسه ، وتصليه هو اجر الحياة التى تخلق الرجولة ، وتورث النضوج ، وتفتق النبوغ ، فتوفى السيد بلقاسم وعمر ابنه ثمانى سنين · ورأى العربى اباه الحبيب يموت ويحمل على الاعناق الى المقبرة ، فبكاه بكاء مرا ، ولكن والدته بحنانها وحزمها وحكمتها ، وعمه عمار بحبه ورأفته يكفكفان دموعه ، ويكفلانه بعد والده أحسن كفالة ، ويحققان كل آمال والده فيه وآمالهم ، ويجعلانه للعلم والدين ·

وكان السيد عمار بن مبارك شقيق أبى العربى مثل اخيه بلقاسم فى الشخصية والتدين ، وشدة الشغف بالعلم والخير · وكان ينفق على طلبة العلم الفقراء من ماله

ليتعلموا · فأسرع الى ابن اخيه واسرته فكفلهم ، واشبل على العربى وتبناه واحبه حبا شديدا ، واعتنى به عناية كبيرة · وواصل هو ووالدته تربية والده له ، فواصل لعربى حفظ القرآن فى كتاب بلده أربع سنين بعد وفاة والده · فوصل الثانى عشرة من عمره · وصار يستطيع الابتعاد عن أهله · فرأى عمه ووالدته ان سيره فى كتاب الناحية بطيء · فيجب لحفظ القرآن واستظهاره أن يكون فى معهد داخلى ليعطى نفسه لكتاب الله · وقد يكون كتاب قريته يعلم ساعات قليلة من النهار ثم ينصرف التلاميذ الى مزارعهم ومراعيهم · فآثر له عمه ووالدته معهد زاوية خنقة سيدى ناجى الرحمانية فى الجنوب الغربى لجبال انمامشة · وكان معهدها مشهورا بالصلاح والاخلاص وتحفيظ القرآن · وكانت الزاوية تكفل الطلبة الوافدين من بعيد فى قسم داخلى ، يجدون فيه كل الضرورات والتربية الدينية الصحيحة · فأرسل السيد عمار ابن اخيه العربى الى هذه الزاوية ليتربى فيها تربية دينية وعقلية قوية · انه فى عهد المراهقة الخطير الذى يحتاج فيه الناشيء الى جو دينى قوى ، ومعلمين ماهرين فى الدين فتتركز عقيدته الدينية وتقوى ، ويعرف دينه بعقله الفاحص فيزداد تمسكا به وهذا لا يكون الا فى معهد داخلى فى زاوية صالحة · ثم ان العربى مشرف على البلوغ فلا بد أن يعرف صلاته ويتعلمها · وهذا لا يكون على أتمه الا على يد معلمين صالحين فقهاء فى الدين ، ليغرسوا فيه حب الصلاة أيضا بما يعرف من معانيها وبوجدانهم ، والمحافظة على الصلاة ، وعلى صلاة الجماعة وعمارة المسجد · وهذا لا يكون على النحو القوى الذى تريده الأسرة لابنها العربى الا فى زاوية صالحة ، فآثرت له زاوية خنقة سيدى ناجى لخصائصها ، وقربها من قريته ·

وآثرت الاسرة لابنها العربى العيشة فى الزاوية ليتربى فيها خلقيا بالاغتراب عن ذويه ، وبالتقشف الذى تقصد به الزاوية بناء الخلق القوى فى تلاميذها ، ويعيش فى جو الزاوية العلمى فيزداد ادراكا لحلاوة العلم فيزداد شغفا به · فختم العَرْبى القرآن فى الزاوية وأعاد حفظه فحفظه حفظا راسخا · وزاد معلموه فى تربيته وترسيخ العقيدة الدينية والخلق الاسلامى فيه ، وعلموه الصلاة والمحافظة عليها ، وعمارة المسجد وشدة الحب له ، وعاش فى الزاوية فى ظل المسجد الذى يملؤه بنوره أيضا · ومكث فى زاوية سيدى ناجى ثلاث سنين ·

وفى سنته الخامسة عشرة وجهه معلموه وعمه ووالدته الى زاوية أوسع وأكثر علما هى زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز فى مدينة نفطة بجنوب تونس الغربى فانتقل اليها ·

في زاوية نفطة

مدينة نفطة في الجريد بتونس ، وأهم مدنه نفطة وتوزر والجريد مشهور من قديم الزمان بالصلاح والنبوغ والعلم والفصاحة · وكان الجريد جزءا من الدولة الرستمية في القرن الثاني والثالث الهجري ، ولما انقرضت بقي الجريد موطنا للاباضية قرونا · ان آثارهم فيه كثيرة الى اليوم · وكانت الجريد في قديمها معدن العلم والأدب ، وموطن العلماء والأدباء الكثيرين سيما توزر ونفطة فسماهما أهل المغرب بالكوفة والبصرة لكثرة العلماء والادباء فيهما · وقد أنشأ الجريد في قديمه وحديثه علماء كثيرين ، وأبطالا عديدين ثاروا على الظلم والظالمين في المغرب · ومن أبطاله الميامين أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني · ثار في القرن الرابع الهجري في جبال آوراس على العبيديين الذين عسفوا المغرب وأرهقوه بظلمهم واستبدادهم وخالفوا دين الله في سياسته · فثار المغرب عليهم بقيادة أبي يزيد ، فهزم جيوش العبيديين وأخذ بمخانق الدولة العبيدية ، ولولا حصانة عاصمتهم المهدية التي اعتصموا بها ، وخذلان بعض الطوائف من جيش أبي يزيد له ، لقضى على الدولة العبيدية الظالمة المستبدة ، وعلى الملوكية الطاغية ، وأرجع الامامة الاسلامية العادلة الى المغرب · وقد شوه العبيديون تاريخ أبي يزيد وثورة المغرب الاسلامية عليهم بالأكاذيب ، وردد ابواقهم من المؤرخين اكاذيبهم في كتبهم ، وقلدهم فيها كثير من المؤرخين اليوم ، ولو استعملوا عقولهم في التاريخ لأدركوا عظمة أبي يزيد ونبل مقاصده في ثورته ، فيتنزهوا من سب أجدادهم وتنقيص أنفسهم · وسوف نجلو حقيقة ثورة المغرب على العبيديين ، وشخصية أبي يزيد العظيمة ، ونتظف تاريخ المغرب وتاريخ أبطاله من الأكاذيب القديمة والحديثة في الجزء الرابع من كتابنا تاريخ المغرب الكبير ان شاء الله ·

ومن النبغاء الذين أنجبهم الجريد الشيخ المكي بن مصطفى بن عزوز ، والشاعر العبقري أبو القاسم الشابي ، والعالم الزاوية الصالح الشيخ محمد الطاهر عمارة (1) وغيرهما كثير تولوا التدريس في الجامعة الزيتونية ومختلف المعاهد في تونس والجزائر، والكثير منهم درسوا في زاوية نفطة للشيخ مصطفى ابن عزوز ·

كانت مدينة نفطة بلد الدين والعلم والأدب والصلاح منذ العهود القديمة · وكانت في الصحراء معدن الفصاحة والكرم والعشرة الطيبة ، والنفوس الكريمة ، فزاد ذلك

(1) انظر تاريخه في كتابنا نهضة الجزائر الحديثة ـ الجزء الثاني ص 226 ط اولى عام 1391 ـ 1971 بالجزائر .

فى فضلها وصلاحها ومآثرها · وزادها شهرة فى العهد الاخير انشاء الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز لزاويته فيها فى القرن الثالث عشر الهجرى ، واستقراره فيهـا ينشر العلم والصلاح · وقد آثر نفطة لزاويته ومعهده لبيئتها الطاهرة المثقفة ، وقوة استعداد أهلها للخير بوراثتهم الزكية القديمة ، وأراد أن ينشأ أبناؤه وتلاميذه فى وسطها الطاهر ليأخذوا صلاحها ، وتكون أكبر عون له فى التربية العقلية ·

وكانت زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز صالحة قد حافظت على سيرة الزوايا الاولى السلفية الطاهرة ، وعرفت واجبها · والفضل فى ذلك لمنشئها وخلفائه،فانهم كلهم علماء صالحون ، ولبيئة نفطة الصالحة المثقفة فانه لا يسود فيها الطرقيون الجهلة ابناء بطونهم وشهواتهم ، ولا تحيا فيها ضلالاتهم ·

وكانت زاوية نفطة فى تلك العهود مقصد الطلبة · وأمنية الآباء الصالحين لابنائهم لاعتنائها بالتربية الاسلامية الخلقية والعقلية ، ووجود علماء صالحين مخلصين يتولـون التربية والتعليم فيها · وكانت وثيقة الصلة بزاوية الهامل الكبيرة فى الجزائر ، وبكثير من الزوايا الأخرى الجزائرية سيما الرحمانية ، ومنها الزاوية الرحمـانية فى خنقـة سيدى ناجى التى حفظ الشيخ العربى فيها القرآن · وأرى انها ممن وجهه الى زاويـة نفطة لما رأت من طموحه وطموح أهله ، وقوة استعداده للعلم ، فآثرت له الانتقـال الى زاوية أوسع أفقـا وأكثر علـما ·

وآثر السيد مبارك عم العربى وام العربى لابنهما زاوية نفطة · انها الزاوية التى تعلم فيها والده بلقاسم وذاق حلاوتها ، ورأوا فى سيرته وعقله نتائجها الحسنة · وكان يثنى عليها · ان بين هذه الزاوية والأسرة علاقة روحية قوية · ثم انها فى الصحـراء فيريدون ان يأخذ ابنهم فصاحة الصحراء ، والطبع الاجتماعى القوى فى الصحـراء ، وكرم الصحراء ، والشخصية الايجابية المنبسطة التى تغشى النفـوس وتمتلك القلوب وهى أقوى فى الصحراء ويزداد دينا وصلاحا فى الصحراء ، فيجمع فى نفسه فضائـل الصحراء والجبال ·

وكان العربى لما انتقل الى زاوية نفطة فى البلوغ فى الثالثة عشرة من عمره ، فى العهد الذى يحتاج فيه الناشىء الى الوسط الطاهر ، والمربين العلماء ليبصروه بـدينه ويرسخوا أقدامه فى الاستقامة·وفى العهد الذى يهتاج فيه السعار العقلى فيريد الناشىء الموارد الغزيرة فى العلم ، سيما ذوو الطموح والمواهب العقلية كالعربى ، فوجد العربى

ضالتــه فى معهد نفطة · فشمر عن ساعد الجد فيه ، فأخذ بحظــه الوافر منه ، وأجدى عليه فى كل نواحيه ·

وكان معهد نفطة داخليا تكفل الزاوية فيه الطلبة الغرباء فى كل الضروريات ، فى السكن والطعام واللباس والكتب ؛ وتربيهم فى القسم الداخلى تربية اسلامية عمليــة قوية ، وتغرس فيهم أخلاق الرجولة كلها بالتربية الاستقلالية ، واعتماد الطالب عــلى نفسه فى كل شؤونه وبالاخششان فى العيش الذى يخلق النفوس القويــة الزكية ، ويعلمهم المعهد الداخلى العشرة الطيبة للزملاء،ودماثة الخلق للناس·وتغرس فى الطالب الزاوية الصالحة التضحية وحب العمل لله · ان كل ما فى الزاوية يقوم به المحسنون لله ، فيغرس فيه ما يشاهد من تضحية المحسنين فى الزاوية التى هى جمعية خيريــة اسلامية طبيعة العمل لله ، فينشأ اجتماعيا من أقوى صفاته شدة الحب للخير ، والتضحية بكل عزيز للدين والأمة ·

والزاوية تبنى حول المسجد ، والتعليم يقع فى مسجدها ، فتغرس بهذا بأساليب عملية فى نفوس طلبتها المحافظة على الصلاة ، والمواظبة على صلاة الجماعة فى كــل الأوقات ، وعمارة المسجد ، وحب المسجد ، وتنشئهم فى المسجد ، يقضون فيه أغلــب نهارهم وكثــيرا من ليلهم فى الدروس وتلاوة القرآن والعبــادة الأخــرى · فينشؤون مسجــديين ، يملؤهم طهر المسجد ، وقــوة المسجد ، وكل معانيه السامية ، ويكونون بالتربية المسجدية العظيمة أبناء الآخرة ، يغنمون من دنياهم لآخرتهم ، ويجتهدون كل الاجتهاد فى دنياهم فى سبل الخير ، لا يفرطون فى دقيقة من حياتهم ، ويحرصون عــلى طول الحياة فى كد وجد وعمل صالح لانهم يعملون لآخرتهم ، فدنياهم هى مطيتهــم الى رضوان الله الذى يستلزم كل الخيرات وكل سعادة فى الدنيا والاخرى ، فهم حريصون أن تكون مطية قوية يطول استعمالهم لها ، لتبلغ بهم أقصى الغايات التى يرجونهــا · هذا هو الزهد الصحيح الذى يستلزم حب الحياة والكد الدائم فى الحياة ، والسعادة فى الحياة بفضل الكد فيها بنية طيبة · وهذه هى تربية الزوايا الصالحة المسجدية الــتى أنشأت لنا علماء فحولا واعلاما للاصلاح · وتلك هى التربية المسجدية العظيمة للمعاهد الكبرى فى تلك العهود المباركة التى أنشأت مشايخنا وأعلام نهضتنا وأنشأت الشيخ العربى اتبسى رحمه الله ·

ليت المغرب والعالم الاسلامى يعود الى هذه التربية المسجدية العظيمــة ، فيبنى كلياته كلها حول المسجد،ويكون المسجد هو المكان الحبيب الاثير الذى يقضى فيه كل طالب وقتا فى كل يوم فى مجالس التلاوة وتفسير القرآن ، والحديث النبوى والعبادة ، ومجالسة

الصالحين الأتقياء فى بيت الله · ما لم نفعل هذا يستحيل أن يكون للمغرب وللعالم الاسلامى شبابه الصالح البناء القوى الذى يحفظه من اعدائه · ويحقق له الكرامة والسعادة !

ان المعهد الذى لا يستعين بالمسجد فى تربيته ، ولا تملؤه روح المسجد بأساتذته الأتقياء الصالحين ، مفرخ الجراد المفسد ، لا يخلق للامة الا أبناء بطونهم وشهواتهم ، وأعداء أنفسهم وأمتهم · وأجيالا تطير ، ولكن للافساد كالجراد !

تلك هى زاوية نقطة ومعهدها الداخلى ، فوجد فيه العربى فى الابان ما اكد فيه شخصيته الاسلامية ، وبناه فى كل نواحيه · فلها الفضل العظيم هى ومعهد الزاوية فى خنقة سيدى ناجى فى صلاحه وعلمه وحسن اتجاهه ، لانهما مما سبق الى نفسه فى طفولته وفى عهد المراهقة والبلوغ ، فصبغتهما فيه ثابتة ، فكان بتلك الصبغة قرآنيا مسجديا ، فكان الله معه ، فنجح فى كل أدواره،وكان من أعلام الاصلاح وروح الجزائر يرحمه الله ·

وفى زاوية نقطة استظهر العربى القرآن · ولعل استظهاره للقرآن فى نقطة لا فى زاويته الأولى أن استظهار القرآن كله فى نفس المعهد الذى سيدرس فيه شرط للبدء فى العلوم · هذا هو الشرط فى كثير من المعاهد القديمة ، وفى معهد الحياة فى ميزاب الى زمن قريب · ان القرآن هو اساس الدين فى النفس ، والخلق الكريم وكل خير فى الانسان ، فلابد من حفظه كله حفظا راسخا ، وهوأساس العلوم الشرعية والعربية كلها ، وعدة العالم فى اصلاحه فلابد من استظهاره قبل البدء فى دراسة العلوم · ومن لم يستظهر القرآن لا تقبله تلك المعاهد المباركة ولو كان أذكى الأذكياء ، لأنه فارغ كالأرض التى لا بذور فيها ، ولا أصول للشجر فى أعماقها ، وعلمه وشخصيته بنيان بغير أصول راسخة لا يتحمل الأثقال ولا يعطى النتائج كلها ·

وكان العَرْبى بما ورث من حب العلم من والديه وأسرته ، وبما نفخ فيه معلموه من الغرام بالمعرفة ، وبما يدعوه اليه عرقه القوى وطموحه الكبير ، وبما ذاق من حلاوة العلم فى كتاتيبه وفى زاويته الأولى ؛ كان بهذه العوامل كلها ملهوفا الى العلم · فما وصل معهد نقطة واستظهر القرآن حتى شمر لمتون العلوم فى العربية والشريعة الاسلامية يتقن حفظها · وأقبل على حلق العلم فأتقن المبادىء فى العربية والشريعة الاسلامية ، وتفتحت له أبواب العلم فرأى مباهجه ، وازداد شعورا بحلاوته ، ووجهه أساتذته أحسن توجيه الى ما يوافق شخصيته وميوله الموروثة ، وهو العلوم الشرعية

فأتقن المبادىء في الفقه ، وكان يتلذذ به ويجد متعة النفس ونشوة العقل في دروس الفقه وكتب الفقه · وأحب العلوم العربية وأتقن دروسه فيها · ان العربية هي مفتاح القرآن ، وسبب الفصاحة التي يغرم بها كل الغرام · فأتقن في النحو الآجرومية لابن آجرم الصنهاجي المازيغي المغربي وما يساويها من الكتب في الشريعة ·

فتكونت أسس العلم فيه ، ووجهه أساتذته أحسن توجيه الى الغايات المثلى في العلم ، وتكون مثله الاعلى فيه ، وهو أن يكون عالما جليلا في الشريعة الاسلامية ليرفع راية الدين والعربية في وطنه ، ويصلح مجتمعه بدين الله ·

ومن أساتذة العربي في معهد نفطة الشيخ ابراهيم بن الحداد ، والشيخ محمد بن أحمد ، والشيخ التابعي بن الوادي ، وغيرهم ·

وعود معهد نفطة العربي الاعتماد على النفس في التحصيل · فكان يطالع درسه وحده مرارا قبل وقوعه ويحاول أن يفهمه كله ، ومع جماعته مرارا فيتناقشون فيه ، ويحسن الاصغاء الى الدرس ويسأل أستاذه عن كل ما انبهم عليه في مطالعة الدرس مما لم يتعرض له في درسه ، ويراجع درسه مرارا بعد وقوعه ، ودروسه كلها في العام مرارا لترسيخها في نفسه ، فرسخت وهضمها هضما تاما فصارت جزءا من نفسه · انه منهوم يشعر بشدة حاجته وحاجة أمته الى العلم ، فهو يتزود لنفسه ولأمته ، ويتعلم العلم لشرف العلم ، وأنه عبادة كبرى . فاجتهد كل الاجتهاد ، وأتقن دروسه كل الاتقان وفتح الله عليه بنور العلم بفضل نيته الحسنة في طلبه · وكان عالما فذا بفضل هذه العوامل ، ولم يكن كأبناء بطونهم الذين يرون العلم سببا لاشباع شهواتهم، فينتفون ، ويأخذون من فتاته الرخيص ما ينيلهم الشهادة ، ويطيرون ولكن ذبابا يحمل الوباء ، ويتهالك على الخبائث ، ويتمنى أن تكثر جروح الأمة ليرتع فيها ! ما أكثر هذا الفراش الذي يتهالك على النار في الأمم الاسلامية اليوم ، انهم سبب ضعفها وشقائها !

ومع اتقان العَرْبي لدروسه كان مقرما بقراءة الكتب المفيدة · فقرأ من مكتبة معهده كتبا مفيدة زادت في ثقافة عقله ، وأججت ظمأه المتسعر الى العلم ، وظل طول حياته يقرأ فتكون بهذا في العلم ، ونال بغيته منه ، ونضج في العلوم التي درسها في وقت قريب · وهذا كله بفضل تربية معهده وحسن توجيهه ·

ان معهد نفطة هو الذي كون العربي علميا وخلقيا · هو الذي بنى أصول العلم فيه ، وزوده بمفاتيحه ، ورسخ أقدامه في طريقه · وفي معهد نفطة تفتحت شخصيته ،

وبدا نبوغه القوي ، وتكونت له المثل العليا في العلم فانطلق اليها · واذا ازداد زيادة كبرى في العلم وفي الشخصية في الجامعة الزيتونية والأزهرية فالفضل للاصـــــول الراسخة التي بنتها فيه زاوية نفطة من العلوم التي أتقن مبادئها ، ولتربيتها ، وتربية زاويته الأولى وكتاتيبه · ان الفضل الكبير في صلاحه ونبوغه يرجع الى مربيه واساتذته الاولين في الابتدائي ·

وقضى العربي في معهد نفطة ثلاث سنين فأتم دراسته الابتدائية · مكث فيه الى العهد الذي يشعر فيه المرء من قوة الحيوية ان في وسعه ان يطير · سيما أبناء الجبـال الأقوياء كالعربي · فرأى مدير معهده ومعلموه استعداده القوي للعلم ، ولهفته المتسعرة للعلم ، وطموحه الطائر الى المعرفة ، وجده واجتهاده في كل أوقاته في التحصيـــل ، وعرفوا آمال ذويه فيه · فرأوا طهره وقوة شخصيته الدينية ، وقوة ارادته ، وشـدة خشيته لله ، وأيقنوا انه لا يمكن أن تُزِلَّه حاضرة تونس بمغرياتها الكثيرة ، ومفاســد الاستعمار التي بثها ألغاما فتاكة في طرق أمثاله في العواصم الاسلامية ، ليقتـــل أخلاقهم ، ويصرفهم عن العلم والدين ؛ فوجهوه الى الجامعة الزيتونية ، والى جو تونس العاصمة العلمي والأدبي والسياسي القوي ، ليجد بغيته فيها · لقد أتقن السباحـة في نهر نفطة فيجب أن ينتقل الى البحر ، الى تونس العاصمة · فـــودع العـــربي زاويته وأساتذته وزملاءه وجميع أصدقائه في نفطة وهو حزين باك لفراقهم،وألَمّ بأهلـــه في قريته فودعهم ، وأسرع الى تونس وهو يتسعر ظمأ الى العلم ويتلهف لوصول غايتـــه البعيدة في تونس ، وهو النضوج في الشخصية وفي علمه · فكان الله معه في تونس كما كان معه في نفطة ·

دراستـه الثـانوية في الجامعـة الزيتـونية

كان ذهاب العربي الى تونس للتعلم في الجامعة الزيتونية في عام 1332 هـ آخـر عام 1913 م ففرح فرحا عظيما لما حل بها · لقد وجد فيها ما يريده · وكانت تونس في هذا العهد مزدهرة في كل نواحيها · وكانت نهضتها الحديثة العتيدة قد آتت أكلهـا ، فكثرت فيها المدارس العربية العصرية ، والصحف والمجـــلات العربية الوطنية التي تصلها من مصر رغم حظر الاستعمار لها ، والمجالس الأدبية والسياسية ، وازدهـرت فيها الصناعة والتجارة ، وأيسر الناس فيها ، وبدا ذلك في اسواقها ، ومبانيها ، وفي لباس أهلها ، ووجوههم التي يكسوها الورد بحمرته ، والفجـــر بصباحته · وكانت تونس مثالا في الجمال والحضارة الاسلامية الراقية ·

وكان الزعيم الاسلامي العبقري العظيم الشيخ عبد العزيز التعالبي هو قائد تونس في جهادها العلمي والأدبي والسياسي وفي نهضتها · وكانت خطبه في المجامع ومقالاته في الصحف ، وأحاديثه في المجالس ، تشعل القلوب بالحماس ، وتوجه الناس الى المعالي وتطهر النفوس من الجمود والكسل ، وتملؤها بالثقة بالنفس وبعزة الاسلام وقوته · وكان خيرا وبركة لتونس والمغرب عامة ، فازدادت تونس بجهاده وقيادته لنهضتها ازدهارا وتقدما في العقد الاول والثاني من القرن العشرين · ونشطت الجامعة الزيتونية في هذا العهد ، وأثمرت جهود المصلحين الذين أصلحوها وخلصوها من كثير من الجمود الذي كان يقتلها ، وتكونت فيها جماعة من العلماء المدرسين البارعين المخلصين الذين يعلّمون ويربون لله في حماس واتقان وطموح ، فدخلوا بها في أحسن عهودها وصارت من منابع العلم الغزيرة في العالم الاسلامي ، وقبلة اهل المغرب في العلوم العربية والشرعية التي يناوئها الاستعمار الفرنسي والايطالي ويطم منابعها في الجزائر وليبيا · فأقبل عليها الطلبة في هذا العهد زرافات كثيرة سيما من الجزائر · وبلغ طلبة الجامعة الزيتونية في هذا العهد في أول العقد الثاني من القرن العشرين قبيل الحرب العالمية الاولى عشرة آلاف طالب· ومن تلاميذها في هذا العهد الشيخ أبو اليقظان والشيخ أحمد توفيق المدني وعنهما رويت ما يتصل بالزيتونة ، والحركة السياسية والأدبية والصحافية في تونس في ذلك العهد · ورأيت في صحافتها القديمة أيضا ·

وكان من الاساتذة البارعين في الجامعة الزيتونية في ذلك العهد العلماء الاعلام : الشيخ محمد بن يوسف ، والشيخ الطاهر بن عاشور ، والشيخ بلحسن النجار ، والشيخ الصادق النيفر ، والشيخ البشير النيفر ، والشيخ محمد النخلي ، والشيخ عبد العزيز اجعيط ، والشيخ محمد بن القاضي ، والشيخ محمد بن شعبان ، والشيخ محمد الزغواني ، والشيخ الطيب اسياله ، والشيخ عثمان بن المكي، والشيخ معاوية اتميمي وغيرهم ·

وكانت الجامعة الزيتونية فيذلك العهد المبارك خاصة للعلوم الشرعية والعربية · ففيها التفسير ، والحديث وعلم الكلام ، والفقه ، وأصول الفقه ، والنحو والصرف والبلاغة ، والعروض ، والأدب · وفيها الحساب لأنه ضروري لعلم الميراث ، والمبادىء في علم الفلك لأنه ضروري لمعرفة مطالع الأهلة ومواقيت الصلاة · ولم يكن فيها التاريخ والجغرافية والعلوم الرياضية الأخرى الضرورية سيما في المرحلة الثانوية منها · لذلك اعتنت الصحافة الوطنية في تونس كل الاعتناء باصلاح الزيتونة وتكميلها لتشتمل على

ما يستلزمه العصر ويزيد الطلبة علما بدينهم وأمتهم وعصرهم · وكان الاستعمار يعارض ذلك ، فنشأت فى الزيتونة حركة سياسية لقمع الاستعمار وأذنابهم العاملين لجمود الزيتونة واضعافها · وسنتحدث عنها ونرى آثارها فى العربى ·

وكان الطالب فى ذلك العهد المبارك يتخصص فى الزيتونة فى العلوم الشرعية والعربية فيتقنها اتقانا كبيرا ، ويدرس الكتب العديدة فى كل علم منها فيتقنه ويرسخ فى نفسه · وكانت الزيتونة معهدا اعداديا وثانويا وعاليا ، فيه من العلوم والاساتذة ما يسع هذه المراحل كلها · وكانت مدة الدراسة فيها سبع سنين ، فينال الطالب شهادة التطويع ، وهى أعلى شهاداتها فى ذلك العهد ، وتنتهى دراسته ، ويعتمد على نفسه فى الزيادة فيكون من الأعلام ·

وكان الطلبة هم الذين يختارون أساتذتهم فى الزيتونة فى كل العلوم التى يدرسونها ، فيختار كل طالب من يعجب بهم ويليق بميوله وشخصيته من الاساتذة · وكان الزحام يشتد فى حلق العلماء المخلصين البارعين العاملين لله،ويقل اقبال الطلبة على الاساتذة الهامدين الذين لا يتقنون دروسهم لقصور فى العلم أو الشخصية · وكان هذا محفزا للاساتذة على بذل الجهد واتقان الدروس كى لا ينصرف عنهم التلاميذ · فيسقطون فى عيون الامة وفى ادارة الزيتونة ·

فاختار العربى أساتذته فى علوم الزيتونة كلها ، فأقبل فى نهم شديد على حلقهم ينهل منها · فوجد بغيته فى الزيتونة فى العلوم الشرعية والعربية والتخصص فيها · فشمر عن ساعد الجد يعمل ليله ونهاره فى التحصيل، يحفظ متون العلوم التى يدرسها ويطالع دروسه فيها فى اتقان ويراجعها ، ويسرع كل يوم الى حلق دروسه فيحسن الاصغاء لا يتأخر ولا يتخلف ، ويكتب الحواشى من شروح معلميه فى هوامش كتبه الدراسية كى لا ينساها · واذا اتقن دروسه وبقى له وقت يسرع الى مكتبة العبدلية بجوار الزيتونة ومكتبة الزيتونة أو مكتبة ابن خلدون قريبا منها فيعكف على قراءة ما يهواه من الكتب فى التاريخ والاجتماع والأدب ، فيتمم بالقراءة معلوماته ، ويكمل عمل الزيتونة فيه بالقراءة المفيدة الدائمة ، ويروى غليله من العلم بهذه القراءة التى ينطلق فيها حسب نبوغه القوى وغرامه المستطير بالعلم النافع ·

وكان العربى لا يلذه الا الدرس والقراءة · لقد وجد فرصته للتعلم ، ولا يدرى كم ستمهله الأيام ومكر الاستعمار فى ميدان العلم ، فهو ينهب حظوظه نهبا ويمضى كل وقته فى التزود ، لا يستريح الا للراحة الضرورية فى ليله ونهاره ، وبقية أوقاته للكد

والتحصيل وما يزيده علما وثقافة في العقل · ان لذة نفسه وما يسحره ويشده اليه هو العلم · انه يتعلم لأمته لينقذها من الظلمات والشقاء ففيه من الغرام بالعلم مقدار أمته الظامئة التي تنتظر غوثه ؛ والتعلم عنده قربة تنيله رضا الله فهو يجتهد فيها اجتهاد العابد الذي يملأه ذكر الموت ·

وكان هيام العربي بالعلم ، وشخصيته العلمية وغرامه بالجد ، وورعه وشدة خشيته لله ، وتوفيق الله الذي يصاحبه في أدوار دراسته وعمره بفضل تقواه وحسن نيته في طلب العلم · كانت هذه الاسباب تعصمه عن الملهيات والمغريات ، وتجعل لذته ونشوته في تسلق جبال العلم الصعبة ، وتجرع مرارير السهر والكد والفاقة في التحصيل · وكانت ديار الغربة آنس لنفسه من وطنه وأهله لأن فيها العلم وما يشغف نفسه · وكانت تونس حبيبة الى نفسه لأنها مصعده الى السماء ، الى غايته العظمى في العلم والنبوغ · وكان العربي يعكف على دروسه طول نهاره ، ويسهر في دروسه وقراءة الكتب في بيته الى نصف الليل · وكان المصباح الذي يقرأ عليه ضعيفا ، وتنبعث منه روائح كريهة ، وهو لا يتعب من القراءة ولا يملها·وقد ينام رفقاؤه الذين يسكنون معه في بيته ، ولا تستطيع عدوى نومهم حوله أن تضعف نشاطه فينام قبل ميعاد نومه ولم تستطع تونس الفتانة الساحرة بكثرة ملاهيها ومغرياتها أن تصرفه عن العلم حينا فيلم بها كما يفعل اغلب الشباب · ان أمه وأباه قد غرسا فيه وكذلك عمه ومشايخه في الزاوية بوصاياهم سيما عند وداعهم ليسافر الى تونس ، غرسا فيه قول الشاعر :

شكوت الى وكيع سوء حفظي فأرشدني الى ترك المعاصي
وأعلمني بأن العلم نور ونور الله لا يعطى لعاصي

فصارت هذه العقيدة مما يعصمه ، ويجعله يرى مغريات الشباب في ثوبها الحقيقي المهول · يراها ثعابين سوداء تلتف على اصحابها فتهلكهم ، فيضيع شباب كثير من النبغاء ويرجعون الى اهلهم فارغين من العلم الذي هاجروا من أجله ، فيقضون حياتهم في المرارة الدائمة ، لانهم لم يستلذوا مرارة الكد في التحصيل ، وتسلطت عليهم أهواؤهم ، وآثروا لذة الجسم الرخيصة الزائلة ·

وكان العَرَبي يكفله عمه مبارك لما كان يتعلم في تونس · وكان يبعث اليه ما يستطيعه من دراهم ، وكان شيئا قليلا لا يكفي الا ضرورات طعامه ولباسه وكتبه · وكان العربي لزهده في المادة يقتر على نفسه في الطعام ليوفر من دراهمه القليلة ما يشتري به كتبا وصحفا ومجلات مفيدة يلتهمها · انها غذاؤه الضروري اللذيذ ·

وكان سكنه في دار من الدور العديدة التي أوقفها المحسنون لسكنى الطلبة الغرباء في الزيتونة ، ويسمونها مدارس ، لأن طلبة ذلك العهد المبارك يدرسون في دورهم في ليلهم ونهارهم معتمدين على أنفسهم لا يعرفون البطالة ، فسميت بذلك مدارس ، وسميت كذلك لان بعضها في القديم كان محل التدريس أيضا · وكان العربي حرا يستطيع أن يتصرف كما يشاء لا رقيب ولا رئيس يسوسه كما هو في الزاوية ، فساس نفسه أحسن سياسة ، وجعل وقته كله للعلم · وقد يلم بأهله في بلده بعد غياب طويل في احدى عطله ، ولا تمر عليه أيام قليلة حتى يقلق فيعود سريعا الى تونس ، ولا تستطيع حفاوة أمه وعمه وأهله البالغة به ، وأطايب الطعام والراحة التي يجدها في وطنه أن تنفذ الى نفسه فيستحليها فيرغب في طول الاقامة في وطنه · إن لذته وتشوقه في جامع الزيتونة ومكاتبها ، وفي المدرسة ، حيث يجد الجو العلمي القوي ، وأسباب التحصيل الكثيرة ·

وكانت أمه حريصة على تعلمه حازمة،وكانت تشير عليه بسرعة العودة الى دراسته، لا ترضى أن يطيل المقام·وكانت تحثه على الشح بوقته واعطاء النفس للعلم ، لأن أيام الدراسة معدودة ، والجزائر في أشد الحاجة اليه عالما مستعدا كل الاستعداد بغزارة العلم والصلاح لانقاذها ·

وكان قليل من الطعام البسيط الخشن يكفي العربي · وقد تقل ذات يده فيبالغ في التقتير على نفسه فيطوى في الغداء أو في العشاء فيظل أو يبيت جائعا لا ينال من الطعام ما يكفيه · واذا مر في أزقة تونس غمرته من ديارها روائح الاطعمة الفاخرة ، ورأى في المطابخ ما لذ وطاب من أنواع الأطعمة الدسمة،وهو جائع لا يستطيع أن يتغدى أو يتعشى ، أو يقتصر في بيته على طعامه البسيط الخشن · ومع هذا لا يشعر بالغبن بل بالسعادة والحظوة البالغة ، واليسر العظيم لانه في الزيتونة وفي تونس الخضراء الحبيبة حيث يتعلم ويتزود من أطايب العلم والأدب بكل ما يريد · وكانت علامات السعادة تبدو عليه ، ومظاهر النشوة والسرور تفيض من محياه الازهر الجميل ويراها الناس في ثيابه النظيفة ، في برنوسه الذي تتفنن والدته الصناع في نسجه ، وفي عمامته البيضاء التي يعتز بها فيبالغ في نظافتها ورصفها · وكان بهذا الشعور وذلك المظهر يملأ قلوب من يتصل به احتراما ومهابة ، ويظنه من لا يعرف أسراره موسرا كأولاد الاغنياء المترفين ·

حدثني الشيخ العيد بن أحمد مطروح عن أستاذه الشيخ العربي : « أنه كان في عهد التلمذة هو وزميله الشيخ مبارك الميلي ، وكان مثله في الشعور والمظهر ، كانا

جالسين في مقهى في تونس فوقف عليهما سائل فلم يكن عند أحدهما ما يعطيه ، فصرفاه ، فألح في السؤال معجبا بمنظرهما يعتقد فيهما الغنى ، وأبى أن ينصرف · فقال له الشيخ مبارك : يا هذا لعلك اغتررت بلباسنا ونظافتنا ومظهرنا ؟ ! اننا أكثر منك حاجة ، انه لا فرق بيننا وبينك الا أننا نستحي وأنت لا تستحي ! » ·

وكان العربي لا يصاحب من الطلبة الا الأتقياء المجدين في العلم · وكان الشيخ مبارك الميلي في آخر عهد الشيخ العربي في تونس صديقه · ان شخصيتهما واحدة · وكان لا يلذه من المجالس الا النوادي الأدبية والسياسية التي يجد في محاضراتها وخطبها الوطنية نشوة روحه ، والا مجالسه مع بعض أساتذته الاجتماعيين الذين يعرفون واجبهم نحو تلاميذهم ، سيما الغرباء منهم فيجتمعون بهم خارج الدروس للحديث المفيد في العلم والادب والتاريخ والسياسة ، وفي المجتمع المغربي والاسلامي وأمراضه · وكان العربي حريصا على هذه المجالس لانه يجد فيها من شخصية أساتذته وكثيرا من الفائدة ما لا يكون في دروسهم · وكان أساتذته لاعجابهم بصلاحه وبره العظيم بهم ، وبجده وتقدمه في العلم ، ولسنه أيضا وما أورثه من النضوج ، يحبونه حبا جما ، ويرونه صديقهم فيقربونه ، فيزورونه في بيته ، ويحضرونه مجالسهم الخاصة · وكان من مشايخه هؤلاء الشيخ عثمان بن المكي الاستاذ المصلح الغيور الاجتماعي · وكان العربي وزملاؤه النجباء الصالحون شديدي الصلة به خارج الدرس ، يجتمعون به كثيرا فيوجههم في التعلم ، ويغرس فيهم عقيدة الاصلاح ، ويريهم ما يجب عليهم في المستقبل من جهاد طويل مرير لاصلاح المغرب وتحريره · وقد نال العربي من مجالسه فوائد عظيمة ، وهو يعده صديقه وأحسن من غرس فيه العقيدة الاصلاحية في تونس ·

ونال العربي الشهادة الأهلية في تونس ، وأتم سني شهادة التحصيل ، وأتقن كل العلوم التي تدرس في الزيتونة ، وأصبح مستعدا لامتحان شهادة التحصيل ، وسجل نفسه للامتحان ، ولكنه وجد الفرصة للذهاب الى مصر حيث يزداد تخصصا في العلم فسافر قبل الامتحان ، وهو قرير العين بما نال في الزيتونة · ولما أتم دراسته العالية في مصر رجع الى تونس فشارك في امتحان التحصيل ففاز فوزا عظيما ·

ووجد العربي في تونس بعد الحرب العالمية الأولى في سنة 1919 و 20 جوها السياسي القوي ، والأدبي الرفيع ، لقد كانت تونس في أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها تخوض أعنف معاركها ضد الاستعمار الفرنسي وضد الفساد والظلم والجمود

وكل الأمراض الاجتماعية فى تونس · وكان قائدها فى جهادها العظيم هو العلامة الجليل العبقرى العظيم خريج الزيتونة الشيخ عبد العزيز التعالبى وصحبه المخلصون العلماء · وكانوا قد أعدوا تونس لمعاركها ضد الاستعمار والفساد بمقالاتهم القوية الحارة فى الصحف ، وخطبهم النارية ومحاضراتهم فى النوادى · وكان الكثير من أساتذة جامع الزيتونة من أنصار التعالبى · وكانوا ينفخون روح الثورة على الاستعمار والفساد فى نفوس الطلبة بوجدانهم ، وحديثهم أثناء الدروس وبعدها · وكان جهاد تونس السياسى والاجتماعى يشغل بال طلبة الزيتونة · وكانت مقالات الشيخ التعالبى وصحبه وخطبهم يقرءونها فى نهم شديد فتؤجج حماسهم · وصار تلاميذ الزيتونة جندا للشيخ التعالبى ، يقيمون المظاهرات ، ويكتض بهم ناديه ، وينصرونه فى جهاده السياسى · كان على هذا الحماس جل الطلبة فى الزيتونة ، سيما الجزائريين منهم فانهم كانوا أشد حنقا على الاستعمار الفرنسى ، وأكثر مسارعة الى الشيخ التعالبى ينصرونه، حتى أصبح البعض منهم من خاصته وبطانته ، وهو الشيخ ابراهيم اطفيش ، والشيخ ابو اليقظان ، والشيخ محمد التميمى · وكان على صلة وثيقة به الشيخ احمد قزريط ، والشيخ يوسف بن بكير ، والسيد الحاج عمر بن الحاج محمد بو حجام ، والسيد الناصر ملالى وغيرهم ، وكانوا كلهم طلبة فى الزيتونة · وكانت دار البعثة الميزابية فى تونس التى يرأسها الشيخ أبو اليقظان مقصد الشيخ التعالبى ، يجلس فيها جل نهاره لقراءة الصحف مرارا فى الاسبوع ، ويملى مقالاته السياسية والاجتماعية التى ينشرها فى الصحف التونسية على الشيخ أبى اليقظان فيكتبها له · وكان يختلط بطلبة البعثة فى مجالسه بدارهم فيحدثهم فى المواضيع المفيدة ، ويجيب عن أسئلتهم الكثيرة له فى السياسة والاجتماع والتاريخ ويفيدهم فوائد عظمى ، وينفخ فيهم روحه · وكان يعلق آماله الكبيرة للمغرب فى الطلبة الجزائريين ، ويثنى على نصرتهم له · ولما نشأ الحزب الحر الدستورى التونسى فى عام 1920 كان الشيخ ابراهيم اطفيش ، وهو طالب فى الزيتونة ، كان عضوا اداريا فيه · وكان الشيخ أبو اليقظان عضوا فى لجنة الدعاية للحزب · وكان حزب الدستور لما نشأ هو معقد آمال المغرب الكبير كله ، يرجو أن يتسع جهاده السياسى فيشمل المغرب كله ، وتنتصر تونس على الاستعمار فيكون ذلك بداية الاجهاز عليه فى الجزائر ، فأسرع الجزائريون الطلبة وغيرهم فى تونس الى الشيخ التعالبى ينصرونه فى جهاده السياسى الذى ابتدأ قبل الحرب العالمية الاولى ونشط بعدها نشاطا عظيما،وبرزت الصحف الوطنية التى كانت معطلة منذ 1911 وكان العربى ثائرا بطبعه على الاستعمار ، وورث الحنق الشديد عليه من أسرته وقومه الذين ثاروا على فرانسا بقيادة جده مبارك ، فوجد جهاد الشيخ التعالبى فطرب له · وكان

يحضر خطبه ومحاضراته وأحاديثه للطلبة فى مجالســـــه فيزداد اعجابا بشخصيته العظيمة وبجهاده ، ويزداد حماسه وحنقه على الاستعمار والفساد. وكان الشيخ التعالبى شديد العداوة للاستعمار ، شديد الثورة عليه ، فوافق ذلك طبع العربى فشده اليه . وعرفت فرانسا مناصرة الطلبة الجزائريين للشيخ التعالبى وجدواهم الكبيرة على حزب الدستور ، وأثرهم الكبير فى تأريث جامع الزيتونة وقيـام المظاهرات ، فاستهدفتهم ، وشددت عليهم ، فنفت الشيخ ابراهيم اطفيش الى مصر ، وشددت الخناق على الطلبـة الجزائريين البارزين فى تونس .

وكانت الحرب العالمية الاولى على أشدها لما كان العربى فى تونس. وكان استبداد فرانسا وأذنابها على أشده ، وعطلت الصحف الوطنية وخيم على تونس جو مظلم يطلع أقمارها ويؤجج نيرانها . وكان الشيخ التعالبى وصحبه الزعماء المصلحون السياسيون فى الجزائر والمغرب قد أنشأوا فروعا سرية فى أقطارهم لجمعية الجـامعة الاسلامية فى استنبول . وهدف هذه الجمعية هى اعداد كل الاقطار العربية المستعمرة للثورة عـلى الحلفاء المستعمرين فى الوقت المناسب ، فتتحرر ويتحرر المغرب من الاستعمار . وكان الناس فى تونس والمغرب يدعون الله أن ينصر الدولة العثمانية فى الحرب على أعدائها المستعمرين ، ويتحمسون لها كل التحمس فى حروبها التى تخوضها مع ألمانيا ضـــد فرانسا وحليفاتها ، فتكون فى تونس بهذا أيضا جو حماسى اسلامى قوى يرضى نفس العربى الدينية الثائرة ، وجعلته يتابع سير الحرب العالمية الاولى فى اهتمام شـديد ، فازداد معرفة للسياسة والجغرافية والجهاد الاصلاحى والسياسى الذى تخوضه الامـــم الاسلامية بقيادة زعمائها .

وكان فى تونس بعد الحرب العالمية الاولى عدة جرائد عربية وطنية . كان فيهـا جريدة الأمة ، ومرشد الأمة ، ومجلة الفجر ، ومجلة البدر والمجلـة الصادقية وجريدة التقدم ، والمبشر ، والمشير ، والوزير والاتحاد والزهرة وغيرها . وكانت هذه الصحف تندد بالاستعمار الفرنسى واستبداده وظلمه وجبروته وأغراضه الصليبية فى المغرب ، وتهاجم أمراض المجتمـــع التونسى والمغربى وهى الجهـــل والجمود والالحاد والعصبية والانحراف عن الدين ، وتطالب بالدستور وحياة برلمانية حرة. وكان الشيخ التعالبى وأنصاره العلماء المجاهدون : الشيـــخ محمد الريحـانى ، والشيـــخ الصادق النيفـر ، والأستاذ محمد اجعائبى ، ومحمد بن عمار ، ومحمد الصالح خناش ، والأستاذ أحمد توفيق المدنى ، ومحيى الدين الاقليبى ، وعلى كاهيـة . والمنصف المنستيرى وغـيرهم ينشرون مقالاتهم الحارة الدسمة فى أغلب هذه الصحف والمجلات ، وكانت لسان الشيخ

التعالبي وأنصاره ، تنشر دعوته ، وترفع لواء جهاده ، فتكـــوّن في تونس بصحافتها الوطنية المخلصة جو سياسي اصلاحي قوى يملأ بالحماس والثـورة على الاستعمـار كل المثقفين • وكان العربي يقرأ من هذه الصحف والمجلات اذا انتهى من دروسه ، فينتشى بها كل الانتشاء ، ويرى كتاب تونس الشجعان المخلصين يهاجمون فرانسا ، ويكشفون سوءاتها الكثيرة في المغرب ، ويقلقلونها قلقلة الضرس العليلة الموجعة لاقتلاعها •

وكان العربي على رضاه عن أثر الجامعة الزيتونية وتونس الخضراء في نفســـه ، يضيق ذرعا بجو الاستعمار المظلم الذى يفرضه المستعمرون العتاة على تونس والمغرب ليخنقـوا نهضتها سيمـا أثناء الحـرب العالمية الاولى • ولما اعتقلت فرانسا الشيـــخ التعالبي في عام 1919 في فرانسا وسجنته في تونس ، شددت الرقابة على أنصاره ، فازداد العربي قلقا وضيقا بما يقع في تونس من ظـلم المستعمرين وجبروتهم ، ورأى كثرة الجواسيس على الطلبة الجزائريين وعليه هو ، فضاق ذرعا بجو الاستعمار المظلم ، وفكر في مكان يتنفس فيه الهواء ، ويزداد فيـــه علما ونضوجا ، ويتخصص فيه في العلوم الشرعية التي يحبها • لقـد انتهت دراسته في الزيتونة وبلغت به الى آخـــر أشواطها وهي شهادة التحصيل ، ولا يستطيع أن يتخصص في الشريعة بجهوده الخاصة في بلده أو في الجزائر لانعدام الجو العلمي الرفيع فيهما ، والمكاتب العربية الغنية التي ينهل منها • فوقع اختياره على مصر فعزم على السفر اليها • ان فيها الجامعة الازهرية الزاهرة ، وهي للتخصص في الشريعة أيضا ، وفيها الجـو السياسي الرائق ، وأفقها الادبي والعلمي أوسع من أفق تونس • انها البلد الذى يليق به ، ولكن الاستعمار يحرم الذهاب الى مصر على المغاربة سيما على الجزائريين • ان دونها عقبات كثيرة ، وسدودا عديدة ، فعزم العربي على السفر الى مصر بدون جواز سفر ، وشعر في نفســه الثائرة القوية برغبة شديدة للمغامرة في سبيل أمله • لابد أن أصل مصر ! وآخذ حظي الوافر من الأزهر ومن منابع العلم الغزيرة في مصر ! وأرى هذا القطر الحبيب الذى مـلأ حبه أقطار نفسي ! هذا ما قرره العربي فصار يعمل له •

وكان مكوث العربي في تونس طالبا سبع سنين من عام 1331 أو 32 هـ 1913 م الى عام 1338 أو 39 هـ 1920 م فتمت دراسته في الزيتونة ، وأتقن كل العلوم المقررة فيها ، واستعد لامتحان شهادة التحصيل ، وسجل نفسه للامتحان • ولكـن فرصة الذهاب الى مصر تسنح له فاغتنمها فسافر الى مصر قبل اجـــراء الامتحان النهائي ، وفارق تونس باكي العيون أسى على فراق مشايخه وزملائه ، وتونس الخضراء ، الأم الرءوم التي كونته ، وأسرع فيها الخطـا الى غايته ، قرير العـين متفائلا مسرورا لأنه وجد فرصته للذهاب الى مصر الطيبة الحبيبة •

وفـــاة والـــدتـه

في هذا العهد حوالى 1920 م وقبل سفر العربي الى مصر بـزمن قصير ، توفيت والدته الحنون السيدة آمنة وهي في آخر العقد الخامس من عمرها ، وهو في تونـس الخضراء،فحزن عليها العربي حزنا شديدا ، وتركت فراغا كبيرا في قلبه ودنياه • وكان الشوق اليها مما يبعثه على زيارة قريته ، فزال سبب كبير كان يشده الى وطنه ، فآثر الهجرة بعيدا عن أهله لينسى المصيبة التي حلت به • وكانت وفاة والدته كما أرى من الأسباب الداعية له الى الرحيل الى مصر • واخفاؤه عنـــوانه في مصر عن أهله عامين وقطعه لرسائله عنهم من أسبابه وفاة والدته • فما كان ليفعل ذلك لو كانت حية لانـه يعذبها بالحيرة ويكويها بالاشواق ، وهو البار الرحيم بها ، وهي أعـز الناس لديه في الوجود • يرحمها الله •

مغـــامرته الى مصـــر

كان العَرْبي يعرف مصر من كتبها التي تغمر مكاتب تـــونس وصحفها الوطنية المفيدة ، ومجلاتها الدينية والادبية التي تصل تونس في كل أسبوع بعد الحرب العالمية الاولى فيتخطفها الناس ، وينتهبها طلبـــــة الزيتونة لشدة شغفهم بها ، ويسرع اليها العربي فيشتري منها ما يختاره ، فيعكف عليه فيقرؤه ، فعـــرف علماء مصر الأعلام ، وأدباءها الكبار ، ومشاكلها السياسية والاجتماعية ، فصار كل يـوم ينتقل الى مصر فيعيش فيها ، في كتبها وصحفها ومجلاتها، فيزداد بها علما ، ولها حبا واعجابا، فعزم على السفر اليها وقضاء سنوات في جامعتها الازهرية ، وفي جـــوها العلمي والادبي والسياسي الرفيع ، ومشاهدة الحضارة الاسلامية التي لا زالت في مساجدها الكثيرة ، وأحيائها القديمة ، ومتاحفها الحافلة ، ومشاهدة من يعجب بهم مـــن العلماء والادباء ، والاستفادة منهم عن قرب • وصار الذهاب الى مصر أمنيته العزيزة ، وما يشغل خاطره ويفكر فيه في كل أوقاته • فحاول أن يستخرج جواز السفر الى مصر من تونس فوجد الأبواب موصدة ، والعاقبة وخيمة • انه اذا ألح في الطلب،وعرف الفرنسيون انه يريد طلب العلم ، وعرفوا نفسه الثورية ، وعداءه الشديد لهم ، فربما اعتقلوه وأرجعـوه الى الجزائر ، وحرموا عليه الخروج منها ، فعزم على الذهاب الى مصر بدون رخصة ، فصار يسأل عن البواخر الذاهبة الى مصر ، فسمع بباخرة للركاب على وشك السفر الى مصر فزم ثيابه الضرورية ، وجعل في جيبه دراهمه القليلة ، فأسرع الى المرسى ، فاتصـل

بأحد رجال الجمارك الفرنسيين ، فحاول استمالته بالرشوة ليأذن له فى الدخول الى الباخرة ، فثار عليه الجمركى وطرده وهدده ، ولكن العربى لم ييأس ، فابتعد عن المكان وكمن فى زاوية ينتظر الفرصة ، فرأى غفلة فى الجمارك وربان الباخرة ، فأسرع فدخل الباخرة دون ان يراه احد ، فاختفى فى زاوية خفية منها ، فأقلعت الباخرة ، فابتعدت عن تونس وخرجت من حدودها ففرح العربى بالنجاة ، فتعرف الى بعض الركاب الامناء الطيبين فصار يأكل معهم ويأنس بهم الى ان وصلوا الاسكندرية ، فغافل رجال الجمارك وربان الباخرة ، فنزل من الباخرة وخرج الى الاسكندرية ، ثم ركب القطار الى القاهرة • وكان صغير القطار وهو يهم بالاقلاع زغاريد العرس العظيم عند العربى وكانت نفسه تفيض بالسرور ، والتفاؤل يملؤه ، والدنيا فى نظره جميلة فتانة يهم بتقبيلها ، عظيم الفرح بنجاحه فى مغامرته ، ووصوله مصر التى يهيم بها • ان مغامرته ترضى نفسه الثائرة ، وارادته القوية ، وشدة اعتداده بنفسه ، وتحقق آماله الكبرى فى العلم •

وكان القطار يشق به مزارع الدلتا الخضراء الجميلة ، ومناظر الريف المصرى الساحرة ، ويرى فروع النيل فى مياهها البراقة تشق تلك المزارع وتسقيها ، فيشعر بها تنصب فى نفسه فتورثه الرى ، وتطفىء أوار التعطش الى الكنانة فى نفسه ، فيحدق فيها وفى نضارة المزارع المتلاحقة أمامه ، فينتشى كل الانتشاء بهذا الجمال الفتان الذى تستقبله به مصر الجميلة ، ويرى مستقبله الاخضر الجميل بمصر فى تلك المزارع ، وايامه السعيدة التى سترويه بكل ما يشتهى من فنون المعرفة فى النيل الذى يضحك له ، ويرحب به (1) • وحصد العربى ثمار تقواه ، وجده فى طلب العلم فى الخضراء وحسن نيته فى التعلم بأن حفظه الله فى طريقه ، وأنجحه فى مغامرته ، وحقق أمله العظيم ، فوصل مصر التى طالما تمناها • وكانت نفس العربى تمتلىء بالحمد لله على ما أعطاه ، وبالتضرع الى الله ان يحفظه فى مصر ، وينجحه فى دراسته ويبلغه كل آماله فى المعرفة •

فوصل القطار القاهرة فوقف فى محطة باب الحديد ، فخرج العربى من المحطة الى ميدان باب الحديد ، فوجده يموج بالخلائق ، وبالعربات الأنيقة التى تجرها الخيول

---

(1) لعل من احسن من يعرف شعور العربى وهو يصل مصر لاننى قمت بمثل مغامرته ، وانا فى مثل سنه فى صيف 1363 هـ 1944 م فى الذهاب الى مصر من تونس للتعلم مع البر بدون جواز سفر ، وبدراهم قليلة ، فقطعت الحدود كلها مشيا على الاقدام ، فسلكت طريقه من الاسكندرية الى القاهرة فى القطار . ولا زلت اذكر ذلك اليوم العظيم الحبيب . والحمد لله على فضله .

وهى تتلقف المسافرين القادمين فتسرع بهم الى منازلهم ، وفى أعناق خيولها الجلاجل فتمتزج أصواتها بأصوات حوافرها توقع بها على الأرض ، والباعة يعلنون عن معروضاتهم فى الميدان ، والقاهرة تغلى من كثرة النشاط والحركة والزحام ، فرأى العربى وسمع ما زاده حماسا وبهجة وأنسا . فوقف العربى أمام المحطة فوجد من أوصله الى حى الازهر ، ففرح فرحا عظيما وهو يشق ميدان الأزهر ، ويرى مآذنه العالية الجميلة ، وأبوابه السامية الواسعة ، فأسرع الى الجامع يدخله ، وسأل عن شيخ رواق المغاربة فى الازهر ، فرحب به شيخ الرواق ترحيبا كبيرا ، وسر بمغامرته وفرح بقدومه . انه من الطلبة القلائل الذين استطاعوا الوصول الى الازهر من الجزائر وتوسم شيخ الرواق فى العربى صلاح النفس ، وحدة الذكاء ، وقوة الشخصية ، والنبوغ فى العلم وشدة الهيام به ، فزاده تقريبا ، وواعده بالرعاية والحفاوة ، وجعله فى المسكن اللائق ، وأجرى عليه ما يأخذه الطلبة المغاربة من أوقافهم فى كل شهر من دراهم ، وفى كل يوم من خبز . فشمر العربى عن ساعده ، فعل السباح الماهر يصهره الحرور فوجد البحر الواسع المنعش فهرب اليه ، فابتدأ دراسته فى الازهر فى قوة ونجاح ، وجلس فى حلق التخصص فى علوم الشريعة والعربية ، فوجد بغيته فى أساتذته ، وفى الجامعة الازهرية ومصر .

دراسته العالية فى الجامعة الأزهرية

كان سفر العربى الى مصر لدراسته العالية فى الجامعة الازهرية فى عام 1338 أو 1339 هـ ـ 1920 م بعد ما قضى فى جامع الزيتونة سبع سنين . وكان عمر العربى خمسا وعشرين سنة ، فى أتم شبابه وقواه ، مستعدا كل الاستعداد للتخصص والتبحر فى العلوم ، بنبوغه الساطع فى العلم ، وبما درس فى الزاوية والزيتونة .

وكانت مصر فى ذلك العهد بعد الحرب العالمية الاولى فى أحسن عهودها فى كل نواحيها ، سيما فى العلم والأدب ، وفى حرية القول والنشر . لقد آتت نهضتها الحديثة المباركة التى ابتدأت فى عهد محمد على الكبير ، وأنعشها بعض حفدته أكلها كاملا فى هذا العهد وبعده ، وأثمرت مساعى أعلام الاصلاح فى مصر الشيخ محمد عبده ، وعلى باشا مبارك وغيرهما ؛ فكثرت مدارسها العربية المختلفة ، ونشأت جامعتها المباركة ، وازدهر الأزهر بفضل المصلحين له : الشيخ محمد عبده ، وتلاميذه من بعده ، فتخلص من كثير من جموده ، فاختار الكتب النافعة للدراسة ، والطرق الناجعة فى التدريس ، وكثر فيه المدرسون العلماء الماهرون المخلصون ، فسطع نجمه ، وظهرت نتائجه

العظيمة ، وأنجب طبقات من العلماء الفحول والأدباء البلغاء ، فاتجهت اليه الأنظار من أنحاء العالم الاسلامي ، فتدفقت عليه البعثات العلمية من انحائه ، فكثر طلابه ، ودخل في أحسن عهوده ٠

وكان الأزهر في ذلك العهد للتعليم الثانوى والعالى ، وهو للعلوم الشرعية والعربية ، يتوسع فيها ويتقنها ، ويزود الطالب المتخصص منها بما يجعله عالما فحلا ، ويجد الطالب النابغة المغرم بالعلم فيه الميدان الواسع والموارد الغزيرة ، فيركض فيه بكل قواه ، يقطع المراحل الشاسعة ، ويتزود بكل تهمه وطاقته من العلوم الشرعية والعربية من حلق الدروس في وقتها ، ومن مكتبة الازهر الغنية وغيرها من المكاتب العامة خارج الدروس ، ومن جو مصر العلمى والأدبى القوي الذى يكتنف الازهر ، وقد أشاع فيه العلماء والأدباء العاملون الكثيرون بكتبهم وصحفهم ومجلاتهم علمهم وأدبهم الغزير ، فصار جو القاهرة العلمى الذى يكتنف الازهر مما يفيد الطالب ويزيده نشاطا ورغبة ونضوجا في العلم ٠

هذا هو الازهر الشريف في ذلك العهد المبارك ، جامعة مزدهرة ، تكتنفها القاهرة النابضة بأنواع المعرفة ، وتكملها بما تنشر مطابعها من الكتب النفيسة ، والصحف والمجلات العلمية والادبية المفيدة ، والمجالس الادبية والسياسية العامرة في ذلك العهد بأنواع من المعرفة ٠ فوجد العربى اتيسى في الازهر الشريف ما أراد ، فأتم دراسته العالية فيه ، وراقه جو الأزهر وجو مصر فأطال الاقامة فيها ، فتخصص في العلوم الشرعية : التفسير ، والحديث ، والأصول : أصول الدين وأصول الفقه ، وفي الفقه الاسلامي ، وفي العلوم العربية ، فصار علامة في الشريعة الاسلامية ، لا يُشق له غبار في العلوم التي ذكرنا ٠ وكان أكثر ما في خزانته الحافلة لما توفي رحمه الله انما هي كتب التفسير والحديث ، والاصول ٠ هذه هي العلوم التي اغرم بها فصار يعكف عليها في خلواته ، ويستزيد منها علما ، ويجد فيها نشوته في شبابه وكهولته ان مزاجه الموروث يدعوه الى ذلك أيضا ٠

وتعمق الشيخ العربى في فهم الشريعة الاسلامية وعرف فلسفتها ٠ وذلك ان طبعه ومشايخه في الازهر وجهوه الى كتب أبي اسحاق الشاطبى ، فدرس كتاب الموافقات في اجزائه الاربعة ، وكتاب الاعتصام ، ففهمها فهما عميقا وعرف ما فيها ، وصدر منها بعلم غزير في فلسفة الشريعة ، وبفصاحة وبلاغة في قلمه ، وبقوة في فكره ، وعلمته الغوص الى اللباب في كل أبواب الشريعة ، فازداد حبا للشريعة

الاسلامية التى هى علم الاجتماع والتربية وعلم النفس ايضا ، وهى أدب وبلاغة وتاريخ · فيها كل العلوم التى يهواها العربى ، فلذلك عكف على الشريعة الاسلامية فى قراءته ايام الدراسة وبعدها أكثر ، فتزود منها بالزاد الكافى ، وصار من فحول المغرب فيها · انها عدته فيما يستقبله من جهاد كبير طويل لاصلاح الجزائر والمغرب · ان الاستعمار فى المغرب يناهضها اكثر ، ويعمل لقتل العلوم الشرعية والعربية لانها روحه واجنحته ، فلا بد من نشرها وانعاشها فى المغرب ليطير ويفلت من قبضة الاستعمار الصليبى الغشوم · وأرى ان العربى قد درس كتب ابن تيمية ، وابن القيم الجوزية ، والغزالى ، والشوكانى فى الشريعة فانها ككتب الشاطبى ، تجلو فلسفة الاسلام وهى من الكتب التى يعجب بها العربى ويحبها ·

ودام العربى فى الازهر حتى نضج ، وتمت دراسته العالية ، ووصل درجة العالمية ، وصار من العلماء النبغاء · وكان نجمه قد سطع فى الازهر فأحبه مشايخه حبا شديدا وزملاؤه فى الدراسة ، لصلاحه ، وتقواه ، وجده فى ليله ونهاره فى التحصيل · وبارك الله للعربى وكان مغه فبلغ مناه فى العلم بفضل استقامته ، وشدة خشيته لله ، وحسن نيته فى طلب العلم · فلو تنكب طريق الله ، لتخلى الله عنه ، فيغرق فى الشهوات والملذات ، فيكون كأبناء بطونهم وشهواتهم الذين يقضون فى ميادين العلم دهورا طويلة،ثم لا يكون حظهم من العلم الا حظ الصخرة الصماء المنغمسة فى الماء ، ويطيرون الى أممهم بأجنحة الذباب ، فى رؤوسهم السموم ، وفى نفوسهم هلاك الأمة !

تقشف عيشه فى مصر وانقطاعه عن أهله

وكان العربى لشدة حبه للعلم وهيامه به ، ولقوة ارادته ، ومتانة خلقه ، زاهدا فى المادة ، متقشفا فى عيشه فى مصر ، يقتر على نفسه لقلة ذات يده فى الغربة ، لم يكن له مورد فى مصر غير ما يأخذه من أوقاف رواق المغاربة فى كل شهر من دراهم قليلة يشترى بأغلبها كتبا ومجلات ، ويبقى القليل منه لطعامه البسيط · وكان يأخذ كل يوم من خبز الرواق الاسمر ما يسد به الجوعة · انه وقف فى الرواق للطلبة المغاربة يوزع عليهم كل يوم · واذا جاع العربى تبلغ بهذا الخبز ومعه صحن صغير من الفول المدمس أو من العدس · وقد يكون مع أحد هذين ربطة صغيرة من الكراث أو أوراق الفجل يسيغ بها طعامه · وقد يكون ادامه قطعة من الجبن المملح الرخيص ·

هذا أغلب طعامه فى السنين السبعة التى قضاها فى مصر · وكان يشعر فيها بالسعادة والنشوة والحبور ، رغم هذا العيش الخشن ، ورغم الخصاصة الشديدة التى تصيبه فى أغلب أيامه · انه ما دام يجد موارد العلم التى يحب ، وما دام يزداد معرفة ونضوجا فى كل يوم بمصر فهو السعيد البهيج · ان لذته الكبرى فى العلم · وقد وجد منه فى مصر ما لا يجد بعضه فى وطنه · فمصر لهذا هو البلد الحبيب الذى يجد فيه أنسه ولذته ونشوة روحه الكبرى · وسعد العربى فى مصر سعادة عظيمة رغم خصاصته وعيشه الخشن ، ومسكنه فى الرواق الذى قد يشاركه فيه من يسىء عشرته ، ولا يوافق طبعه · ان كل المكاره التى يتبرم منها الناس يستلذها العربى فى طريق العلم الذى يهيم به ، وفى مصر الحبيبة التى حظى بها ·

وكان العربى قد كتم سفره الى مصر عن أهله · ولما وصل مصر قطع الصلة بهم، فلم يكتب اليهم ، ولم يخبرهم بعنوانه مدة عامين · انه يريد التفرغ للعلم ، فقطع صلته بوطنه · ان رسائل الاهل قد تحمل اليه ما يكدر صفوه ، ويشغل خاطره عن العلم ، فأوصد بابها ، فلم يخبر أهله بعنوانه · وقد يكون فعل ذلك بباعث آخر أيضا وهو خوفه أن تشعر الحكومة الفرنسية بسفره الى مصر بدون رخصة وبتعلمه فى الازهر ، فيقبض عليه فى مصر ، ويرد الى الجزائر وينكل به الفرنسيون ، ويحرمونه من بلوغ غايته فى مصر ·

وعاش العربى سبع سنين فى مصر فى هذا العسر الشديد فى العيش ، ولم يزده الا قوة فى الارادة ، وطول مكث فى ديار الغربة · ظفر بالمورد العذب فانكب عليه يرتوى لا يشعر بالظهيرة التى تُغْلِى الامخاخ ، ولا بالاشواك التى تنمو حول المورد ولا بالصلال والسباع التى تقصد المورد فتهلك من تجده · ان مصر الطيبة هى القطار السريع الذى يقطع به المراحل الى غايته البعيدة ، وهو فيه مسافر يطوى ولا يشعر بالجوع لانه سيصل غايته فيجد مراد نفسه ، ويشعر بما يقطع من الاشواط الواسعة فى سرعة فيلهيه ذلك عن الشعور بآلام السفر الطويل · ان رج القطار له يزجى اليه الاحلام اللذيذة فيعيش فيها ، كما ينغمس الوليد فى أحلامه ونومه اذا ارتج به المهد الوتير ·

لقد التقيت بالشيخ العربى اتبسى فى القاهرة فى سبتمبر عام 1954 قبل ثورة الجزائر بشهرين · فاجتمعنا فى نادى جمعية العلماء الجزائريين فى القاهرة ، وسألته فى مواضيع كثيرة · ولو عرفت آنذاك أننى سأكتب تاريخه لسألته أن نزور الازهر ورواق المغاربة فيريني المحل الذى سكنه ، ويحدثنى بتاريخه فى مصر وفى عهود

التلمذة كلها • لو كنا محظوظين لفعلت ذلك ، فأستريح مـــن اعتصـــار النصوص ، واستنطاق الظروف •

اعتمـاد العـربى على نفسه فى التحصيل وعكوفه فى المكـاتب العامة للدراسـة

ومع اقبال العربى على دراسته فى الازهر واتقانه لها وجده فيها ، أقبل عـــلى المكاتب العامة التى تزخر بالكتب النفيسة ، وتفتح أبوابها للقراء فى أوقات معلومة ، وتعير من كتبها المطبوعة للطلاب يدرسونها فى ديارهم • وكان العربى يعكف فى مكتبة الأزهر الغنية فى غير أوقات الدروس ، فيدرس فى عناية وعمق ما يختـاره من الكتب النفيسة التى يختارها فى الشريعـة الاسلاميـة ، وفى التاريـخ والاجتماع والادب ، ويعكف فى الْكُتُبْخَانَة (دار الكتب المصرية) فيجد المكان الفسيح الهـادىء للقـراءة ، والجو الحى النشيط بالقراء الكثيرين ، وكل ما يشاء من كتب نفيسة فى كل أبـواب العلوم التى يهواها • وكان يلذه جو المكاتب العامة ، ويطيل الدراسة فيها ، وبوده أن لا يخرج منها • ودرس العربى فى المكاتب العامة كتبا كثيرة ، فأروت هذه المكاتب غليله ووجد فيها الميدان الواسع فركض فيه بأقصى قوته ، وعلى حسب رغبته • وكانت تلك المكاتب من أكبر أسباب نضوجه فى العلـم • ولولاها ولولا اعتماده عـلى نفســـه فى التحصيل ، وقضاء مدته فى مصر فى الدراسة وفيما يزيده علما ونضوجا ، لا تلهيـه المغريات ، ما كان العالم الجليل الفحل الذى نهض بأعباء النهضة الثقيلة ، وكان مـــن أعلام الاصلاح فى الجزائر •

وكانت مصر جميلة ساحرة مملوءة بالملاهى • وكان جوها يدعو الى المرح والطرب والأخذ من متع النفس الكثيرة فيها • ولكن العربى لم يفتنه فى مصر الا معاهد العلـم وموارده فيها ، وأسباب الثقافة الاخرى فى الصحافة وندوات العلماء • لقـــد كان شحيحا بوقته • انه يستعد للجهـاد العظيم ، انه يشعر بالعدو يجثم على صدره وصدر أمته ليجهز عليهما ، فهل يشتغل بشىء غير الاستعداد للصراع المرير الطويل ، والتسلح لمعارك الاصلاح واعداد الجزائر لثورتها الاسلامية المقدسة المسلحة على العدو • وقضى العربى سبع سنين فى مصر وهو لا يعرف فى نهاره وأغلب ليله الا الدراسة والقراءة أو مجالسة العلماء والاستفادة منهم ، فنال غايته ، ووصل درجة العالمية فى الأزهـر ، وشهد له أساتذته بالنضوج فى العلوم الشرعية والعربية ، وشهد له عصره ، وتلـك هى الشهادة العلمية العظمى التى يطمح اليها الفحول النبغاء •

ومع المكاتب والازهر فى افادة العربى جو مصر الادبى والسياسى المزدهـــر ٠ ما أثرهما فيه ؟ !

أثـــر الجـــو الادبى والسياسى فى مصر فى العـــربى اتبـــى

كانت مصر فى ذلك العهد بعد الحرب العالمية الاولى فى العشرينات والثلاثينات والاربعينات فى أحسن عهودها ، مزدهرة فى كل النواحى ، حرة فى الكلام والعمل ؛ فقطعت أعظم أشواطها وأوسعها فى الميادين ، وصارت سيدة البلاد الإسلامية سيما فى الادب والعلم والسياسة ، وكانت قبلة العالم الاسلامى فآوى اليها كثير من فحول العلم والادب والسياسة من المغرب والمشرق ، فوجدوا فيها الميادين الواسعة لجهادهم والترحيب الكبير بهم ، فزادوا فى ازدهارها وتقدمها وحماسها العظيم فى جهادها ٠

وكانت نهضة الشيخ محمد عبده فى الازهر قد نضجت ثمارها ، فنبغ فى مصر طائفة من الكتاب البلغاء والشعراء العباقرة ، فعمرت بهم أســواق الأدب فى مصر ، وبلغت بهم الصحف والمجلات المصرية أعلى الآفاق التى بلغتها الصحافة العربيــة فى تاريخ مصر الحديث ، وصارت مصر العظيمة مشرقا للنور القوى بصحافتها الراقيـــة المخلصة الاسلامية ، تبثه فى أنحاء العالم الاسلامى ، وصارت قلب الامة الاسلاميـــة النابض ، يوزع عليها الحياة ، ويذكى فيها القوة ٠ رعى الله تلك العهود المباركـــة فى كنانة الله ٠ ومن مجلاتها الراقية التى يحبها العربى حبا جما مجلة المنار التى واصل بها الشيخ رشيد رضى اصلاح الشيخ محمد عبده ، ومجلة الزهــراء ، والهـــلال ، والمقتطف وغيرها ٠ اما الصحف فمنها الاهرام وغيرها كثير ٠

ومن شعراء مصر فى ذلك العهد محمود سامى البارودى ٠ لقد طبـــع ديوانــه العظيم ، فأقبل عليه طلاب الادب يدرسونه فى نشوة وحماس ، فيجدون فيه التعبير الصحيح القوى لآلامهم وآمالهم ٠ وكان شعره الفحل الذى يحمل بطولته ونفســـــه الحربية يدوى فى النفوس ويملؤها بالقوة والحماس والعزة فترفع رأسها على العدو ٠

ومن شعراء مصر العباقرة فى ذلك العهد احمد شوقى ، وحافـــظ ابراهيـــم ، ومصطفى صادق الرافعى ، وخليل مطران وغيرهم ٠ ومن الشعراء الفحول فى غـــير مصر ولكن نتاجهم يصلها فيقرؤه المثقفون فى نشوة وحماس ، جميل صدقى الزهاوى

ومعروف الرصافى فى العراق · وكانت الصحف والمجلات المصرية الراقية تطالع مصر والعالم الاسلامى فى كل أسبوع وفى كل مناسبة بقصائد هؤلاء الفحول وغيرهم فتصيخ مصر والعالم الاسلامى اليهم يضربون على أوتارها الحساسة ، ويدفعونها الى طريق الاستقامة والقوة والعزة · وقرأ العربى الكثير مّن هذا الشعر البليغ ، فترك فى عقله وخلقه آثارا حميدة راسخة ·

اماالكتاب فكثيرون · ومن أبرزهم مصطفى صادق الرافعى ، وعبد العزيز جاويش ، ومحب الدين بن الخطيب ، ومصطفى المنفلوطى ، وابراهيم المازنى وعبد العزيز البشرى ، ومحمود العقاد ، وغيرهم كثير مصريون وغير مصريين · ومن الكتاب الجزائريين والتونسيين فى العشرينات فى مصر الشيخ عبد العزيز التعالبى ، والشيخ ابراهيم اطفيش ، والشيخ الخضر بن الحسين · وكان هؤلاء الكتاب جميعا المشارقة والمغاربة يطالعون العالم الاسلامى بمقالاتهم الرائعة القوية فى المواضيع الاجتماعية والأدبية والسياسية التى تهم مصر والعالم الاسلامى ، فيقبل المثقفون فى أنحاء العالم الاسلامى على مقالاتهم فيقرءونها فى عناية ونشوة ، وينهلون من أدبهم الفحل الجميل ، ويحملون روحهم الاسلامية القوية الثائرة التى يريدون بثها فى الامة الاسلامية · وأقبل العربى على هذه المقالات يقرؤها فى عمق ونشوة ، ويتمنى صدور المجلات والصحف التى تنشر فيها ، ويسارع لاقتنائها اذا صدرت،فاستفاد أدبا كثيرا وعلما غزيرا من هذه القراءة ، وتعلم أسلوب المقالة ، وطرق البحث والتفكير العميق ، وأعده ذلك للجهاد الصحافى ·

وكثرت دور النشر والمطابع فى مصر بعد الحرب العالمية الاولى فنشرت الكثير من الكتب الأدبيه والدينية والاجتماعية النفيسة ، القديمة والحديثة · وكانت المكاتب تزف فى كل شهر كتابا أو كتبا جديدة · فوجد العربى بغيته من الكتب فازداد نشاطا فى القراءة ، وهياما بالدراسة ، وقرأ من ذلك الكثير ·

وازدهرت الصحافة السياسية والاجتماعية فى مصر فى العشرينات كل الازدهار· وكان فى القاهرة عدة صحف يومية واسبوعية، تمتلىء بالمقالات النارية وتنزل بالقوارع على الانجليز وأذنابهم ، وعلى الفساد الذى ينخر فى المجتمع المصرى وفى العالم الاسلامى ·

وكان الجهاد الوطنى على أشده ، والمعركة السياسية فى احتدامها فى مصر فى ذلك العهد · وكان يقود مصر فى جهادها السياسى العظيم البطل الكبير سعد زغلول · وكانت مقالاته فى الصحف ، وخطبه النارية القوية كالرعد يجلجل بها فى سماء مصر

فتصيخ اليه القلوب فى أنحاء العالم الاسلامى ، وتفيض روحه القوية فتملأ كل من يسمعه أو يقرأ له · لقد صممت مصر على التحرر من الجهل والاستعمار والفساد ، وتكون أمة عظيمة بدينها وعلمها وغناها ، حرة عزيزة ، فاستأنفت معركتها السياسية الكبرى فى قوة بعد الحرب العالمية الاولى · وكان جوها يشتعل بالحماس ، فطرب العربى طربا عظيما بجهاد مصر ، ورأى أبطالها يشتبكون بأعدائهم المستعمرين فى المعارك الحامية ، وشاهد المظاهرات الصاخبة تملأ شارع الازهر وشوارع مصر الكبرى تطالب فيها الامة بحقوقها،وتنادى بسقوط الظلم والاستبداد ؛ فتنفس العربى الصعداء لقد كان شديد الحقد على الاستعمار فنفست مصر بجهادها عن صدره المكضوم ، ووافق هذا الجو الحماسى فى مصر نفس العربى الثائرة على الظلم والفساد ، وطَبَّعَ البطولة الموروث فيه ، فصار يتتبع جهاد مصر السياسى فى اهتمام شديد ونشوة بالغة وحماس كبير ، فيقرأ لساستها الكبار ، ويحضر خطبهم فى نواديهم : نادى الحزب الوطنى ونادى حزب الوفد وغيرهما ، فازداد علما بالسياسة ، ومعرفة للقضايا العربية الوطنية وأمراض الأمة الاسلامية ، واحوال المسلمين فى أوطانهم ، وازداد معرفة لنفوس المستعمرين وأغراضهم الصليبية فى بلاد الاسلام ، وتكوّن فى العربى بماشاهد من جهاد تونس ومصر وعى سياسى قوى ، ودربه ما شاهد على خوض المعارك الطاحنة ، وزاده جرأة واقداما ، وعلمته مصر وتونس اساليب النضال والعراك السياسى ، وأجدت مصر جدوى عظيمة على العربى بجهادها السياسى الذى شاهده وانغمس فى حماسه وأعدته للجهاد ، وأرهفت حده للنضال ، وزادت فى جرأته واقدامه ، ومقته لأعداء دينه ووطنه ·

اعجابه بالحضارة الاسلامية
وسيادة اللغة العربية فى مصر

وأعجب العربى كل الاعجاب فى مصر بحضارتها العربية الاسلامية ، وباللغة العربية الرافعة الرأس فى مصر · انه يراها فى كل مكان ، فى الصحافة والكتب ، ومناشير الحكومة ، وفى ألسنة الناس ، وفى عناوين المجلات ، وفى كل المجالات· ورأى احترام الناس لها ، وتكلم الاروبيين بها ، خضوعا لمصر ومجاراة لها فيما تقدسه وتتمسك به ·

وأعجب بالحضارة الاسلامية التى يراها فى كل مكان فى القاهرة : فى مساجدها الكثيرة الكبيرة الرائعة، وفى مآذنها الرفيعة الجميلة التى توجد فى كل أحيائها، ويراها

العربي اذا أشرف على القاهرة من قلعة محمد علي في سماء مصر تاجها الرفيع ، وقرونا كثيرة عتيدة تتسلح بها مصر ، وتبعج بها قلوب أعداء الاسلام · ويرى العربي الحضارة الاسلامية العربية في الأحياء الاسلامية ، وعادات أهلها وأزيائهم العربية الجميلة فينتشي بها ، ويعجب بمرح المصريين وسهولة طبعهم ، وسرعة إلفهم للغريب ، وحفاوتهم به ، وايناسهم له ، بمجالسهم التي تملؤها الدعابة الظريفة ، والنكتة الحلوة ، ويفيض فيها مرحهم فيملأ نفس العربي فيذهب عنها وحشة الغربة ، وعناء الكدح ، وهموم الزمان · وكان يلذ للعربي في وقت فراغه ان يتجول في الاحياء الاسلامية ، فيعب من هذا السحر · كان يتجول ويجد راحة نفسه ولذتها في حي الازهر ، وسيدنا الحسين ، وخان الخليلي ، والغورية والقلعة ، وحي الخليفة ، والسيدة زينب وغيرها · وكان يقصد النيل فيشرف عليه من قناطره ، فيعب من سحره الساحر ويجلس على حافته ، ويشاهد السفن الشراعية تشق عبابه ، وامواجه الصافية تصفق وتقبل عليه حتى تركع تحت قدميه ، والقاهرة النشيطة الفتية ترعد بنشاطها وحيويتها الدافقة حول النيل كأنها تفعل ذلك لتؤنسه وتعوضه ما فقد من رعود السماء ! فيغسل النيل بجماله ونسيمه ونضارته نفس العربي ، ويملؤها بالنضارة والقوة وحب الجمال ، ويجدده للكدح في العلم ·

ودام العربي في مصر سبع سنين كانت طلقا واحدا لم يسافر منها الى مكان · وكانت كلها جدا وكدا في التحصيل وبناء النفس ، فوصل درجة العالمية ، وانتهت دراسته في الازهر ، وأخذ بحظه الوافر من موارد العلم والنضوج الاخرى في القاهرة فوجد نفسه مستعدا لبناء الجزائر في أهم نواحيها ، وهي ناحية التربية والتعليم والاصلاح الاجتماعي بشتى وسائله ، فعزم على الرجوع الى الجزائر · ان العلم لا ساحل له · ومدة طلبه من المهد الى اللحد ، فتزود من الكتب النفيسة ما استطاع شراءه ، وزم حقائبه ، وركب البحر الى الجزائر ·

رجوعه الى الجزائر

كان ذهاب العربي الى مصر في عام 1920 ورجوعه منها في عام 1927 م وكان في وسط العشرينات وآخرها يتنطس اخبار الجزائر ، وتأتيه أنباؤها المهمة في رسائل أصدقائه العلماء الذين يكتبون اليه ، ويعرف أنباءها من الصحف العربية الجزائرية التي نشأت في وسط العشرينات وآخرها · فرأى مصلحي الجزائر يواصلون جهادهم

بخطوات أوسع بعد الحرب العالمية الاولى ، وكفاءات جديدة تنزل الى ميدان الاصلاح فدخلت بها النهضة الحديثة شبابها • لقد ازدهر معهد الشيخ ابن باديس فى قسنطينة وكثر الاقبال عليه وعلى دروسه فى الجامع الاخضر ، وأنشأ هو وصحبه جريدة المنتقد ثم مجلة الشهاب ، ورجع الشيخ الطيب العقبى من الحجاز فاستقر فى بسكرة ينشر العلم ، ويطهر النفوس بالوعظ الحى فى جامع بكار وغيره ، ويكتب المقالات القوية فى جريدة صدى الصحراء ، ثم انشأ جريدته الاصلاح التى كانت لسانا وسلاحا للاصلاح ؛ ورأى جهاد الشيخ ابراهيم اطفيش فى مصر ، وما ألف من كتب ، وما طبع من كتب جزائرية كثيرة نفيسة ، ورأى مجلته المنهاج التى كانت لسانا بليغا للجزائر والمغرب فى مصر ، وسلاحا يفتك بأعداء الاصلاح ، وينير للامة طريقها ، وينافح عن الدين والجزائر والمغرب ، والأمة الاسلامية • وعرف العربى من مجلة المنهاج أنباء الاصلاح فى جنوب الجزائر ، ودخول نهضة وادى ميزاب الحديثة فى شبابها القوى بفضل علمائها واعلام الاصلاح فيها : الشيخ بيوض والشيخ أبى اليقظان وغيرهما فامتلأ العربى تفاؤلا لما رأى الجزائر تعمها اليقظة ويشب فيها الاصلاح : وعرف جهاد صديقه الشيخ مبارك الميلى فى الاغواط ، واقبال الناس على مدرسته فيها حتى امتلأت ، واكتظاظ الجامع العتيق بالمسارعين الى دروسه النفيسة • ورأى جهاد الشيخ أبى اليقظان التربوى فى تونس وما أعد للجزائر من أجيال صالحة مثقفة مدربة على الجهاد ، ورأى جهاده الصحافى العظيم فى الجزائر ، وانشاءه لصحيفته (وادى ميزاب) التى كانت منبرا للاصلاح وسلاحا للمصلحين فى الجزائر والمغرب • وعرف استقرار الشيخ البشير الابراهيمى فى مدينة اسطيف ، وانشاءه لمدرسته العربية العصرية فيها ، واقبال الناس على دروسه العظيمة فى التفسير فى الجامع الجديد فى اسطيف • فأيقن العربى أن ميدان الجهاد الذى يتمناه قد تكون فى وطنه ، وسمع دوى المعارك الاصلاحية يشنها صحابته المصلحون فى انحاء الجزائر ، فثار طبع البطولة فى أعماقه ، فلم يستطع صبرا على الجهاد • فأسرع الى الجزائر ، فبدأ جهاده العظيم التربوى والاصلاحى فى تبسة ، وفى أنحاء أخرى من الجزائر • فانجحه الله فى جهاده كما أنجحه فى التلمذة ، بفضل تقواه ، وحسن نيته ، وقوة استعداده ، فكان من أعلام الاصلاح فى الجزائر • فما هى مراحله فى جهاده الطويل العظيم ، وما هى عوائده المباركة للجزائر والمغرب والأمة الاسلامية ؟ هذا ما سيأتيك فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ان شاء الله • والآن هيا عزيزى القارىء الى جنوب الجزائر العظيم الباسل ، فترى جهاده المظفر العظيم وأعلام الاصلاح فيه •

أعلام الإصلاح في الجنوب

أعـلام الاصـلاح في الجنـــوب

من اليمين الى الشمال المشائخ الفضـلاء :
سليمان بن الحاج داود ، عبد الرحمن بن عمر بكلي ، الشيخ بيوض ابراهيم بن عمر ، والشيخ أبـــو اليقظان ابراهيم بن الحاج عيسى

من اليمين العلامة الجليل البطل الشيخ ابراهيم اطفيش
وبجانبه الشيخ محمد بن الحاج صالح التميمى رحمهما الله

من اليمين الاستاذ الجليل الشيخ عدون بن باالحاج الركن الركين لجمعية الحياة ومدير معهد الحيـاة ، وبجانبه الشيخ صالح بابكر قائد النهضة الاصلاحية والعلمية فى مدينة غرداية من عام 1928 الى الآن وهو مثال الصفاء والتواضع وحسن الخلق والنشاط والعمل لله . لذلك أحبه الجميع وأنجحه اللـه فى جهاده . بارك الله فيهما للدين والعلم والاصلاح

العلامة الجليل الشيخ

إبراهيم بن عمر بيوض

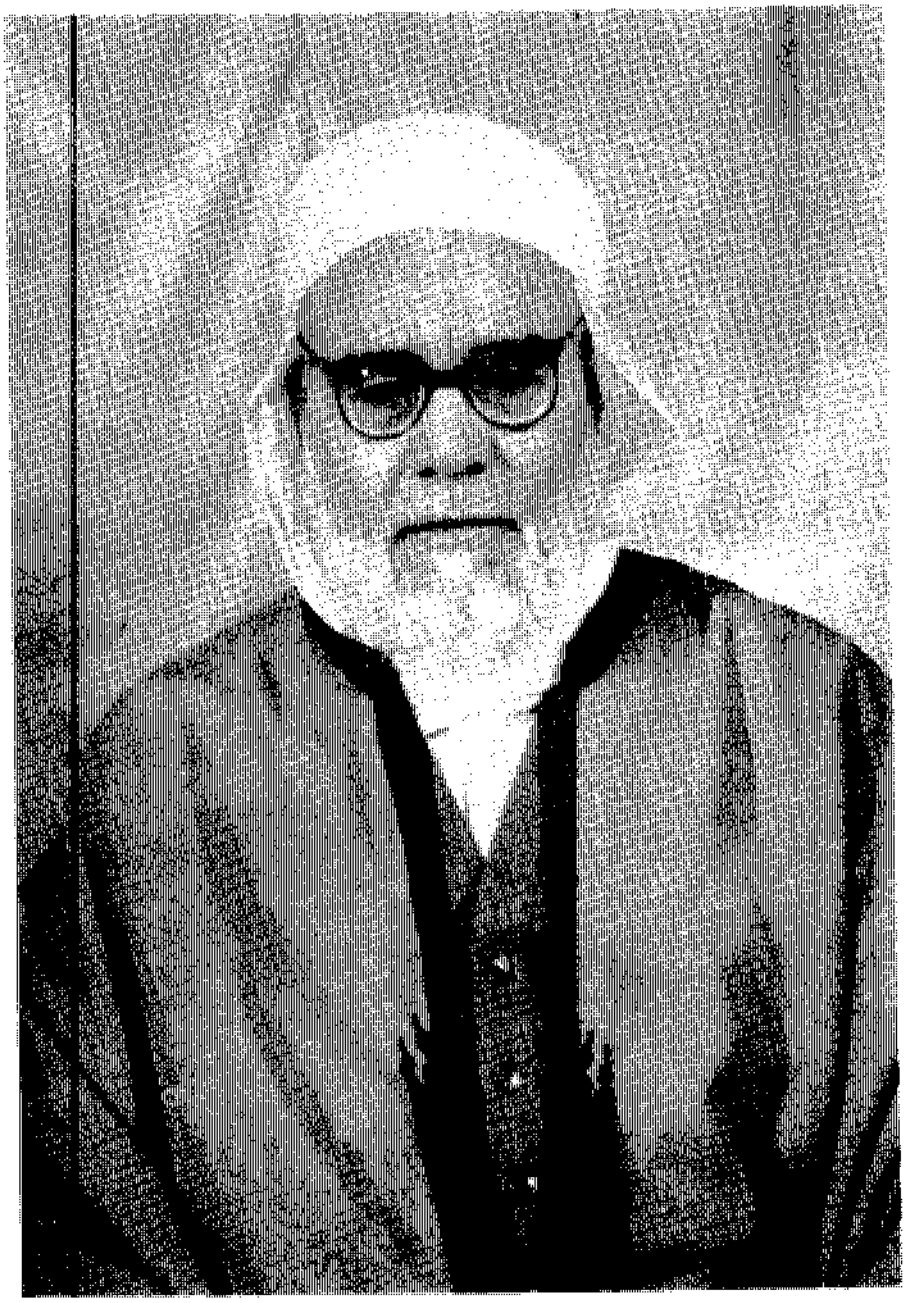

العلامة الجليل الشيخ ابراهيم بن عمر بيوض

العلامة الجليل الشيخ

إبراهيم بن عمر بيوض

نسبه الكريم ووراثته :

قال الاستاذ الجليل الشيخ ابراهيم بن عمر بيوض حفظه الله ومتع الأمة الاسلامية به : « نسبي كما هو موجود بخط قطب الائمة الشيخ الحاج امحمد اطفيش رحمه الله هو : ابراهيم بن عمر بن بابة ، بن ابراهيم بن حمو ، بن ابراهيم بن حمو ابن بابة ، بن أحمد بن علي بن اسماعيل، بن عيسى بن علي. وعلى هذا الاخير هو الملقب (باعلاهم) وهو الجد الذي تفرعت عنه فروع عشيرة (أولاد آعلاهم) في القرارة في ميزاب بجنوب الجزائر وهو من أولاد بخت بن يعقوب كما نص عليه الشيخ اطفيش قطب الائمة رحمه الله » ولقبي بيوض بفتح الباء وضم الياء المشددة وسكون الضاد وهو لقب أسرتي . وأول من لقب به جدي الثاني ابراهيم بن حمو الاول لبياض لونه ، وجمال هيأته ، فسري منه هذا اللقب الجميل الى ذريته ، وهؤلاء الاجداد من مدينة القرارة في ميزاب » .

هذا هو نسب الشيخ بيوض من جهة أبيه . وسوف أورد لك نسبه من جهة أمه . فكيف كان والده وأجداده ؟ ما هي العوامل التي كونت شخصيتهم العظيمة فتحدرت منهم الى حفيدهم فكان على العبقرية في العقل ، وعلى الفضل في الخلق ، وزوده الله بكل أسباب الزعامة والقيادة ؟

ان العبقرية ثمرة لا تخلق نفسها ، ولكن تكونها الاصول ، وتنعشها البيئة . فاذا أردنا أن نعرف أسبابها وجب دراسة الأجداد والبيئة ، فهما أكبر الأسباب فيها . وهذا ما سنفعله ان شاء الله . وهي جذور العظيم الخفية التي لا يستطيع الابانة عنها سواه ، ومن عاشر آباءه وخبره في طفولته . ان هذه الاسباب في العبقرية مما يغفل عنه أغلب المؤرخين العرب الذين يكتبون تاريخ الزعماء . وترى البعض يرى أن دراسة هذه العوامل من الاسهاب المكروه ، وفضول القول . انهم يحصرون نظرهم في الزعيم وأعماله ، وهو الشيء السافر الذي يعرفه حتى العامة . أما أصول عبقريته وهو مالا يستطيع معرفته الا الخاصة فيسكتون عنه ، فيكون تاريخهم مبتورا ، وما كتبوه على غير أساس، يحيط به الغموض ، وتكتنفه الظلمات ، ويورث للقارىء الالمعي الحيرة .

ان التاريخ للاقتداء · وبيانُ أسباب العبقرية فرض على المؤرخ لتأخذ بها أمته وكل قارىء ، فيتقوى نبوغها وتسطع فيها العبقريات ·

وسأعتمد على الرواية فى بيان وراثة الشيخ من أجداده ، لا أزيد شيئا على ما حدثنى به الشيخ بيوض حفظه الله فى هذا الباب · فقد سألته عن كل ما أريد فى تاريخ والده واجداده ، فأجابنى فى اسهاب · وايراد حديثه عنهم تاريخ مهم يصور الزمان الذى عاشوا فيه ، والبيئة الطبيعية والاجتماعية التى تقلبوا فيها · تلك البيئة التى طبعتهم بالفضل ، وثقفت عقولهم ثقافة صحيحة ، فكانوا من الاجيال المباركة التى بدأت للجزائر نهضتها ، بما أنجبت من زعماء رفعوا لواء الدين ، وقادوا الامة فى طريق الصلاح والفلاح ·

وسأجعل بين قوسين ما أرويه عن الشيخ ، وبقية ذلك من كلامى أحلل به نصوص الشيخ التاريخية ، وأستخرج للقارىء ما يجب استخراجه منها ·

قال الشيخ بيوض حفظه الله : « ان ما اعرفه عن والدى ومن أعرف من أجدادى أنهم يحترفون ثلاث حرف : الفلاحة · عندهم أجنة يفلحونها ويغرسون فيها النخيل والاشجار · ولهم عبيد وموال يستعينون بهم فى أشغال الفلاحة الواسعة المضنية ·

والعمل الثانى لوالدى واجدادى هو الحرث فى البادية مع الاعراب · ان كل واحد له صديق أو أصدقاء من القبائل البدوية التى تحل قريبا من القرارة ، وأغلب هؤلاء من أولاد نائل ، فيشترك معهم فى حرث الاراضى التى توجد حول زقرير فى غرب القرارة ، او الاراضى الكثيرة الصالحة للحرث فى شرقها · وتبعد هذه الاراضى عن القرارة بمائة كيلو مبترا وأقل · فالبادية التى بين مدينة القرارة وقطارة ، وبينها وبين مدينة مَسْعَدْ وَالْجَلْفَة تشتمل على أراض صالحة للزراعة · فاذا أمطرت وسالت أوديتها فرويت هب أصحابها لزراعتها بالقمح والشعير ·

وكان القراريون سيما والدى وأجدادى يشتركون مع هؤلاء الاعراب فى زراعة تلك الأراضى · يعطونهم البذر والزاد ، ويشتركون معهم فى مصاريف الزراعة والحصاد ويخرجون معهم للزراعة والحصاد · كما يشتركون مع الاعراب فى تربية المواشى : الغنم والابل · وكان الرعاة من البادية ·

وكانت تلك الاراضى بورا وفى البادية القحلاء·ولكنها اذا أمطرت وزرعت تغل لأصحابها خيرا كثيرا من البر والشعير الذى هو قوتهم الضرورى ، لا يجلبون شيئا

للقوت من الخارج الا زيت الزيتون ، وبقية ذلك من زراعتهم فى القرارة والبادية · وقد عاشوا فى يسر ورخاء بكد يمينهم ، وبفضل نشاطهم فى الفلاحة والزراعة ·

وحرفة أبى وأجدادى الاخرى هى التجارة · وكان أغلب التجارة فى ذلك العهد بالمقايضة ، يتبادلون السلع ، لا بالدراهم · وكانت تجارة القرارة فى تلك العهد مع البلدان الشمالية القريبة منها : مَسْعَدْ ، وَالْجُلْفَة وبُوسْعَادَة · يحملون اليها منتوجات القرارة : التمر والمنسوجات الصوفية : البرانس والقشاشب (I) ، والجبب ، وملاحف النساء الحمراء والصفراء ، ومناديل الطعام ، والاغطية للنوم ، ويجلبون من كل بلد بضاعته · وكانوا يجلبون من بوسعادة زيت الزيتون وأعمدة البناء · ان مدينة بوسعادة هى باب الصحراء ، والسوق الكبيرة فى الجنوب الشرقى فى الجزائر · وكان (القبائل) يقصدونها من جرجرة وجبالهم الاخرى بزيتهم ، زيت الزيتون ، وهى مشهورة بالجودة ولذة الطعم والنكهة وصفاء اللون · ويحمل اليها القبائل من جبالهم المملوءة بالأحراج أعمدة البناء ، وخشب المناسج وأعمدتها · وهو ما يحتاجه ميزاب لتسقيف الأبنية فى ذلك العهد ؛ وأوانى الطعام الخشبية : القصاع المختلفة الاشكال والأحجام ، والملاعق الخشبية وغيرها ·

وتاجر بعض أجدادى فى مدينة (سور الغزلان) وكان جدى بابة بن ابراهيم والد ابى تاجرا مشهورا فى سور الغزلان · فتح فيها دكانا للتجارة يقيم فيه أغلب عامه · وقد مرض فى سور الغزلان فنقل الى مدينة الجزائر للعلاج فتوفاه الله فيها فى يوم 10 ذو الحجة 1301 هـ 1 اكتوبر 1884 م ودفن فى مقبرة (سيدى بنور) الميزابية فى الجزائر · وكان والدى كلما ذهب الى مدينة الجزائر لمآربه التجارية يزور قبر والده · وأراني قبره لما صحبته ذات مرة الى الجزائر · والظاهر أن جدى الثانى ابراهيم بن حمو كان تاجرا أيضا فى سور الغزلان فورث ابنه بابة تجارته ·

وفى كل عام ترى القوافل الكبيرة التى تتركب من مائة جمل واكثر ذاهبة آيبة بين القرارة وهذه المدن التى ذكرنا ، مثقلة بالصادرات والواردات · وقد يكون طريق القوافل على قرية (أولاد جلال) فتقع التجارة معها أيضا ·

(I) القشاشب جمع قشابة «بتضعيف الشين» وهى كاجبة من الصوف لها كمان طويلان الى الزند ، وجيبها مقفل الى اعلى الصدر ، وفى وسطها من امام جيب صغير تخرج منه اليد عند الحاجة وكذلك فى وسط كل كم ، وفيها قلنسوة كبيرة واسعة متصلة بها من وراء للباس الراس . وهى لباس بربرى قديم جميل دافئ، صحى يقى صاحبه من المطر ويساعد على النشاط والحركة ، يليق بجبال البربر الباردة الممطرة وبنشاطهم الكبير فى العمل والاسفار . يلبسها البربر واهل المغرب من فوق ثيابهم كالبرنس .

وكان أجدادى يتصفون بالنشاط والجد وحب العمل ، وبالشجاعة والفروسية ، وبالذكاء والفصاحة ، وبالمغامرة لعمارة الوطن والعيشة الكريمة · وكلهم نبيه فى قومه وشخصية بارزة فى وطنه ·

وكان جدى الاول بابة مشهورا بالاستقامة والنزاهة والشجاعة والفصاحة والكرم · وكان جميل الخلقة يتمتع بسمعة طيبة فى بلده ومعاشريه ·

أما تعلم أجدادى فأرى انهم تعلموا كما تعلم والدى فى الكتاتيب ، يعرفون القراءة والكتابة وما يجب فى الدين ، ويحفظون بعض القرآن » ·

هذه هى العوامل الكبرى التى أثرت فى والد الشيخ واجداده ، فكانوا على القوة فى الشخصية ، وعلى النبوغ فى العقل ، والصحة فى الجسم ، وعلى كل الخصائص الحسنة التى ذكرنا فأورثوا كل ذلك لحفيدهم ·

ان الفلاحة والتجارة الصعبة فى ذلك الزمان ، والحرث فى البادية الصعبة ، كلها تربى الانسان أحسن تربية ، وتحدث أعظم الآثار فى كل أنحائه ، وتجعله قويا بطلا ، سيما ان كان عنصرا قويا يشتمل على وراثة حسنة فان هذه العوامل الصعبة الثلاثة تبرز وراثته وتنضجها · اليك بعض هذه الصعوبات التى يعيش فيها من احترف هذه الحرف الثلاثة · والصعوبات التى يبتلى بها المرء ويعاركها ويتغلب عليها هى أحسن مرب له ، وأقوى سبب فى نضوج شخصيته · فكيف كانت الفلاحة والتجارة فى عهود أولئك الاجداد · سنشرح الجو الذى عاشوا فيه ونبين آثاره فيهم وفى الشيخ بيوض فان هذه العوامل التى أثرت فيهم هى التى أثرت فى الشيخ أبى اليقظان،وفى الشيخ ابراهيماطفيش وفى أجدادهم،وفى الشيخ عدون بن بالحاج وفى غيرهم من زعماء الاصلاح فى ميزاب · وسنكتب عنهم كلهم ان شاء الله · ان هذا الباب أصل لتراجمهم كلها · والاسهاب فيه حتى نوفيه حقه يكفينا مؤونة القول فيه فى تاريخ زعماء الاصلاح الآخرين فى ميزاب · ان حديثنا هذا عن عصر أنشأ عدة زعماء قادوا نهضتنا وأصلحوا مجتمعنا · وما كان فى القرارة كان فى مدن ميزاب الأخرى ، فالجو الطبيعى والاجتماعى واحد ، والعنصر الميزابى واحد ليس فيه اختلاف ·

كانت الفلاحة صعبة كل الصعوبة فى وادى ميزاب · انه بلد قحل وجبال جرداء فى الصحراء اليابسة ، لا عيون جارية فيه · ولا أمطار موسمية تغاديه وتراوحه

كما يقع فى الشمال ، ولا مياه قريبة من سطح الارض فيسهل استنباطها • انه منطقة تبعد المياه عن سطح أرضه ثلاثين ميترا وأكثر فى أغلب مناطقه ، وأرضه صخرية وعرة لا تحفر بئر الا بمشقات طويلة وجهود كبيرة ، ومع ذلك حفرت فى ميزاب آلاف الآبار ، وأنشئت فيه حضارة اسلامية راقية لا زالت محل اعجاب كل من يزورها من الاروبيين والمسلمين ، وكل مثقف ينظر بالبصيرة ، ويزن الامور بعقل سليم • وذلك بكد أبنائه وجهادهم المستمر ، ومقاساتهم للصعوبات الكثيرة ، تلك الصعوبات التى أورثتهم أحسن الخلال وكل خير فى نفوسهم • فلولا ما قاسى أجدادهم من الصعوبات والاهوال بقساوة البيئة الطبيعية وغيرها ، ولولا ما يقاسونه هم فى وطنهم القحل لكانوا شعبا ضعيفا هزيلا يموت جوعا ، ولكن جدب وطنهم أورثهم الحصب فى النفوس ، وفقره كان سببا للغنى فى الاخلاق • فما هو هذا الغناء الذى تخلقه الفلاحة عامة وفى ميزاب خاصة فى نفوس الفلاحين •

الفلاحة الصعبة فى ميزاب وأثرها فى بناء الشخصية العظيمة

ان الفلاح الميزابى يقضى كل نهاره وجزءا كبيرا من ليله فى حقله وبستانه فى كد وأعمال مضنية ، يخدم الارض ويهيؤها للزراعة ، ويصلح زروعه ، ويسقيها من الآبار العميقة ، ينزح الماء منها بجمله أو بغله أو حماره أو بكليهما • وقد يكون فقيرا مدقعا لا يطيق ثمن دابة ومئونتها فينزح الماء بساعديه ، يجر بهما الدلو الكبيرة التى تسع ثلاثين ايترا وأكثر • ولنزح الماء من الآبار العميقة فى ميزاب جهاز طريف متعب سنريك صورته • وقد اختفى الآن لما كثرت الاجهزة الميكانيكية فى الآبار ، وحفرت العيون الأرتوازية فى كل مدن ميزاب •

وكان الفلاح يبدأ نزح الماء أمام بئره الطويلة فى شروق الشمس فى الشتاء الى غروبها ، فى البرد القارس الشديد ، وترى المسكين يشعل النار فى الصباح حول البئر ليدفء يديه المتقبضتين المنتفختين بشدة البرد ليستطيع امساك الحبل فى نزح الماء • ويستمر النزح طول النهار وهو يغدو ويروح وراء دابته التى تجر الدلو الكبير وهو يعينها ويلهث معها ، حتى يمتلىء صهريج الماء الكبير ، فيهب شريكه ليسقى الزروع منها ، ويستمر هو فى النزح • وقد ينفس عنه شريكه فيتولى النزح ، فيسرع

نزح الماء على دابتين بغل وحمار ، اخذت الصورة فى القرارة بميزاب

هو الى السقي وأعمال أخرى صعبة كالنزح · وقد يكون الفـــلاح من الاعيان له عبيد وموالى يكفونه نزح الماء فيقوم هو بالأعمال الشاقة الأخرى فى حقوله وبساتينه ·

فى الصيف يبدأ الفلاح الميزابى نزح الماء قبل نصف الليل ويستمر الى نصف النهار ، والعقارب والأفاعى تكمن له فى الليل فى السواقى وأحواض الشجر والزرع

السيد حمو بن بكير الاماليكي القرارى وهو فـلاح قديـم ناشط ينزح الماء بساعديه كما كانوا يفعلون قديما فى طفولته وشبابه ، وهو على اليمـين ، وبجانبه مساعده عبد الحميد بن محمد دبـوز
أخذت الصورة فى القرارة فى شهر يونية 1973

فتؤذيه ، وشمس الصيف المحرقة فى الصحراء الجدباء ترميه بنيرانها ، وهو يسيـــل عرقا ، تكسوه سمرة الشمس الشديدة ، لا يرده الصيف بحـــره القاتل ، ولا الشتاء القاسى ببرده الشديد عن عمله ، ولا يقلل نشاطه بل يزيده · وقـد قدر بعض العلماء ما يقطعه الفلاح الميزابى أمام بئره فى النزح ذاهبا آيبا بأربعين كيلو ميترا فى اليوم ·

وكان الزمان فى عهود أجداد الشيخ بيوض وفى زمن نشأته هو عهود عمارة · لا زالت أكثر الاراضى فى ميزاب بورا تجب عمارتها ، ولا زال ميزاب فى طفولته القوية يمتد امتداده السريع ، ويقطع مراحله الواسعة فى البنيان والعمارة · وكانت النخلـة هى الشجرة الغنية التى آثرها ميزاب وعـــول عليها فى العيش لخصائصها الكثيرة ، وفضلها على كل الاشجار ، وتربته وجوه يصلح لها أكثر ، فعكف الميزابيون على غراسة النخيل فغرسوا منها مئات الآلاف فى وطنهم ، وهى من ذوات التمر الجيـــد فى ألوانه ومذاقه ونكهته وقوته الغذائية · وكان أجداد الشيخ كلهم ووالده من المعمرين غرسوا

مئات النخيل فى بساتين كثيرة لا زالت تنسب اليهم · ما منهم الا وله بستان أو بساتين أكثرها من غراسته ·

ومع النخيل يغرس الميزابون أشجارا للمعاش والزينة ، وهى التـــين والعنب والرمان والسفرجل والمشمش فيعتنون بها ، وترسل ظلالها الوارفة حول الدار التى يبنيها كل فلاح فى بستانه لسكنه فى الصيف والخريف ، ولنزهة أسرته وعملها فى الجمع والاعياد فى الفصول الأخرى ·

وغراسة النخيل فى ميزاب تستدعى جهودا كبيرة فى حفر مكان عميق لغراستها وحمل فسائلها من مكان قد يكون بعيدا ، وتعهدها بالسقى المنتظم الدائم ، ورعايتها فى تربتها وأحوالها ، ولا تصير نخلة مثمرة تكافىء صاحبها الا بعد عشر سنين ·

واذا انتهى الفلاح من زجر الماء وأتعابه الشديدة أقبل على النخل وما يجب فيـــه فيكسر أحواضه بالفأس الثقيلة مرتين فى العام فى الخريف والربيع ، ويتسلق نخيلـه فى كل الفصول · ففى الربيع يؤبرها · يتسلق النخلة التى قد تكون سحوقا طولهـا عشرون ميترا وأكثر ، وهى بدون كـــرب فى ساقها يتمسك به ، فيصـــل جريدها المتشابك الملتف فيدخل بينه لا يخاف السلى الشديد الذي يعترضه ويحوط به من كل جانب ، ولا السقوط فى الطلوع والنزول ، وقد تكـــون العاصفة الشديدة فتترنح النخلة وهو يتسلقها أو ينزل منها وتميل ميلا عظيـما وهو ماض فى عمله لا يخاف ولا يحجم ، بل يجد كل النشوة فى رأس نخلتـــه وهو يؤبرها فيصدح بنشيد التأبير ، وبأغانيه الاخرى فى أعماله الاخرى الشاقة فى النخلة ·

ان تسلق النخيل سيما الطوال السحق ، وفى غابات ميزاب الكثير منهـا ، من أعظم الوسائل فى التربية الخلقية والجسمية،لا تدانيها أية رياضة أخرى فى بناء الجسم وتعليم الشجاعة · وكان الفلاح الميزابى دائم التسلق للنخلـــة ، فى الربيع للتأبير ، يتسلق كل نخلة مرارا ليؤبر عراجينها ، ويتسلقها فى أول الصيف للفـرق : ينقص من غلتها اذا كان الزائد ، وينـــزل العراجين الباقية وينضدها ويضعها على الجريد الاخضر كى لا تثقل فتنكسر ، وحتى يسهل جنيها ، وتكون جميلة مريحة للنخلة لا تميل كلها الى ناحية واحدة فتضرها · عملية صعبة يتعرض فيها الفلاح للسلى الذى يشـك أطراف جسمه فتسيل دماؤه ، وللسقوط · ولكنه يمضى فيها ويألفها ويحبها ، ويجد كل النشوة وهو يتسلق النخلة السحوق ويدخل فى جريدها الشائك ·

ويتسلق الفلاح الميزابى النخلة فى الخـــريف كل يوم لجنى التمر ، ويتسلقها للجذاذ ، ويتسلقها فى الشتاء للاحتطـاب ، ينـزع جريدها وكربها وليفـها اليابس للطبخ والاصطلاء · فى كل الفصول يتسلق الفلاح نخليه ، تدعوه الى ذلك ضرورات المعاش والفلاحة ، ولما فى هذا العمل الصعب من جدوى عظيمة عليه فى جسمه وخلقه· انها أعظم وسيلة تربوية أخذ بها أجدادنا وآباؤنا فكانوا الأجيال القوية جسما وخلقا، فبنوا ميزاب وجعلوه تحفة يرفل فى الحضارة الاســـلامية الزاهية ، وهو فى الارض القاحلة ، والجبال الجرداء ، وكانوا كالذى ينبت الدوحة العظيمة فى الصخرة ببراعتـه ومصابرته ·

وكان الآباء يعلمون كل أبنائهم الصغار تسلق النخيل ، قد يسقط الطفـل منها فينكسر ويشرف على الموت ، واذا شفى أسرع الى النخلة يستأنف تعلم تسلقها ، تدعوه الى ذلك أمه وأبوه ، وزمانه المشغوف بتسلق النخلة لفوائدها التربوية العظمى · وكان الميزابيون يرون الرجل الذى لا يحسن تسلق النخلة السحوق عاجزا ضعيفا لا شرف له فيحتقرونه ولا يبالون به ، لان تسلق النخلة تربية لابد منها ، فلذلك ألزموها كل رجل ليكون شجاعا مغامرا قوى الخلق والجسم ·

ليت شعرى هل نكون عقلاء فنتـــرك تقليد اروبا فى رياضتها الفارغة والمضرة أحيانا كثيرة ، فنرجع الى رياضة أبنائنا فى الحقول فى وقت فراغهم من الدراسة والعمل حيث يجدون وسائل مجدية تروض أجسامهم وتبنى فيهم الخلق العظيـم · ان تسلق نخلة واحدة ومصاحبة الفأس الذى يحرك كل العضلات ساعة واحدة أجـدى عـــلى النشء من هذه الكرة التى يجرى وراءها فى الملاعب وتعلمه أن ينظـــر دائما الى الارض فينشأ خافض الرأس · أما النخلة المباركة وتربية الحقل العظيمة فتجعله شجاعا بطـلا قويا رافع الرأس ، لأن النخلة تعوده أن ينظر دائما الى السماء ، وتجعله فى الاعلى !

اننا لاننكر فوائد الكرة لابناء المـــدن الذين لا حقـــول ولا بساتين لهم ، فهى ضرورية لهم ، ولكن أبناء القرى والمدن التى لها بساتينها فرياضتها الاثيرة الواجبـــة هى العمل ساعات عديدة فى كل أسبوع فى الحقل ، وقضاء العطلة الصيفية فى الحقول هذا ما يدعو اليه العقل والغيرة والاخلاص للدين والوطن ·

ومع تسلق النخيل وأعمال الفلاحة الصعبة التى هى أعظم تربية أثرت الآثـــار العظيمة فى تلك العهود المباركة ، عهود آبائنا وأجدادنا الاقوياء ، الحراسة فى الحقول

حفيد السيد حمو بن بكير الاماليكي وعمره نحو عشر سنين
يتسلق نخلة متوسطة الطول في بستانهم وهو فرح جذلان

والبساتين والبلد . لقد ابتلي ميزاب في تلك الازمنة بالمفسدين الذين يسطـــون على الاجنة والديار فيسرقون ، فكان كل فلاح يحـــرس بستانه وحقلـــه ، ويخرج أيضا في ليلة معلومة في الاسبوع أو الشهر أو ليالي مع فرقته للحراسة في الأجنـــة والمدينة . ان هذه الحراسة واجب على كل الشباب والكهول الذين يستطيعونها . وكانت تقـــع تحت نظر المسجد . فالعزابة هم الذين ينظمونها ، ويعينون رئيسها العام ، ويندبـــون الناس اليها (1) . وكان رجال كل مدينة يسرعون الى الحراسة في شغف لأنها عبـــادة

(1 انظر نظام هذا الجهاز العظيم لتربية الشباب وحراسة المدينة وتفاصيله في كتابنا (نهضة الجزائر الحديثة) الجزء الاول ص 239 ط اولى .

أيضا يتقربون بها الى الله · وما كان مصدره من المسجد ومن العزابة الذين يعملون لله ، ولا يأمرون الا بما يرضى الله ويفيد المدينة ، تتفتح له القلوب ، وتشغف به النفوس ·

ويسمى الميزابيون رئيس الحراسة العام (أَزْعُلُوكْ أَنْ لَامْكَارِيشْ) (رئيس الشباب) لأن أغلب الاعضاء في الحراسة من الشباب.ويشترط في هذا الرئيس الاستقامة ، وحصافة العقل ، والشجاعة ، والسر والعمل لله ، والأقدمية في الحراسة · وفي كل ليلة يقسم الرئيس شبابه جماعات فيعين لكل جماعة ناحيته التي يحرسها في الغابة أو المدينة فتسرع كل جماعة الى ناحيتها وعليها رئيسها يُعَيِّنُهُ الرئيس العام ، وهم متنقبون لا تبدو منهم الا العيون المشتعلة باليقظة والشجاعة والاخلاص ، وهم في السلاح الكامل ، يتنكبون البنادق ، وفي أحزمتهم السكاكين الطويلة ، ويتأبطون الغدارات ، وفي أيديهم الهراوى الثقيلة ، أو المناجل الطويلة · هذا هو سلاح ذلك الزمان · ويبيت هؤلاء الشباب في قر الشتاء وحر الصيف يتجولون في النواحي التي يحرسونها ، ويكمنون في الاماكن المخوفة يرصدون اللصوص والمفسدين ، حتى اذا لاح لهم لص او عصابة من اللصوص انقضوا عليها وأحاطوا بها ، وقد يقع بينهم وبين عصابة اللصوص معركة حامية تستمر ساعات والبارود يدوى بينهم ، فيقع صرعى من الجانبين في المعركة ، فكم استشهد رجال أبطال من شباب الحراسة في هذه المعارك ، ولكن الغلبة تكون للحراس دائما ، فيعتقلون اللصوص أو يهربون اذا وجدوا مهربا وقليلا ما يجدون ·

وتقع هذه الحراسة للبساتين في قيلولة الصيف والخريف اذا حدثت سرقة في النهار أيضا · فتبيت المدينة هانئة آمنة ، والبساتين وادعة مطمئنة بفضل هذه الحراسة الجماعية ، وبفضل يقظة كل فلاح وكل رجل في المدينة في حراسة بستانه وداره ·

وكانت النساء يتحمسن لنحراسة الجماعية كالرجال ،يندبن الابناء والازواج اليها ، ويبتن وهن على اليقظة · وكم من لصوص تنبه لهم النساء فينبهن الرجال ، ويشاركنهم في مطاردتهم بدلالة الحراس على أماكنهم من سطوح الديار ، ومن كوى الحراسة التي تتخذ في جدران الديار في البساتين ·

لا زالت هذه الحراسة الجماعية على أتمها في مدينة غرداية الى الآن بنظامها التربوى العظيم ، ولا زال شبابها وكهولها يسارعون اليها في نوبتهم في شغف

وحماس ، فيحفظون مدينتهم وبساتينهم فى كل الفصول من كل المفاسد والمهالك ، رعاهم الله ، وبارك الله فيهم ، وهدى الله المدن الاخرى فتقتدى بهم · تلك المدن الغافلة التى لم تعرف حظها فى هذا النظام التربوى والاجتماعى العظيم ففرطت فيه ، فخسرت خسارة كبرى فى أخلاق شبابها الذين سيتصفون بالفسولة والاتكالية والانانية ، وان لم يسط عليها اللصوص ويتكون فيها الفساد ·

ان هذه الحراسة واجب على كل فلاح ، وأغلب الميزابيين فى تلك العهود فلاحون · وكان كل رجل فى ميزاب يملك السلاح الكامل : البندقية الطويلة ، والغدارة القصيرة (الْكَابُوسْ) وهى تحشى من فوهتها بالبارود والرصاص كالبندقية ، ذات طلقة واحدة أو طلقتين ، والسكين الطويلة الماضية · وقد يملك (الْقَارَابِيلَة) وهى بندقية قصيرة غليظة واسعة الفوهة والوسط ، تحشى بالرصاص الكثير وبالمسامير مع البارود فتفتك بجماعة كبيرة فى الساحة الواسعة · ان هذه (الْقَرَابِيلَة) الفتاكة مما اشتهر به الميزابيون فى حروبهم القديمة مع أعدائهم ، ولا زالت غير أنها تستعمل فى حفلات البارود فى الاعياد والاعراس ، وفى رمضان فى الامساك والافطار ، فتدوى كالمدفع فى سطح المسجد فتسمعها كل النواحى فى المدينة ·

وكان كل رجل فى ميزاب يتدرب على الرماية منذ نعومة أظفاره بالحجارة أولا ثم بالبندقية ، فبرع الميزابيون فى الرماية ، وفى صنع البارود والرصاص وفى أعمال الفروسية الاخرى · ولما كان جهاد الامير عبد القادر بعد الاحتلال الفرنسى كان ميزاب من المناطق الهامة التى تزوده بالبارود والرصاص الكثير ، وبالاسلحة · وقد تدرع الفرنسيون لاحتلال ميزاب فى عام 1882 م بأنها تزود المجاهدين بالسلاح ، وتعين الثائرين عليها ·

وكل رجل فى ميزاب لا يملك السلاح ولا يحسن استعماله ، ولا يكون جلدا شجاعا يحتقره الميزابيون وينبذونه ، واذا خطب لا يزوجونه · هذه هى نظرة تلك العهود القديمة الى أخلاق الرجولة واعتدادهم بها ، انها سبب التقدم عندهم لا كثرة الاموال !

ومع اسراف الفلاح الميزابى فى تلك العهود فى الاعمال الشاقة ، وقضاء يومه كله فى الاشغال الصعبة ، كان طعامه بسيطا · ما هو الا التمر واللبن فهو طعامه فى نهاره كله ، والشعير الذى يتعشى به وادامه فى الغالب شحمة قد تكون قديمة يصنعون

به الْكُسْكُسْ في العشاء · أما النهار فيصطحبون قفة التمر فيأكلون نصفها في الفطور عند الضحى ، ونصفها في الظهر وهو الْغَدَاء ، واذا بقى شيء يأكلونه في الاصيل اذا اشتد بهم الجوع يمسكون به الرمق الى وقت العشاء الذى يتمنونه ويسرعون الى قصعته اذا حضر · ولا يعرف الفلاح القمح واللحم الا قليلا ، ولا يعرف الغداء الا في يوم الجمعة وأغلبه حساء بدون لحم يلعقونه بعد التمر · وهذا في بعض الاسر المتوسطة الحال أما الفقيرة فتكتفي بالعشاء · هذا هو نظام أسرة الفلاح كلها في الطعام ، وسنتحدث عن المرأة الميزابية في هذه العهود وجهادها وجهدها في الاعمال ·

أما التجار الموسرون الذين جمعوا بين الفلاحة والتجارة كوالد الشيخ بيوض وأجداده الاقربين ــ وهم أقلية في القديم ــ فأغلب أكلهم القمح ، وطعامهم دسم باللحم والسمن ، ومع ذلك فعمادهم في القوت هو التمر يأكلونه مرارا في اليوم ·

لقد آثر أجدادنا الميزابيون لطعامهم التمر والشعير لقوتهما الغذائية ، وفوائدهما العظيمة للجسم · فلو كان غذاؤهم القمح والمواد الدسمة الاخرى ما كانوا على ذلك النشاط والقوة في العمل ، وما كانوا على الصحة والفراهة في كل نواحيهم ، لا يعرفون الطبيب وأدويته ، ولا الانين من وصب يصيبهم ، ولا أمراض المعدة والدماء ·

ان الشعير والتمر وزيت الزيتون هي طعام أجدادنا البربر الذين مثلوا في الزمن القديم صحة الاجسام ، وقوة البنيان ، وقاموا بالاعاجيب في تاريخهم العظيم بفضل قوة أجسامهم ، ومتانة أخلاقهم ، وحصافة عقولهم · وهي طعام محمد عليه الصلاة وأزكى السلام ، وطعام الصحابة رضوان الله عليهم ، هداهم الله اليه لما أراد أن يبني أجسامهم للاثقال العظمى ، ويورثهم قوة في الخلق ، وصفاء وحدة في الذهن لا تكون الا بالتقشف في العيش ، والخشونة في الطعام !

لقد هاجر أغلب الميزابيين الآن التمر في طعامهم ولم يبالوا به ، وصار الكثير منهم يلم به المامة بسيطة في أسبوعه وشهره ، وهاجروا كلهم أكل الشعير وآثروا السميد والقمح وملاذ الحضارة ، فهاجروا أسباب الصحة والقوة · فلو عقلوا لجمعوا بين طعام أجدادهم وما يشتهون ·

ولباس الفلاح الميزابي في تلك العهود المباركة ــ وجل الميزابيين فلاحون ــ بسيط كطعامه : جبة من صوف تحتها قميص الكتان ، وسراويل الى تحت الركبة بالتكة ، وحزام عريض من الجلد يشد به خصره فوق الجبة ، وسكينه الماضية تتدلى من حزامه

فى غمدها الجلدى الاحمر فى جانبه الايسر لا تفارقه ، وطاقية صوفية بيضاء ، ولحفة صوفية بيضاء يلفها حول رأسه وعنقه فى الشتاء ، ويشدها بخيوط صوفية بيضاء او سودا، يلفها حول رأسه كالعمامة ، وقد يشدها بعمامة صغيرة من الشاش الابيض · ونعله من الصنع المحلى وهو (بلغة) نعلها من جلد الجمل السميك ، والبقية من جلد المعز أو الظأن المدبوغ وهى متينة تليق للسير فى الرمال والجبال · تغطى كل الرجل ولها لسانان عريضان من أمامها وخلفها يغطيان مقدم الساق من أمامه وخلفه · واذا كان فى المدينة أو فى المسجد يرتدى البرنس فوق الجبة ويتحزم على سراويله · واذا كان القر الشديد أو المطر فى الشتاء فيلبس القَشَّابة فوق الجبة فاذا وصل الغابة وتأهب للعمل خلع القشابة والنعل ، وقد ينزع اللحفة أيضا اذا كان الجو دافئا · هذا هو لباس أجدادنا ولباس أولادهم الذكور ، بسيط كطعامهم · ومع هذا تجدهم فى البرد الشديد فى بساتينهم تشرق وجوههم بالرضى والحبور ، وبحمرة الصحة والسعادة ويشعرون بدفء لا يحسه أصحاب القصور ، من حماسهم فى العمل وتأججهم بالنشاط· ان القاعدة عندهم فى الشتاء القارس هذا المثل العامى الحكيم : (اللِّي إحَبّ اسْخَانَة إخَرَّجْهَا مَنْ جَنْبُو) من أراد الحر فليستخرجه من عطفيه فى العمل المرهق ·

وكان الفلاحون الميزابيون لحبهم للعمل ، وغرامهم بهذه الفلاحة الصعبة ، واعتقادهم أن عملهم جهاد عظيم فى سبيل الله يؤجرهم الله عليه بأحسن مايشتهون فى الدنيا والآخرة ، وهو عمارة للوطن الذى يحبونه كل الحب فيستلذون التعب فى سبيل اسعاده وازدهاره ؛ كانوا بهذه العوامل النفسية يقومون بكل أعمالهم وهم يشعرون بالنشوة والفرح العظيم · فلو ثقلت عليهم ما استمروا فيها · وكانوا يقومون بكل أعمالهم وهم يشعرون بلذة من اعتاد شيئا قد آثره ورأى فيه منافع عظمى· وكان يصدح بالغناء فى كل أعماله الصعبة ، ويقضى أوقاته الطويلة فى الحقل فى حبور وسعادة ، لا يؤنسه شيء غير حقله وبستانه ، وهذه النخلة التى ألفها فصارت جزءا من حياته كأنها بعض أسرته · وقد تشتد الامطار ، أو يكون عيد اسلامى فيوقف أعماله ويبقى فى المدينة بين أهله ، فيشعر بضيق كبير لا يفرجه الا ذهابه الى غابته وجلوسه فيها آونة ·

الفلاحة سبب الاخلاق الاجتماعية العظيمة

ان الفلاحة الصعبة فى ميزاب خلقت كل الاخلاق العظيمة فى الفلاح ، وغرست فيه الخلق الاجتماعى ، فكان محبا للتعاون ، ذانجدة وغيرة على الدين والوطن ، يرأف

على الضعيف ، ويجود على المحتاج ، ويسارع الى اعانة غيره · يتعاونون فى كل أعمالهم الصعبة · فى حفر الآبار ، وغرس النخيل ، وفى التأبير والفرق والجذاذ ، وفى الحرث والحصاد والأندر · فكلما صعب عليه عمل أسرع اليه اخوانه وجيرانه ، ويسرع هـو اليهم · فلـولا التعـاون الذى يغرسه الدين وهذه الصعـوبة الشـديـدة فى الفلاحة الميزابية ، ما وقعت هذه العمارة ، وما صار ميزاب فى وسط الصحراء القاحلة تحفـة بحضارته ونضارته ·

كانت خلة التعاون طبعا راسخا فى نفوس الميزابيين فنجحوا فى بنـــاء وطنهـم وعمارته· يتعاونون فى أعمال الحقل وفى أشغال المدينة الصعبة ، سيما فى بناء الديار· ان الميزابى فى تلك العهود المباركة لا يستدعى لبناء داره الا البناء وحده · وبقيـــة الاعمال التى تستدعى عمالا كثيرين ، يسرع اليها اخوانه فيقومون بها أحسن قيـام فى وقت قصير · فهم الذين يستخرجون الجبس وحجر الجير من معادنه خارج البلـد ، ويجلبون الحطب من الوادى وقد يكون بعيدا لانضاجه ، فينقلونه على دوابهم الى صاحبه وهم الذين ينقلون اليه الحجر الكافى من الجبل يقتلعونه بمعاولهم ، وكذلك التـراب والحصباء اللازمة للبناء · وهم الذين يعجنون الجبس والجير ويناولونه البناء · وتـرى صاحب الدار المبنية خفيف الكاهل ، يشرف على الاعمال وهى تجرى فى نشاط ونظـام واتقان ، وفى غناء وطرب وسعادة · فيبارك الله فى العمل الجماعى فيتم سريعا وبنفقات قليلة بناء الدار الكبيرة الواسعة التى تتكون فى الغالب من طبقتين أو ثلاث طبقات ذات حجر عديدة · وأغلب الاخوان والجيران الذين يعملون بأنفسهم فى البناء يحملون الطعام الكثير للبنائين وأسرة صاحب الدار فى الغداء · جفنة كبيرة من كسكس القمح مكللـة بلحم كثير ، براقة بالسمن دسمة معها اناء كبير مملوء بالمرق الاحمر الدسم ، طعـام لذيذ قوى هو الذى يليق فى الاعمال الشاقة وتحفة الاخوان · ويرسل الكثيرون أبناءهم الصغار أيضا للعمل فى البناء لينشئوهم على الخلـــق الاجتماعى العظيم ، وعلى الجِدّ والتواضع وخدمة الناس ·

وكان كل رجل فى ميزاب لا يصل الثلاثين حتى تكون له دار واسعة متينـة فى المدينة يستقل فيها عن والديه بأسرته · دار كبيرة من الحجارة والجبس والجـير ، لا يبنى الميزابيون فى المدينة الا بها · وقد استطاع كل فرد ذلك بالتعاون · ومنهـم من يملك ديارا عديدة فى مدينة واحدة ، بنيت كلها بهذه الطريقة التعاونية · ولولا الخلق الاجتماعى الذى غرسه الدين الاسلامى العظيم ، وكرم العنصر ، وهذه البيئـة

الصعبة في نفس كل ميزابي ما عمر هذا الوطن ، فصار جنة فيحاء وارفة الظلال في قلب الصحراء الجدباء .

الفوائد التربوية العظيمة للفلاحة في ميزاب

تلك هي الفلاحة في وادي ميزاب ، صعبة مرهقة ، لكنها ذات أثر عظيم في كل نواحي الانسان . تقوي ارادته ، وتكون فيه الشجاعة والصبر والمغامرة والتضحية ، وتعلمه التعاون والاتحاد ، وتورثه بياض القلب ، وسهولة الطبع ، وحبا للخير ، وغيرة على الدين والوطن ، فيكون دينه ووطنه أحب اليه من نفسه ؛ وَتُقَوِّي فيه الطبع الاجتماعي فيسعى لمصلحة غيره كما يسعى لمصلحته ؛ وهو طموح تهده الاتعاب، ويعضه الفقر ، فيعمل على أن ينشأ أبناؤه على حال احسن من حاله ، فيحرص على تعليمهم ، ويوجههم الى التجارة والصناعة أيضا ليستدر أخلافهما .

أثر الفلاحة الجميل في وجدان الفلاح

والفلاحة في ميزاب كما تربي بصعوباتها هذه الاخلاق العظيمة في النفس ، فهي تربي الوجدان القوي بما يحف الفلاح في كل أوقاته في كل الفصول من جمال ساحر في بستانه وحقله ، فينشأ قوي الوجدان ، يحس الجمال في كل الاشياء فيغرم به ، ويدرك الرذيلة وقبحها فيبغضها .

في حقله ينعم بصحو السماء الدائم وشمسها المشرقة ذات الالوان الجميلة في طلوعها وغروبها ، وفي ضحاها وكل أوقاتها . تلك الشمس التي تورثه ما تورث الثمار من حلاوة وجمال في النفس ، وانبساطا في الطبع ، فيكون متهللا باسما للناس ؛ وينعم بالنجوم التي لا تفارقه في حقله ، ترنو اليه دائما ويرنو اليها بالمحبة والانس ، ويعرف منها أوقات الليل ، وفصول العام ، وطريقه في البوادي المجهولة . فهو دائم التطلع الى السماء فيجد نجومها تهتز وترقص فيرقص قلبه بجمال مصابيح السماء ، ويشعر بنهار من نورها في أعماقه ، فلا يجد وحشة الليل وهموده ، فتراه في ليالي الصيف كلها ، وفي ليالي حراسته في الشتاء على شاطئ النهار ويقظته وأنسه . ويطالعه القمر من خلال الجريد والغصون ، ويراه دوائر جميلة في أرض

بستانه فينعم بجماله فى الارض والسماء ، ويسامره طول الليل فى الصيف ، ويجلو عليه جمال البستان والحقل ، فيذكى فيه النشوة ، ويملؤه بالانس ، فيصدح بالغناء ، وتحمد الله نفسه على نعمه فى القمر الحبيب الذى تبسم السماء به لعباده الكادحين ابتسام الاعجاب والمحبة فترنو اليه أبصارهم بنظرات المحب الى عينى حبيبه ومحياه. وربما كان فى البستان الحصين يسقى نخله وأشجاره فى الليل فتتطلع عرسه من كوة السطح فتراه وحيدا ، فيستفزها جمال القمر وموسيقى البستان فتسرع اليه وفى أردانها البخور الميزابى الذكى ، وفى شعرها العطر الفواح ، وفى محياها البشر والحزم والمحبة فتساعد زوجها فى السقى ، ويجلسان على حافة الحياض ينتظران امتلاءها وبينهما عناقيد العنب الحلو يتبادلان حباتها بالشفاه لا بالانامل ، والاغصان ترقص بنسيم الليل ، وخرير الماء البارد الحلو فى الساقية والاحواض يستر وسوسة القبل ومناجاة المحبة . وربما وجدته متعبا فتقوم وحدها بسقى البستان فينام نوما هنيئا تملؤه الأحلام الجميلة التى تنساب اليه من حديقته التى تملأ نفسه ، ومن عرسه الحبيبة الطاهرة الوفية . جمال وسعادة لا يظفر بها الا الفلاح الذى يسامر جمال الليل فى سمائه وأرضه ، فتؤثر فى وجدانه وطبعه ، فيكون على الايجابية ، يغشى النفوس فتحبه وتتأثر به ، متفائلا يثق بربه وبنفسه فيقدم دائما ولا يحجم ، فيحقق مراده ، ويكون عظيم الجدوى لمجتمعه .

احتفال الفلاحين وميزاب بالاودية وأثر السيل فى النفوس

وينتشى الفلاح الميزابى بالسماء اذ البست حلتها من السحاب واشتعلت بالبروق ، وجلجلت بالرعود، فتتفتح نفسه، ويطمع فى رحمة الله ويتضرع اليه، فيرقب السحاب فى سيره واتجاهه . انه عليم بالسحاب المطر والعاصف ، وبالأودية التى يتصبب فيها . واذا جلجل الرعد سبح الله معه ، واستبشر به . انه بشير صادق بالعهود الخصبة والزمن الأخضر المقبل عليه وعلى بستانه وحقله . ان عينيه لا تفارقان السماء ، يتمتع بجمال السحاب وانهمار المطر . هذا السحاب الذى يجد له بردا على كبده العطشى ، فتلذذه به تلذذ الهيمان المحترق تظفر شفتاه بالكأس الباردة المعطرة . واذا سال الوادى وأقبل على البساتين أسرع الفلاحون وأسرع رجال المدينة وأطفالها فيستقبلونه على بعد أميال من البساتين ، فيأتون به وهو يختال فى مسيله ، وبارود البنادق الذى يحييه به الفلاحون ويعبرون به عن أفراحهم يدمدم على جنباته ، وهتاف الأطفال

والكبار وأناشيدهم (1) التى يستقبلون بها السيل العزيز ، والزغاريد المجلجلة تمتزج برعود البارود المتوالية ، وعيونهم الى الوادى يسير سيره متهاديا فى لطف الاطفال وعرامة الرجال • واذا وصل البساتين وجد ربات البيوت بين الاشجار والنخيل فى البساتين المسورة الحصينة ، فيستقبلنه بالزغاريد الرنانة ، ويستقبله الفلاحون على أبواب بساتينهم بالبارود والهتاف ، فيقع فى كل بستان عرس كبير • وتجلس الأسرة كلها فى البستان الذى غمره الوادى وملأ وهاده فصار صفحة ذهبية مشرقة فتانة ، فتحدق فى طلعة الوادى الجميلة الباسمة ، وترى جمال البستان كله فى صفحته يسجد حمدا لله على نعمائه،ويرى كل واحد محياه فى قلب الوادى مع الحديقة قد أسكنه فيه من شدة الاعزاز • فتقام الولائم فى كل بستان ، وتضل المدينة أياما فى أعراسها ، وهم يهتفون بحمد اله وشكره على نعمائه ويستزيدونه • وينام كل فلاح وكل أسرة ملء عينيه ، والوادى يملأ نفوسهم ايضا فتخضر وتملؤها السعادة والقوة• واذا صفت المياه فى الوهاد التى تصير بركا عميقة فى البساتين ومجرى الوادى ، أسرع الفلاحون وأسرع الأطفال للسباحة فيها أسابيع حتى تجف • ويولد الوادى ويجف وهو فى حفاوة المدينة وأفراحها • واذا اختفى وراح بقيت آثاره الكبيرة الدائمة فى وجدان كل فلاح وفى قلوب المدينة كلها •

هذا السحاب وتلك الامطار والاودية يستقبلها الشمال المترف بالتأفف والاعراض ، وتستقبلها الصحراء المضيافة الكريمة بالاعراس والزغاريد والاناشيد ، فتزور غبا فعل المحبوبة الغانية أيقنت أنها فى القلوب فاتسمت بالدلال !

ان الفلاح الميزابى رغم نصبه الشديد لتحف به أسباب عديدة للمتعة الكبيرة تنسيه تعبه وتقوى وجدانه ، فصار ذا وجدان قوى يهتف للجمال ويغرم به فى كل مظاهره• فى الربيع يغمره البستان من نخيله واشجاره بأنواع الجمال الساحر جمال الربيع الذى خلقه بعرقه أيضا فى بستانه فيزداد احساسا به ، وانتشاء بسحره• ما ألذ عرف الزهور فى الصحراء ، وما أجمل منظرها فى الأفنان • وما أجمل النخلة اذا عانقها الربيع فأنجبت عراجينها فى أكمامها الخضراء ، ثم تنفض عنها فتبدو صفراء غضة كبشرة الوليد الجميل ، والفلاح يهدهدها بنشيد التأبير ؛ وما احلى نضارة

---

(1) لوادى زقرير الذى يسقى القرارة نشيد خاص فى لحن مطرب جميل . اذا نغمه زمار القرارة الفنان البارع (شعبان) فى مزماره بالطبول والدربكة رقص زقرير ورقصت النخيل ورقص كل قلب فى المدينة . ومطلعه هذا البيت الجميل الرقيق :

زقرير يازقرير اعجل لا تبطاش واتعال

هيا الا قرارة تسقسى الاغراس مذبالة

البساتين الميزابية في الصحراء المجدبة · ان هذا السحر الساحر يتمتع به الفلاح أكثر بمؤثر في وجدانه فيكون على القوة فيه ، وقوة الوجدان دعامة الشخصية القوية ، ومن اكبر أسباب البطولة ·

وفي بساتين ميزاب وحقوله موسيقى فتانة رائعة تطرب كل من يسمعها ، ويتمتع بها الفلاح أكثر · أصوات البكرات التي تزجر الماء في كل بئر عليا وسفلى ، وخرخرة اندلاء في الاحواض ، وخرير المياه في السواقي ، وأغاني الفلاحين التي تتعالى من كل بستان وتسمعها في كل ناحية ، وزفيف النسيم في الجريد اذا راقصها ، وحفيف الغصون في الشجر اذا عانقها ، وهديل الحمام في الغصون ، وصياح الاطفال في البساتين من شدة الطرب والنشاط ، وأصوات الحيوانات الأخرى في كل بستان ، وغناء الصراصير في احواض النخل والشجر ينساب من خلال عشبها النضير ، وغير هذا مما يطرب النفس ويلذ الآذان · هذه الاصوات كلها تمتزج فتتكون منها موسيقى فتانة تذكي النشاط في الانسان · انها كلها مظهر النشاط والسرور ، تحمله الى كل نفس فتطرب وتنشط للعمل · وترى الفلاح يتمنى اقبال الليل في الصيف ليتمتع بهذه الموسيقى الجميلة ، واقبال النهار ليتمتع بموسيقاه الفتانة ، فهو في متعة بنظره وسمعه ، ومتعة بما يرجوه من ثواب الله الخالد على كدحه ، وأحسن النتائج من بستانه وحقله ·

والفلاح الميزابي لقوة وجدانه وحبه للطرب له أغان خاصة في كل أعماله على ألحان جميلة تليق بحركات ذلك العمل ومعان أخلاقية دينية سامية ، فيصدح بأغانيه التي تدل على حماسه في العمل وحبه الشديد له ، فيؤنس بها نفسه ، ويخلق بها الجو الحي الذي يذكي نشاطه · انه دائم الغناء والطرب ، يصدح بأغانيه · فلزجر الماء أغان خاصة دينية وجدانية يكون فيها غزل رقيق طاهر يشيد فيه بجمال المرأة وبحبه الطاهر ، بعد ان يشيد بجمال الله الذي يكتنفه في حديقته وحقله ، ولتأبير النخل أناشيد خاصة ، وللحصاد والأندر اذا درس زرعه ، كل ذلك له أغان خاصة في ألحان جميلة تذكي الحماس والنشاط ، وتطرب النفوس الكادحة فتنسى أتعابها ·

وأغاني الفلاح الميزابي في أكثر معانيها دينية تعبر عن مزاجه الديني ، يستعين فيها بالله ، ويشيد بعظمته ونعمه ، ويمجد فيها النبيء محمدا صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وكل الأنبياء والمرسلين · وتحث أغانيه على كل أخلاق الرجولة ، وعلى الاقدام والنصح في العمل ، وفيها اشادة بالوطن العظيم ، وذكر لامجاده ، ومواقفه

التاريخية العظيمة · انها من وسائل التربية الدينية والاجتماعية ، تتفتح لهـا نفس كل فلاح فتقر فيها معانيها السامية ·

شـدة تمســك الفلاح الميزابى بالديـن وأثـــر المسجـد فيه وفى ميـــزاب

والفلاح الميزابى متمسك كل التمسك بالدين ، يغار عليه ، ويراه سبب السعادة الوحيد فى دنياه وأخراه ، وهو حريص على رضى الله لانه هو السبب فى كل تقـــدم ونجاح · يحافظ على الصلوات ويؤديها فى أوقاتها بالطهارة الكاملة ، وبالوضوء حتى فى الأيام الشديدة البرد اذا تجلد الماء ، يكسر عنه الجليد فيتوضأ · ان نـار جهنـــم أصعب من الماء المتجلد وكل عذاب فى الدنيا ! هذه هى عقيدته الثابتة فهانت عليه كل الصعوبات فى طاعة الله · وهو ملازم للمسجد يجد فيه نشوة روحه ولذة عقلـــه · لا يصل المدينة مع المغرب الا ويسرع الى المسجد فيصلى العشاءين مع الجماعة ، وينهض فى السحر فيسرع الى المسجد فيسمع كلام الله يتلى بترتيل جميل وبصوت جمـــاعى جليل ينفذ الى كل القلوب ، ويصلى الصبح مع الجماعة ، ويحضر دروس الوعظ الـتى تقع بعد العشاء وبعد صلاة الفجر فى مساجد ميزاب ، فيصغى اليها بقلبه ، وتخشـع لها نفسه ، ويجد نشوة كبرى فى سماع العلم واستفادة المعرفة · بوده ان لا تنقضى تلك الدروس ولا يغادر المسجد لما يجد فيه من نشـوة روحه · فيخرج من المسجد وهو يتمطق حلاوة العلم الجديد الذى استفاده ، وينعم براحة النفس التى كونها خشـــوع المسجد الذى يبقى فى قلبه يذكره بالله طول نهاره · وذلك لمزاجه الدينى الذى كونته فيه التربية الدينية القوية فى طفولته وشبابه من والديه ، وفى كل مراحل عمره مـن مجتمعه الشديد التمسك بالدين،الغيور عليه،يعمل لتقويته فى النفوس كل الأسباب ؛ ولعيشته طول النهار فى الحقل،تطالعه السماء والأرض وعجائب الله فيفكر فيها فى وحدته بعقل صاف كصفاء السماء ، لا يشغل فكره ما يكون بالمدينة مما يصرف عن الله · ان عمله صعب فهو دائم الاستعانة فيه بالله ، خطير سيما تصعد النخيل الطويلة ، فهـو دائم التضرع الى الله أن يحفظه · فالله هو عدته وملجؤه لا يغفل عنه طرفة عـين · ان كلامه مملوء بذكر الله ، وفى عينيه وسحنته علامات التوكل على الله والاتجاه اليـه · ومن توكل على الله أقدم ولم يحجم ،·وكان دائما على القوة والاطمئنان والثقة بالنجاح· هذا هو خلق الفلاح الميزابى وخلق ميزاب كله فى ذلك العهد المبارك الـذى أنشـــأ مشايخنا وأعلام الاصلاح الذين ستعرف · وقد اسهبنا فى وصف هـــذا العهد لانـه

تاريخ عظيم يضيع يجب تسجليه . وهذا العهد بالعوامل التي نذكرها هو الذي خلق شخصية مشايخنا في أجدادهم العظماء. فلولا وراثتهم من الأجداد، ولولا هذا العهد الذي نشأوا فيه وتأثروا به ما كانوا على أخلاق الزعامة ، وعلى العبقرية . لذلك يجب ان تعرف هذا الاطار قبل الشروع في أدوار تاريخهم ، فهو أصل تاريخ كل واحد منهم .

ان التدين من أكبر العوامل للشخصية العظيمة التي تكونت في الفلاح الميزابي فلولا الدين الاسلامي العظيم الذي يوجه تلك القوة الى سبل الخير لكانت وبالا عليه .

ومع عامل المسجد في صلاح ميزاب عامل العشيرة . وهو نظام اسلامي عظيم لا زال موجودا في ميزاب يتمتع به والحمد لله . وقد بسطنا القول فيه في الجزء الاول من كتابنا نهضة الجزائر الحديثة صفحة 232 الطبعة الاولى فارجع اليه ، تسر ما يسرك ويزيدك علما بهذا النظام الاسلامي العظيم .

عامل العشيرة العظيم في صلاح الفرد والمجتمع

والفلاح الميزابي ـ وكل رجال ميزاب في ذلك العهد فلاحون ـ كما يغار على وطنه وقومه يغار على عشيرته وصلاحها وتقدمها . فهو دائم التفكير فيها ، يسرع الى دار عشيرته كلما عقدت مجالسها العامة لكل ابناء العشيرة الذكور ، شيبهم وشبابهم ، وهذه المجالس تقع في الأعياد وأعراس العشيرة ولضرورات أخرى كثيرة ؛ فيجد في تلك المجالس نشوة روحه ، وانس قلبه ، وغذاء عقليا قويا من دروس النصح والارشاد التي تلقيها خاصة العشيرة على جمهورها ، فتتفتح قلوب الحاضرين كلها كما تتفتح في دروس المسجد ، فيسمعون مواعظ العشيرة في خشوع كبير ، ويتربون تربية دينية واجتماعية كبيرة بالعشيرة ، ويهب كل أبناء العشيرة في نشوة وحماس الى الاعمال الجماعية التي تدعوهم اليها العشيرة لفائدتها أو فائدة المدينة كلها .

الحرث في البادية وأثره العظيم في نفس الفلاح الميزابي

ومن الاسباب التي تؤثر تأثيرا عظيما في الشخصية الميزابية في تلك العهود المباركة وهي القرن الثاني عشر والثالث عشر وأول الرابع عشر الهجري ، وأثرت في شخصية آباء واجداد زعماء الاصلاح في الجنوب سيما الشيخ بيوض . هذا

السبب التربوى العظيم وهو الحرث فى البادية • حول مدن ميزاب اوديه عديدة فيها أراض واسعة صالحة للزراعة وكثير منها للميزابيين وهى على بعد عشرة أميال وعشرين وأقل وأكثر من كل مدينة • يخرجون جماعات للحرث فيها اذا سالت فى الخريف أو أول الشتاء فيزرعونها شعيرا وقمحا ، ومنهم من له شركاء من الاعراب يزرعون معه • والزراعة فى البادية أصعب من الفلاحة الميزابية التى رأيت متاعبها الشديدة• يتعرض فيها المرء للقر الشديد ، والحر المذيب ، والأتعاب المضنية فى موسم الزراعة والحصاد ويتعرض للحيوانات الضارية كالضباع والذئاب ، وللافاعى القتالة ، والعقارب المسمومة ، وللاشواك التى تفرش أرضه ، وفروع السدر الشائكة التى تعترض سبيله ، وتدميه اذا احتطب منها فى آخر النهار لطعامه واصطلائه• فمن طلوع الشمس الى غروبها وهو على المحراث الخشبى يضغط عليه بكل جهده بيمناه ، ويسراه فى لجام الدابة التى تجر المحراث • وقد تكون عاصفة ومطر ، فاذا لم تكن فبرد الصحراء القارس فى أعقاب الخريف والشتاء • فكثيرا ما تجمد الغدران بشدة البرد فيكسر الفلاح جليدها بقدومه لوضوءه فى الفجر ، وقد تتقبض يداه بشدة البرد فلا يستطيع بسطها • ومع هذا فلا طعام له فى النهار الا التمر فى الفطور والغداء ، وعشاؤه كسكس الشعير • طعامه فى المدينة يلازمه فى البادية • وقد يكون الماء عكرا فى غدرانه فيكون شرابه منه • انه على حبه للجمال وذكاء عقله مخشوشن لا تعاف نفسه الصعاب فى كل شىء • ومع جهد النهار بلاء الليل • عصابات اللصوص الضارية التى ترصد الآمنين فتهجم عليهم فتسلبهم متاعهم وتسوق دوابهم وتفتك بهم • يجب على الزراع أن يحرسوا أنفسهم ودوابهم وان يكونوا شجعانا يقظين • فيتناوبون على الحراسة فى الليل • والذى ينام حصته قلق من شدة الحيرة والاحتراس • وقد يهجم اللصوص عليهم من كل جانب فتحتدم معركة البارود بينهم فلا تسمع الا أزير الرصاص • فيرد الزراع العصابة الضارية خاسئة • وقد يأسرون منها ويقتلون • ان الله معهم • وهم أبطال لا يهابون الاعداء •

هذه الأتعاب وذلك البلاء يتحمله الفلاح الميزابى ــ وأغلب رجال هذه العهود فلاحون ــ وهو باسم مطمئن النفس ، لقوة قلبه وجلده ، ولتعوده تحمل الصعاب • وقد أثرت زراعة البادية الصعبة فى الخلق الميزابى فزادته قوة وصبرا وتعاونا وخبرة بالحياة ، وأرهفت ذكاءهم وزادتهم فصاحة وقوة فى الوجدان بجمال البادية الذى يسحرهم • وفى البادية جمال خلاب لا يكون فى الحضر • حمرة الشمس فى رؤوس الجبال فى الطلوع والغروب،وأشجار السدر الخضراء المنتشرة فى الوادى وعلى جنباته ،

وأدواح الأثل العظيمة التى تملأ الجو بنضارتها والساحات الواسعة بظلالها فيأوى اليها الناس فى قيظ الهواجر فيجدون فيها برد الربيع ، النسيم العليل يداعب أغصانها قد سحر بجمالها فقال فى ظلالها ؟ وغدران الماء فى الوادى تبرق وتبسم ابتسامات الاغراء ، يحركها النسيم وتنعكس على صفحتها صور السدر الاخضر الجميل ومناظر الرعاة فى الغدو والرواح بأغنامهم يتعالى ثغاؤها الحنون مستبشرة بالنهار الطالع والمرعى الخصيب ، وحملانها تتبعها فى مرح شديد فيمتزج بغامها بثغائها · وأغانى الرعاة الجميلة ، وألحانهم الساحرة فى الناى الذى لا يفارقهم ، ومنظر السماء الصافية التى لا يحجبها شجر ولا سقف فيرونها فى أتم حسنها · ومجالس السمر حول النار المتأججة فى الليل يصطلون وينتشون بحكايات أصدقائهم الأعراب الذين يزورونهم ، وبأحاجيهم اللطيفة وأغانيهم العاطفية المفيدة · مجالس يجد فيها الجسم متعته من دفء النار ، والقلب نشوته من نور النجوم التى ترقص مع الافئدة من سحر ذلك السمر الجميل ·

وفى البادية يزداد اختلاط الفلاحين بالأعراب فيأخذون فصاحتهم · والفلاح الميزابى فصيح فى اللغة العربية الدارجة يتكلمها بلهجة الاعراب الفصحاء ·

وفى البادية يجدون الخيل فاذا رجعوا بها من الورد فى آخر النهار يركبونها فتجرى بهم فى البادية الواسعة فيزدادون فروسية · وفى البادية صيد كثير : الغزلان والأرانب وأنواع الطيور : الحجل والحمام وغيرها ، فيصيدون بالبنادق ، ويتمتعون بلذة الصيد ومباهجه ، ويزدادون تعلما للرماية ·

واذا درس الفلاحون أندرهم فى البادية يرجعون بأحمال القمح والشعير التى تغنيهم ، وبآثار عظيمة فى نفوسهم من هذه الزراعة المباركة التى صار كثير من شباب هذا الزمان يفرطون فيها لجهلهم بمنافعها الاخلاقية والوطنية العظمى ·

صعوبة التجارة فى عهود الاجداد وآثارها العظيمة فى نفوسهم

وكانت التجارة فى تلك العهود عهود أجداد مشايخنا وآبائهم صعبة كل الصعوبة · انها فى بلاد الشمال التى تبعد عن ميزاب بخمسمائة كيلو ميترا وأكثر وأقل ، يقطعونها مشيا أو ركوبا على الابل والخيل والبغال ، فيتعرضون فى البادية

لعصابات اللصوص التي ترصد المسافرين فيشتبكون معها في قتال عنيف ، فلا ينجو بماله ويحفظ حشاشته الا الأبطال الصناديد ، ولا يستطيع قطع تلك المفاوز المخوفة الا الشجعان المغاوير . واذا حفظهم الله من اللصوص الفاتكين فان برد الشتاء وحر الصيف يصليهم ، ويصيبهم بالعطش الشديد ، وبالقر الذى يجمد الأعضاء ويفتك بالجسم . واذا وصلوا سالمين الى متاجرهم في بلاد الشمال ابتدأت اتعاب أخرى أشد من اتعاب السفر . يفتح التاجر الميزابى متجره بعد صلاة الصبح قبل طلوع الشمس فيظل فيه واقفا على قدميه لا يجلس الا قليلا الى بعد صلاة العشاء حوالى العاشرة ليلا . سبع عشرة ساعة في كل يوم عمل مرهق وهو واقف في دكان قد يكون ضيقا فيؤذى به حر الصيف وبرد الشتاء ، وقد يكون واسعا ذا ابواب عديدة مفتحة فيفتك به البرد والريح الذى يهجم عليه من جهتيه . وكان التاجر الميزابى يتناوب على الصلاة في وقتها وعلى الغداء مع عماله وشركائه في المتجر لا يغلقونه طول النهار وفي هزيع كبير من الليل .

وكانت متاجر تلك العهود تشتمل على كل حاجات المدينة . ففيها الاقمشة والاحذية ، والمواد الغذائية ، والأوانى ، وادوات العمل ، والعقاقير الطبية والعطور وغيرها . وكان التاجر يتعامل مع كل فئات المدينة والبوادى ، وفي كثير منهم جفاء وغلظة ، ومماطلة في الاداء ، وقد يشترون بالنسيئة فلا يدفعون . وكان اليهود المستعمرون في الجزائر يغلون حقدا على المسلمين وعداوة لا يلذهم الا امتصاصهم واستنزافهم ليظلوا دائما قشورا لا تنبت ، ورمادا لا يورى . وكانوا هم الذين يحتكرون التجارة بالجملة . وكان التاجر الميزابى يشترى منهم أغلب بضائعه ، فلا يرحمونه في الاثمان التي يقررونها ، ولا في الدفع اذا وصلت آجاله . وكان يخاف وصول آخر الشهر خوف المحكوم عليه بالاعدام المشنقة التي سيصعد اليها . بلاء كبير يكتنفه من جهاته : ماله على الناس وهو لا يرجو الحصول عليه . وما لليهود الجشعين القساة عليه وهو لا يطيق اداءه . وقد يقع مع هذا كساد في التجارة ، وانخفاض فجائى كبير في الاسعار ، ومتجره خاص ببضائع اشتراها بثمن أرفع ، فلا يملك الا ان يبيعها بالخسارة ، فيرى متجره جدارا عاليا خربا يتهدم عليه ويدفنه تحت انقاضه ليموت اختناقا ! هموم شديدة تأكل قلبه في ليله ونهاره ، فالدنيا في نظره وحش أسود كاسر يفغر لابتلاعه . ولولا شدة ثقته بالله ، وتوكله عليه ، واعتقاده انه يتاجر بنية حسنة لحيى الدين والوطن ، ويكون قوة للاسلام ، فما كان الله ليتخلى عنه ، وانما يبتليه ليربيه ويجازيه باحسن الجزاء في الدنيا والآخرة ؛ وأن بعد

لعسر يسرا ، وأن مستقبله فى التجارة أبيض كطويته البيضاء · هذه هى عقيدته التى ورثه راحة النفس والثبات فى التجارة الصعبة · لولاها لتخلى عنها ورجع أدراجه الى وطنه ·

ومع هذا البلاء والاتعاب فى التجارة تقشف فى الطعام ، وتقشف فى اللباس ، وتقشف فى المنام ليوفر من دخله ما يقوم بعمارة الوطن التى هاجر من أجلها · ان أغلب التجار الميزابيين فى تلك العهود ينامون فى سدة من خشب فوق متاجرهم · قد يكون سقفها قريبا فلا يستطيع الصاعد اليها أن يقف الا منحنيا · واذا آوى الى فراشه فى نصف الليل وهو مهدود القوى قد تهجم عليه هموم التجارة والغربة فيبيت ليله يتقلب وكانه فى أتون متسعر لا يغمض له جفن الى السحر ، ولا يكاد النوم يخامر جفونه حتى يطرق عليه موقظ الجماعة (I) باب دكانه فيقفز لصلاة الفجر مع الجماعة ليستانف جهاده ·

ومع هذا بلاء الغربة وأهوال العزوبة · ان التاجر الميزابى فى تلك العهود لا يستطيع اصطحاب زوجته لبعد الشقة وخوف الطريق ، وضيق المكان فى متجره · والمراة الميزابية حصان وقور تقدس واجبها فى الدار والوطن لا ترضى ان تهاجر وهى قاعدة الدار وعون الزوج فى عمارة الوطن وأكبر خليفة له فى أهله وماله وذريته · انها تريد أن ينشأ أولادها على الدين وأخلاق الرجولة فى بيئة ميزاب الطاهرة البعيدة عن مفاسد الاستعمار التى يركمها على الشمال لافساد الاخلاق وهدم الدين · هذه هى ارادتها وارادة زوجها الحصيف الغيور على الدين والوطن وارادة المجتمع كله · فترحب باهوال العزوبة بعيدة عن زوجها · انها فى حصن حصين من دينها الذى تمتلىء به ، ومن المجتمع الطاهر الغيور كل الغيرة على العرض ، وفى رعاية أهلها وعشيرتها وكل المدينة التى ترعى أسرة كل غائب وتحوطها من كل سوء · يغيب عنها زوجها الأعوام الكثيرة المتصلة فلا يخاف أن يحوم حول عرضه أقل سوء · هذا العامل الحميد الذى هو من أحسن نتائج تمسك ميزاب بالدين ، وهو من ثمار نظامه الاجتماعى الاسلامى العظيم ، نظام العزابة والعشائر ، وبعد الطريق وخوف البوادى ، وشدة حاجة الوطن الى المال للعمارة المتصلة فيه · هذه العوامل تجعل التاجر الميزابى فى تلك العهود قبل الحرب العالمية الاولى يقيم فى متجره فى الغربة وفى ذلك العذاب سنين عديدة متصلة

(I) ان التجار الميزابيين فى اغلب المدن فى الشمال يكونون فى حى واحد هو الحى التجارى . وكان إمام مسجدهم أو أحدهم يتطوع فيوقظ كل التجار فى السحر قبل الفجر فى كل يوم بالطرق على الباب . وهذا ما يقع فى الاحياء الاسلامية من مسحراتى الحى فى ليالى رمضان فى القاهرة بمصر .

قد تبلغ الخمسة ، وهو يكتوى بنار الغربة وأهوال العزوبة · واذا رجع الى وطنه ليقيم فيه مدة قصيرة للاستجمام قضاها فى بستانه وحقله فى أتعاب الفلاحة الميزابية التى وصفنا · غارسا للنخل ، بانيا للديار ، مشاركا فى بناء المساجد ، متصدقا على الارامل والفقراء ، وفى نوائب المسلمين فى الشمال والجنوب بفضلة من المال الذى يوفره بتقتيره على نفسه ، ويحصل عليه بأضعافه ألف مرة من عرقه وجهده المتواصل ، وكده فى ليله ونهاره ·

وقد بارك الله للتاجر الميزابى فى تلك العهود فى القليل الذى يربحه ، فبنى وطنه فى كل نواحيه ، وكفل أسرته وأنشأها فى العز والهناء ، وعاش عيشة استقلالية شريفة ، هانئا فى داره ، بفضل جهاده التجارى والفلاحى الذى يبتدىء قبل البلوغ أحيانا ويستمر الى شيخوخته العاجزة · ان نفسه العملية التى كونتها فيه التربية الرشيدة فى داره ومجتمعه ، وبيئة ميزاب الطبيعية القحلة ، وعقيدته الدينية الراسخة التى تجعله يعتقد ان كده فى الرزق وعمارة الوطن أعظم عبادة · ان هذه الاسباب القوية تجعل لذة الميزابى فى تلك العهود المباركة فى العمل والمكابدة وتجرع المرارة · ويرى بعض الناس حضارة ميزاب الاسلامية الزاهية فيظنونها حصلت بسهولة · وما دروا أنها عصارة عشرة أجيال كاملة أفنت أعمارها فى الكد المتواصل ، وتجرعوا من المرارير ما لم يعرف بعضه غيرهم فى المغرب ، وضحوا بكل شىء فى عمارة الوطن ، ولا زالوا يضحون ·

ان من نعم الله الكبرى على الانسان أن ابتلاه بالفقر ليطهره من الكسل فيهب لنجهاد فى سبيل الرزق فتزدهر كل مواهبه ، ويغتنى فى كل نواحيه · ومن يظن انه يكسل ويؤثر الراحة فيتساوى مع العامل المكد بنية طيبة فى الرزق فقد أخطأ خطأ كبيرا فى فهم سنن الله الذى كتب الغنى والهناء للعاملين المخلصين وحدهم · تلك هى سنة الله لعباده لا يستطيع أى مخلوق أن يغيرها · ولن تجد لسنة الله تبديلا ·

هذه هى تجارة تلك الأزمنة القديمة للمزابيين · وقد خاض عبابها أغلب أجداد مشايخها أعلام الاصلاح فى ميزاب وآبائهم ، فكونتهم الصعوبات والمرارير تكوينا حسنا ، وجعلتهم على الأخلاق المتينة والحصافة فى العقول ، عالمين بالحياة ، دهاة يفكرون التفكير السديد ، ويقومون بالاعمال الصالحة ، فنجحوا ببطولتهم النادرة فى معارك البناء فى وطن ميزاب الصعب القاحل ، وكانوا مقدمة فى كل المشاريع الخيرية التى نشأت فى شمال الجزائر لنهضته وبنائه ، ومن أكبر الدعاة لها ففازوا بالحسنيين

فى الشمال والجنوب ، وقرت عينهم بنهضة الشمال وتقدمه ، وكانوا من الحريصين على ذلك ومن كبار مؤيديه ٠

واذا رأينا بطولة مشايخنا أعلام الاصلاح فى ميزاب قبل الحرب العالمية الاولى وبعدها ، وعبقرياتهم ، فهى كلها من أجدادهم وآبائهم كونتها فيهم هذه الاسباب التى ذكرنا ، فلولاها لكانوا غفلا من كل المواهب النفسية التى نجحوا بها ، لأن العبقرية بالوراثة أيضا ولا يستطيعها المرء بالاكتساب وحده ٠

وقد ورث مشايخنا زعماء الاصلاح فى ميزاب أيضا من أمهاتهم فكيف كانت المرأة الميزابية فى تلك العهود فأنجبت هذه العبقريات ؟

نشاط المرأة الميزابية وصلاحها

اذا كانت الشخصية العملية الصالحة التى شاهدناها فى الرجل الميزابى وليدة بيئته الطبيعية والاجتماعية فان تلك البيئتين هما اللتان نشأت فيهما المرأة الميزابية فكونت فيها نفس الشخصية العظيمة التى نراها فى الرجل ، فكانت المرأة الميزابية متمسكة بدينها كل التمسك ، قولا وعملا ٠ تراقب ربها كل المراقبة فى كل أعمالها ، ويسيطر عليها ضميرها الدينى القوى فى كل أحوالها ٠ وهى عمالة نشيطة حازمة بطبعها ، فضاعف ذلك فيها دينها الذى جعلها تعتقد اعتقادا راسخا أنها راعية فى دار زوجها ، عليه وعلى ماله وأهله وذريته ٠ يعاقبها الله العقاب الشديد فى الدنيا والآخرة على كل تقصير فى ذلك ٠ هذه العقيدة الدينية غرست فيها فى طفولتها الأولى بما تسمع من أمها ونساء الاسرة وتراه ٠ ان أمها تُعِدُّها منذ ولادتها لتكون أساسا لحياة زوجها وركنا للمجتمع ، بالايحاء ، والقدوة الحسنة من سلوكها فى الدار ، وبالتدريب على العمل وعلى كل الاخلاق الاسلامية الراقية فى كل أدوار طفولتها وفى شبابها ٠ انها عين لا تنام على سلوك بناتها فى بيوت أزواجهن ، فاذا رأت تقصيرا أو اعوجاجا قومته باللين أو بالحزم من حيث لا يشعر زوجها وأهله ٠

وكانت المرأة الميزابية عمالة حازمة حسنة التدبير مقتصدة كل الاقتصاد فى العيش والنفقة . تعتقد أنها الساعد الأيمن لزوجها وكاهله القوى الذى يحمل أثقاله ويصول به ، وكانت تعينه على الرزق بعملها ويدها الصناع فى نسج الصوف، وبحسن

تدبيرها وتقوى الله الذى تتصف به وهو أكبر سبب للغنى · كانت مثالا فى النشاط فى الأعمال ، ومثالا فى الطاعة والبر بزوجها وأهلـه · وكانت تعتنى كل العناية بتربية أولادها تربية دينية قوية ، وتغرس فيهم بكل الوسائل جميع الاخلاق الاسلامية العظيمة وتجعلهم ذرية صالحة ناجحة يسعدون ويرقى بهم المجتمع ·

ان وادى ميزاب يخوض معركة البناء فى كل نواحيه ، ويخوض معارك عنيفـة متصلة ضد ألد أعدائه وهى : الجهل والفقر والمرض · فالاجيال الصالحة القوية هـم الجند فى تلك المعارك · واذا قصرت فى التربية كانت الهزيمة الماحقة وعقـاب اللـه الدائم ، فكانت المرأة الميزابية فى العناية بالتربية كمن يعد سلاحه وجنده للعـدو المغير الماحق الذى يرى طلائعـه ، فبعد قليل يغشى الديار ، لا يغفـل عن المعـركـة ووسائل الدفاع والوقاية · ذلك هو شعور المرأة الميزابية · انها مثقفة العقل بالتربية الحسنة فى بيتها ومجتمعها · تدرك نقص مجتمعها والعذاب الذى هو فيه بجهله وفقره فكانت عيونا مفتحة على هذا العدو تؤازر زوجها كل المؤازرة فى معارك البنـاء ، وتعد أبناءها أحسن اعداد ليكونوا جند الدين والوطن·واذا رأينا أعلام الاصلاح فى ميزاب على الاخلاق الاسلامية العظيمة التى صالوا بها فى جهادهم العظيـم المنصور فمـن أمهاتهم تلك الاخلاق ، ومن آبائهم ، بالوراثة والتربية · فلولا صلاح الامهات ما كـان صلاح الابناء ! ومن أمهاتهم وآبائهم أيضا نبوغهم العقلى ·

وكان الرجل الميزابى سعيدا بزوجته كل السعادة ، لانه يجد منهـا المساعـدة القوية فى معارك الحياة ، والسند المتين فى كل المصاعب · تستقبله بوجه باش ونفس مطمئنة اذا رجع من عمله ، وتنسيه برضائها عن الحياة وبهدوئها أتعـابه النفسيـة ، وتورثه بجوها طمأنينة القلب والتفاؤل بالمستقبل · انها تعيش عيشته وتقاسى مثـل أتعابه ، ولكنها قوية الايمان بالله وما واعد به المؤمنين المتقين العاملين بنيـة حسنـة وارادة قوية ، من تبدل حالهم من عسر الى يسر · وكانت لدينها وثقافة عقلها بمعاناة الحياة الصعبة راضية بما كتب الله،تعيش فى الغد الموعود الذى لا بد أن يقع،فلا تشعر بأسباب الهموم الكثيرة فى يومها فيتعكر صفوها · انها قانعة بما قسم الله · تـدرك المعانى والصفات العظيمة وتقدرها كل التقدير ، وتوقن أنها أكبر جانـب من الرزق الواسع · ان صلاح زوجها وصلاح أبنائها وصلاح المجتمع الذى تعيش فيه ، وصلاحها هى ، كل ذلك نعم كبرى لاتضاهيها نعمة فى الوجود · انها فى خير عظيم وهو الصلاح الذى يلد كل أنواع النجاح ! فكانت قانعة فى الماديات التى تراها قشـور الحيـاة ،

لا تشعر بالفقر شعورا شديدا يكسر النفس ويخفض الهامة • ما أسهل الحصول على المال ، ولكن ما أصعب صـــلاح النفس الذى لا يكـــون الا بالوراثة الصالحة والتربية الاسلامية وهو ما تتمتع به وتعتز بوجوده فى نفسها وأسرتها ومجتمعها ! ان مجتمعها المثقف بثقافة الدين الاسلامى العظيم الذى أيد فيه وراثته الحسنة القديمة المازيغيـــة وهى اكبار المراة والغيرة عليها • ان هذا المجتمـــع يحترمها كل الاحترام ويراها درة مكنونة تناط بالجبـين • اليس هذا راس الغنى وكل السعادة ؟ •

هذه هى نظرة المراة الميزابية المثقفة بثقافة الدين وثقافة الحياة الصعبة الى نفسها والى الامور ، فكانت على الهدوء النفسى وعـــلى الشجاعة الخارقة التى تبثها فى الازواج والابناء ، فرأينا أعلام الاصلاح فى الجنوب يطبق عليهم الحكـــم العسكرى الفرنسى الصليبى بكل أهواله ، وأعداء الاصلاح الأقوياء الكثـيرون بكل فظائعهم ، ليحطمـوا ارادتهم ، وهم هادئون مطمئنون باسمون للاهوال ، يوقنون أن الله معهم • ان هـــذا الهدوء النفسى فى المحن وقوة الثقـة بالله وراثة تحدرت اليهم من الاب والأم • والأم أكثر • وسنرى فى تاريخ أعلام الاصلاح أثر الأم سيما أم الشيخ بيوض فى شجاعـــة ابنها واقدامه وثباته فى معارك الاصـــلاح فى شبابه وكهولته • فلو كانت الام خائرة ضعيفة الايمان ما استطـاعت المدرسة والوسـائل التربوية الأخـرى تكوين الأجيال القوية ، وأعلام الاصلاح الذين سنتـحدث عنهم •

وكانت المراة الميزابية مطيعة لزوجها • ترى طاعتـــه واسعاده دينا وفرضا من أوكد الفروض عليها ، فتجتهد لتنال رضاه ، وتورثه السعادة والرضى بالحيـاة • ان ابويها قد غرسا فيها الطـاعة وهيـأها لطاعة الزوج ، ومجتمعهـا الصالح كله يبعثها على تلك الطاعة • وكان الرجال فى ذلك الزمـان المبارك صنـاديد ، فالمـراة تحبهـم كل الحب وتخشاهم كل الخشية فصلحت العائلة ، وكان الهنـاء فى الأسرة •

كانت المراة الميزابية تستقبل زوجها اذا رجع فى آخـــر النهار من بستانه أو متجره بجوها النفسى الجميل فتغسل أتعابه وهمومه ، ويبيت فى سعادة وحبور تحت غمامة البخور الميزابى الذكى والعطر الشذى ، ويستمر سمرهما مدة طويلة لسعادتهما وانسهما • ولم تكن فى تلك العهود أنوار الكهرباء الساطعة وانما هى قناديل الزيت أو الشموع الناعسة ، ولكن لنشوتهما يشعران بليلهما سماء مقمـــرة ونهارا ضاحيا جميـــلا •

ذلك هو جزاء الله لعباده الصالحين ، وتلك هى ثمار التربية الدينية وشـــدة التمسك بالدين • فصاحبه فى نعم الله المتوالية ، وفى طليعتها حسنة الدنيا وكنزها العظيم ، وهو الزوجة الصالحة والزوج الصالح ! وهذا ما كان للرجل الميزابى والمـرأة الميزابية فى تلك العهود المباركة ولا يزال والحمد لله •

وكانت المرأة الميزابية عمالة حازمة لا يلذها الا العمل ومؤازرة الزوج فى الحياة • صناع اليد فى نسج الصوف • وكان أكثر لباس تلك العهود الصوف ، فتنسج المرأة الميزابية من الاثواب الصوفية القناديز والقشاشب والبرانس ، ولحاف الرأس للرجل وجبب النساء وخمرهن وملاحفهن ما يكفى لباس أسرتها • وكذلك الحنـــابل لنفراش والاغطية الصوفية للنوم ومناديل الطعام ، بفن جميل وصبغة رائعة مـن صبغها هى • تهيء من كل هذه فى كل عام عددا كثيرا يبيعه زوجها فيدر عليـــه مالا كثيرا • ان مواردهم انما هى البستان ومنسج المرأة • وقد اغتنى كثيرون بفضل ما يبيعون مـــن المنسوجات الصوفية التى تصنعها نساؤهم • فكيف تقضى المرأة الميزابية يومها فى تلك العهود المباركة التى أنشأت أعلام الاصلاح الذين نضـــع الاطار الضرورى لتاريخهم ، ونبين الأسباب الكبيرة لشخصياتهم ، ونصف أمهاتهم ، وهن أصولهم يتسرب منها كل ما تمتاز به الثمار ؟

كانت الاسر فى ميزاب فى ذلك العهد كبيرة ، بفضـــــل التعاون الذى يقع بين الافراد ، والتقشف فى العيش ، وحسن العشرة بين الناس • وكان الاخوة العديدون يسكنون فى دار واحدة ، فيتعاونون هم فى الفلاحة أو التجارة ، ويتعاون نساؤهم على النسج والعمل فى الدار • وقد لا يكون للرجل اخـــوة فيبقى معه أبناؤه الرجال فى الدار ، وقد يكون له بنات ، فيكون فى الدار الواحدة نساء كثـيرات ، وهو ما يساعد على نسج الصوف وحسن القيام بالدار والاولاد •

وكانت المرأة الميزابية تنهض هى ومن معها من النساء فى السحر الاعلى قبـــل الفجر بساعتين فيبدأن النسج على قناديل الزيت الخافتة • وقد يكون القـــر الشديد الذى يربط كل الناس الى مضاجعهم ، ولكن المرأة الميزابية الحازمة العمالة لا تردها أى صعوبة عن عملها • فلا تسمع فى السحر الا دمدمة آلة النسج فى المناسج والا الاغانى الدينية يترنم بها النسوة العاملات بأصوات مطربة تـــدل على نشاطهن وانتشائهن بالعمل ، فترى فى الديار الميزابية نشاط النهار فى أعماق الليل ، فى وقت هو الذى تسترخى فيه أوصال الناس ويلذ النوم والسكون •

وتسمع مع دمدمة النسج صرير المغازل ومحالج الصوف (القراديش) ، والمنادف في أيدى قسم من النساء يهيئن الطعمة والسدى للثوب التالى ، فلا يتوقف النسـج طول العام الا فى يوم الجمعة والأعياد وفى مآتم الأسرة وأعراسها · فاذا جلس قسم من نساء الاسرة وفتياتها للنسج جلس الاخريات للغزل والاستعداد للمنسج التالى · وقد يكون فى الدار امرأة واحدة فلا تخلو من منسج طول عامها · لا تنتهى من واحـد الا وتشرع فى الآخر · ولها قريباتها وجاراتها يسرعن اليها فيعنينها فى النسج والاعداد · ان التعاون خلق راسـخ فى المجتمع الميزابى فى كل الاعمـال الكبرى فى الرجال والنسـاء ·

وتنسج المرأة الميزابية كثيرا فى السحر ، ثم تصلى الفجر عند الأذان · وترجع الى منسجها الى الضحى · واذا كانت وحيدة فى الدار قامـت الى شئون بيتها ، ثم تجلس الى الهاون الحجرى المثبت فى ركن الدار فتدق من نوى التمر المنقوع من الليل ما يكفى ناضحهم الذى يعمل فى البستان ، والعنوز العديدة التى تربيها كـل دار ميزابية للحليب · وتستمر على الهـاون ساعات كثيرة فى عمل أكثر مشقة من النسج وهى تترنم بأغانيها ، وفى وجهها البشر والرضى · ان عملها عبادة وفخر تقـوم به باعتزاز وسرور · واذا جاءت الاسرة مع الضحى جلست كلها صغارها وكبارها الى طبق التمر فيشبعون ، وتجلس الى مثله وقت الغـداء فى الظهر · لا يعرفون الطبـخ الا فى العشاء · وتهب المرأة الى منسجها بعد أن تقضى شئون دارها الضرورية وشئون اولادها الصغار فتستمر فيه الى الاصيل لا تتركه الا لصلاة الظهر والعصر فى أوقاتهما · ثم تدخل المطبخ تهيء العشاء وتقوم بشئون الدار الاخرى الى أن يرجع زوجها وأبناؤها من المسجد بعد صلاة العشاء فيتعشون جميعا ، وأغلب طعامهم كسكس الشعير بالشحـم لا يعرفون القمح واللحم الا قليلا · هذا هو طعام الجمهور فى ميزاب فى ذلك العهـد ولا يشذ عنه الا أسر قليلة جدا مترفة كأسر الحكام والتجار الأغنياء · واذا خرج الزوج فى الليل الى دروس الوعظ الليلية فى معاهد العلم أو الى مجلس العشيرة أو سمر مـع أصدقائه انتظرته زوجته فى منسجها وأعمالها الى أن يرجع ، فتقوم بحظوظه الاخرى ، وينام الزوج فى أنس وعطر وبخور ونشوة بعرسه البارة المحبة ·

وتلازم المرأة الميزابية دارها لكثرة أعمالها واعتمادها على نفسها ، ولحصانتهـا واعتزازها بنفسها ، وللهندسة الاسلامية البارعة فى الدار الميزابية التى تشرح النفس وتؤنس القلب ، لا تعرف الخروج من دارها أسابيع الا للزيارات الواجبـة فى تهانى

الأعراس وفي المآتم ، وعند المناسبات الكبرى في دار أبويها وأقاربها . ان دارها جنة في شعورها تضيق ذرعا اذا غادرتها ، ولا تجد طمأنينة النفس والأنس الا في دارها ومنسجها وأعمالها الأخرى .

ولا ينتهي الشهر حتى يجد الزوج في الرفوف أثوابا عديدة قد تم نسجها ليدفعها الى الدلال فتدر عليه مالا كثيرا يكفيه . واذا كان الزوج تاجرا خرج بما تنسجه داره في العام في احمال كثيرة الى بلاد الشمال للتجارة فيربح الارباح الوفيرة. والأسر الغنية في ميزاب قديما كلها كان لها ذلك الغنى بساعد المراة ومنسجها أيضا .

ان الحضارة الاسلامية الراقية التي نشاهدها اليوم في وادي ميزاب من عرق نسائه ورجاله ، ومن سهرهم وذوبانهم في الاعمال الصعبة الدائمة التي يقومون بها في نشوة واعتزاز وحبور . فكل ذرة في ميزاب ليشم منها ذلك العرق الغزير الكريم، ولا يجهل هذا الا البلداء ومن يرين الجهل والحسد على بصائرهم فلا يرون شمس الضحى !

تلك هي المراة الميزابية التي هي قاعدة المجتمع الصالح الذي انشا أعلام الاصلاح الذين سنرى في ميزاب ، والأم العظيمة التي اورثت كل أعلام الاصلاح نبوغهم وصلاحهم وبطولتهم الفذة . فلولا أمهاتهم وآباؤهم ومجتمعهم ما كانوا على العظمة والنبوغ ، لهذا اطلنا في هذا الشجن لانه أصل الشخصيات التي سندرسها كلها : الشيخ بيوض ، والشيخ ابو اليقظان ، والشيخ ابراهيم اطفيش والشيخ عبد الرحمن ابن عمر بكلي ، والشيخ عدون بن الحاج ، والشيخ سليمان بن الحاج داود ، والشيخ صالح بابكر ، والشيخ محمد التميني ، وغيرهم كثير من تلاميذهم النبغاء البارزين . فهؤلاء كلهم كانوا أبناء هذا العهد المبارك الذي وصفناه ، يحملون آثاره العظيمة في نفوسهم ، والاطالة في تاريخ استاذي الجليل الشيخ بيوض تكفيني مؤونة التفصيل في تاريخ مشايخي الآخرين أعلام الاصلاح الذين ذكرنا ، فما قام به الشيخ بيوض من أنواع الجهاد قد تعاونوا عليها كلهم واسباب الشخصية واحدة .

من هو والد الشيخ بيوض وما أثره فيه ؟

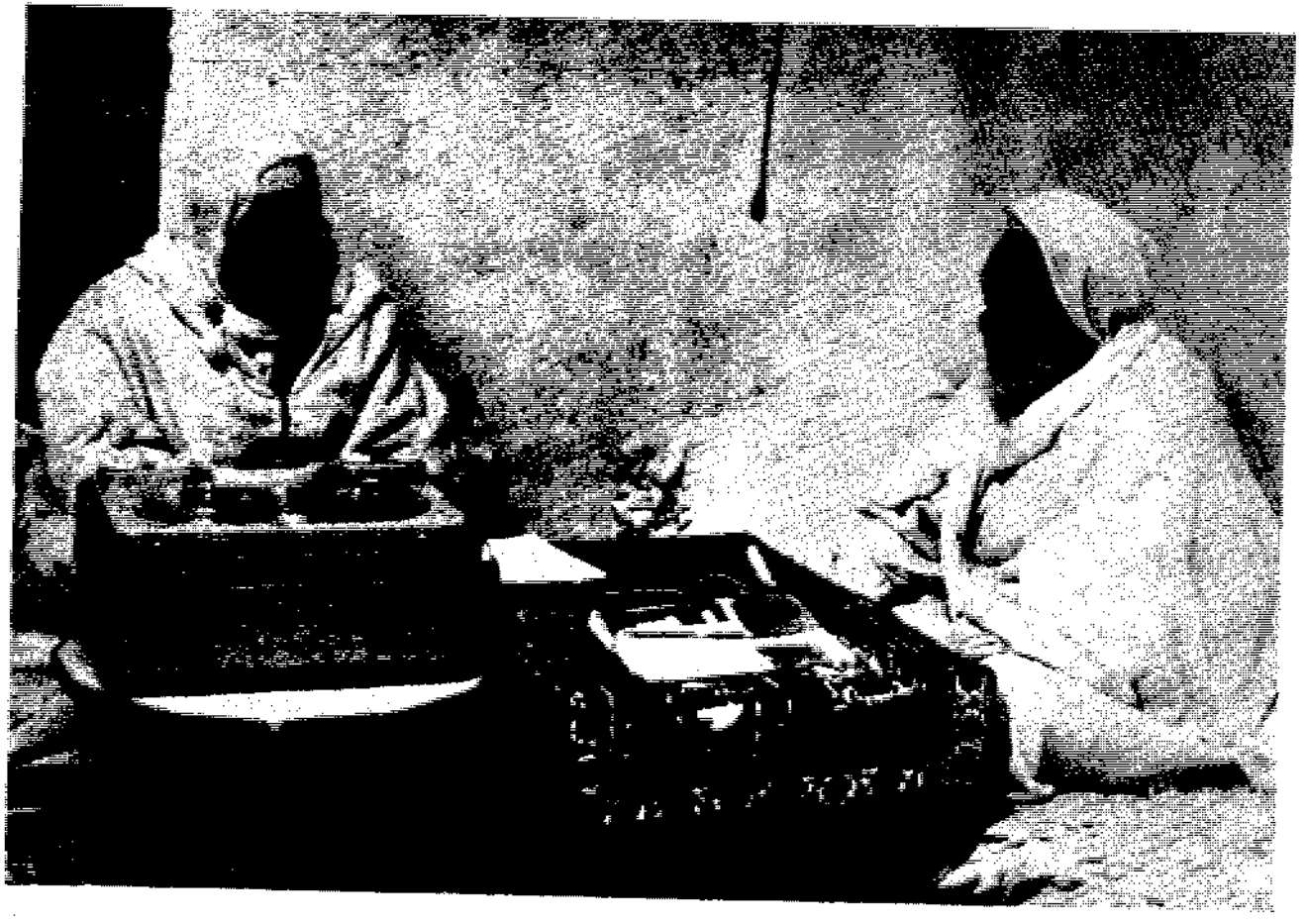

العلامة الجليل استاذى الشيخ ابراهيم بن عمر بيـــوض على اليمين يحدث مؤلـــف الكتاب فى مجالس كثيرة بتاريخه وتاريخ آبائه بتفصيل ويسجله بالآلة الماسكة للصوت .

اخذت الصورة فى دار الشيخ فى القرارة فى يوم الاثنين 29 ذو الحجة 1391 ـ 14 فبراير 1972

والـــد الشيـخ بيـــوض
السيـد عمـــر بن بابـــة

هو السيد عمر بن بابة (بفتح الباءين المخففتين) بن ابراهيم بيوض القـراري من عشيرة أولاد أعلام الفاضلة . ولد فى مدينة القرارة بميزاب فى عام 1284 أو 85 هـ 1868 م .

والـــده الكريـــم :

وكان السيد بابة من سراة قومه،والأعيان البارزين فى وطنه ، لدينه واستقامته ونزاهته . وكان مشهورا بالذكاء والشجاعة والفروسية والكرم والفصاحة وعلـــو الهمة ، وحب الخير . وكان جميل الخلقة ، قوى الشخصية ، يحبه الناس ويحترمونه .

والدته الفاضلـــة :

أما والدة السيد عمر فهى السيدة نانة بنت كاسى بن داود ولقب أسرتها ابـن داود نسبة الى جدهم الذى يعتزون به . وهى من عشيرة أولاد أعلاهم الكريمة . وكانت السيدة نَانَّة من عقائل القرارة ، مشهورة بالعقل الراجح والدين المتـــين ، ويمـــن الناصية ، وكرم الاخلاق ، وحسن التدبير . ورثت ذلك من اسرتها الشريفة ، وكان لها بالتربية الحسنة من أبويها ومجتمعها . كما كانت بارعة الجمال ، قوية الشخصية ، منجبا ، كل أبنائها ذرية ناجحة ، وشخصيات بارزة ، محبوبة مبجلة فى القرارة .

ولما توفى عنها زوجها الأول كان لها منه أولاد . ومن طبيعة الرجال النفور مـن المرأة ذات الاولاد العديدين من غيرهم . ومع هذا سارع اليها السيد بابة والد السيد عمر فتزوجها لخصائصها العظيمة ، فأسعدته وأنجبت له ابنه عمر ولمـا توفى عنها أسرع اليها سرى آخر من عشيرتها رغم كثرة أولادها ، وتقدم سنها . وهذا دليل على قدرها العظيم ، وكثـرة خصائصها الكريمـة . وقد أسعدت كل أزواجها الثـــلاثة ، وأنجبت لهم ذرية صالحة ، وربحوا وأثلوا الأموال بفضل تدبيرها ويمن ناصيتها .

وكانت السيدة نانة تحب ابنها عمر حبا جما على كثرة أولادها . انه وحيدهـا من أبيه الذى تحبه حبا جما لفضله . وكانت تثنى على ابنها عمر وتدعو لـه ، بالغـة

الرضى عنه ، لكثرة بره بها فى طفولته ورجولته ، وشدة حبه لها ، وحسن سلوكه الذى يشرفها ، وسيادته فى مجتمعه بدينه وفضله وجهاده العظيم ·

وكان ابنها عمر يحبها ويجلها اجلالا عظيما ، ويبرها بكل ما يستطيع · وكانت فى دار زوجها الثالث غير أبيه ، فكان يزورها كل يوم فى دارها ، ويتحفها بما يجد فى السوق والبستان من الطرف الغالية ، ويجلس اليها فينال من حنانها · واذا لم يرها يوما أحس بالوحشة الشديدة · هذا وهو على أبواب الكهولة ، كثير الاشغال والاولاد وهو ما يضعف صلة المرء بأبويه · ولما توفيت كان عمرها نحو ثمانين عاما ، وعمر فى الاربعين من عمره ، فحزن عليها حزنا شديدا وبكاها بكاء مرا ، وشعر باليتم ووحشة الزمان بعدها · وبكاها كل أولادها وأحفادها وتركت فراغا كبيرا فى أسر أزواجها الثلاثة كلهم · وهذا دليل على شخصيتها العظيمة ، وخصائصها الكريمة التى ذكرنا ·

ورغم شيخوختها البالغة فى آخر عمرها ، حافظت على حيويتها،وقوة جسمها،وعلى بقايا جمالها البارع ، مما يدل على متانة أسرها ، وما وهبها الله من المزايا فى كل نواحيها ·

توفاها الله فى يوم 24 جمادى الاولى 1328 هـ ـ 1910 يرحمها الله · وقد جازاها الله الجزاء العظيم على صلاحها وبرها بأزواجها فما توفيت حتى رأت أولادها العديدين يسودون فى المجتمع ، ويسدون أبواب الخير فى بلدهم · ورأت أحفادها الصالحين · فذهبت الى ربها قريرة العين · يرحمها الله ·

تلك هى والدة السيد عمر ومكانتها العظيمة فى نفسه فاستطاعت ان تصبغه بصبغتها ، وتربيه أحسن تربية وتسعده كل السعادة فى صباه ورجولته ، فلولاها ما استطاع والده ان يغرس فيه كل أخلاق الرجولة ·

ميلاد السيد عمر بن بابة ونشأته وتعلمه

ولد السيد عمر بن بابة بيوض فى مدينة القرارة بوادى ميزاب حوالى 1286 أو 87 هجرية · 1870 ميلادية ، وأبواه فى أتم قوتهما وفى سن النضوج والصافة فى

العقل ، فسرا بميلاده كل السرور ، فاعتنيا بتربيته ، وظهرت فيه وراثة أبويه الزكية ، وحرصا على ان يكون رجلا صالحا ممتلئا بالدين ، متصفا بالاخلاق الاسلامية ، فيحقق آمالهما ، فيكون سندا لأبيه وذخرا للدين والوطن · فغرست فيه أمه وأبوه طباعهما الحسنة ، وطبعه المجتمع الميزابى الكريم الذى وصفنا باخلاقه الطيبة ، وما شب حتى أسرعت به امه وابوه واخوته الى البستان والحقل فقضى طفولته الاولى وهو يغدو اليه كل يوم فيقضى فيه جزءا كبيرا من نهاره ، فطبعه بالجد وحب العمل ، وأورثه قوة فى الجسم والخلق ·

ولما وصل عمر حوالى السادسة من عمره ، ادخله ابوه فى كتاب من الكتاتيب التابعة للمسجد فى القرارة ، وكان يحفظ فيها القرآن رجال صالحون ، ومربون اتقياء حازمون من العزابة وغيرهم· وكانت هذه الكتاتيب تعتنى كل الاعتناء بتحفيظ القرآن الكريم للناشئة ، وتربيها تربية اسلامية قوية ، وتغرس العقيدة الاسلامية فيهم بكل العوامل وتعلمهم القراءة والكتابة · فقضى عمر مدة فى كتاب من هذه فحفظ جزءا من القرآن ، وتعلم القراءة والكتابة ، وتشرب روح الكتاب الدينية القوية ، وأكد فيه معلمه ما غرس فيه أبواه من أخلاق اسلامية ، وعاش فى طفولته فى جوار بيت الله يملأ الأذان نفسه المتفتحة ، ويزيد للعقيدة الاسلامة رسوخا فى نفسه الكريمة ·

وكانت أمه وان كانت حازمة حكيمة صالحة تستطيع ان تربيه تربية حسنة ، ولكن السيد بابة لحزمه وحرصه على أن يكون ابنه صنديدا مثقفا آثر أن يتولى هو تربيته ، وتفتق الاسفار مواهبه ، ويعاشر الرجال الصالحين الاقوياء فيأخذ طباعهم الكريمة ·

وكان السيد بابا تاجرا فى مدينة (سور الغزلان) يقيم فيها العام والعامين ولا يستطيع زيارة أهله فى القرارة · فاصطحب ابنه عمر وهو غلام دون العاشرة الى سور الغزلان ·

وكانت مدينة الجُلْفَة ومدينة بُوسْعَادَة مركزين تجاريين كبيرين وهما طريق التجار الميزابيين الى مدينة سور الغزلان · وكان السيد بابا يغشاهما كثيرا فيقيم فيهما أياما كثيرة للتجارة وكان له فيهما أصدقاء كثيرون من التجار الميزابيين الصلحاء وغيرهم وحرفاء كثيرون من الأعراب وغيرهم ·

في كُتّاب الشيخ آدم في الجلفة :

وكان في مدينة الجلفة كتاب لتحفيظ القرآن والتربية الدينية يعلم فيه معلم صالح حازم مربى يسمى الشيخ آدم . وكان كثير من الميزابيين التجار في الجلفة قد ادخلوا أولادهم في كتابه ، فحفظوا القرآن وظهرت فيهم للشيخ آدم احسن الآثار . ولعل الشيخ الحاج ابراهيم الابريكي ممن حفظ القرآن في هذا الكتاب . فاختار السيد بابة لابنه عمر ان يأخذ قسطه من هذا الكتاب الذى لا يوجد مثله في سور الغزلان ، وان يقيم عند احد اصدقائه في الجلفة من سراة ميزاب يزيد في تربيته ، ولعل هذا هو السيد عيسى بن بابة والد الشيخ الحاج ابراهيم الابريكي رحمهما الله . فاقام في الجلفة مدة فحفظ اجزاء من القرآن الكريم ، وتعلم خط الشيخ آدم الجميل وزاد في تربيته ، ودربه على القراءة الصحيحة الفصيحة ، واذاقه حلاوة العلم وترك فيه أحسن الآثار . وطبعته الجلفة بطابعها الجميل .

وكان اغلب سكان الجلفة من قبائل أولاد نائل . وهم قوم كرام فرسان فصحاء ، مشهورون بحسن العشرة ومحاسن البادية ، وصداقتهم لميزاب سيما للقرارة متينة في كل عهودهم . وكانت فيهم طلاقة في اللسان ، وعربيتهم اقرب الى الفصحى ، فاختلط بهم عمر في متجر صاحب مثواه وفي كتابه ، فتعلم لهجتهم واخذ فصاحتهم وحفظ من اشعارهم الجميلة واغانيهم المطربة ، واحاجيهم وامثلتهم الحكيمة شيئا كثيرا وانعشت فيه بيئة الجلفة الفصيحة وراثة الفصاحة من ابويه فنشأ فصيح اللسان عذب الحديث . كما زادت الجلفة ببردها الشديد وثلوجها المتراكمة في الشتاء في جلَدِه وايدت كل اخلاق الرجولة فيه ، واثرت فيه بجوها الصحى وهوائها النقى فنشأ على الصحة والفراهة والنشاط .

ولما قارب عمر دور البلوغ اخذه والده الى سور الغزلان فدربه على التجارة فبرع فيها في وقت قريب لذكائه ونشاطه وحبه للعمل . فآزر والده في كل اعماله التجارية مع اخيه ابراهيم . ورأى السيد بابا في ابنه عمر نبوغا تجاريا كبيرا ورجا ان يكون خليفته مع أخيه في تجارة الشمال فيستقر هو في القرارة في اسرته التي طال شوقه اليها ، ويحمل عبء المدينة وميزاب مع جيله ، ويستأنف جهاد التعمير في القرارة . ورجا عمر أن يعيش والده طويلا لينعم بتوجيهه الحسن ، وبحنانه وحبه ، ويقر عينه بتحقيق كل آماله فيه . ولكن الله يختار السيد بابا اليه فمرض في سور الغزلان

مرضا عضالا فنقل الى الجزائر العاصمة للعلاج فتوفاه الله فيها · ودفن في المقبـــرة الميزابية في سيدى بنور في الجزائر ·

وكانت وفاة السيد بابا بن ابراهيم في يوم 25 ذى الحجة 1301 هـ 16 اكتـــوبر 1884 م وعمر ابنه عمره أربع عشرة سنة · فحزن على وفاة والده حزنا شديدا وبكاه بكاء مرا ، ولكنه كفكف دمعه وعاوده ما غرس فيه والده من جلـــد واعتماد عـلى النفس وأخلاق الرجولة ، وعـــزم أن يكون قويا صالحا ناجحا كأبيه ويسد ثغورها كلهـا · ودام عمر وفيا لوالده يحيي سيرته باعماله ، ويزور قبره كلما زار الجزائر لمثاربـــه التجارية ·

وكان السيد بابا فلاحا ماهرا ومعمرا كبيرا ، غرس عدة أجنة مـن النخيل في القرارة وملك حقولا للزراعة ، حاذقا في التجارة فنجح فيها ، فعاش هو وأسرتـــه عيشة حسنة ، وأنشأ أولاده على العز والطموح بفضل غناه ، وترك من كد يمينه ثروة ورثها أبناؤه وزادوا عليها ·

زواجـــه بأم الشيـخ بيـوض
وأثـرها الحميـد في حياتـــه

لما توفي والد عمر كفلته والدته الحكيمة الحازمة ، وواصلت فيه جهود والـــده في التربية والتوجيه ، وكفله أخوه الاكبر ابراهيم وكان مدبرا حكيما كوالده ، كمـا شمله بالرعاية ابن عمه دَادَّة بن حمو بيوض ، واخوته من أمه وكانوا أسن منه · كما أحبه وخصه بالرعاية صديق والده السيد كاسي بن بهون ·

ولما بلغ عمر التاسعة عشرة من عمره اختارت له أمه وأخوه ابراهيم بنت صديق والدهم السيد كاسي بن بهون عائشة وكانت في السابعة عشرة من عمرها · وكانـت فتاة مشهورة في القرارة بذكائها ونشاطها وقوة شخصيتها وخصائصها الحسنـــة الاخرى · وكان الله قد ادخرها لعمر لتكون عرسه الميمونة التي تسعده · وأم استاذنا الجليل الشيخ بيوض · وسأحدثك عنها بتفصيل أكثر ·

وكان السيد كاسي بن بهون من سراة القرارة ، ومن أعيانها النابهين ، لذكائـه الوقاد ودهائه الكبير ، وشجاعته وفروسيته ، وقوة شخصيته ، وغناه الواسع · وكان يحب السيد بابا والد عمر حبا جما ويحترمه لفضله وصداقته القديمة له ، ولحســن

تصرفه ومواقفه في الفتنة التي وقعت في القرارة في عـــام 1293 هـ 1876 م فاودت بحياة أخيه السيد ابراهيم بن بهون • لقد انكر السيد بابا على رؤوس الفتنة عملهم ، وحاول أن يثنيهم ، سيما وأحد زعمائها ربيبه ، فلما ركبوا رؤوسهم هاجـــر بلـده القرارة الى سور الغزلان سنين عديدة حتى لا يتهم بالتقصير والممالئة على الفتنة • فدام في ديار الغربة الى ان سكنت الفتنة وصفا جو القرارة ؛ فعرف له السيد كاسي بـن بهون هذه اليد وهذا الموقف الحميد فازداد له حبا ، وتأكدت الصداقة القديمة بينهما• ولما توفاه الله شمل اسرته برعايته ، وخص ابنه الصغير عمر بحبه ، وادرك بذكائـه الوقاد حقيقته فقربه وأخاه ابراهيم • ولما خطب ابراهيم ابنته الاثيرة لديه عائشـــة لأخيه عمر رحب بهم ورحبت عائشة وأمها لما يعرفون مـــن خصائص عمر الحسنـــة وخصائص أمه واسرته • وتم الزواج المبارك على يد القاضي العادل الصالح الاستـاذ الجليل الشيخ محمد بن الحاج قاسم الشيخ بالحاج في يوم 15 رجب 1304 هـ — 9 ابريل 1887 وعمر عائشة سبـــع عشرة سنة وعمر تسعـة عشر عاما • فكانا أحسن زوجـين انسجاما ومحبة وسعادة ويمنا •

وصار عمر صهر كاسي بن بهون تربطه به علاقة أخرى قوية ، فازداد السيـــد كاسي له عناية وحفاوة • فرأى استعداده التجاري الكبير وحبه للتجارة فاشترى لـه في سوق القرارة تحت نادي الحياة اليوم دكانا مملوءا بالبضائع دفع فيه خمسة آلاف فرنك فرنسية قديمة ، تركها رأس مال لعمر يتاجر بها • وخمسة آلاف ذلك العهـد مال عظيم قلما تشتمل عليه خزانة غني، وقل من يبذله كله في نوائب صديقه وقريبه • ان هذا دليل على غنى السيد كاسي الواسع أيضا • ثم بنى له في السوق دكانا حسنا في مكان تجاري مهم فانتقل اليه ، فدام فيه الى أن توفاه الله •ان أيادي السيـد كاسي ابن بهون على ابن صديقه وصهره كبيرة ، فهو من أسباب نجاحه التجاري واستقراره في القرارة •

أسبـاب تجارتـــه في القـرارة

كانت التجارة في القرارة قاصرة ، والدكاكين صغيرة مختلة ناقصة البضاعـة ، والأهالي يطلبون حاجاتهم من عدة حوانيت فلا يجدونها • وذلك لجهـل كثير من التجار لحرفتهم ، ولخوف الطرق المؤدية الى الشمال حيث موارد البضاعة ، بكثرة عصابـات اللصوص المنتشرة فيها ، ولجدب الصحارى أحيانا أعواما متصلة فيهاجر البداة منها•

فقد ازدهرت التجارة عهدا طويلا في مدن ميزاب، فساء عمر وكثيرا من أعيان القرارة ما يقاسي بلدهم من الحاجة ، وما في تجارة وطنهم من القصور والركود ، فعزموا على عمارة الوطن ، والنهوض بالتجارة فيه ، ففتحوا متاجر منظمة عامرة طار بها صيت القرارة ، فقصدتها قبائل البادية من كل النواحي . ومن هذه المتاجر التي أنشئت في آخر القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين المسيحي دكان السيد باالحاج بن عدون والد استاذنا الجليل الشيخ عدون ودكان السيد عمر بن بابا وكانا متقابلين في سوق القرارة . ودكاكين أخرى أنشأها سراة القرارة المصلحون في سوق القرارة السادة : باسعيد بن الحاج داود ، والحاج محمد بن يحيى ابن عمر ، والحاج يحيى بو عبون .

ومما ساعد على هذه النهضة التجارية أمن الطرق وقلة الخوف فيها في هذا العهد وتوالي أعوام كثيرة من الخصب الكبير في صحراء ميزاب ، فعمرت بالبداة الذين استغلوا ذلك الخصب في زراعتهم ومواشيهم ، فامتلأت جيوبهم وايديهم بالمال ، فوجدوا القرارة فصارت هي السوق الكبرى في الصحراء الشرقية لبيعهم وشرائهم .

فتح عمر متجره فنظمه وعمره بكل البضائع الحسنة التي يحتاجها أهل الحضر والبادية . ولم يكن التخصص في ذلك الزمان في التجارة . فالمتجر يحتوي على كل البضائع مما يُلبس ويؤكل ، وعلى الاواني وادوات العمل الحديدية لكل الحرف ، وعلى العقاقير الطبية الصحراوية وغيرها ، وعلى العطور والمصنوعات الجلدية كلها . وكان الزحام يكثر في هذه المتاجر لأن الفئات تقصدها كلها . وبث عمر حيويته ونشاطه وبشاشته في متجره فصار حيا جذابا للنفوس ، وأسر الاعراب بفصاحته وعذوبة حديثه وكرمه وبأمانته ونصحه لهم فاقبلوا عليه زرافات ، فغص بهم متجره طول النهار واشتهر متجر عمر في القرارة والبادية بجودة البضاعة ، وكثرة العمارة ، وحسن المعاملة ، فصار من اشترى ولم يكن من عمر بن بابة أو باالحاج بن عدون يعد نفسه مغبونا لم يقتن الأجود الجميل . فراجت تجارة عمر ، وفتح الله عليه بالمال الكثير فوسع تجارته ، فانشأ متجرا في الداخل للنساء خاصة ، وبنى وغرس الأجنة وعاش في احسن حال وفي عز وعاشت اسرته . وصار من اعيان القرارة بغناه أيضا .

وكان عمر في أول الأمر وحده في تجارة القرارة الى أن اتسعت فاستقدم شريكه السيد سليمان بن باالحاج من الجلفة ، فخلفه في دكان القرارة ، فقام هو بجلب البضائع من بلاد الشمال . يسافر مرارا في العام فيقيم في الشمال الشهر والشهرين يجوب العواصم والمراكز التجارية ينتقي بضائعها الحسنة ، فيبعث ما يكفي دكان

القرارة للرجال ومتجره الخاص للنساء شهورا · وكان تجار الجملة واغلبهم يهـــود متفرنسون يحترمون السيد عمر ويثقون به ثقة كاملة ، لدينه وامانته وذكائه وبراعته في التجارة · وكان له أصدقاء في أغلب مدن الشمال من أعيانها · لا يحل في مدينـة الا ويسرعون اليه فيكرمونه ويخدمونه · فعمرت القرارة بالحسن الرخيص من كـــل ما تحتاجه وتحتاجه بواديها ، ونهضت نهضة تجارية حسنة ، واقتدى بعمر وزملائه كثير من التجار فحمدوا عاقبتهم ·

وكان السيد سليمان بن بالحاج شريك السيد عمر تقيا ورعا لطيف الحاشيـــة عذب اللسان ، فصيحـا في العـربية · وكنا تلاميـذ معهد الحياة في عهد تلمـذتي في الثلاثينات وأول الأربعينات نشترى منه حاجاتنا ، فنجد كل ما نريد في متجره · وكان في أيام ازدهار تجـارتهم قبل وفاة السيد عمر يدخـل عليـه الأعرابي فيســـأله عن حاجاته الكثيرة المختلفة ، فيجيبه : « كل شيء تلقـاه غير ابيك وأمك ما تلقاهـــومش في الحـانوت » يعني كل ما تريده وتحبه في حانوتي الا أباك وأمك لا تجدهمـــا فيه ، وهذا يدل على مرحه ومرح الاعراب وقوة العمارة في دكانه ·

شخصيتـــه وجهـــاده

كان السيد عمر ربعة القد ، عظيم الهامة ، عريض الجبهة ، علامة الذكاء والفطنة حديد البصر ، سالم الحواس ، خفيف الحركة ، لا يثقله مرض ولا سمنة ، ابيض اللون تشوبه حمرة كأبيه وجده · فارسا يهوى ركوب الخيل ، ولكنه لم يـــكن عـلى براعـة أخيه واجداده في الفروسية وألعابها ، لنفسه العملية وكثرة أعماله ، فلم يولع بألعاب الفروسية كأبناء أسرته وقومه ·

وكانت لحيته مستديرة خفيفة تزيد في مهابته ووقاره·وكان مهيب الطلعة يخشاه من لا يعرفه · وكان أبناؤه وأسرته يهابونه فلا يطيلون النظر اليه ، ولا يسترسلـون في الحديث أمامه ، وذلك لقوة شخصيته وكثرة حزمه واعتداده بنفسه ، فكان عـــلى تلك المهابة التي هي طابع الرجال الصناديد في ذلك العهد المبارك ·

وكان مع أصدقائه وخاصته بالغ المرح ، يبادلهم النكتة الطريفة ، ويملأ مجالسهم بالفكاهة الظريفة ، وينشـر لهم ما يسليهم من قصص الأعـــراب ونوادرهم وأمثالهم · وكان يحفظ الكثير من الأغاني الشائعة الجميلة في زمانه ، واذا طابت نفسه في وحدته

تغنى لقوة مرحه وحبه للغناء · وربما سمع بعض الاسطوانات العاطفية من الغنـــاء الصحراوى الجميل فى مجالس اصدقائه ، فتذكره بعهود شبابه السعيد المرح فيبكى من شدة التأثر · انه وان كان عمليا حازما يبدو عليه التزمت فى أوقات الجد ، ولكنه قوى الوجدان مغرم بالجمال ، يحبه فى كل مظاهره ·

وكان شديد التمسك بالدين ، يخاف الله ويراقبه فى أعماله ، ويعمل لوجهـه الكريم ابتغاء رضوانه · وكان يعتقد كل الاعتقاد ان اتباع طريق الدين هـو سبب النجاح فى كل شىء ، وهو الأساس ، بدونه لا تكون نتيجة وان تضاعف السعى وكثرت الوسائل ، وأن هذا الدين الاسلامى العظيم هو روح الأمة يجب التمسك به والذب عنه وهو هدف الاستعمار الصليبى يسدد اليه كل اسلحته ، ويفجر عليه كل أهواله ليتم له النصر والاستقرار فى بلاد الاسلام · تلك هى عقيدة عمر الراسخة التى تصرفـه فى كل اعماله ، وهى التى جعلته يسارع فى أول شبابه الى صف المصلحين فيخـوض معهم المعارك الحامية ، ويصـــبح من أركانهم ، ويستمر على جهاده لنصرة الدين الى أن لقى الله ·

وكان عمر حسن النية فى أعماله ، لهذا أنجحه الله وبارك لـه فى مسعـــاه ، وجازاه بالولد الصالح النابغة · وحسن النية من بياض القلب ، وهو ثمرة الديـــن المكين ، والاصل الشريف !

وكان يلازم المسجد فى اغلب أوقات الصلاة ، فيجلس بين العشاءين ، وقبـل الفجر وراء مجلـس القرآن ، فيسمـع كلام الله بتـلاوة جماعية جليلة مؤثـرة تخشع لها كل القلوب المؤمنة ، فيتلو مع المجلس اذا كان فى السور التى يحفظها ، واذا كان فيما لم يحفظ انتشى بمعانى القرآن التى يجلوها ترتيل الجماعة ترتيلا يجعلـك فى القرآن كأنه يساربك فى تؤدة فيما تود معرفته فيبدو لك فى أتم وضوحه · فيـعود عمر لانتشائه بكلام الله أن لا تسكت التلاوة ولا يخرج من بيت الله ·

شـدة حبه للعلـــم والعلمـــاء

وكان عمر يحب العلم كل الحب . ويحب العلماء ويجلهم ، ويسارع الى خدمتهم وبرهم بما يستطيع · وكان الشيخ الحاج ابراهيم الابريكى صديقه الحميم عرفه منذ طفولته وعاشره طويلا فى الجلفة ولعل كتابهما ومعلمهما واحد فى الجلفة ، فصـار صديقه فى لدراسة أيضا · وكان السيد عمر شديد الحب للشيخ الابريكى ، معجبا به ، يعـرف

قدره العظيم • وكانا متشابهين في الشخصية • فزاد التشـابه في حبهمـا • وكان يلازم دروسه العامة في المسجد ودروسه للعامة والطلبة في معهده بعد صلاة العشاء لا يتخلف عنها وذلك لشغفه بالعلم واعجابه بدروس الشيخ الابريكي وفصاحته وقوة روحه • وكان لدروس الشيخ الحاج محمد بن الحاج قاسم العامة على هـذا ، ولدروس الشيخ الحاج عمر بن يحيى • كانت نشوته الكبرى في سماع العلم ، سيمـا دروس التفسير والحديث والتاريخ الحية ودروس الوعظ الحماسية التي يرى فيها الضربات تنهال على الفساد فتقضي عليه •

وكان يسارع الى خدمة العلماء • فهو الذي يشترى لهم حاجاتهم من السوق • فاللحم وأشياء البادية كلها : اللبن والزبدة والصوف والكمء وغيرها تبـاع في وسط السوق في أوقات خاصة وبالدلالة أحيانا • وقد يكون ذلك الوقت وقت دروس ودراسة للعالم ، وليس من شيمة العلماء التزاحم على الاشياء في السوق لشرائها • فكان التجار المخلصون يربأون بعلمائهم أن يجلسوا في السوق لشراء شيء أو بيعه فيتولون ذلـك لهم • وكان السيد عمر هو الذي يشترى للشيخ الحاج الابريكي وللشيخ الحاج عمر بـن يحيى ، وللشيخ محمد الطاهر وغيرهم من العلماء ، وللعزابة وكبار الطلبة كـل ما يحتاجون من هذه الضروريات من السوق • وكان العربان الذين يقصدون القـرارة ببضائعهم أصدقاءه فيعرف أهم ما جاءوا به فيشترى لهم أحسن شيء بثمن رخيص • وكان يهدى للعلماء والطلبة من طرف البادية الغالية ، ويقيم لهم الولائـم في داره ، ويطلب دعاءهم ، ويستلذ مجالسهم •

وكان السيد بالحاج بن عدون شريفي على هذه الخدمة في أشياء السوق وعلى هذا البر بالعلماء والعزابة والطلبة • وكان لنا نحن في أيام التلمذة في معهد الحيـاة أبونا الروحي السيد بكير بن عدون اشريفي ، والسيد بكير بن مسعود والسيد عمارة ابن بكير حشحوش ، والسيد الحاج عيسى بن سليمان رحمهم الله•ولا زال رجال صالحون في سوق القرارة يعرفون واجبهم نحو علمائهم وطلبة العلم فيشترون لهم كـل ما يشاءون • انها سيرة اسلامية حسنة بدأها أسلافهم الماجدون • يرحمهم الله ، وبارك الله في أعقابهم الصالحين •

ولا يسمع السيد عمر بن بابة بعالم يزور القرارة الا ويسارع اليه فيقريـه ، ويلازم دروس وعظه في الليل ومجالس أسماره • وكان رحمه الله أبيا معتدا بنفسه كل الاعتداد رافع الرأس • ولكنه اذا رأى العـالم يتواضع له ويطـاطيء ، ويسرع اليه

فيسلم عليه بكلتا يديه ويقبل هامته ، ويجلس خاشعا أمامه · وذلك لشدة حبه للعلم واكباره للعلماء ·

وكان العلامة الجليل الشيخ محمد الطاهر عمارة (1) من كبار أصدقائه وملازميه وكان السيد عمر شديد الحب له ، عظيم البر به ، يستلذ مجالسه الانيسة المفيدة ، ويعجب بعلم الشيخ الغزير وظرفه وصفائه وبوده ان لا تنقضي مجالسه معه · واذا لم يزره يوما ويجلس معه في دكانه أو داره أحس بالوحشة الشديدة ، وذلك لشدة حبه للعلم والعلماء · يرحمهما الله جميعا ·

وكان قطب الأئمة الشيخ الحاج امحمد اطفيش يزور القرارة في آخر عمره مرة في العام فيقيم فيها أسبوعين · وكان السيد عمر من أعيان القرارة الذين يسارعون فيأتون بالقطب من بريان في أبهة وجلال·وكان للسيد عمر بغل فاره مطهم حسن المشية كريم الطباع لا نظير له في القرارة · وكان عزيزا عليه ، يراه من أكبر نعم الله عليه· واذا وصل بريان أسرجه أحسن اسراج فيقدمه الى القطب فيمتطيه ، ومن حسن مشيته أن القطب يواصل تأليفه في طريقه على ظهر مطيته هذه فلا تنكفيء دواته ولا يرتج اللوح الذي يكتب فيه في يده ، فيكتب ألواحا كثيرة في سفره الى القرارة من بريان هي مسوداته ، فاذا وصل القرارة بيضها في الورق · حدثني بهذا والدنا السيد بكير بن عدون اشريفي وكان خادم القطب يمسك بركابه اذا ركب ، وبلجام مطيته فيقودها ماشيا الى أن يصل القرارة وكذلك في الاياب وكان يلازم القطب طول الطريق ويخدمه في كل زياراته للقرارة ذاهبا وآيبا · وكانت خاصة القرارة لا يرضون مطية للقطب الا هذا البغل الكريم · وكان السيد عمر يسافر عليه وهو عزيز عليه كأحد أولاده ، لا يرضى ان يقربه غيره خوف اهانته ، ولكنه يقدمه الى القطب في نشوة وحبور اكراما للعلم والدين ·

وكانت القرارة كلها تبتهج ابتهاجا عظيما بزيارة القطب ، وترى أيام مقامه بينهم من أكبر أعيادها · وكان السيد عمر وأعيان القرارة كلهم يسارعون الى مجالس وعظه فيصغون اليه في تعطش واعجاب · ويلازمون القطب يتنافسون على خدمته وضيافته هو وتلاميذه الذين معه (2) · وكان السيد عمر يحب القطب حبا شديدا ويراه إمام

(1) انظر ترجمته في الجزء الثاني من كتابنا (نهضة الجزائر الحديثة) ص 226 ط اولى في الجزائر 1391 م 1971 .

(2) انظر تفاصيل زيارة القطب لبريان وللقرارة في صفحة 340 من كتابنا نهضة الجزائر الحديثة ط اولى 1385 م 1965 هـ ج 1

النهضة الاسلامية الحديثة التي ستعيد للاسلام عزته ، وللجزائر والمغرب سيادته . وكان من انصار هذه النهضة يؤيدها بكل ما يستطيع . وكان حربا على كل اعدائها . واذا زار ميزاب أسرع الى القطب فيسلم عليه ويجلس في خشوع وتلهف وراء حلقة دروسه في معهده فيسمع كل دروسه حتى التي لا يفهمها ، وذلك لشغفه بالعلم .

وكان يهدى الى القطب ويطرفه ويبره بكل ما يستطيع . وكان القطب يرحب به ويهش له ويكرمه ويحبه لصلاحه وشدة حبه للعلم ، ويدعو له بكل خير .

وكان السيد عمر يسأل الشيخ اطفيش وكل العلماء الصالحين الرقيا والدعاء له أن يهبه الله ولدا صالحا نابغة يجعله للعلم . وكان يؤكد نذره هذا كثيرا . وكان القطب والعلما يدعون له بما أراد . وكان أقصى أمله أن يهبه الله هذا الولد ويراه عالما صالحا ينصر الدين ويؤيد النهضة ويعلي صروحها . وكان يتضرع الى الله في صلواته وفي مقامات الاستجابة كالمساجد ان يهبه الله عالما من صلبه ، وذلك لشدة شغفه بالعلم . واذا رأينا أستاذنا الجليل الشيخ بيوض على العبقرية العلمية فتلك آثار دعوات والده المستجابة . واذا رأيناه يشغف بالعلم فينبغ فذلك آثار وجدان حب العلم الذي ورثه من أبيه . ومن عرف النعمة وقدّرها وطلبها بنية حسنة أوتيها . والولد العالم الصالح لا يهبه الله الا لمن يشغف بالعلم والدين ويخدمهما بكل ما يستطيع ، ويراهما أقدس شيء وأغلى شيء في الوجود . هذه هي القاعدة الصحيحة التي لا تكذب . ولو لم نعرف تاريخ آباء مشايخنا وشدة شغفهم بالعلم والدين لاستنبطنا من صلاح ونبوغ أبنائهم حقيقتهم هذه . ومحال أن يكون الولد العالم الصالح من آباء سوء لا يقدرون العلم والدين .

جهاده الاصلاحي

كان السيد عمر محبا للخير ، غيورا على دينه ، شديد الحب لوطنه ، يتمنى له النهوض والتقدم ، فدفعه طبعه السليم وحبه للخير وعقله المثقف الحصيف منذ بلوغه الى حزب الاصلاح الذي يحمل راية النهضة الحديثة فوقف في صفهم يكافح معهم رغم ضراوة الفساد والاستعمار العسكري في ذلك العهد ، وتجبر المفسدين وتسليط كل البلايا على المصلحين ليفتنوهم عن عقيدتهم الاصلاحية ، ويرهبوا العامة فلا تنضم اليهم . ولكن عمر كان شجاعا حازما مصمما في الامور ، فانضم الى صف المصلحين

وصارح المفسدين بالعداوة الشديدة والمقت ، فرفع رجله فى حقد واصرار كما يفعل على العقرب النكراء ليسحقها !

وكان الصراع لما شب عمر على أشده بين المصلحين والمفسدين فى القرارة وميزاب وكان المصلحون يحامون عن نهضتهم المباركة وما فيها من معاهد العلم والمسجد واصلاح اجتماعى يطهرون به مجتمعهم من كل المفاسد، والمفسدون يريدون بقاء كل المفاسد التى تشبع نفوسهم والزيادة فيها ، والقضاء على النهضة التى تناوئهم · وكان الحكام العسكريون الفرنسيون المتجبرون مع المفسدين ينفخون فى نارهم ويعينونهم على المصلحين بكل وسائلهم · وكان المصلحون حزب الله يصولون بقوته ، فاشتدت المعارك بين المصلحين والمفسدين ، وابتلى المصلحون فى أنفسهم وأموالهم بكل ما يفتن الضعفاء ، ولكن لم يزد للمصلحين الا قوة وثباتا واقداما · (1)

اغتيال امام النهضة فى القرارة
الشيخ الحاج محمد بن الحاج قاسم
وأثر ذلك فى الاصلاح

وكان قائد النهضة فى القرارة فى هذا العهد فى العقد الاول والثانى من القرن الرابع عشر الهجرى ، التاسع والعاشر من القرن التاسع عشر المسيحى هو البطل العظيم والمصلح الكبير الشيخ الحاج محمد بن الحاج قاسم الشيخ بالحاج · وكان شيخ المسجد وكبير العزابة ، يوالى صواعقه فى دروسه على أنواع الفساد ليطهر القرارة · وكان هو قاضى القرارة قدمه العزابة الى منصبه باقتراح من أستاذه الشيخ الحاج امحمد اطفيش · وكان القضاء فى ذلك العهد فى يد العزابة ، وكان ختم الشيخ الحاج محمد فى دار القضاء (شيخ العزابة) وكان رحمه الله أحسن قاض فى القرارة ، علما وورعا وذكاء وحزما · وهو أول من سد باب الخصام بالفجور ، لا يقف أمامه مطالبا الا المحقون وطرد تجار الخصومات الذين يتوكلون على الباطل وينفخون فى نار الخصومات لتكبر ، ويأكلون المال الحرام ، فساد الاخاء والرخاء فى القرارة ، بفضل مسجدها المصلح

---

(1) انظر تفاصيل المعارك الطاحنة بين الصلاح والفساد فى الجزء الثانى من كتابنا (نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة) صفحة 187 ط اولى 1391 م 1971 فى الجزائر .

العامل ، وقاضيها الحازم العادل ، ورجوع القرارة بقيادته الى صراط الله ، ترفع لواء النهضة ، وتخوض المعارك لنصرة دين الله ·

ورأى المفسدون والمستعمرون العسكريون جذور النهضة يرسخها الشيخ الحاج محمد فتؤتي أكلها في تلاميذه الابطال العاملين ، وفي أنصاره المتكاثرين ، فقامت قيامتهم ، فاغتالوا الشيخ الحاج محمد في عام 1319 هـ 1901 م وظنوا انهم قضوا على النهضة وأصحابها · فمات شهيدا يرحمه الله · فثارت ثائرة المصلحين في القرارة بهذا المنكر الشنيع فازدادوا حماسا وقوة وتصميما ، وزاد ذلك لجمعهم تكاثرا · ورأى عمر تجبر المفسدين على حزب الله ، فازداد حقدا عليهم ، واصرارا على القضاء عليهم ، ومناصرة الاصلاح الى أن يبلغ غايته فيقضي على كل أنواع الفساد ، ويطأ على رقاب الاستعمار · ولما رفع راية قيادة النهضة الابطال الثلاثة تلاميذ الشيخ الحاج محمد بعد اغتياله : الشيخ الحاج ابراهيم الابريكي ، والشيخ الحاج عمر بن يحيى ، والشيخ الحاج بكير العنق ، وبلغت المعارك بين المصلحين والمفسدين أشدها في العنف ، كان السيد عمر من أركان هؤلاء القادة الابطال وذراعهم الايمن ، لم يضعف ولم يتزعزع ولم يشح· وكان يرى النهضة روحه وروح الوطن والدين فضحى في سبيلها بكل عزيز، وتمنى على الله في شغف شديد أن يرزقه ابنا نجيبا صالحا يجعله للعلم والنهضة · واذا رأيت أستاذنا الجليل الشيخ بيوض يتأجج حقدا على المفسدين والمستعمرين منذ صغره ، ثم يغرم بجهاده العظيم ضدهم ، فاعلم ان وجدانه ذلك انتقل اليه من أبيه فلولاه ما كان عليه ·

وكان السيد عمر اجتماعيا محبا للخير ، يسارع الى خدمة سواه ، ويعطف على المساكين والارامل فيجود عليهم من ماله ، ويقضي حوائجهم فيدعون له بكل خير فتقبل الله دعواتهم · وكان مضيافا ، يقصده اصدقاؤه الكثيرون من البادية ومدن ميزاب وغيرها فيولم لهم · وقلما يخلو يوم وليس له جماعة من الضيوف قد دعاهم للغداء أو للعشاء · وقد بنى دارا واسعة بجانب داره لضيوفه ، فأثثها بالفرش الوتيرة وبما يلزم الضيف في طعامه ومنامه ·

وكان نبيها يعرفه الناس · وكان أعيان البادية المحيطة بالقرارة ، والقرى والمدن التي تكتنفها من جهاتها الاربعة أصدقاءه ، يحبونه ويحترمونه ، وذلك لطبعه الاجتماعي القوي الذي يجذب اليه الناس ، ولكثرة أسفاره وتعرفه في المدن بصفوتها·

وكان السيد عمر حازما كل الحزم صارما فى أموره ، شجاعا صريحا لا يخاف ولا يداهن ، ولهذه الصفات اختاره العزابة واعيان القرارة رئيسا للحراسة التطوعية يديرها ، فقام بالامر أحسن قيام ، احتسابا لثواب الله ، وارضاء لطبعه الاجتماعى الذى يجعله ينتشى بتحمل أثقال المجتمع · ولحزمه كان لا ينام فى الليل حتى يكتب مذكراته فيذكر أهم ما وقع فى يومه من أحداث ، ويسجل كل ما له وما عليه للناس ، ويجيب على الرسائل التى تأتيه ·

وكان محبا للنظافة فى كل أشيائه ، مشغوفا بالنظام يلتزمه فى كل الامور ، فى دكانه المرصوف ، وفى داره التى يرتب فيها أموره ترتيبا دقيقا ، ويضع كل شىء فى موضعه ، ثم لا يرضى ان يجعل فى غير مكانه · فاذا وقع ثار على أهله ثورة عاصفة ، لان مخالفة النظام تعكر مزاجه ، وتخالف طبعه · ولحزمه ونظامه كان يسجل المواليد والوفيات وأعراس الزواج فى أسرته ، وتاريخ ما غرس من النخيل وبنى من الديار · وعند استاذنا الجليل الشيخ بيوض دفتر كبير بخط والده الجميل فيه ما ذكرنا ، وقد أطلعنى عليه فأفادنى فائدة كبرى ، وهو وثيقة تاريخية مهمة ·

وكان عالى الهمة شديد الانفة لا يرضى بالدون · ان أخلاقه العالية من دينه المكين ، وعرقه القوى الزكى ، وتربيته الحسنة الاولى وكثرة أسفاره الى الشمال المتحضر واختلاطه بالاعيان النبهاء فاقتبس أحسن ما رآه ·

ورأس الاخلاق فى السيد عمر هو ما اتصف به المصلحون من جيله فبارك الله لهم ، وأنجحهم ، وأقر عينهم بكل الخيرات وهو العمل لله فى كل ما قام به من خير ! هذا هو سيد الاخلاق كلها ! ومن اتصف به كان على الفضل والتوفيق والنجاح فى كل نواحيه ·

ذلك هو والد الشيخ بيوض الذى أورثه خلاله وطبعه بطابعه فمن هى والدته ؟

والدة الشيخ بيوض الفاضلة
السيدة عائشة بنت كاسى بن بهون

هى الام الجليلة السيدة عائشة بنت كاسى بن بهون بن الناصر بن بهون · ولقب أسرتها (أولاد بهون) نسبة الى جدهم الاول بهون بن الناصر الذى يعتزون به ·

أسرتها وبيئتهـــا :

وكان السيد بهون بن الناصر جد عائشة الاول من الاعيان البارزين فى القـرارة وغرداية ، لذكائه وشجاعته وغناه • وقد حل فى مدينة غرداية أيضا ، واتخذ فيهـــا دارا وملك أملاكا كثيرة فيها ، وتزوج منها السيدة الفاضلة مسعودة بنـــت عفارى ، فولدت له ابنه كاسى •

وكانت السيدة مسعودة من قبيلة الاعفافرة فى غرداية ، وهم من أولاد باخـــة الذى تنتسب اليه القبائل الستة فى القرارة • وكانت السيدة مسعودة مشهـــورة بالذكاء البالغ ، ورجاحة العقل ، وحسن التدبير • وكانت محترمة فى أسرتها • يحفظ نساء أسرتها كثيرا من نصائحها والامثلة وشعرالحكمة البربرى الذى تحفظ منه الكثير• ويتمثلن بها فى مقامات الارشاد والتوجيه • وهذه الام الفاضلة من المصادر القويـة لمواهب ابنها كاسى العقلية والخلقية الحسنة • وقد عاشت الى كهولة ابنها كاسى فنقلها الى القرارة مع اخيها ابراهيم فتوفيت فى القرارة رحمها الله •

اما السيد كاسى بن بهون فولد فى غرداية ونشأ فيها ، فأكدت فيه بيئة غرداية القوية كثيرا من الصفات الحسنة التى ورثها من أبويه ، سيما الدهاء وحسن التدبـير والنظر البعيد فى الامور • ولما شب انتقل الى القرارة فاستقر فيها •

وكان السيد كاسى بن بهون كوالديه يتصف بالذكاء الوقاد ، والدهاء الكبـير ، والنظر الثاقب فى المشاكل • وكان طويل القامة ، متين الاسر ، ذا مهابة ، فارســـا شجاعا جرىء القلب كل الجراءة راميا ماهرا يقطع الخيط الرقيق من بعيد برصاصته ، غنيا ترك له والده أموالا فزاد عليها ، فصار من الاغنياء الكبار فى القرارة وميـزاب • له غابات كثيرة واسعة من النخيل والاشجار ، وأغنـام عديدة فى البادية ، وتجـــارة تدر عليه فى كل عام أرباحا وفيرة • فعاش هو وأسرته فى عز ويسر ، فأكد الغنى عزة النفس فى نفسه وفى نفس أسرته ، فطمح هو وأسرته الى رئاسة القرارة فنالوها •

وكان ممن ترأس فى القرارة من أسرته أخوه لأبيه السيد ابراهيم بن بهـــون وكان من الفرسان الكبار ، ومن الشجعان الكبار فى جنوب الجزائر • وكان لبطولتـه يخرج الى الحرب معلما بجبة حمراء ليعرفه أعداؤه • وكان راميا لا تطيش له رصاصة • يقطع الخيط الرقيق برصاصة بندقيته من بعيد ، يخشاه المفسدون وعصابات اللصوص التى كانت تعيث فى القرارة وبواديها ، ولما تولى حكم القرارة ضرب على أيديهم ، فكثر

السيد كاسى بن بهون جد الشيخ بيوض من امـــه .

الامن ، وسكنت فتن المنافسة على الرئاسة التى كانت تقسم القرارة ، لانه بهر الناس ببطولته واقتداره فارتضته القرارة حاكما لها . وكانت قبائل البادية حول القـرارة ترهبه وتحترمه وتحبه لاحسانه وسخائه البالغ . وكان محترما فى القرارة لحســن سياسته وسيرته سيما فى آخر أمره . وكان قد اتفق مع عزابة المسجد وأعيان القرارة على اصلاحات كثيرة فشرع فى تنفيذها . وعزم أن يصلح الأمور وينهض ببلده ، ويقطع دابر المفسدين . ولكن الحسد تأجج فى نفوس منافسيه على الحكم ، وهؤلاء من قبيلتـه

وغيرها فتآمروا عليه فاغتالوه في عام 1293 هـ 1876 م . فارتاعت القرارة بقتلـــه ، وجزع العقلاء بفقده ، وشهد له كثير من المشايخ والشيخ الحاج عمر بن يحيى بأنه قتل مظلوما وان سيرته في الحكم في آخر أمره كانت حسنة . (1)

واغتاظ أخـــوه كاسي بما وقع له ، فـــرأى كثرة المنافســين وتآمرهم عليهم ، فاستعان عليهم بالحاكم العسكري الفرنسي في الاغواط . وكانت فرانسا حينئذ لـم تحتل ميزاب ولكن لها اشراف على شمال الصحراء ، وتدخّلٌ في الجرائم الكبرى . فرأى الحكام العسكريون دهاء كاسي وشجاعته واقتداره فرحبـوا به وأعانوه ، فقضى بدهائه على قتلة أخيه . وكان هذا الحادث المريع من أكبر الاسباب التي دفعتـــه الى الحكـــام العسكريين ــ كما أرى ــ فاصطنعوه واستعملوه في اغراضهم فلولاه لكان له اتجـــاه آخر .

وقد حافظ السيد كاسي باقتداره على رئاسة القرارة فتولاها بعد مقتل أخيه من عام 1293 الى عام 1333 هـ 1915 م أربعون عاما وهو حاكم القرارة ، مما يدل عـــــلى دهائه واصطناعه للحكام الفرنسيين فلم يعزلوه ، واعجابهم به فآثروا بقاءه في الحكم .

وما يمتاز به السيد كاسي جد الشيخ بيوض من أمه هو الذكاء الوقاد والدهـاء الكبير . وكان السيد الحاج بكير العنق زعيم النهضة في القرارة يشهد له بهذا فقـال لأصحابه مرارا : « القائد كاسي ! انه لدهائه واقتداره على الرئاسة وتصريف الأمـور لا يليق أن يكون حاكما لمدينة صغيرة ولكن لدولة كبيرة ! » (2) وكان السيد باسعيـد بن الحاج داود من أصدقائه كثير الاعجاب بدهائه ، رغم مقارعة هاذين له واشتـــداد المعارك بين حزبهم والقائد كاسي وحزبه ، ولكن صفاء طويتهم ، واخلاق الرجولة فيهم تجعلهم يعرفون حقائق الرجال فيثنـون على جوانبهم الحسنـــة ولـو كانـوا ألـــد أعدائهم .

وكان القائد كاسي كتوما لسره ، يمشي وحده ، ويأكل وحده ويجلس وحـــده لا يعرف أحد أسراره . وكان شديد الحب للقراءة ومعرفة أنباء العالم ، يقـرأ الصحف العربية والفرنسية ، وما يظفر به من الكتب العربية التي تلذه . وكان مجلس حكمـه دكانة أمام باب حجرته الخاصة به في داره في سقيفة بالشارع يجلس فيها أغلب نهاره

(1) ذكر لي هذا الشيخ بيوض وأكده وقال لي انه سمعـــه من مشايخ عديدين في القرارة ومن استاذه الشيخ الحاج عمر بن يحيى . ومعتمدي في هذا الباب ما رويته عن استاذي الجليل الشيخ بيوض ومشايخ وثقاة آخرين . (2) رواية الشيخ بيوض

وفي السقيفة بالشارع يرفع الناس اليه شكاويهم وحاجاتهم فيفصل فيها ، ويترافع الخصوم ، واذا لم يكن هناك ما يشغله ينصب مرفع الكتاب في دكانه ويلبس نظارته فيقرأ ، واذا مر انسان أمامه لاحظه من فوق النظارة ٠

ولمحافظة السيد كاسي على سره أنه لما زار باريس في أيام حكمه وهو شاب في أتمه أعجبت به فرنسية مثقفة تسمى (مارى) فتزوجها ، وبنى لها دارا في القرارة فسكنتها مدة طويلة ، ثم رجعت الى فرانسا ٠ وأرى ان القائد كاسي انما تزوجها لتكون سكرتيرة له ٠ تقرأ وتكتب له التقارير الفرنسية كي لا يطلع كتابه على أسراره ، ولا يعرف التراجمة في الادارة العسكرية في الجنوب رسائله وتقاريره السرية الى الحكام ٠ (I) وتزوجها ليزداد علما باللغة الفرنسية التي يعرفها بعض المعرفة بمخالطة الحكام الفرنسيين ٠ هذا هو غرضه ، وقد يكون هناك عامل وجداني ولكن العمل أقوى كما أرى ٠

هذا هو السيد كاسي بن بهون في مواهبه العقلية والخلقية القوية ، وقد أورثها لبعض أحفاده من بناته وأبنائه ، وكانوا صالحين مصلحين أجدوا على النهضة الجدوى العظيمة ٠ فلولا وراثتهم من جدهم كاسي ما كانوا على النبوغ العقلي ، وعلى الشجاعة في النفس ٠ وانما النبوغ وبطولة النفس كهرباء تكون نورا ونارا ٠ ونحن لم نتحدث عن القايد كاسي الا لنبين مصادر وراثة الشيخ بيوض العقلية والخلقية ٠ وليس لنا ان نذكر كل أعماله وننشر تاريخه كله ، فنحيي فتنة قضى عليها المصلحون ، ونجرح قلوب الاحفاد الصالحين الكثيرين بذكر مثالب بعض الاجداد ٠ انما يفعل ذلك المغرضون والمتهورون والبلداء ، ونحن والحمد لله شعارنا الصفاء والعمل لله في كل الاعمال ! وغرضنا من هذا التاريخ هو الاصلاح الاجتماعي ، والزيادة في تحابب الامة واتحادها ، فكل شيء يثير الحفائظ ويمزق الصفوف يجب ان نحكم عليه بالاعدام والسكوت عنه فرض واجب أكيد ! هذا هو الدين والعقل فيجب ان يتقيد بهما التاريخ لا ما يريده الغافلون الجاهلون !

ومن أحفاد السيد كاسي بن بهون الصالحين المصلحين الذين اورثهم ذكاءه وشجاعته السيد ابراهيم بن عيسى غرافة وهو حفيده من بنته ٠ وقد شرحنا شخصيته العظيمة وجهاده في الجزء الثاني من كتابنا نهضة الجزائر الحديثة في صفحة 258 ٠ ومن

---

(1) اللغة العربية هي اللغة الرسمية في ادارات ميزاب الى قبل الاستقلال بقليل . تكتب التقارير بها الى الحكام الفرنسيين فتترجم لهم في دواوينهم ليقرأوها .

احفاده من بناته السيد بابا بن حمودة · كان موظفا ساميا فى الادارة العسكرية الفرنسية فى غرداية من أول الثلاثينات وبقى فيها الى آخر الخمسينات ، وكان عينا للاصلاح على الحكام العسكريين واذنابهم ، وعونا للمصلحين يحبط معهم مكايد خصومهم ولما اندلعت ثورة الجزائر كان من جندها المخلصين فخدمها خدمات عظيمة فى داخل الادارة العسكرية الفرنسية وخارجها ، وتعرض لمحن كثيرة وأزمات شديدة فى كثير من الخدمات الكبرى التى قام بها للثورة فى الجنوب · وهو من الفضلاء المثقفين فى ميزاب ·

ومن أحفاد السيد كاسى بن بهون الذين حملوا وراثته القوية ، وظهرت فيهم ظهورا قويا مزاياه ، حفيده من ابنه السيد عمارة بن ابراهيم بن كاسى ، ويجب ان نقف لنلم فى اختصار بشخصيته وجهاده · فانه من المصلحين الذين يوجب المقام ذكر بعض جهادهم · وليس خروجا من تاريخ الشيخ بيوض اذا ألممنا ببعض فروعه لنؤيد ما قلنا من وراثة مزاياه من والدته أيضا ·

البطل الهمام السيد عمارة بن ابراهيم ابن كاسى بن بهون

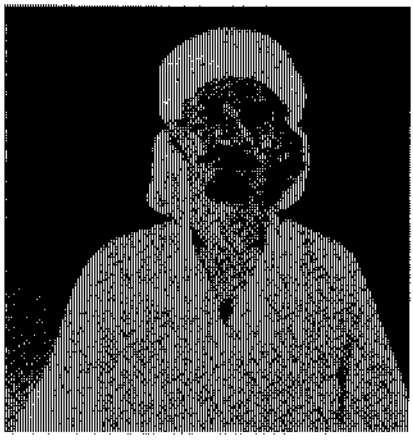

كان السيد عمارة بن ابراهيم بن كاسى بن بهون ذكى العقل ، شهم الفؤاد ، عزيز النفس ، شجاعا لا يهاب أعداءه وأعداء دينه ووطنه ، صريحا فى حكمة ولين ولباقة يهاجم الفساد بالحجج العقلية والدينية فيدحضه ويقنع أصحابه ، ويميلهم اليه بلطفه ولباقته فى المناظرة ، وسعة صدره فى الجدال · وكان شديد الحب للعلم ، فقرأ

كتبا كثيرة عربية وفرنسية ثقفت عقله وتزود منها بعلم كثير · وكانت له مكتبة فيها كثير من الكتب القيمة قرأ معظمها سيما كتب المصلحين الشيخ جمال الدين الافغاني ، والشيخ محمد عبده ، ورشيد رضا ، وعبد الرحمن الكواكبي ، ومصطفى كامل ، وعبد العزيز جاويش ، وشكيب أرسلان وغيرهم · وكان مشغوفا بالجرائد والمجلات العربية المغربية والشرقيه التى تدعو الى الاصلاح ، وتدافع عن الدين ، لا يخلو مجلسه مع اخوانه منها يحملها فى يده فيقرأ ما أعجب به عليهم ·

وكان رحمه الله شديد الغيرة على الدين ، شديد الحب للاصلاح والمصلحين ، ثائرا على الفساد والمفسدين ، وعلى الاستعمار وأذنابه ، طموحا يدعو الى التقدم والتجدد فى دائرة الدين الاسلامى العظيم ، داعية كبيرا للاصلاح الدينى والاجتماعى يبشر به أينما حل ، سيما فى مجالسه مع العامة التى لا تعرف الاصلاح ومقاصده ، والتى يجرها المستعمرون والجامدون بدعايتهم القوية ، فينير عقولهم ، ويأخذ بأيديهم بلطفه وقوة حججه ، وحماسه ، وملازمته لهم الى طريق الاصلاح فيصبحون من جنده المخلصين · وكان شديد الحب لكل اعلام الاصلاح فى الجزائر ، الشيخ عبد الحميد بن باديس والشيخ الطيب العقبي وصحبهما فى الشمال ، والشيخ بيوض والشيخ أبى اليقظان وزملائهما من الجنوب · وكان شديد الاعجاب بالشيخ بيوض وتلاميذه ، يلازم دروسه فى التفسير ، ودروس وعظه فى المسجد اذا كان فى القرارة لا يتخلف عنها ، وكذلك محاضراته ومحاضرات كبار تلاميذه ، فى الندوات الادبية الكثيرة فى ذلك العهد فى الثلاثينات والاربعينات · وكان رحمه الله شديد الحب للاصلاح وأئمته ، ينوه بفضلهم وجهادهم ، لا يرضى ان يذكرهم أحد بسوء · وقد عادى بعض أقاربه لسوء موقفهم من الاصلاح · وكان يجلس كثيرا مع خريجى المدارس الفرنسية الجزائريين الذين أفسد الاستعمار عقيدتهم فى الدين الاسلامى العظيم ، وجعلهم يَزْوَرُّون عنه ويرونه سببا لخمول المسلمين يجب اطراحه ، فيحاججهم فى رفق وقوة ، ويقنعهم بالبرهان الساطع ، فيعرفون حقيقة دينهم فيرجعون اليه ، ويهتمون به ·

وكان داعية للدين الاسلامى · ولما أخذ الى الجندية الفرنسية وهو شاب فوق العشرين ، وأرسل الى فرانسا ووصل رمضان صامه كله ، ودعا الجنود المسلمين الموجودين فى فرقته الى صيامه ، وشرح لهم فوائد الصيام فصاموا · وشرح تلك الفوائد للجنود الفرنسيين فاقتنعوا بقوله ، وتأثروا بحماسه فصام بعضهم رمضان معهم · وكان يشرح للجنود الجزائريين فى فرقته حقيقة الدين الاسلامى وفروضه ،

ويبث فيهم حب العربية والاصلاح فجعل كثيرا منهم يقيمون الصلاة ويجتنبون الفواحش ويعتزون بدينهم ويتمسكون به ٠

وكان بالغ السخاء مضيافا ٠ وكانت داره فى القرارة وعين صالح ناديا للادباء يدعوهم اليه فيولم لهم ويتحدثون فى العلم والدين والسياسة ، لا تمل مجالسه للطفه ، وتواضعه ، وثقافة عقله ٠ وكان مضحيا نشيطا كثير العمل لفائدة أمته ٠ لا يحل فى مكان الا وينشر فيه اليقظة والاخاء والتعاون على الخير ، ويكون فيها جماعة تعمل لنهضة تلك الناحية ٠

وكان السيد عمارة بن ابراهيم موظفا فى الادارة العسكرية الفرنسية الحاكمة فى جنوب الجزائر ، فنقلته فى عام 1935 الى مدينة عين صالح فى قلب الصحراء الجزائرية فجعلته كاتبا عاما فى الادارة العسكرية الحاكمة هناك ٠ فاتصل بالاهالى فى عين صالح ونواحيها فأحبوه ، وعرف مشاكلهم ، فكان يحلها بحكمته ، لا يترافع اثنان الى الادارة الفرنسية الا ويسارع فيفظ الخصومة ويصلح بينهما ، فعرف الاهالى فضله فصاروا يقصدونه فى خصوماتهم ، فيحلها حلا عادلا حكيما يرضى الطرفين فلا تصل الادارة الفرنسية٠ونفخ روح الاصلاح فى مدينة عين صالح وأشعر الاهالى بضرورة التعلم والنهوض فتفتحت للحياة٠ وكان الاستعمار الفرنسى حريصا على أن تبقى تلك النواحى على الجهالة والجمود لا تعرف للعلم سبيلا٠ولم يكن فى عين صالح مدرسة فساءه ذلك ، ورأى استعداد تلك الناحية للعلم وفطرتها الحسنة ، فطلب من الحاكم الفرنسى فى عين صالح ان ينشىء فيها مدرسة ابتدائية فرنسية يتطوع هو للتعليم فيها ، فأجاب طلبه ، فنشأت المدرسة فعلم فيها الفرنسية والعربية أيضا ، وحبب لغة القرآن الى تلاميذه ، وعلمهم الدين وغرس فيهم عقيدة الاسلام وأخلاقه ، وبث فيهم فكرة الاصلاح ودربهم على كثير من الاعمال العسكرية ٠ وكان تلاميذه يحبونه حباجما لاخلاقه العالية وشدة حبه واخلاصه ، ونجحوا فى دراستهم ، وكان منهم رجال مصلحون عاضدوه فى اصلاحه وخلفوه فيه . ومنهم السيد سعيدان ٠ وكان يسمى تلاميذه (شباب محمد) ٠

ولما اندلعت الثورة الجزائرية فى عام 1954 صفق لها السيد عمارة وأنشأ أول خلية ثورية فى عين صالح كان هو رئيسها . واجدى على الثورة فى تلك النواحى وشارك فى احباط مؤامرة فرانسا فى فصل الصحراء عن الشمال لتكون دولة كموريطانية ، وأفهم الأهالى فى عين صالح ونواحيها سيما زعماءهم دسيسة الاستعمار

فى الفصل ، وشجعهم وقوى قلوبهم ، فلم يقعوا فى فخاخ الاستعمار ورفضوا الانفصال عن الشمال ·

ومن الأعضاء البارزين للخلية الثورية التى أنشأها السيد عمارة : السادة العاملين المصلحين عبد القادر ايدر ، سائق سيارة الحاكم الفرنسى فى عين صالح ، وسعيدان ، وعثمان بن الحاج العلمى اجغاب وهذا كان كاتبا مع السيد عمارة فى ادارة عين صالح وهو من القرارة ·

ومن المثقفين البارزين الذين كانوا أصدقاء للسيد عمارة وعلاقتهم به وثيقة ، وأعانوه فى الاصلاح السيد محمد بن الحاج العلمى اجغاب · كان كاتبا عاما فى الادارة الفرنسية فى بلدة امنيعة فى الصحراء فى شمال عين صالح وهى فى منتصف طريق السيد عمارة الى ميزاب وطنه · وكان منزله فى امنيعة هى دار صديقه السيد محمد بن الحاج العلمى · وكان زعماء القبائل فى تلك الناحية اذا قدم يسارعون اليه · وكان السيد محمد يدعوهم فيسلمون عليه ، ويعقدون مجالس عديدة مع السيد عمارة فينفخ فيهم روحه ، وأجدى على بلدة امنيعة جدوى عظيمة وهو من اسباب نهوضها ·

وفى عام 1959 اشتدت ثورة الجزائر ، ورأى وظيف الحكومة غلا فى عنقه · وكان شديد المقت للحكام العسكريين الذين يرون أنفسهم رؤساءه ، فعمل للتخلى من الوظيفة الحكومية ، ومنحته فرانسا التقاعد ، فرجع الى القرارة فى عام 1959 فاستقر فيها ، وشمر لخدمة الثورة بكل ما يستطيع ، ولازم المسجد فى الصلوات ودروس الوعظ للشيخ بيوض فيها ، وعاضد كل المشاريع الخيرية فى القرارة بما يستطيع · ولكفاءته الادارية وصلاحه وشدة حبه للخير أشار عليه كثير من أعيان القرارة أن يقدم نفسه فى الانتخابات البلدية ليكون رئيس المجلس البلدى · ولو عاش لتحقق هذا فتجنى القرارة والجزائر منه خيرا كثيرا فى تلك العهود العاصفة ·

وكان جميع الحكام الفرنسيين الذين عمل السيد عمارة معهم كاتبا يحترمونه ويعجبون بذكائه وكفاءته الادارية ، ويسحرهم بلطفه ولباقته · ولما طلب التقاعد تمسكوا به ، ولشدة احترامهم له وافقوه فتقاعد ·

وكان السيد عمارة شديد الحب لاساتذة معهد الحياة وتلاميذه ، يسرع للسلام عليهم ، ولا يلذه شىء كمجالسهم الادبية العلمية الكثيرة التى يعقدها معهم · وصار السيد عمارة من أعيان القرارة البارزين ، ومن رجالها العاملين المخلصين · وكان له

مرض داخلي فهاج به ، فكان سبب وفاته وهو في العقد السادس من عمره . وكانت وفاته في عام 1380 هـ 1 فبراير 1961 فخرجت القرارة في جنازته وأبنه الشيخ بيوض بخطبة بليغة فذكر جهاده وخصائصه ، وعفته ، وتنزهه عن أخذ الرشوة في وظيفه على كثرة الخدمات التي يؤديها للناس ، وكرمه وسخاء نفسه ، فترك فراغا كبيرا في القرارة ، وفي نفوس عارفيه في الشمال والجنوب في الجزائر

ومن أصدقائه الأوفياء الملازمين له فتأثروا به تأثرا كبيرا واستفادوا من مجالسه وتوجيهه الحكيم الأستاذ الفاضل الأديب السيد علي بن الحاج العلمي اجغاب ، وهو من مصادري في تاريخه في عين صالح ، كتب الي رسالة ضافية في ذلك جزاه الله خيرا . وكان قد عاشره في عين صالح وشاهد جهاده فيها ، ولما توفي رثاه بهذه القصيدة التي تريك فضله ونظرة الخاصة اليه فاليكها :

رثـــاء الحبيـب

يالهـــولِ الصَّـــدَى كأنه رمحٌ ... طعنتني به يـــد الأقـــــدارِ
خفق القلـــبُ خفقة الموت حتَّى ... جمـــدت من جمـــوده أفكاري
رحـــل الراحلون عنّي فأمسيتُ ... غريباً هنـــا فقيـــدَ الجـــوارِ
كنتُ أرجـو من الحبيبِ جـــواباً ... قـــد تيقنتُ لا يفـــيدُ انتظاري
انّي في غمـــرةِ المصـــابِ غريقٌ ... في خضـــمٍّ من الكآبةِ جـــارِ
مَنْ أعـزّي ؟ ومَن يُعَزّي فؤادي ؟ ... بعدَ من كانَ ســـلوةَ الأبـــرارِ
يحمـــلُ الوُدَّ خالصـــاً للمبادي ... نقـــدُه في صـــراحةٍ لا يُبالي
طبـــعَ الأهْـــلَ والقـــرابةَ بالحـــقِّ إلى أن غـــدَوْا مَـــعَ الآثارِ (1)
يعبُـد العلـمَ والشهامةَ والنخـــوةَ طفـــلاً وذاك أصـــل الفخـــارِ
علمتني الحيـــاةُ شيئاً كثـــيراً ... وتعلَّمـــتُ منه حســـنَ الجـــوارِ
وتعلمـــتُ منه فلسفةَ الشيـــخ ... الحكـــيم وطفـــرةَ المغوارِ (2)
وحنـــانا تســـامحاً ووفـــاءً ... واحتمـــالاً لشـــدَّة الأخطـــارِ
كيف تحلو البـــلادُ بعدَك يا مَنْ ... كان للناس مجمـــعَ الأنـــوارِ
الـــوداعُ الـــوداعُ يا الفَ نفسي ... سِرتَ بالروح في فضـــا الأخيارِ

(1) يقصد الشاعر علي بن الحاج العلمي اجغاب ان الفقيد طبع الاهل بحب الحق فرجعوا الى سيرة السلف الصالح (2) هذا البيت غير موزون ننشره لقيمته التاريخية .

يا بـلادَ الحبيبِ أهـلاً وعـرشاً ورجـالاً للعلـم والأفكـارِ
وشبـاباً وشيبـةً ونسـاءً فعـزاءً في رِقَّـةٍ وَوَقـارِ
قد أجـابَ الـدُّعا عمـارةُ يا ربِّ فنعِّمْـهُ يا الهـي البـاري
آلمتني ذكـرى المنـونِ لحـبٍّ وشجاني كثـيرا يُتْـمُ الـذراري

ذلك هو السيد عمارة بن ابراهيم الذى يحمل نبوغ جده كاسى بن بهون العقلى ، ويزينه بالنفس الزكية وشدة الحب للخير وأهله ، وهو أشبـه الناس بجده كاسى فى خلقته وشجاعته وذكائه ، وأحسن حفيد له من أبنائه ، ذكرنا تاريخه ، وليس ذلـك خروجا عن موضوع تاريخ الشيخ بيوض ، لان حديثنا عن وراثته التى كونت شخصيته العظيمة ، ومن مظاهرها السيد عمارة ، وهو دليل على قوة هذه الوراثة التى سرت الى أستاذنا الجليل ، فلولاها لكان أقل مما كان . تلك الوراثة القوية الزكية التى ستراها فى والدة الشيخ بيوض التى عرفت أباها فمن هى أمها ؟

والـدة السيدة عائشـة بنت كاسى

أما والدة الأم عائشة بنت كاسى فهى السيدة نَانَّة (1) بنت الناصر زَغْمُومَة لقبت بهذا لبياضها المشرب بالحمرة الساطعة . وهى من قبيلة أولاد حمو بن ابراهيم القرارية وقد وجد فيها السيد كاسى الداهية الحكيم صفات الزوجة الصالحة القـوية التى تكون عماد أسرته الكبيرة ، وسبب سعادته وهنائه ، فتزوجها فى أول عمره ، فحققت له كل ما أراد فى نفسه وماله ، وولده . ان أولاد السيد كاسى وأحفاده الاذكياء كلهم منها . وقد تزوج السيد كاسى غيرها ، ولكنها كانت أحسن نسائه وأقواهن شخصية وأكثـر احتراما فى الاسرة كلها .

وكانت رحمها الله شديدة التمسك بالدين ، شديدة الحب لاهله ، تجل العزابيات (المجلس الدينى للنساء) (2) وتزورهن وتستزيرهن سيما رئيستهن السيدة الورعة الحازمة النبيهة السيدة مامة بنت بالحاج الحاج مسعود شقيقة الشيخ الحاج عمر بن الحاج مسعود جد والدنا الروحى المرحوم السيد بكير بن مسعود وأستاذ شـيخ مشايخنا المرحـوم الحاج عمر بن يحيى . وكانت القرارة تجل السيدة مامـة لدينها وعقلها وحزمها فى

(1) نانة كلمة بربرية معناها الجدة يسمون بها تيمنا ان تكون الوليدة جدة .
(2) انظر نظام العزابة الاسلامى العظيم فى وادى ميزاب فى صفحة 192 فى الجزء الاول من كتابنا نهضة الجزائر ط اولى .

الامور · وكانت صـــــديقة للسيدة نانة تكن لها أعظـــم الود ، وبود السيدة نانة أن لا تفارقها · وكانت السيدة نانّة تبالغ فى التطهر قبل الصلاة ، وتصلى صلواتها كلها بالخشوع فى أوقاتها · ان بيئة زوجها وان كانت بيئة الحكام الكثيرة الملاهى وما يصرف عن الله ، ولكنها هى لتربيتها الدينية القوية الاولى ، ولمزاجها الدينى القـوى ، شديدة التمسك بدينها فى كل الفروض · وكانت تسارع الى أداء زكاة تمر زوجها فى وقتهـا لا تؤخرها · وهى من أكبر أسباب غنى زوجها كاسى ، لدينها وجدها وحسن تدبيرها ، ويمن ناصيتها ·

وكانت السيدة نانة زغمومة بالغة الذكاء حسنة التدبير ، قامت بأسرة زوجهـــا الكبيرة أحسن قيام ، رغم كثرة مشاكل الأسر الكبيرة ، فتفرغ زوجها للحكم وسعد فى بيته · وكانت عمالة شديدة الحب للعمل ، حازمة ، لا يطلـع الفجـــر عليها يـوما فى فراشها · انها من السحر الاعلى فى منسجها لا تتركه الا لصلاتها وضروراتها الاخرى فى يومها · وكانت دارها دار عمل ونشاط ، ان حماسها وحبها الشديد للعمل يسرى الى بناتها وأفراد الاسرة واماثها فينشطن كلهن فى الاعمال · وكان لها طـــول الدهـر منسج أو منسجان أو ثلاثة فى دارها · كل من فى الدار يعمل ، فتهىء لزوجها فى كـل عام قناطير عديدة من المنسوجات الصوفية المتقنة الصنع ما يبعثه فى تجارته · وكانت تلازم المنسج وصناعة الصوف ، وتشارك فى كل الاعمال المنزلية الاخرى رغـم كثرة اماثها ونساء أسرتها ومن يسارع الى خدمتها ، لا تتكبر ولا تكسل · ان العمـــل شرف وعبادة ! هذه هى عقيدتها وعقيدة المرأة الميزابية ، غرسها فيها دينها وعرقها الماجـد القـوى ·

وقد أسعدت السيدة نانة زوجها السيد كاسى وأنجبت لـه بنتين وابنا يحملون ذكاء أبويهما · وكان ابنها الناصر بن كاسى متوقد الذكاء قد ورث دهاء أبيـه وكفاءته العقلية ، صناع اليد ، أديبا ظريفا ، توفاه الله فى شبابه قبل والده فى عام 1926 وكان السيد كاسى يستخلفه فى الحكم اذا سافر فيغنى غناء كبيرا ·

وكانت أسرة آل بهون الكبيرة تجل السيدة نانة كل الاجلال لفضلها وحسن غناها لزوجها ولأسرته كلها ·

توفاها الله فى عام 1345 هـ 6 ابريل 1927 وعمرها تسعون سنة فحزن عليها زوجها وأسرتها وتركت فراغا واسعا فى أسرتها وفى نفوس كل من عاشرها ·

تلك هى أسرة السيدة عائشة بنت كاسى لتعرف وراثتها وبيئتها التى طبعتها ·

ميـلاد السيدة عائشـة ونشأتها

ولدت الام السيدة عائشة بنت كاسى فى القرارة بوادى ميزاب فى عام 1286 أو 87 هجرى 1870 م · فورثت كل صفات أبويها الحسنة ، فكانت متصفة بذكـاء والدها الوقاد ، وشجاعته الخارقة ، تلك الشجاعة التى ســـوف ترى آثارها العظيمة فى ابنها أستاذنا الجليل الشيخ بيوض أيام اشتداد المعارك فى جهاده العظيم · وورثت مـــن أمها نشاطها وحزمها وحبها الشديد للعمل · وقد ظهرت عليها مخايل النجابة والظرف وقوة الشخصية منذ صباها ، فأحبها والدها حبـــا شديدا ، فكان ينتشى بمحادثتها وبأجوبتها التى تدل على الذكاء ، ويتمنى قربها ومداعبتها ، فتمـــلأ مجلسه بظرفها ونفسه بمرح الطفولة الذكية القوية ؛ وأحبتها أمهـا ، فاعتنى أبواها بتربيتها ، فغرسا فيها الصفات الحسنة ، وغرست فيها أمها دينها ، فنشأت متمسكة بالدين الاســلامى العظيم ، غيورة عليه ، متخلقة بالاخلاق الاسلامية التى هى طابع المرأة الميزابية ·

وكانت أمها تدربها على أعمال الدار منذ طفولتها ، وتغرس فيها حب العمل منذ حداثتها · فما قاربت الحلم حتى برعت فى النسج وأعمال الصوف وكل أعمـال الـدار فصارت عضد أمها فى أعمالها الكثيرة ، وقاعدة فى دارهـم الغنية الكبيرة الاسرة ذات التكاليف الكثـيرة ·

وكانت الى ذكائها الوقاد ، ويدها الصناع ، وشدة حبها للعمل ذات طبع اجتماعى قوى ، تحب الناس وتهتم بشئونهم ، وتعتنى بمشاكلهم ، فزاد ذلك فى عقلها ، فكانت مدبرة حكيمة ، تعين والدتها فى سياسة الاسرة الكبيرة أحسن سياسة ، وتعين والدها فى كثير من مشاكله · وبرزت شخصيتها القوية فى أسرتها فأحبتها واحترمتها ·

وكان لعائشة مع ذكائها الوقاد ذاكرة قويـة لا تنسى ، وكانت دار أبيها ممتلئـة بالاعرابيات طول النهار يأتين شاكيات ، وزائرات ، وسائلات ، ومجاورة لدور الاعراب الفصحاء فاختلطت بهن منذ صباها فانعشت هذه البيئة العربية الفصيحة فيها وراثـة الفصاحة من أسرتها ووالدها ، فكانت فصيحـــة اللســـان فى العربية العامية وفى البربرية الميزابية ، عذبة القول · وكانت تحفظ من الاسر العربية الماجدة التى تجاورهم أغانيهم وأمثالهم الحكيمة ، وشعرهم فى المـــلاحم والتـــاريخ · فازدادت فصاحة بهذا ، وصارت تنظم الشعر الجميل بالعـــربية العامية الفصيحة منذ شبابها ، فتتغنى به ، ويرويه صواحبها ومعاشروها لشدة اعجابهم به ·

وكانت رحمها الله في آخر شبابها وكهولتها أكثر كلامها في مجالسها الامثال العربية الحكيمة ، والشعر العربي العامي الحكيم ، تمزج بها كلامها الوقور الهادئ القوي ، وتجعلها جوابها في السؤال ، ووسيلتها في الاقناع • وقد زارتنا في دارنا في القرارة في أول الستينات ، وهي فوق التسعين في عمرها ، وذاكرتها قد ضعفت ، فأسرعت اليها مسلما مرحبا • فقلت لها : يا أمنا ، نسأل الله أن يطيل بقاءك لتكوني مثالا لنسائنا ، فما أحوجهن الى ارشادك والاقتداء بك!فأجابتني بصوتها الهادئ الوقور القوي الحنون ، وفي لهجة البادية الفصيحة الجميلة ، وهي تمسك بيدي :

اللِّي ادَّى بَنْتْ الاَجْوَادْ أَدَّى اذْهَبْ وَاذْخِيرَة
اِلاَكَانْ الرَّاجَلْ مَرْمَادْ هِيَ اتْدَلُّوا اللَّكْبِيرَة (I)
وَاللِّي ادَّى بَنْتْ الاَرْذَالْ أَدَّى مَحْنَة الرَّاسُو
اِذَا كَانْ الرَّاجَلْ فَضَّةْ هِيَ اتْبَيَّنْ انْحَاسُو

ثم أردفت هذين البيتين بأمثلة عديدة وأبيات أخرى وكلها في أسباب صلاح المرأة وفسادها • ولكني لم أحفظ الا هذين البيتين رغم شدة اعجابي بالاخرى •

وكان والدها السيد كاسي بن بهون هو حاكم مدينة القرارة والبوادي الواسعة التي تكتنفها • تولى الحكم بعد اغتيال أخيه ابراهيم مباشرة في عام 1293 هـ 1876 وعمر عائشة ست سنين ، فنشأت في دار الرئاسة والغنى والجاه ، فكانت عزيزة النفس ، مهابة الجانب • وهذا ما جعل كثيرا من الاكفاء الراغبين فيها يهابون خطبتها خوفا من رفضها ، فادخرها الله للسيد عمر لتكون أما لاستاذنا الجليل الشيخ بيوض •

وكانت بوادي القرارة تموج بالقبائل العربية التي تحل فيها لخصبها وحسن موقعها وقربها من القرارة العامرة الخيرة • وكان مرجع هذه البوادي في الحكم وفظ الخصومات والمنازعات الى حاكم القرارة • وكانت الأعرابيات اذا تظلمن يقدمن شكواهن الى عائشة وأمها فترفعها الى السيد كاسي • وكانت عائشة لذكائها وفصاحتها تفظ كثيرا من المشاكل بين المتخاصمات فلا تصل الى أبيها • وكان والدها يستشيرها في مشاكل الحكم التي تتعلق بالنساء فتدله على الصواب ، فيحمد عاقبة ما تشير به • وقد وقعت ذات مرة جريمة فظيعة في القرارة لم يعهد الناس مثلها • وذلك أن صبيا شرق من

(1) اللي : الذي : ادى : أخذ : مرماد : رقيق الدين ضال . لكبيرة الامور العظيمة الحسنة وهذان البيتان من شعر الحكمة السادي في بوادي ميزاب وحواضرها . لا ندري منشئهما .

مهده · فثارت القرارة بهذه الجريمة وغلت كل أم غضبا وكل أب · فتحير السيد كاسى حاكم القرارة فى هذه الجريمة ، ولم يهتد الى مرتكبيها رغم دهائه وكثرة جواسيسه ، فوكل الامر الى ابنته عائشة فتوصلت بذكائها ومعرفتها للبلد وأسرها كلها الى مرتكبة الجريمة فدلت عليها ، فاعترفت بأنها شديدة الرغبة فى الولد وهى عقيم ، ولربما خافت أيضا من الطلاق أو التزوج عليها فلم يسعها الا ما فعلت · ولولا ذكاء عائشة ما اكتشفت الجريمة أو يطول أمر المحنة التى ترج القرارة غيظا · وكان والدها يستشيرها فى كثير من المشاكل فيعجب بما تشير به ، ويعرض عليها كثيرا من الجرائم التى لا يعرف جناتها فتدله على الجناة فيعترفون · وذلك لذكائها الوقاد ، وكثرة اختلاطها فى دار أبيها بكل طبقات النساء فى القرارة وبواديها فكانت عليمة بالناس ·

وكان السيد كاسى لشدة اعجابه بابنته عائشة وذكائها ونشاطها وحسن تصرفها فى الامور يقول لاصدقائه : « ليت عائشة كانت رجلا فانه ينفعنى نفعا كبيرا فى أعباء الحكم والاسرة · ولا يسد مسدها من أسرتى أحد ! » (1)

وكان الزمان الذى تولى فيه السيد كاسى الحكم عهود صراع مرير بين المصلحين والمفسدين ، أنصار النهضة وأعدائها · وقد فصلنا الحديث فيه فى تاريخ الشيخ الحاج عمر بن يحيى فى الجزء الثانى من كتابنا نهضة الجزائر الحديثة ، وزمن فتنة كبيرة باغتيال أخيه ، وكانت البادية أيضا تموج بالفتنة والاغتيالات وكثرة اللصوص · وكانت المنازعات وجرائم القتل والضرب والسرقة ترفع كلها الى السيد كاسى فيفصل فيها · وكانت عائشة تشاهد كل هذا وتفكر فيه ، فأورثها هذا حصافة فى العقل وزاد فى معرفتها بالحياة والناس ، فكانت مثقفة العقل مدبرة حكيمة ، بدت حكمتهما وحسن تدبيرها فى دار والدها وفى دار زوجها ، وفى نجاحها فى حياتها الزوجية نجاحا لا يكون الا لأمثالها من المحنكات الخبرات ·

سعادة السيد عمر وغناه بزوجته

كان هذا الزفاف المبارك فى يوم 9 ابريل عام 1304 أو 5 هـ 1887 م فى بحبوحة الربيع موسم الزهور والخيرات والرياحين وكانت سن عائشة لما بنى بها السيد عمر

(1) تاريخ الشيخ بيوض وتاريخ آبائه وأجداده رويت مادته كلها عنه هو . فليس لى فى الموضوع الا الاستنتاج المنطقى الذى يقوم به المؤرخ من النصوص الصحيحة ، والا الوصف والتحليل لما اعرفه بالمشاهدة .

سبع عشرة سنة وعمره هو تسعة عشر عاما · فوجدت عائشة فى زوجها كل ما تريد من دين وثقافة عقل، وأخلاق الرجولة ؛ ووجد فيها السيد عمر كل ما يريد فقامت بداره أحسن قيام ، وأطاعته وعرفت كل حقوقه عليها · تنفذ أوامره ، وتحرص على رضاه · وكان السيد عمر يحبها حبا شديدا لما يجد فيها من أوصاف الزوجة المسلمة الصالحة ، وما يريده فى المرأة التى تليق بهمته العالية ، ونفسه العملية ، وطبعه الاجتماعى القوى · وتوافقا فى الطباع فسعد كل منهما بصاحبه ·

وكانت لا تخالف مشيئته ، تعرف حزمه واعتداده بنفسه وأنفته فتطيعه وتخضع له · واذا أمرها بشىء ، ترى أحسن منه ، انتظرت فرصة مرحه وسروره فتوحى اليه فى رفق وأناة وذكاء بالصواب الذى ترى ، فيتفقان على الرأى السديد ·

وكانت واسعة الصدر لا تزيد فى هموم زوجها بهمومها ، تفض كل مشاكل الدار ، لا يجد زوجها فى داره ما ينغصه من سوء عشرة بين أفراد أسرته ، أو ما لا يليق بحبه للنظام والنظافة والمحافظة على المال والولد ، فتفرغ لاعماله فى الخارج ، ولجهاده فى الاصلاح ، ووجد فى داره هدوء النفس وانشراحها ، وهو ما يلزم النفس العملية لتتجدد طاقتها · فكان عمر فى كل أعماله الخارجية وفى جهاده الاصلاحى على ما يرام ، لانه وجد فى زوجه الصالحة الوفية الذكية السند التام ·

وكان الصراع على أشده بين حزب المصلحين وحزب المفسدين فى القرارة · وكان السيد عمر متحمسا كل التحمس للمصلحين ، ويكره حزب الفساد وبغضه · وكانت عائشة تحب أباها وتعطف عليه وتجنح بها العاطفة نحوه ، ومع ذلك لم تسىء الى زوجها يوما فى عقيدته الاصلاحية · وذلك لذكائها ودهائها وشدة طاعتها لزوجها وحرصها على رضاه ·

وما كاد أسبوع العسل ينقضى على عائشة فى دار زوجها حتى شمرت لصوفها ونصبت منسجها ، واستمرت على الجد والنشاط الذى ربيت عليه · انها مغرمة بالعمل لا تطيق البطالة ، ويجب أن تعين زوجها على العيش وتساعده على الغنى · فكان المنسج دائما فى دارها لا تنتهى من واحد الا وتنصب الآخر ، فتقدم الى زوجها فى كل شهر من صنع يدها الصناع ما يدر عليه مالا كثيرا · وكانت بارعة فى نسج الصوف · وقد سماها أن لا يصنع القراريات الزرابى الرفيعة ذات الحملة التى يستوردها ميزاب فى تلك العهود من تونس ، سيما القيروان · فعمدت الى قطعة قديمة من زربية قيروانية فحللتها ، فعرفت كيف تُنسج · فنسجت زرابى كثيرة مخملة لا تقل عن

زرابى القيروان فى المتانة والجمال وكثرة الالوان · وعلمت جيرانها ونساء كثيرات ، فانتشرت صناعة الزرابى المخملة فى القرارة بفضل ذكائها وطموحها وحبها للعمل · وهى أول من صنعها فى القرارة ·

وكانت تذكى فى زوجها حبه للعمل وتزيد فى طموحه · ولما رأى نشاطها وذكاءها ونفسها الاجتماعية الجذابة وحسن تدبيرها ، استعان بها فى التجارة · فاتخذ الطابق الاول من داره الواسعة متجرا خاصا للنساء تقوم به زوجته ، فقامت عائشة بهذا الامر أحسن قيام ، فربح السيد عمر الارباح الكثيرة ، وبلغ غايته فى باب المال بفضل زوجته التى عاضدته فى كل أموره ، سيما فى التجارة ·

كانت دكاكين التجارة فى ذلك العهد كلها فى السوق يقوم بها الرجال · وكان السيد عمر يقضى حاجات الأيامى والأسر الكثيرة التى يغيب عنها رجالها للتجارة مدة طويلة · فعرف ما تقاسيه كثير من الاسر التى لا تجد من يشترى لها ما تريد · ان المرأة الميزابية شديدة الحصانة · انها درة مكنونة وشىء رفيع ، يغار عليها مجتمعها وتغار هى على نفسها ، ويمنعها دينها وعزة نفسها أن تتبذل وتقصد الاسواق · والأطفال لا يغنون فى شراء كل شىء · فأنشأ السيد عمر فرعا لتجارته فى دار سكنه خاصا للنساء تقوم به زوجته ، وفعل مثل ذلك بعض الأعيان فى القرارة كالسيد باسعيد بن الحاج داود · ففرحت القرارة كلها بهذه الحوانيت الداخلية فى الدار ، وتنفس النساء والايامى الصعداء ، وحمدوا للمصلحين ما فعلوه ، فكثر الاقبال من النساء والاطفال على هذه الحوانيت · وكان الاقبال شديدا على حانوت عائشة من نساء المدينة ومن الاعرابيات · وكانت الاعرابيات يحببنها ويحترمنها ويعجبن بها لذكائها ، وذلاقة لسانها · انها تحدثهن بلهجة البادية العذبة الفصيحة ، وتسحرهن باحسانها وبشاشتها ، وبأمانتها فى التجارة ، ويستهوينهن دكانها بكثرة عمارته ، وحسن تنظيمه وجودة بضائعه · وكان فيه كل ما تحتاجه الاسرة والنساء من لباس وعطور وأوان وغيرها · وكانت دار عائشة مملؤة بالاعرابيات فى أغلب أوقات النهار · يسرعن اليها زرافات من كل البوادى المحيطة بالقرارة للشراء وللزيارة·وكانت تستقبلهن بالبشاشة وتكرمهن فى البيع وبالقرى ، ويجلسن حول حانوتها فى الطابق الاول من الدار على طبق التمر يأكلن ويتحدثن ، فيقصصن أخبار البادية وما يقع فيها من خير وشر ، وأحوال قبائلها · واذا طابت نفوسهن بحسن الاستقبال وبالجو المرح فى الدكان تغنين أغانيهن البدوية الجميلة ، فتغنى معهن عائشة وهى فى عملها فى الحانوت ، وتصغى اليهن فى نشوة فتحفظ ما لم تعرف من تلك الاغانى والاناشيد ، فازداد اختلاط عائشة

بالاعرابيات في متجرها ، فازدادت فصاحة وعلما بقبائل البادية وأفخاذ كل قبيلة وأعيانها ، وعرفت أسرار البادية واحوالها ، وازدادت علما بأحوال البلد · ان النساء لا يجتمعن ، سيما في الجو المرح كدار عائشة ومع شخص ذكي كعائشة الا وتنحل عقدهن فتحكي كل منهن سرها لصواحبها · خلة راسخة في حواء في كل الأزمنة والأمكنة · الا النادر القليل · وقد اثر جو الحانوت الاجتماعي الواسع في عائشة فازدادت حصافة في العقل وعلما بشؤون الحياة · وكان هذا المتجر لها مدرسة ولابنها ابراهيم وسأذكر لك آثاره العظيمة فيه · فلهذا ذكرناه وأطلنا الحديث فيه ·

وربح السيد عمر الارباح الوفيرة من متجره الداخلي في الدار وكان من أكبر اسباب ثرائه · وكانت التجارة رائجة فيه أكثر من رواجها في دكانه بالسوق · وكان ما يجلبه من بضائع ، يبعث أغلبها الى متجره الداخلي · وشاع دكان عائشة في القرارة وبواديها · وكانت لا تستريح من البيع طول نهارها وهي واقفة تزن وتقص وتكيل · وكانت تحسب مرتجلة بدون كتابة فلا تخطيء ، وتذكر الاشياء الكثيرة التي تشتريها كل زبونة لا تنسى شيئا · واذا باعت لمن تثق به بالنسئة ذكرت ذلك فلا تنساه · كانت تعتمد على ذاكرتها القوية فازدادت قوة ·

وكان مع هذه الاعمال الكثيرة الشاقة لعائشة في الحانوت منسج طول العام في دارها · فاذا لم يكن زبونات تسرع الى منسجها فتنسج · وفي كل شهر تنسج قطعتين أو ثلاثة للثياب أو للفراش · وكان لها في أغلب الايام جماعة من الضيوف من أصدقاء السيد عمر في البادية والمدن المحيطة بالقرارة وفي ميزاب ، يدعوهم للغداء أو للعشاء · وكانت لعائشة أمة تعينها في شؤون الدار وصواحب وجيران ، ولكنها لا تتكل عليهن بل تتولى أغلب الاعمال بنفسها سيما من السحر الى الضحى قبل أن تبتدئي أعمالها التجارية · وفي الاصيل اذا رجعت الأعرابيات الى خيامهن واسرعت كل امرأة الى دارها لتستعد لصلاة المغرب ، فتهب عائشة الى مطبخها ، تهيء عشاء الاسرة والضيوف فيتصاعد قتار لذيذ من قدرها الكبيرة التي تشتعل تحتها النيران من حطب جزل أو فحم وتهيء مخدعها لزوجها فيتصاعد منه بخور ذكي وعطر شذي ، وتصلح من شؤونها · واذا رجع السيد عمر الى داره بعد صلاة العشاء وجد كل ما يريده لنفسه وولده من نظافة ونظام وجمال وطعام شهي لضيوفه ، فيبيت هانئا قرير العين وهو يحمد الله على الزوجة الصالحة التي عاضدته في كل شؤون الحياة ، وضاعفت قواه في الكفاح في ميادين الحياة الصعبة في تلك العهود ، وفي مناصرة الاصلاح ، فنجح في جهاده ،

وطمح الى المثل العليا فى ميادينه ، بفضل زوجته الشجاعة الحازمة التى تزيده شجاعة واقداما ، وبفضل هنائه هناء تاما فى الدار فأعطى نفسه لجهاده وأعماله ·

شغف الزوجين بالولد النابغة الصالح

وكان السيد عمر شديد الحب للولد ، يسأل الله ان يجعل أول أولاده ابنا ذكيا ليهبه للعلم · وكان يبوح بهذه الامنية لزوجته فى كل مناسبة ، سيما فى أوقات سرورهما وأنسهما · وكانت ترى شغفه بالولد فى عينيه وملامحه وكلامه · وكانت مثله مشغوفة بالذرية الصالحة ، وترى أن المرأة ما لم تلد فهى أرض بور يطؤها كل الناس بالسنابك والاقدام لا قيمة لها عندهم ، سيما زوجها الذى ينظر الى الولد نظرة دينية سامية ، ونظرة اجتماعية واسعة ، يريد أن يكون ولده من العلماء الصالحين المجاهدين فى سبيل الدين واصلاح المجتمع ، فان شغفه بالولد يزداد على الايام حتى يكون أكبر شيء يزين المرأة فى نظره ، فاذا عقمت فعقم النخلة السحوق سرعان ما تعرض عنها النفوس ؛ فكانت تبتهل الى الله ان يعجل بقرة العين لزوجها ولها ، فتنجب ابنا كما يشتهيان · فوجدت ذات أسبوع غثاثة فى النفس وتغيرا فى المزاج فعلمت بذكائها انها علامة الحمل ، فبشرت زوجها ففرح فرحا عظيما ، فصار يعد للحمل العزيز حتى تمت مدته ، فوضعت عائشة فكان ابنا · فسر عمر سرورا عظيما ، وسرت عائلته كلها وأصدقاؤه ، وأسرع جيران عائشة وصديقاتها الكثيرات من الاعرابيات يحملن الهدايا ويملأن دارها بالزغاريد والاغاريد · وسمى السيد عمر ابنه البكر باسم والده (بَابَا) فنشأ قوى البدن قوى الحيوية جسورا شجاعا فصيحا · فحاول والده ان يوجهه الى العلم فوجد رغبته فى العمل ، ومواهبه عملية ، فوجهه الى الفلاحة واستعان به فى التجارة فكفاه شؤون فلاحته الواسعة وأجنته العديدة ، وحرثه مع الاعراب فى البادية فتخصص السيد عمر لتجارته وجهاده فى الاصلاح والنهضة · وكان ابنه بابا احسن عون له ، وأحسن مقدمة للولد العالم الذى يرجوه · لقد رفع معه الاثقال المادية ، فاستطاع أخوه ان يعطى نفسه كلها للعلم والجهاد الاصلاحى · من يدرى ؟ لو ان الولد الذكى النابغة كان بكر أولاده وأكبر اخوته لدعته ضرورات التجارة والفلاحة الى صرفه للمادة · ان الله قد اختار له فجعل ولده البكر عمليا ليكون أبناؤه الآخرون للعلم والاصلاح · وعرفت عائشة بذكائها ما عرفه زوجها فحمدت الله وسألته المزيد من الذرية الصالحة لتقر عينها بالولد العالم الصالح ·

وكانت سن السيد عمر لما ولد له ولده البكر احدى وعشرين سنة ، وسن عائشة تسع عشرة سنة · وميلاد ابنهما بابا فى صفر 1307 هـ سبتامبر 1889 م ·

حيرة الزوجين وحسرتهما

وكان السيد عمر وان آنسه ولده البكر واشبع غريزة الابوة القوية فيه ، فانه ظل على شدة حبه وحنينه الى الولد النابغة العالم الصالح ، يراه أمل العمر الاعظم ، وسبب السعادة الكبرى التى لم يظفر بها بعد · ان كنوز الدنيا ونعم الدنيا كلها لا تستطيع أن تملأ فى نفسه فراغا موحشا يعذبه ، ولا تجعله على الانس والانشراح الكامل · ان الولد النابغة العالم الصالح هو وحده يحقق له السعادة الكبرى ، ويملأ الفراغ الموحش فى نفسه · وتضرع الى الله ان يجعل ولده الثانى كما يرجو نابغة صالحا فيهبه للعلم ، وتضرعت زوجته · ومرت سنتان على وضع عائشة لولدها البكر فصار عمر ينتظر ان تبشره بحملها الجديد ، وتعاقبت سنون عديدة وهى لا تحمل ، فقلق عمر قلقا شديدا وقامت قيامته ، قلق على نفسه وعلى عرسه ، اذ ظن فى احدهما العقم · ليت شعرى أيكون هذا الولد البكر هو آخر ولد ؟ ! وتوالت السنون وعمر يرجو أن تحمل عرسه ولا تفعل · فازدادت اللهفة الى الولد العالم الصالح فى نفسه اشتعالا · وصار حب هذا الولد هو شغل فكره فى النهار ، وهم نفسه فى الليل ، وحديثه مع اصدقائه فى المجالس · وصار اذا رأى الاطفال فى الشوارع أومروا امام حانوته أو قصدوه للشراء وهم بألواحهم يتأبطونها مسرعين الى الكتاب ومحابرهم فى أيديهم ، وهم فى زى طلبة العلم الابيض ، وفى عيونهم حب العلم ، وفى وجوههم نور القرآن ، وفى مظاهرهم وسلوكهم علامات التربية الدينية الحسنة ؛ كلما رأى عمر ذلك سر بوجود هذا النشء الصالح فى وطنه ، وازداد شعورا بالحسرة والغبن الشديد لأنه لا ولد له كهؤلاء مشغوف بالعلم يسرع الى الكُتّاب ليحفظ كتاب الله ، والى معاهد العلم ليكون من العلماء الصالحين العاملين · ويزداد عمر شعورا بالغبن والحسرات كلما جلس وراء حلقة الوعظ فى المسجد ، أو وراء حلقة دروس الشيخ الحاج محمد بن الحاج قاسم الليلية فى داره ، ورأى الطلبة الذين استظهروا القرآن حلقة امامه فى زيهم الابيض الدينى ، ووراءهم حلقة أخرى من الطلبة الذين لم يستظهروا القرآن · وعيون الكل شاخصة الى الشيخ تتشرب وعظه وتلتهم دروسه ، وفى وجوههم النيرة بنور العلم والدين علامات مستقبلهم المشرق ومستقبل ذويهم ، وهو لا يملك ولدا كهؤلاء الطلبة النجباء يرى فى غرته مستقبله السعيد الأنور ·

وكان عمر شديد الحب للعلم ، شديد الحب للاصـــلاح · وكان يرجـو ان يعوض ما فاته من العلم فى صغره بتعليم ابنائه حتى يكونوا من العلماء ، ويعدهم بالتربيـــة والتعليم ليكونوا جند الاصلاح الذى يخوض اعنـــف معاركه مع اعدائه الالداء الاقوياء الكثيرين · ان الاستعمار العسكرى الصليبى واذنابه ليضغطون على عنق الاصـــلاح والنهضة بشدة ليزهقوا أنفاسهما ، ولا يقصم ظهورهم وينصر الاصـــلاح الا جيـــل من الصالحين المثقفين· وكان يرجو ان يكون له ابناء علماء يحققون هذه الآمال· ولما لم يؤت عمر الولد الذى يريد ازداد شعورا بالخيبة الكبرى لما فاته من التعلم فى صـــغره وبشدة حاجته الى العلم · ان كنوز الدنيا كلها لا تعدل جزءا صغيرا من العلم النافع ! وكان عمر قد ربحت تجارته ، وكثرت أمواله وصار ذاجاه كبير ، وأوتى زوجة صالحـة حاذقة وجد فيها كل ما يريد ، ووصل من دنياه كل ما يشتهى ، ولكنه لما عـدم الولد الذىيريدصار يشعر بالفراغ وشدة الحاجة واللهفة ، وضئالة دنياه كأنه ليس فيهـــا شيء · ان الولد الصالح العالم هو حظه ، ولا زال هذا الحظ لم يحصل عليه !

ويزداد شعور عمر بالغـــبن والحسرات والوحشة كلما زار أصدقاءه ، فاسرع ابناؤهم للسلام عليه ، فيحتضنهم ويسألهم عن السورة التى وصلوا اليها فى القرآن ، فيجدهم من الطلبة المجدين ، ومن أحباء العلم الناشطين ، ويرى فى عيونهم نـــور الصلاح والسعار الشديد للعلم ، فيفرح عمر لأصدقائه الذين أوتوا ذرية صالحـــة تتعلم ، ويحزن لنفسه ، ويزداد شعورا بالفراغ فى حياته ، فيشكو لاصدقائه ما يجد، ويحدث بذلك أمه ، وتعلوه الكئابة وعلامات الحسرة فى مجالسهم كلما مر ذكر الولد والاولاد · وكانت أمه وأصدقاؤه يعلمون من حديثه وملامحه شدة حسرته ولهفتـــه الى الولد الذى يريده فيسلونه ويمنونه ويدعون له ·

ليت شعرى أهذا العقم الذى منع عنا الولد فى أى منا ! هذا ما يزيد فى حيرة عمر وحسرته · لو لم يلدا مبكرين ولدهم البكر لظن فى نفسه أو زوجه العقم ، ولو كـــان أحدهما من سلالة غير ولود لظن ان الوراثة قد أدركته ، ولو لم تكن نيته طيبة فى الولد لظن ان الله عاقبه بالعقم·لقد تجاوز الثلاثين وعرسه فى التاسعة والعشرين·كاد الشباب ان ينصرم وهو لا يظفر فى دنياه بما يريد ! وكانت عائشة تعلم بكل ما يمـــلأ نفس زوجها من حسرة وحيرة ولهفة الى الولد · تعلمها من كلامه فى أسمارهما ، وتراهـــا فى سحنته ، فتسليه تارة وتمنيه ، وتتحسر معه أخرى · وكانت تتعذب مثل عذابه · ان المرأة العقيم وان كانت كاملة فى كل نواحيها الأخرى فهى شجرة الورد الفتانـــة

المترقرقة ، الممتلئة بالزهور الفواحة الساحرة،يزهد فيها صاحبها اذا كانت حاجته الى الثمرة ، ويريد أن تحل الفسيلة محلها أو تكون بجانبها · وكان هذا الخاطر يمر على عائشة احيانا فيزيد فى عذابها · وترفع اكفها الى الله ضارعة ان يمن عليهما بالولد الذى يريدان · وتسأل الصالحات اللائى يزرنها الدعاء والرقيا ، وتسأل صواحبها من الحاذقات بالطب العربى وأمراض النساء عن دواء العقم فيذكرن لها ما يعرفن فتجربه · وكان عمر يفعل مثل ذلك · يسأل كل من يعرف من العلماء الصالحين الدعاء والرقيا له ولزوجته ليرفع الله عنهما هذا العقم.فدعا له القطب الشيخ الحاج امحمد اطفيش ورقاه ، وفعل مثل ذلك علماء صالحون كثيرون فى مدن ميزاب وغيره · ولما عرف الشيخ محمد الطاهر عمارة ورأى علمه بالطب العربى سأله الرقيا والدواء فرقاه ووصف له الدواء فاستعمله · ومر على عائشة عشر سنين بعد ولدها البكر وهى لا تحمل ولا تلد ، فكاد اليأس من الولادة يخامر قلبها وقلب زوجها · وما علمت ان هذا العقم بعد الولد قد سبق كثيرا من النبغاء · وقع ذلك لأم الشيخ عدون بن بالحاج قبل أن تحمل به ، ولكثير من المنجبات ، لان الولد النابغة لا يكون الا من الوالدين الاقوياء ، وهذا لا يكون الا فى الشباب الناضج فى الثلاثين وبعدها للزوجين ، وبعد استجمام طويل تستعد فيه المرأة لتلد أسدا كما تقف الطائرة بعد مسيرها الأول لتضاعف قواها فتنطلق فى الجو !

الأفراح العظمى
بتحقق الأمل الكبير

وذات أسبوع بعد انقطاع النسل عشر سنين احست عائشة علامات الحمل الصادقة فبشرت زوجها · وكان هو قد ظن ذلك لما لاح على عرسه من أمارات ، فملأت الافراح قلوب الزوجين ، واحسا بالغمة التى كانت تثقلهما تنفرج ، وصارت عائشة فى متجرها واعمالها فى الدار كالفراشة فى النشاط وخفة النفس ومرحها ، تترقرق ابتساما ، ويشرق محياها تفاؤلا ، قد زالت الكئابة التى تعتادها ، وعرفت امها وصواحبها بحملها ففرحن وهنأنها ودعون لها ان يكون ابنا كما يريد زوجها · واصبح عمر فى متجره واعماله ومجالس اصدقائه على عهده القديم فى مرح النفس وتفاؤلها ، وذهبت كئابته ، فصار يتابع الحمل فى مراحله ويدعو الله وتدعو له امه واصدقاؤه أن يكون ابنا كما يريد فيهبه للعلم ·

وتم لعائشة تسعة أشهر وايام فوضعت جنينها فكان ابنا ، فاسرع عمر يطلع عليه ، ويحدق النظر فيه ، فتوسم فيه علامات النجابة ، وسأل الله ان يحقق فراصته ، ويجعل ابنه كما يريد ليهبه للعلم والدين ، وتعاظم سرور عمر بابنه ، وشعر بالغم والوحشة التى كانت تلازمه تذهب ، والقلق الذى كان يلح عليه يزول ، والدنيا تسترجع جمالها ونضارتها ، والآمال الحلوة تتجدد فى صدره ، وايامه فى ظرف ابنه تحبو اليه فتجلس فى حجره فتملؤ نفسه بالمرح والسعادة والآمال ؛ وسماه ابراهيم باسم جده الاول ابراهيم ، وهو الذى لقب بِبَيُّوضْ ، وكانت الاسرة تعتز به • وسمعت أسرة عمر واسرة عائشة بالوليد السعيد فامتلأوا بالافراح ، واسرعوا للتهنئة ، فامتلأت الدار بالنساء ، وسمع اصدقاء عمر واخوانه ومعارفه فاسرعوا يهنئونه فى دكانه وفى المسجد وفى داره • واسرعت زرافات من الاعرابيات فى البادية القريبة والبعيدة، فدخلن الدار وهن يزغردن،فأسرعن الى عائشة فى فراشها فأمطرنها بالتهانى وقدمن اليها الهدايا • وكانت الهدايا للنساء فى ميزاب هى الثياب لوليدها ولها والعطر ، والبيض • أما الرجال فأصدقاء الأب الأغنياء يسوقون الى داره الكباش ليوم العقيقة • (1) فاجتمعت فى دار عمر عدة كباش من أصدقائه من القرارة والبادية ، فربطت فى اسطوانات الدار التى تتوسط كل دار ميزابية فى تلك العهود • وفى اليوم السابع للوليد نحرها وأولم وليمة كبرى ، فدعا الجيران والاسرة اسرة عمر واقاربه واسرة عائشة واقاربها ، ودعا العزابة والطلبة ، واصدقاء عمر وصديقات عائشة من القرارة والبادية ، وكثيرا من الفقراء دعى بعضهم واسرع البعض بدون دعوة لحسن ظنهم بالاسرة وكرمها ، ولتعودهم الصدقات والاحسان منها • فامتلأت دار النساء بالنساء والدويرة الخاصة بأسرار عمر وضيوفه وهى ملاصقة للدار ، امتلأت بالرجال • وكان يوما مشهودا لعمر وعائشة واسرتهما ، وعرسا عظيما •

وبعد طعام الوليمة فى الظهر تقدمت والدة عمر ووالدة عائشة فغسلن الوليد ونظفنه وألبسنه ثيابا جميلة وعطرنه وكحلنه وقمطنه ووضعنه فى حجر أمه ، وتعالت الزغاريد وانعقد حفل الأناشيد الميزابية البربرية يترنم بها جمع من النسوة الصالحات البارعات فى الانشاد ، بالحان جميلة ، وأصوات عذبة مطلولة وهن حلقة حول عائشة ، والمدعوات صفوف صفوف مكدسة وراءهن يرجعن بعض مصارع النشيد • وهذه الأناشيد خاصة

---

(1) العقيقة ما يذبح شكرا لله على الولادة ، ويقام من وليمة ، ويكون ذلك فى الغالب فى ميزاب فى اليوم السابع .

بالعقيقة ، وهى فى حمد الله وشكره ، والاستزادة من نعمائه ، وفى تمجيد الوالدة والولادة ، وفى الدعاء لهما ، وفى المواعظ الحسنة سيما فى تربية الابناء ، وفى مدح النبىء صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم • وكان هذا الحفل يتصدره العزابيات ، سيما صديقات عائشة وامها • ولما تمت أناشيد البربرية ، بدأ الاغرابيات اناشيدهن وزغاريدهن ، وهى كالاغانى البربرية فى معانيها ، وان اختلفت فى اللحن واللغة ، وامتلأت دار عائشة بالاغاريد والزغاريد ، وطفح قلبها سرورا بوليدها وبهذا العرس الكبير ، وطفح قلب عمر بالسرور ، وغسل هذا اليوم كل همومه ، وصار يعده من أزهى الايام فى عمره •

ميلاد الشيخ بيوض ونشأته والبيئة الأولى التى أثرت فيه

وكان ميلاد أستاذنا الجليل الشيخ بيوض حفظه الله وأدامه فى اليوم الثانى عشر من ذى الحجة 1316 هـ ـ 22 ابريل 1899 م بعد عيد الاضحى بيومين • ولا زال الناس فى افراحهم وزينة عيدهم ، وفى بحبوحة الربيع الذى يخلق الافراح فى النفوس ويضاعف المسرات فى القلوب بجماله الفتان سيما فى الصحراء فى تلك العهود الخصبة التى تكتسى فيها الصحراء من رياضها فى الربيع بمثل ما تتزين به الوالهة من حللها وحليها اذا برزت لمن تحبه لتستبيه • فضاعف ميلاد ابراهيم أفراح العيد وبهجة الربيع فى أسرته وأصدقائهم • فتفاءل والده بميلاده فى شهر الافراح والزينة والتضحية والفداء ، وفى فصل الربيع الذى يبث الحياة والجمال والسرور فى الكون • وتضرع الى الله الذى اختار له خير الشهور لميلاده وخير الفصول لتكونه وبروزه ، ان يكون مثالا فى التضحية والفداء لدينه ، وربيعا فى حسن العشرة وجمال السلوك ، وفى كل السجايا الحميدة ، ولأمته ربيعا يجددها ويورثها شبابها ، ويقشع عنها ثلوج الاستعمار والجهل والفساد • وتفتحت نفس عمر بميلاد ابراهيم ، وشعر بالحب الشديد له ، والاعتزاز الكبير به ، فحدثته نفسه بان هذا الوليد هو الذى يحقق أمله فى العلم والاصلاح •

وكان عمر لشدة حبه لابراهيم يتمنى الرجوع الى داره • فاذا جاءها اسرع الى مهده ، فاذا كان يقظان ناغاه وقبله وضمه اليه ، فيبتسم لابتسام والده ، ان سرور

والده يملأ نفسه الصغيرة فيبدو ابتساما متصلا فى وجهه المتفتح الجميل · واذا كان نائما تأمله بعيون المحبة والحنان فيسره نموه ووثاقة تركيبه ، ومخايل النجابة فى سيماه · ان جبهته العريضة علامة الذكاء الوقاد والهمة العالية ، وفمه الواسع علامة الفصاحة ، واستغراقه فى نومه وهدوء نفسه فى يقظته علامة الطبع الهادئ والخلق الرصين ، وتفتح وجهه وكثرة ابتسامه علامة الصفاء فى الطوية · ان الله قد استجاب دعوته فرزقه الابن الذى يريد ·

واذا كانت عائشة ترضع ابنها ابراهيم أو تلبسه أو ترقصه ، يجلس امامها فيرى زوجه الحبيبة فى أعظم مظاهرها · وفى أجمل أحوالها · انها عرسه الحبيبة وأم ولده العزيز الغالى · انها سماء جميلة فى نجومها وأقمارها وشجرة زاهية تملؤها ازهارها الفواحة و ثمارها الناضجة الحلوة · ما أعظم نعمك علىّ يا ربى ! أحمدك وأستزيدك ! هذا ما كان يملأ نفس عمر اذا كان يتأمل فى ابنه ابراهيم فى حجر امه · وكان يؤكد نذره لعائشة كلما تحدثا عن ابنهما ابراهيم ، أو جعلاه بينهما فى اسمارهما وهو يطوح بيديه ورجليه ويدفع عنه الغطاء ، وهو يبتسم ويضحك بمناغاة ابويه ، ويجيب عليها باصوات جميلة احلى من كل الاغانى والموسيقى عندهما · فيؤكد عمر نذره لزوجه ويقول : هذا الابن النجيب قد وهبته للعلم والدين ليكون من العلماء الصالحين العاملين لخير الدين والوطن · فرسخ هذا فى قلب عائشة فصار أملها لابنها وعزيمتها فيه ، لكثرة ما يردده زوجها قبل ميلاده وبعده فى أوقات سروره وجده : اذا كانت قابلية الايحاء فيها على قوتها فى وقت نشوتها وخضوعها · انها تحب زوجها وتطيعه وتنقاد لكل ما يريد · وصارت تبتهل الى الله وتتمنى ان يكبر ولدها فيكون للعلم والدين ·

ومن علامات قوة شخصية عمر وحزمه وشدة حب عرسه له وقوة استعدادها للصلاح ان استطاع عمر ان يجعل عرسه مثله فيما يريد لابنه ابراهيم : (ان يكون من طلبة علوم العربية والدين ، مسجديا ، ليكون عالما مصلحا يطهر البلاد من الفساد ويطأ على رقاب المفسدين !) ان بيئة ابيها لتبعد هذا الخاطر عن نفسها ، ولو استجابت لتلك البيئة لآثرت ان يكون ابنها للحكم والوظائف والمال ، ولكن السيد عمر تغلب بقوة حبه للاصلاح وبشدة اهتمامه وغيرته على دينه ووطنه ، وبقوة طبعه الاجتماعى ، وبحكمته وقوة ارادته ، وبجاذبيته القوية للمرأة فتندفع فى تياره ، استطاع بهذا وبزكاء العرق فى عائشة ، وحسن تربيتها ، وشدة حبها لزوجها واعجابها به ، ان

يصبغها بصبغته ، فغرست في ابنها ابراهيم كل ما يريد من صفات ، ووجهته منذ نعومة أظفاره الى العلم والدين ، وكانت اكبر عون لزوجها في جعله مسجديا صالحا · ولولا قوة تاثير السيد عمر في زوجه لأمكن ان تنساق في تيار والدها فتوحي لابنها وتطبعه باشياء خلاف ما يريد أبوه ·

وكان عمر يحث عائشة على الاعتناء بابنه في نظافته وغذائه ولعبه ، وغرس أحسن العادات فيه من طفولته الاولى ، وغرس عقيدة الدين فيه حتى تكون جزءا من نفسه ، وتعويده الشجاعة والجسارة والهمة العالية ، والصبر والنشاط وحب العمل ، وحسن العشرة ، وخدمة الغير والاعتناء بشؤونهم · وكانت هي حريصة على ذلك · ان عدة العلم والاصلاح واساسها هي هذه الصفات العظيمة ، وإن الأم هي واضعة الاساس في بناء الشخصية فيجب أن يكون متينا راسخا قويما فعلى حسبه يكون البناء · هذه هي عقيدة عائشة فعرفت واجبها كأم كما عرفت فروضها كزوجة · فقامت بتربية ابنها أحسن قيام · وكانت تراقب سلوكه ، واذا كان معها توحي اليه بما ينبغي ان يفعله ويرضى عنه والده ، ويجعله عند الناس ويدخله الجنة · وكانت الجنة وجهنم مما يكثر في ألسنة الكبار في أمرهم ونهيهم للصغار في ذلك العهد في ميزاب فينشئوا والعقيدة الدينية راسخة فيهم ، وخوف الله ورجاؤه هو الدافع القوى لهم في السلوك · وما كاد ابراهيم يصل الثالثة من عمره حتى بدت شخصيته الجميلة ومزاياه الكريمة ، وظهرت فصاحته وذكاؤه الوقاد ، وروحه المرحة القوية وظرفه القوى في سلوكه وألعابه وكلامه فاحبته أسرته كلها وجميع من عرفه ·

في حضانة جدته زغمومة وأمه حليمة

كانت السيدة نانة زغمومة شديدة الحب لابنتها عائشة · ولما ولد ابراهيم أحبته حبا شديدا · ولما رأت ظرفه ومزاياه زادته حبا فصارت لا تستطيع فراقه · وكانت قبل فطامه تأخذه كل يوم من أمه فيبقى زمنا عندها فترقصه وتناغيه وتحتضنه وتشمه · واذا عرفت فيه النعاس تهدهده وتربته لينام ، فتضعه حيث تراه حتى يجوع فترده الى أمه · ولما فطم تولت هي حضانته · وكان ابراهيم يحبها حبا شديدا لقوة حنانها ولطفها ، وحسن تصرفها مع الاولاد في التربية فأحبوها حبا شديدا ·

وكان السيد عمر جارا لصهره السيد كاسي بن بهون داره ملاصقة لدار صهره الذى تسكنه زوجته أم عائشة ، وهى فى شمال داره يصل بينهما باب من السطح ، لهذا سهل على ابراهيم الذهاب الى جدته • ان الدارين تكاد أن تكون واحدة • وكانت دار السيد عمر التى ولد فيها ابراهيم فى شارع أولاد منصور فى الناحية الغربية فى القرارة ، وهى الدار الثالثة على يمينك اذا دخلت الشارع من جهة الشرق •

وكان السيد كاسى بن بهون يرى مخايل النجابة وقوة الشخصية فى حفيده ابراهيم فأحبه حبا جما دون سائر أحفاده الكثيرين • وكان السيد كاسى جديا عمليا دائم الصمت والعبوس • وكان الاطفال يهابونه ويهربون منه • وكان هو لا يعبأ بهم ، الا ابراهيم فيحبو اليه فيرحب هو به ويهش له ويناغيه حتى يجلس فى حجره ، فيلاعبه ويكلمه ويأنس به • وكان يسأل عنه كلما دخل الدار فلم يجده •

ولما بلغ ابراهيم العامين وفطمته أمه ، حضنته جدته زغمومة وأمه حليمة ، فكان يبيت مع جدته ويقضى معظم النهار فى دارها • وكان أكله ونظافته وكل شؤونه فى دار جدته • انها لشدة حبها له قد خصت به نفسها •

وكان مع جدته زغمومة فى حضانته أمه حليمة ، فهى التى تنظفه وتقوم بكل شؤونه • وكان ابراهيم لقوة علاقته بها وشدة حبها له ، وآثارها الكبرى فى نفسه يدعوها أمى • وهى حقا أمه البارة المخلصة الرءوم •

السيدة حليمة وحضانتها وأثرها فى ابراهيم

كانت السيدة حليمة بنت عيسى بن امعمر من فصيلة السباقيق من قبيلة المذابيح فى غرداية • وكانت متدينة فاضلة لطيفة ، جميلة العشرة ، عذبة الكلام ، فصيحة ، قوية الشخصية ، داهية ، شديدة الحب للنظافة والنظام ، وهى من عقائل قومها ، تعرف كيف تمتلك القلوب حتى النافرة بحسن التصرف ، وعذوبة المنطق ، ولطف المعاملة • تعرفت الى أسرة السيد كاسى بن بهون فى غرداية فتوثقت الصداقة بينهما وعرف السيد كاسى دهاءها واخلاصها وصفاء طويتها وخصائصها الاخرى وشدة كتمانها للسر فكان يستعين بها فى غرداية فى بعض المشاكل السياسية ، فتسفر بينه وبين المخالفين له فى الرأى أو النافرين الذين يريد ضمهم اليه ، فتحسن

الجناح الشرقى لمدينة القرارة بلد الشيخ بيوض والشيخ ابى اليقظان والشيخ عدون بن بالحاج وقلعة الاصلاح الكبرى فى الجنوب . ترى المأذنة والمسجد تتوسط المدينة فى اعلى مكان ومدرسة الحياة بأقواسها العديدة فى المقدمة على اليسار . والقرارة مدينة جميلة شعرية ، بنيت فى راس جبل غير عال فانحدرت على سفوحه من كل جهاته وامتدت فى السهول الواسعة حوله . وتحف بالقرارة من جهاتها الثلاثة على شكل هلال من شرقها وغربها وجنوبها غاباتها الشديدة النضارة من النخيل وضروب الاشجار المثمرة فتزيد فى روعتها وجمالها اذا رأيتها من بعيد . وهى اخصب مدينة فى وادى ميزاب ، تجرى ثلاثة عيون فوارة قوية على وجه الأرض فى انحائها فترويها . انها من المدن الكبرى الزاهرة فى الجنوب بفضل صلاحها وتمسكها بالدين .

السفارة وأداء الرسالة . فتقنع المخالفين للسيد كاسى برأيه ، وتستل سخائم خصومه فتجعلهم أصدقاءه • فبلغ السيد كاسى بسفارة السيدة حليمة ، وبراعتها فى امتلاك القلوب ، لشدة ثقة الناس بها لدينها وأمانتها وحسن مقاصدها ، وللطفها وذكائهـــا فى الاحتجاج والاقناع ؛ بلغ مقاصد كبرى فى ميدان السياسة فى غردايا بها ، وفض بها مشاكل كثيرة تحيره ، فازداد معرفة لفضلها ، وازدادت أسرته تمسكا بها ، فانقطعت اليهم فصارت من الاسرة • ولما تأيمت من زوجها انتقلت فى أول الكهولة الى القـــرارة فاستقرت بها ، واسكنها السيد كاسى لشدة احترامه لها واعزازها فى أكبر ديـــاره ومع أحسن زوجاته ، وهى السيدة زغمومة أم عائشة ، وذلك لتقاربهما فى الطبـــع وتماثلهما فى الفضل • واستمرت حليمة فى القرارة فى مهمتها الكبرى تنقل رسائـــل السيد كاسى حاكم القرارة الشفاهية السرية الى الاعيان ، وتسفر بينه وبين بعـــض خصومه فى القرارة فتستل سخائمهم • فعاشت محترمة مبجلة فى القرارة ، سعيـــدة فى دار السيدة زغمومة الى أن رجعت الى غردايا فى آخر العشرينـــات فتوفيت بهـــا يرحمها الله •

وكانت السيدة حليمة مع شدة تمسكها بالدين ، وحسن أخلاقهـــا ودهائهـــا ، ولطفها وعذوبة منطقها ، راقية جميلة الذوق ، شديدة الحب للنظافة والنظام فى كـــل

أشيائها ، مما يدل على حسن محتدها وتربيتها · وكان يبدو ذلك فى هيئتها ولباسها· انها نظيفة البدن ، بيضاء البشرة · لباسها البياض دائما على هيئة اسلامية ساترة وقور · تدير الشاش الابيض الناصع على رأسها حول عنقها فيستر شعرها كله وعنقها وتلبس قميصا أبيض سابغا يصل الى الكعبين تقفل أكمامه الطويلة فى الزندين ، وهو مقفل الصدر الى لبتها ، وفوقه ملحفة بيضاء ناصعة من القماش تشدها فى الوسط بنطاق أبيض ، وتشد طرفيها بابزيمتين من فضة فى أعلى صدرها من اليمين والشمال هذا هو لباسها فى الدار ، ولباس أغلب الميزابيات فى ذلك العهد على اختلاف فى اللون وبعض الجزئيات ؛ واذا خرجت تجلببت بجلباب صوفى أبيض ساتر على هيئة الميزابيات الاسلامية الساترة · وكانت هذه الهيأة البيضاء الناصعة الوقور مما حببها الى الناس ، ودل على دينها وطبعها الكريم · كانت تمقت الوسخ والفوضى ، وتشغف بالنظافة والنظام ·

وكان السيد كاسى يصطحب ابنته عائشة الى غرداية وهى طفلة فيتركها شهورا فى داره مع زوجته وأولاده فى غرداية ، فعرفت السيدة حليمة ذكاءها وخصائصها الاخرى فاحبتها حبا شديدا ، وأحبتها عائشة حبا جما · ولما استقرت السيدة حليمة فى القرارة ازدادت علاقتها بعائشة ، وشدة حبها لها · وكانت ممن حمل هما شديدا مع أمها لما انقطع حملها مدة طويلة · ولما ولد ابراهيم فرحت فرحا عظيما ، وعرفت خصائصه فاحبته حبا عظيما ، فتبنته ، واختصت هى بخدمته والقيام بكل شؤونه لما حضنته جدته زغمومة ، فكانت هى التى تغسل ثيابه ، وتحلق رأسه بموساها ويدها الناعمتين ، فينتشى ابراهيم بحلاقتها اللطيفة المنعشة · وتقص لمته وتسويها · واذا نهض فى الصباح تغسله بالصابون ، وتمشط لمته وتدهنها بالعطر ، وتضمخه بالعطر ، وتلبسه ثيابا نظيفة جميلة ، وفى أثناء ذلك تغمره بحنانها ولطفها وتداعبه ، واذا أساء التصرف عالجته فى حزم وحكمة · انها تحبه وتدلله ولكن مع رغبة شديدة فى تربيته ليكون صالحا ناجحا · لا تتهاون فى اعوجاجه ، تقومه بشتى الوسائل ، وقد تضربه ان أصر · وكانت جدته زغمومة على هذا الحزم والكياسة فى تربيته ·

وكانت السيدة حليمة تعرف أمل أبويه فيه ، وشدة ثقتهما فى تربيتها وتربية جدته زغمومة فرضيا بحضانتهما ، فازدادت هى وجدته حرصا على تربيته وغرس كل الاخلاق الاسلامية فيه ·

وكان ابراهيم لقوة حيويته وطبعه الاجتماعى القوى مغرما باللعب مع الصبيان · فلا تكاد مربيته حليمة تنظفه فى الصباح وتعطره وتعجب بمنظره الذى يرضى حبها له

وللنظافة والنظام ، وتجد سرور النفس وهناءها بقيامها بالواجب حتى ينفتل منها الى الشارع ، فيسرع الى رفقائه صبية الجيران فيلعبون فى الشارع ، ويخرجون الى ظاهر المدينة الغربى المتصـــل بشارعهم لا يفصـــل بينهما الا السور ، فيلعبون فى رماله العابهم الكثيرة التى تثير الغبار ، ويتمرغون بها فى التراب • وكانت الشوارع فى ذلك العهد غير مرصوفة بالصفائح والا سمنت كما هى الآن • وكان ظاهر القرارة الغربى من السور الى البساتين براحا واسعا رمليا ليس فيه أبنية وأجنة كما هو الآن ، وانما هو رمال يسمر فيها الكبار فى الليل ، ويلعب فيها الصبيان فى النهار ، وتقام فيه حفلات البارود على الخيل فى الاعراس • وكان ابراهيم ورفقاؤه صبيان الحى يلعبون فيه لانـه يسع نشاطهم فى اللعب ومرحهم فى الألعاب • وكانت العابهم كثـــيرة ، وهى الالعاب الشعبية الشائعة فى مدن ميزاب والجنوب ، وهى تربوية تفيد الجسم والخلق والعقـل ، منها : كرة الصولجان ، والتسابق جريا على الاقدام ، والاستغماية : أن يعصبوا عينى أحدهم حتى لا يرى ، فيسعى للقبض عليهم وهم حوله فيتقونه فاذا قبض على أحـــد وضعت عليه العصابة لانه مغلوب فيحاول أن يقبض على أحد ليحرره • وقد يعصبونه فيختفون فى المخابى ، فيحل العصابة ، فيفتش فاذا ظفر بأحد يجرى وراءه فان قبض عليه عد مغلوبا فيعصبون عينيه ويجددون اللعبة • لعبة تشحذ الذكاء وتعلم السرعـة واتقاء الاخطار • ويلعبون (الزلقوم) وهى لعبة تسمى فى القرارة بهذا الاســم وفى نواحى الجزائر والمغرب بأسماء أخرى ، تعلم أنـــواع القفز ، ولها قوانـــين يلتزمها اللاعبون • يطأطئ أحدهم فيقفز اللاعبون فوقه لا يلمس ظهره الا أيديهم التى يعتمدون عليها فى القفز ، فان لامسه أحـــد بسواها عد مغلوبا فيطأطئ للجماعة • وقد يكون القفز عاليا ، وهذا للكبار ، فلا يخفض المطأطئ الا رأسه ، فيقفز اللعبون فـلا يلامس أحدهم منكبه الا بيديه ، فان لامسه بغيرها عد مغلوبا • لعبـــة جماعية حسنة تروض الجسم ، وتعلم الشجاعة ، وتقوى فى النفس خدمة الجماعة والتزام النظام •

وكان ابراهيم يلعب مع رفاقه الصبيان ألعابا عقلية منهـا (السيق) (وثلة او ثلة) لعبة شبيهة بالشطرنج الا أنها ترسم دوائر فى التراب ويوضع عليها النوى أو الحصى فى كل دائرة ، ويقع اللعب • وكان ابراهيم بارعا فى كل هذه الالعاب الجسمية والعقلية ، يحبها ويقود رفاقه فيها • ولذكائه النادر ولطفه البالـــغ ونشاطه وحسن عشرته كان يتزعم الصبية فى ألعابهم ويخضعون له ، لشدة اعجابهم به وحبهم لـه ، رغم الفردية التى تتسلط على الصبيان فى الطفولة فلا ينقادون •

وينغمس ابراهيم في اللعب مع رفاقه لشدة حبه له ، فيشو العجاج ، ويتمرغ في التراب فيرجع الى دارهم في الضحى مسود الثياب ، مغبر الجسم يعلو هامته ولمته التراب ، وينعقد الغبار في أشفار عينيه وحواجبه فيبيضان ، فتراه مربيته حليمة وقد خرج في الصباح من الدار ياسمينة بيضاء ، فتشفق وتثور ، فتنهض اليه فتأخذ بيده فتعنفه على الاوساخ وقد تضربه ، فتجره الى المغسل لتنظفه • وتقول وهي تنزع ثيابه الوسخة ، وتشاهد التراب والوسخ في وجهه وثيابه متبرمة من الوسخ الذى لا تطيق رؤيته : « يا ابراهيم يا بن عيشة يَا طَلَّاسْ الأَبْرَمْ » والطلاس هو المتمسح بالبرمة السوداء وهي القدر • فتغسله كله بالصابون ، وتلبسه ثيابا نظيفة ، وتمشطه وتعطره فيلم بطبق التمر ، وهو فطور كل الناس في ميزاب ، فيأكل ، فيطير الى الشارع ، فيستأنف ألعابه مع رفاقه فيرجع اليها مع الظهر مغبرا متسخا كما كان ، فتثور اليه فتعيد تنظيفه وتغيير ثيابه ومشطه كما فعلت في الصباح ، لا ترضى أن تراه وسخا مشعثا • واذا كان العصر يسرع ابراهيم الى رفاقه فينغمس في اللعب ، فيرجع الى الدار مع الاصيل مغبرا وسخا ، فتأخذ حليمة بيده الى المغسل فتزيل أوساخه وتغير ثيابه ، وتمشط لمته وتدهنها وتعطره • عمل مرهق تقوم به في كل يوم ، لا تمل ولا تهمل ابنها ابراهيم فينشأ وسخ الجسم • ذلك الوسخ الذى يؤثر في العقل والخلق •

وكانت جدته زغمومة على مثل عناية حليمة به ، وكان يسرها حسن قيامها به ، فتركت شؤونه لها • وكانت جدته زغمومة ومربيته حليمة تراقبان سلوكه في الدار وفي الشارع ، لا ترضى أن يلعب مع من لاخلاق لهم ، وفي الأمكنة المريبة ، أو يعوج في سلوكه • فاذا بدا منه اعوجاج قومته جدته ومربيته في حزم وحكمة • انهما حريصتان على نظافة نفسه أكثر من حرصهما على نظافة ثيابه •

وكانت حليمة لشدة حبها لابراهيم لا تصبر عنه ، بودها أن لا يفارق جانبها ، ولكنها تعرف طبع الطفولة ، وضرورة اللعب للصغار ، فهو الذى ينميهم في كل النواحي ويظهر شخصيتهم ، ويقوى عقولهم وأخلاقهم • ومن لم يلعب كل اللعب في صغره ينشأ قاصرا فلا يستطيع أن يجد كل الجد في كبره ! فكانت تأذن له في اللعب مع الصبيان ، على ما يجشمها ذلك من متاعب في اعادة تنظيفه • واذا قر ابراهيم في الدار يسرع الى أمه حليمة لشدة حبه لها ، فتفتح ذراعيها فيلقى نفسه في أحضانها ، فتمسح على لمته وتقبله في جبينه ، وتربت على كتفه ، فيرفع رأسه اليها يتأمل جمال المحبة والحنان في محياها الباسم الوقور ، ويحتسى عبارات التدليل والحب الخالص التى تنثرها له ، ثم يجلس بجانبها وهي في أعمالها • واذا كانت في المنسج جلس أمام

النول فتحدثه وتسأله ، فتعجب بأجوبته التى تدل على الذكاء الوقاد ، وبلهجته العربية الصحيحة ، وبذلاقة لسانه ، وجمال صوته ، فتنتشى بكـــلامه فتثيره للحديث • واذا صلت المغرب وجلست فى مصلاها والسبحة فى يدها تذكر الله وتنتظـر أذان العشاء أسرع ابراهيم اليها فيجلس بجانبها ينصت الى أذكارها ، فيشعر بخشوعها ينساب اليه مع حنانها ولطفها فيملأ نفسه ، فينتشى بهذا المجلس، وينتظرها حتى تصلى العشاء فيتعلق بها لتحكى له قصص الاطفال التى تحفظ منها الكثير ، فيجلسان فى مقصورة الدار الدافئة اذا كان الشتاء ، وفى السطح الممتلىء بالنجوم ، الخفاق بالنسيم العليل اذا كان الصيف ، والدلوة الباردة المخضبة بالقطران يهزها النسيم العليل فى العمود الطويل الذى نصب فى أعلى مكان فى السطح ، فتبض بقطراتها الباردة كأنها تعـرض ما فيها وتغرى به النفوس ، وفواكه الصيف : البطيخ الاخضر أو الاصفـر أو العنب ، أو كل هذه قد غسلت ووضعت فى أطباق كبيرة فى رأس الجدار الغربى لتبرد ، وقتار العشاء الشهى يتصاعد من دارهم وبيوت الجيران فيسيل اللعاب • وكان أغلب أهـــل ذلك الزمان يتعشون قبل المغرب أو بعده مباشرة لمعرفتهم للصحة ، ثم يذهب الرجال الى المسجد والنساء لصلاة المغرب وأعمالهن المنزلية، ولكن البيوتات الكبيرة التى لاتخلو من ضيوف تؤخر العشاء الى بعد صلاة العشاء ليسمروا مع ضيوفهم • جـــو جميل ساحر فى سطوح ميزاب فى ليالى الصيف لا يشبع منه النظـــر ولا تمله النفوس • وتسمع فى سكون الليل أغانى الاطفال وصراخ الصبية يـــرن فى بعض السطوح ، ونفحات البخور الميزابى الذكى يتصاعد من بعض البيوت فيديره النسيم على السطوح والنجوم المتلألئة ، والقمر الذى يبدو فى أقصى جماله وعزته فى سماء ميـزاب الذى يعشق الحسن ويهيم بالجمال ، فيغرى الناس بطـول السمر • فيحس ابراهيم بهـذا الجمال فيزيده طربا فيتعلق بأمه حليمة ، ويسرع الاطفال الآخرون من دارهم وسطوح الجيران التى تصل بينها أبواب ، فيجلسون حولها ، فتقص عليهم القصص اللائقة بهم ، فهناك قصص شعبية كثيرة للطفولة الاولى الى السادسة ، وهى خيالية فى الغالب ، ولكن مغازيها توبوية تترك أحسن الآثار فى الاخلاق والعقول ، وقصص للطفولة الثانية مـن السابعة الى البلوغ ، وقصص تاريخية ووطنية ذات مغاز سامية للبلغ مـن الاطفال • كانت أسمار ذلك العهد سيما للاطفال والنساء والعوام تعمرها هذه القصص الطريفة التى تنقل السامع الى دنيا جديدة بهيجة تنسيه همومه •

وكانت حليمة لما تعرف من جدوى القصص العظيمة فى التربية ، ولما تشعر به من نشوة بين الصبية التى تدخل السرور على نفوسهم بحكايتها تقص قصصها فى حماس

وعناية ، فيرى الأطفال معاني القصـــة في وجهها ورنـــة صوتها فيزدادون تأثرا بها وشغفا بقصتها · وكانت تحسن تصوير مناظر القصـــة بفصاحتها وعذوبة منطقها ، فتنقل ابراهيم وزملاءه الى دنيا القصة فيعيشون فيها في خيالهم ، فيجلسون ساكنين وأعناقهم تمتد الى حليمة يصغون اليها في نشوة وتأثر كبير · فتنتهي الحكاية وقـــد حفظها ابراهيم وحفظها بعض زملائه ، فيقصونها في مجالسهم ، وقد يصبحون يمثلونها في ألعابهم · وبعد الحكاية تلقى حليمة أحاجيها على الاطفال ، فيحلها البعض ويعجـــز البعض ، وكان ابراهيم ممن يوفق الى الحل الصحيح · ويستمر هذا السمر اللذيذ الى وقت النوم ، فيهب الاطفـــال الى مراقدهم على أن يسرعـــوا غدا للحكايات والاحاجي الجديدة · وكانت السيدة زغمومة جدة ابراهيم ونساء أخريات من الجيران يشاركن في هذا السمر ، فتثير حكايات حليمة وأحاجيها ما يحفظن من قصص وأحـاجي ، فيحكين للأطفال ، فتتعدد الألوان في السمر ، ويظفر الأطفال بكل ما يشتهون ، وقد يضيـــق الوقت فتذكر احداهن عنوان الحكاية التي تذكرتها ، وتعد الاطفال بها في الليلة المقبلة فيظل الأطفال طول النهار يملأ خيالهم مناظر الحكاية الماضية ، ويملأ نفوسهم أمل حلو لسماع القصة الجديدة · ولا تمر ليلة سيما في الشتاء ولا يأخذ ابراهيم وأطفال ذلـك العهد غذاءهم الضروري من قصص الاطفال التربوية · انها الدروس الدينية والاخلاقية التي يفهمونها ، وهي غذاء خيالهم فيترقى ، والمرء يستعين في كل أعماله بخياله ، ولو تعرى العقل من الخيال لكان ضعيف الجدوى ·

لم تكن في ذلك العهـــد مدارس كثـــيرة للاطفال ، ولكن أهله من رجال ونساء يعرفون التربية أحسن من هذا العهد الذي يغص بمدارسه ، والطفل فيه سعيد يأخـذ حظه كاملا من تربية الدار التي تشتمل على آباء دهاة مجربين وأمهات مجربات عالمـات بالحياة · وكن يؤمنن بأن القصـــة غذاء ضروري للطفـــل كالطعام ، فكثرت حكايات الاطفال في ذلك العهد · فتمر ليالي كثيرة والام تحكي لاطفالها ما حفظت مما يوافـق أدوار طفولتهم فلا تعيد حكاية · واذا نفد ما عندها وجـــدوا جدتهم ونساء الاسرة والجـــيران ، وكذلك الرجال فيطرفونهم بالجديد الذي عندهم من الحكايات التربوية المسلية · ولا أنسى الاثر العظيم الذي تركتـــه في نفسي القصص التربوية التي كـان والديَّ رحمهما الله يقصانها علي في الطفولة ، وما سمعته من عجائز أسرتنا رحمهن الله· ليت شعري هل يعرف هذا الزمان الابله المحتضر الذي قتلته الحضارة ووسائلها المخربة في الأعم الأغلب ما يخسر في تربية الأطفال لما حـــرموا من القصـــة التي تتسرب الى نفوسهم من الأمهـــات ممزوجة بحنانهن · لم تعد في المـــدن المتعجرفة التي تدّعي

الحضارة والعلم مجالس السـمر مع الاطفـال فيطرفهم الكبار بالحكايات التربوية والقصص التاريخية الدينية والوطنية · ان هى الا قصص فى الاذاعة يسمعها الاقلون، وهى باردة ليس فيها حـرارة الحنان التى يجدونها فى حكاية الام · فتـرى أولئك المساكين بما يشعرون من برودة ما يسمعون من الاذاعة أو التلفزة كمن يرضع حائطا فهل هو كصدر الام وأحضانها ؟ !

أثـر المـربية حليمة فى ابراهيم

كان للمربية حليمة أثر كبير فى ابراهيم فى كل نواحيه لانها ممن سبق الى نفسه فى الطفولة الاولى فأثر فيها · وكانت هى تقصد أن تغرس فيه بشتى الوسائل كـل الاخلاق الحسنة ، وتثير مواهبه العقلية وتقويها · انها لم ترزق أولادا ، وكانت غريزة الأمومة قوية فيها كل القوة ، فوجدت ابراهيم فتبنته ، وأشبعت الأمومة المحرومة فى نفسها بالعناية التامة بابراهيم وبالحب الشديد له · وكانت تجد النشوة الكبرى فى خدمته وتقويم الاعوجاج الذى يبدو فى كل طفل لا نجذا به الى الطرق البدائية أحيانا فى السلوك · ان حبها للولد ، وحبها لعائشة وأبويها ، وحبها لابراهيم لخصائصه التى حببته الى أسرته وكل من عرفـه ، وحبها للفضل والسلوك القويم · كل ذلك جعلها حريصة أن يكون ابراهيم رجلا عظيما سعيدا فى دنياه وآخرته ، فاعتنت كـل الاعتناء بتربيته فى كل نواحيه · وكانت أكبر ظهير فى تربيته لجدته زغمومة ولابويه ·

ومن آثار السيدة حليمة الحسنة فى ابراهيم أنها علمته اللغة العربية الدارجـة منذ نعومة أظفاره · ان اللغة المنزلية للميزابيين هى البربرية الميزابية الجميلة ، وهى لغة تأثرت بحضارة المغرب التى توالت قرونا قبل الاسلام وقرونا كثيرة بعده فكانت (اللغة البربرية) فى جمال اللهجة وحلاوة الجرس والسعة كأختها العـربية ، سيمـا فى ألسنة الميزابيين الذين يتكلمون كلهـم العربية الدارجـة بفصاحة فزادت فى فصاحتهم ، فخلت من العقدة والعجمة التى تجدها فى بعض المناطق البربرية التى لـم تتحضر كالميزابيين ، ولم تنغمس فى البيئات العربية التى انغمس فيها الميزابيون فى الصحراء الفصيحة المتمسكة بفصاحتها وعربيتها الدارجة أكثر من الشمال · ولا زالت فى الفصاحة وصفاء اللغة كذلك الى الآن ، سيما فى البادية ·

وكانت السيدة حليمة تعرف اللغة البربرية كل المعرفة لاختلاطها بالميزابيين فى غرداية ، وحلولها فى دار السيدة زَغْمُومَة فى القرارة ، ولكن يصعب عليها التكلم بها

فكان كلامها بالعربية الدارجة ، والعربية الدارجة فى المغرب سيما فى الصحراء أقرب اللهجات العربية الدارجة الى الفصحى · انها مثلها فى النطق وفخامة اللهجة وعذوبتها وبيانها لا ينقصها الا الاعراب · وكانت حليمة تناغى ابراهيم فى مهده بالعربية · ولما بلغ العام كانت تحدثه بالعربية · فتعلم فى طفولته الاولى اللغتين البربرية والعربية · ولكن أكثر كلامه فى الطفولة بالعربية ، لان أمه حليمة تحدثه بها · وكان أغلب رفقائه من صبيان الجيران الذين يلعب معهم ويغشى دورهم عرب من الاسر الكريمة التى حلت فى القرارة من البادية فاستوطنتها ، فأخذت تقاليد الميزابيين الحسنة ، وحضارتهم الاسلامية الراقية ، وحافظوا على لغتهم وفصاحتهم فظلت على صفائها وقوتها فى البداوة ·

وكانت حليمة عذبة المنطق لطيفة المعانى ، فحببت العربية بهذا الى ابراهيم ، وكانت تصدر من شخص يحبه كل الحب ، وهو شديد الحرص على الاتصال به · ولا يكون ذلك الا باللغة التى تتكلمها · ثم انه أعجبه جرسها ولطفها فمالت اليها نفسه كما مالت الى اللغة البربرية العذبة الكريمة ، فصار منذ صغره يتكلم اللغتين ببراعة وفصاحة · غير أن العربية الدارجة هى التى مهدت للفصحى فى لسانه ، وكانت من أكبر أسباب فصاحته فيها بعد ذلك فى الخطابة والكتابة والتدريس · وكانت حليمة من أكبر أسباب فصاحة ابراهيم فى العربية الدارجة ·

وكان ابراهيم فى ملعبه مع رفقائه يتكلم بالعربية ، ومع مربيته يتكلم بالعربية فتفصح فيها · وكان أغلب حديثه بها ، وهى الغالبة على لسانه فى صغره سيما فى دار جدته زغمومة ·

وكان ابراهيم يجلس أمام النول الذى تنسج فيه حليمة فيسمع أغانيها العذبة فى النسج وهى بالعربية ، وأغانى جدته زغمومة وأسرتها وهى بالبربرية والعربية ، فيحفظها كلها لقوة ذاكرته ، ولشغفه بالموسيقى والغناء ، ويحسن أداءها · واذا استفزه الطرب غنى معهن بصوته الرخيم العذب الرنان ، فيسحرهن بصوته وحسن أدائه ، فيسكتن فيستمر فى الغناء وحده ، وهن يرجعن بعض مقاطع النشيد ، فيطربهن الطرب العظيم ، فتشتد دمدمة النسيج ، ويملأ الدار جو ساحر قوى من الطرب والنشاط ·

وكان ابراهيم قد وهبه الله صوتا موسيقيا جميلا هو من ميزاته التى كونت شخصيته المحبوبة · تجد صوته الرخيم فى خطابته وكلامه ، سيما فى الانشاد اذا

ترنم فانه من أحسن خلق الله صوتا . وكان فى طفولته على ذلك الصـــوت الجميل . وكان يلذ لرفقائه فى الملعب أن يغنيهم فيفعـــل ، فيهيجهم الطـــرب فيتغنون معه أو يرجعون بعض مقاطع النشيد . وكانت هذه الاغانى أكثرها بالعربية الدارجة ، ويحفظ ابراهيم منها الكثير ، وهى من أسباب فصاحته فى العربية الدارجة .

غـرام ميزاب وعهـود الاجـداد
بالغنـاء التربوى الطاهر الجميـل

وكان ذلك العهد فى ميزاب أيام طفـــولة ابراهيم وشبابه عهد الاغانى الكثيرة الشائعة بربرية وعربية ، دينية وتاريخية وغـــيرها ، تتغنى بها الطبقات فى مختلف الاعمال ، سيما العامة . لكل عمل وعيد دينى وغيره كالاعراس أغنية وأغانى يهزج بها العاملون والمحتفلون لاذكاء النشاط والفـــرح فى النفوس . واذا كنـت فى المـدينة ودخلت الدور وجدت فى أغلبها العامـــلات فى الأنـــوال وأشغالهن المنزلية يترنمن بالاغانى ، وفى الغابة تتعالى من أغلب البساتين أغانى الفلاحين الشجية . ان الزمـان كثير المصائب والعقبات ، والحياة صعبة مرة فلا بد من الغناء الذى تعبر به النفوس عن أحزانها وآلامها وترفه به عن نفسها . وكان أهل ذلك العهد أقوياء الوجدان . فالغناء ضرورى لهم لا يستطيعون الصبر عنه . واذا وقـــع عرس لم تتخلله الحفلات الدينية المطربة يسمج عندهم وعند أهله فلا يعدونه عرسا . ولم تكن عندهم وسـائل اليـــوم فيسمعون غير أغانيهم فى الاذاعة والحاكى فتلهيهم عن أغانيهم ، فاعتنوا بفنهم الشعبى فاستعملوه فى أبواب التربية الدينية والوطنية ، وبلغوا به أغراضا تربوية عظـمى ، ونعموا به ، فعاشوا عمرهم بوجدان حى تحركه وتغذيه أنواع من الجمال وفى مقدمتها الغناء الطاهر الجميل فى ألحـانه ومعـانيه .

وكانت هذه الاغانى الشعبية بالبربرية والعربية الدارجة من انشاء الميزابيين والبادية ، تليق بمزاجهم ، وتوافق طبعهم القوى الجاد المـرح . وكانوا يوقنون بـأن الغناء المطرب الجميل من أقوى الوسائل للتربية الدينية والخلقية والاجتماعية . يتفتح به العقل الباطن على مصراعيه فنشحنه بما نريد ، ثم يصير عقائد راسخة تصرف الأمة فى السلوك ، فوضعوا أغانى كثيرة تربوية واحتفلوا فى معانيها وألحانها ، فتمتعوا بفـن جزائرى أصيل يترك أحسن الآثار وأطهرها فى النفوس . ويرضى الله . وهو مطرب قوى جميل يهز النفوس ويبيد احزانها ، وليس كأغانى اليوم الذاعرة المخنثة المتباكية

التي يبثها المستعمرون واعداء الاسلام في السنة المغنين والمغنيات في المشرق العربي ويقلدها المغرب ، فتسمم النفوس ، وتقتل الاخلاق القوية ، وتخلق الميوعة والوهن في الناس ، وتقتل الطرب في النفوس بالتباكي الحزين الذي يملؤك في أغلب أغانيهم ·

وكانت تونس في تلك العهود محل الغناء المغربي والاندلسي الاصيل ، يهز منشدوها ومغنوها نفوس المغرب الكبير بالاغاني المطربة الساحرة · وكانت تنفس كروب المغرب بأغانيها الشجية ، ويقبس ميزاب كثيرا من ألحانها لاناشيدهم الدينية · ودامت كذلك ترفع لواء الفن الغنائي المغربي الاصيل الى ان ضعفت في الخمسينات فقلدت الغناء الشرقي المائع الحزين ، فخسرت خسارة كبرى ، وصارت ندابة في معظم أغانيها كمصر وبلاد المشرق الاخرى ، يبكي مغنوها حزنا على الطرب الذي قتلوه في النفوس ! ليتها تعود الى فنها الاصيل الممتع البنّاء فتفوز فوزا عظيما ·

وكان ابراهيم محبا للموسيقى والغناء منذ طفولته الاولى بفضل زمانه المولع بالغناء ، وبيئة جده وجدته المملؤة بالموسيقى المعهودة في ميزاب والغناء الشعبي من كل الالوان· ولما شب وصار من طلبة المعاهد العلمية في القرارة كان من كبار المنشدين المطربين الذين يرأسون حفلات الاناشيد الدينية في الاعراس ، ولا زال على صوته الرخيم العذب في شيخوخته يهز النفوس طربا في حفلة المولد النبوي بمولدية أبي مسلم ناصر بن سالم الرواحي العماني (النور المحمدي) التي ينشدها ليلة المولد في المسجد الحاشد بالرجال والنساء ، ومولدية عبد الله عفيفي التي يترنم بها في حفلة النهار التي يقيمها طلبة معهد الحياة في داره فتمتلىء بالناس ، فتصغي اليه كل النفوس وبودها ان لا يسكت · حفظ الله عليه نعمة الصوت الجميل وادامه ·

وكانت السيدة حليمة لا تطيق فراق ابراهيم · وكان هو عظيم الحب لها · وكانت لها حجرة خاصة بها في دار جدته زغمومة يهاب دخولها الاطفال لشدة حبها للنظافة والنظام في حجرتها ، فتذود عنها الاطفال · الا ابراهيم فانه يسرع الى حجرتها اذا كانت فيها ، واذا لم يفعل تناديه ، فتتحفه بما ادخرت له من الطرف التي يهواها الاطفال : الحلاوة ، والحمص المقلي والفول المقلي ، واللوز ، والجوز والبندق ، وغيرها · وكانت لا تقع بيدها طرفة من هذه الا وتدخرها في جيبها أو حجرتها لابراهيم · وكانت جدته زغمومة كذلك تطرفه بما يقع في يدها من طرف البادية أو الشمال أو باكورة البستان ·

واذا كانت شخصية المرء تتكون فى الطفولة الاولى وهى السنون السبع الاولى ، والبيئة التى يعيش فيها اكثر فى هذا العهد هى التى تصبغه وتؤثر فى كل نواحيه ، فان السيدة زغمومة والسيدة حليمة هما اللتان قضى فى حجرهما معظم طفولته وتأثر بهما تأثرا كبيرا فى كل نواحيه · وقد حدثنى أستاذى الجليل الشيخ ابراهيم بن عمر بيوض منذ اربع سنين فى صباح يوم الاربعاء 19 ربيع الاول 1389 هـ 4 يونيه 1969 م فى داره بتاريخ طفولته كلها ، واسهب فى جدته زغمومة ومربيته حليمة فذكر لى كل ما سطرته فى هذا الباب فمادة هذا الباب كله فى طفولته وغيرها مما يتصل به من حديثه المفصل الذى سجلته بالآلة الماسكة للصوت ثم نقلته حرفيا من الشريط لم ازد شيئا من عندى الا تحليل المؤرخ واستنباطه المنطقى الصحيح وكان الشيخ يتحدث عن مربيته حليمة وجدته زغمومة ويعدد فضلهما عليه وفى وجه الوقور ، وعينيه وفى نبرات صوته علامات الحب والاجلال والاعتراف بالجميل · وفى صوته نبرة الحزن على فقده لجدته ومربيته كأنهما قد نعيتا اليه فى الحين ، فجزع لفقدهما جزعا شديدا يرحمهما الله ·

شدة عناية السيدة زَغْمُومَة بابراهيم وأثرها فيه

وكانت السيدة نَانَّة زَغْمُومَة جدة ابراهيم الاولى من أمه فى حبه ، وشدة العناية به ، والحرص على تربيته ، وغرس العقيدة الاسلامية والاخلاق الاسلامية كلها فيه كمربيته حليمة · انها معها فى رعايته وتربيته ، والتأثير فيه بكل الوسائل · وكانت تعتنى بطعامه ولباسه ومنامه وكل شؤونه ·

وكانت السيدة زغمومة فى كهولتها قد استقلت فى فراشها ، وكانت لها حجرة خاصة بها فى دارها · وكان ابراهيم ينام منذ فطامه معها فى فراشها وتغطيه بغطائها لا تهنؤ ويلذ لها النوم الا اذا كان بجانبها تسمع انفاسه وهو يغط فى نومه · وكانت حريصة كل الحرص على غرس العقيدة الدينية فيه منذ صغره · ولما وصل الرابعة واستطاع الكلام كانت تغطيه اذا نام وتربت عليه ، وتلقنه بصوت هادىء رتيب البسملة وسورة الاخلاص ، والمعوذتين ، وآية الكرسى ، والتشهد ودعاءا آخر فيرددها وعيناه يخامرها النعاس ، ويكون آخر ما يسمعه فى اليقظة صوت جدته تلقنه كلام

الله · وأول ما يستقر في عقله الباطن الذى يتفتح فى الوساد اذا خامر المرء النعاس هذه الآيات الكريمة التى تحتوى على العقيدة الاسلامية · وكانت تكرر هذا فى كل ليلة قبل ان ينام ·

وكانت أغلب الامهات الحاذقات فى ذلك العهد الموفق الصالح الحاذق يلقنن فى الفراش اطفالهن ما تلقنه السيدة زغمومة ابراهيم · لقد عرفن بالتجربة وهداية الدين ما قرره علم النفس بعد البحث الطويل ·

ومن الامهات من يلقنن الطفل بعد البسملة والسور المذكورة التشهد بألفاظ بربرية يفهمها ، ودعاء بالبربرية : هو الحمد والشكر لله على نعمه فى النهار ، والتضرع الى الله أن يحفظه فى ليله وكل عمره · وكانت والدتى رحمها الله من الحريصات على هذه التربية الدينية فى طفولتى · تغطينى لانام وتلقننى السور التى ذكرنا والتشهد، وتختم بجمل حفظنيها الاستاذ الجليل الشيخ سليمان بن حاجو رحمه الله وأنا طفل صغير وحثنى وأسرتى أن أقرأها مع حضور البال عند النوم وهى هذه :

« الله معى ، الله ناظرى ، الله حافظى ، الله شاهدى » ولا أنسى صوت أمى الحنون الرصين وهى تلقننى بكلام يصدر من الاعماق هذه الجمل فأرددها ، والنوم يخامر جفونى ، واذا استيقظت فى الصباح كان أول ما يثب الى ذهنى هذه السور التى حفظتها فى الطفولة الاولى بكثرة التكرار والاهتمام ، وتلك الجمل ، وصوت أمى الحنون رحمها الله ، مما يدل على انها باتت فى العقل الباطن تعمل عملها الراسخ الدائم فى النفس . يرحمها الله ويرحم الله الشيخ سليمان بن حاجو (1) الذى كان من أكبر من أثر فى أسرتى فأراها وسائل التربية الدينية القوية وحبب اليها العلم · يرحمه الله رحمة واسعة ·

لقد ضعفت الآن هذه الوسيلة الحكيمة لتربية الطفل تربية دينية قوية بترسيخ العقيدة فيه ، وجهل أغلب الامهات الآن هذه الطريقة التربوية المجدية · وما افلاس هذا العصر فى أخلاقه ، وبعده عن دينه الا من تركه هذه الوسائل التربوية العظمى فى الطفولة ·

(1) انظر تاريخه فى كتابنا (نهضة الجزائر الحديثة) الجزء الثانى صفحة 150 ط الجزائر 1391 ، 1971 .

دار السيد عمر بن بـابا الاولى القـديمة التى ولد فيها ابنـه
ابراهيـم بيـوض وقضى فيها جـزءا من طفولته الاولى

ان هذه الدار التى نريك بعض أجزائها هى الـدار الأولى التى اشتراها السيد عمر بن بابا وسكنها وبـدأ فيها حانوت الـدار ، وهى قديمة • ولما أيسر بنى دارين جديدتين جميلتين فى شرقها متصلتين بها فى شارع اولاد منصور وبـاع داره الأولى لصهره السيد كاسى بن بهون • ومن حسن حظنا أن لم تهدم رغم قدمها وبلاها وبقيت على حالتها الأولى فاستطعنا تصويرها • وقد بليت فصارت لا تصلح للسكن فاتخذت حظـيرة للـدواجن

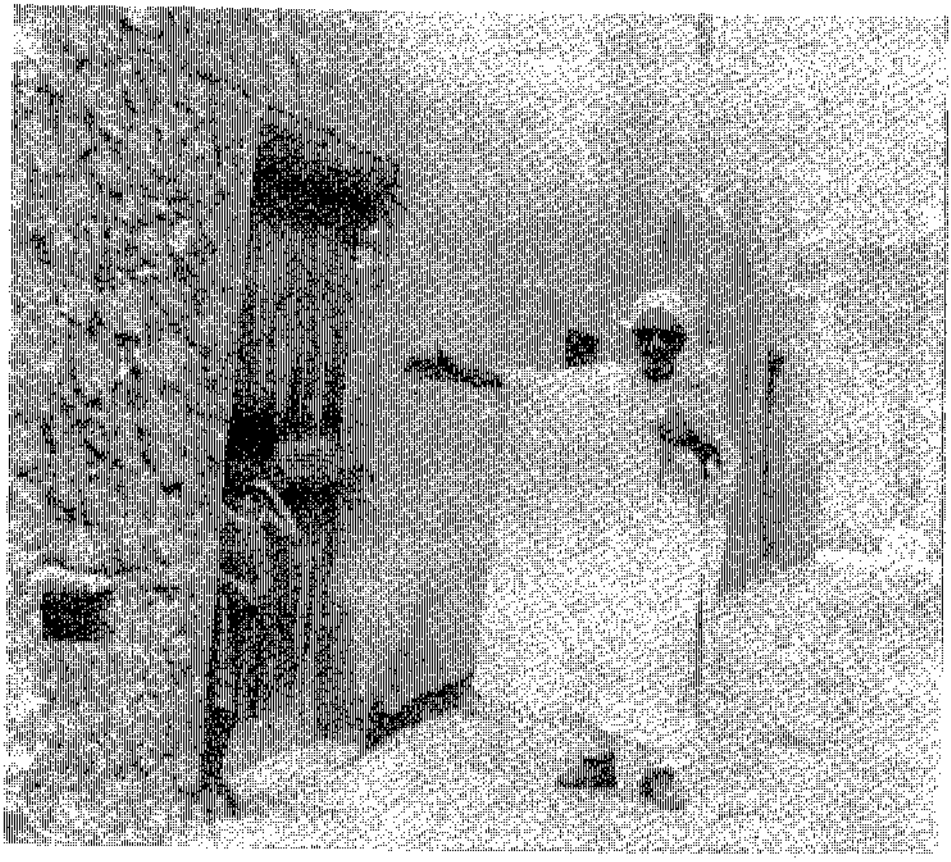

السيد بابا بن عمر بيوض شقيق الشيخ بيوض يشير بيده الى باب دار والـده الأولى فى شارع اولاد منصور • وعلى اليمين فى أول الشارع الدارأن الجديدتان اللتان بناهما والده وسـكنوهما

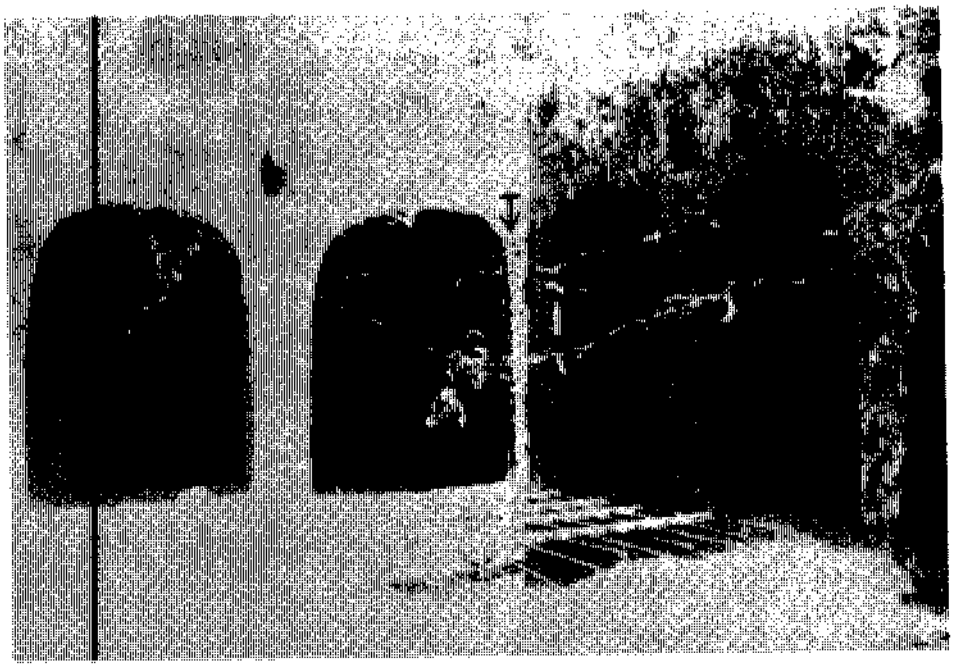

جزء من الطابق الثانى للدار التى ولد فيها ابراهيم

السيد بابا بيوض يشير الى السمارية التى ولد تحتها ابراهيم فى الطابق الثانى وقد أشرنا الى مكان ميلاده بسهم وهى وراء السمارية التى أشرنا اليها بسهم فى الصورة العليا للطابق الثانى

السيد بابا بيوض يشير بيده الى الحجرة التى تنام فيها والدته وهى أول مكـان نام فيه ابراهيم بعد ميلاده . والحجرة وراء القوس الأيسر الاخير فى الطابـق الثانى فى غرب السارية التى ولـد تحتها ابراهيم فى القسـم المسقف من السطـح وقد أشرنـا اليها بسهـم

القسم الغربى لشارع أولاد منصور.وترى السيد بابا بيوض يشير الى باب دارهم الأولى وبجانبه حفيدته من ابنه آمنة بنت الحسن بن محمد وهى التى ظهرت فى الصور الاخرى مع جـدها

القسم الشمالى من الطابق الاول للدار الأولى التى ولـــد فيها ابراهيم وكان حانوت والدته فى الدار • وترى باب مخزن البضائع • وكان بين السارتين جـــدار قصير يفصل مستودع البضائع عن بقية وسط الدار الذى كان مجلسا واسعا للزبونات والزائـرات

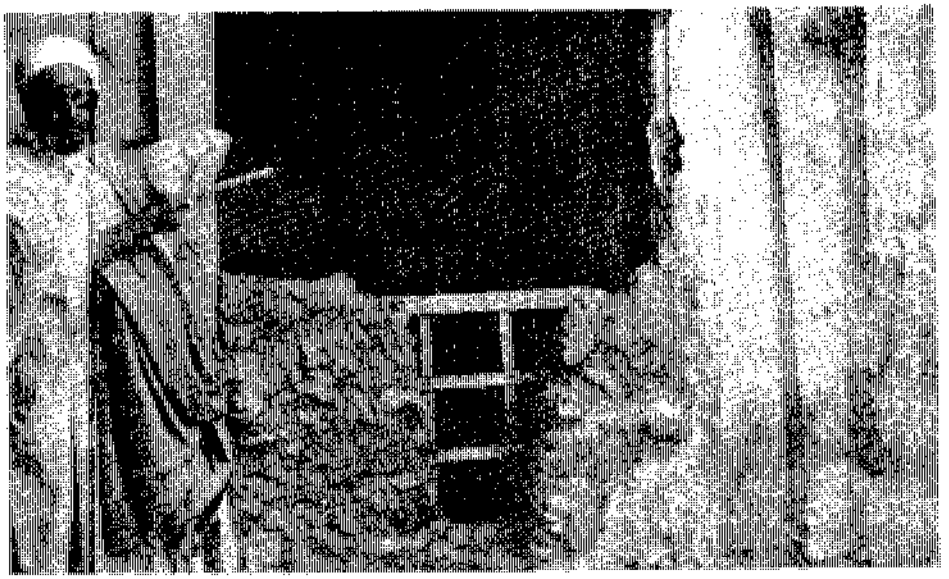

السيد بابا بيوض يشير الى القسم الغربى من الطابق الأول لدارهم الأولى وهـو مكان الحـانوت والجدار البادى أمامه حديث اتخذ لما جعلت الدار حظـيرة للـدواجن فى المدة الاخـيرة

دار جده كاسى الذى تسكنه جدته نانه زغمومة وحاضنته حليمة وهو الذى قضى فيه ابراهيم بيوض طفولته كلها مع ديار والده الثلاثة . وهو من الديار القديمة التى لا زالت فى القرارة لمتانة بنائه

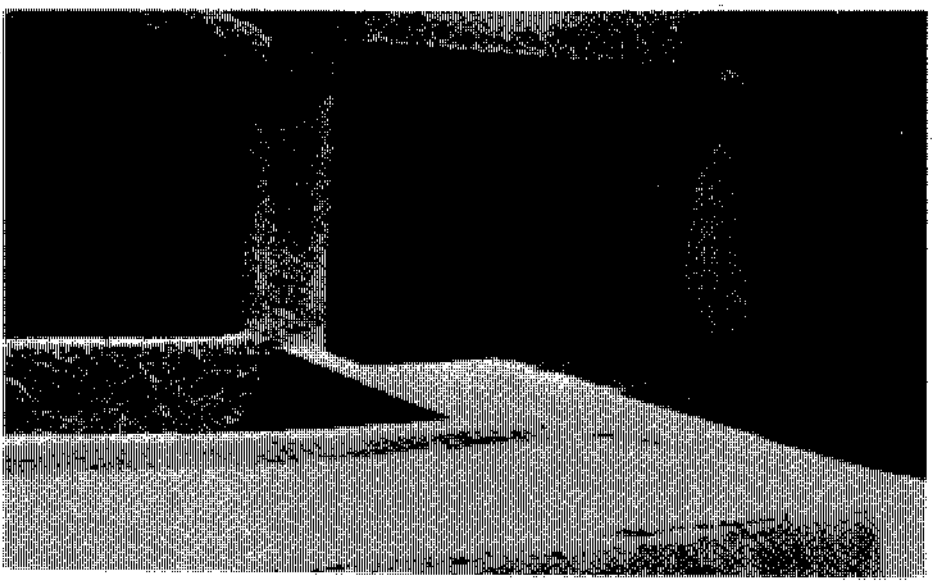

قسم من الطابق الثانى لدار الأم زغمومة وترى على اليمين السيد بابا بيوض شقيق الشيخ بيوض الكبير وقد تفضل فزار معى الدارين فأرانى آثار الشيخ فيها فصورتها لك

جزء من القسم الشرقى للطابق الثانى لدار الأم زغمومة وترى السيد بابا بيوض يشير الى حجرة جدته زغمومة التى ينام فيها ابراهيم وهى على اليمين وقد أشرنا اليها بسهم ، وعلى اليسار حجرة السيدة حليمة وبجانبهما باب الدرج التى تؤدى الى السطح الاعلى للدار

الجزء الجنوبي للطابق الأول لدار الأم زغمومة وترى السيد بابا بيوض يشير الى مجلس جده كاسي وقت طعامه تحت السارية في غير الشتاء وبجانبه مؤلف الكتاب في يده آلة التصوير

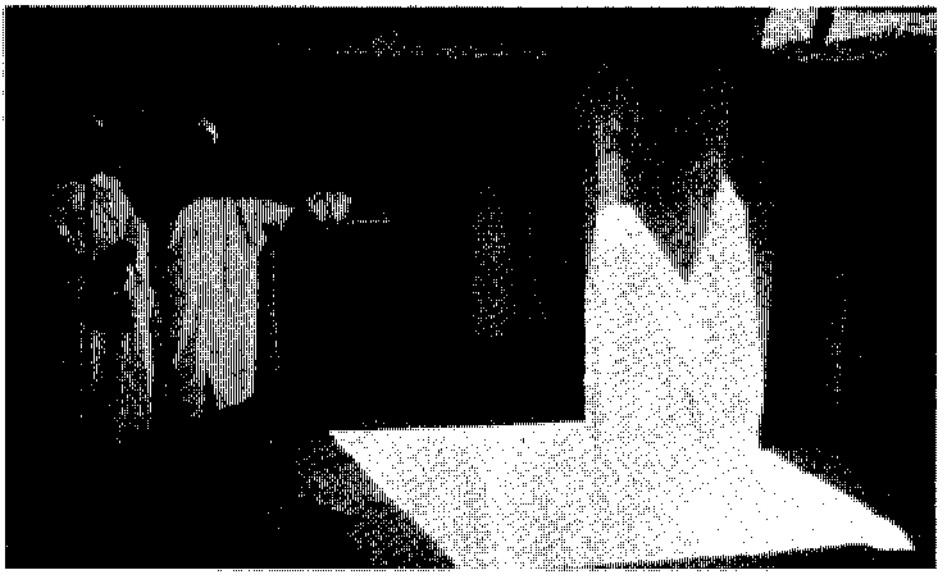

الجزء الشمالي للطابق الأول لدار الأم زغمومة وترى السيد بابة بيوض يشير بمروحته الى مجلس جده كاسي وقت طعامه في الشتاء وراء السارية وبجانبه المؤلف ٠

أخذت هذه الصور كلها في صباح الاحد 21 شعبان 1394 ــ 8 سبتامبر 1974

ودام ابراهيم ونومه واقامته أغلب النهار ، وطعامه وكل شؤونه من فطامه الى قرب البلوغ فى دار جدته زغمومة ، ثم انتقل الى دار والده · وكانت آثارها فيه عظيمة يرحمها الله ·

العمل فى البستان وأثره الحسن فى ابراهيم

كان ذهاب الاطفال الى بساتينهم فى خارج المدينة ومكوثهم فيها جل النهار كل يوم يعملون ويلعبون من أكبر وسائل التربية فى ذلك العهد ، تأخذ بها كل أسرة ، لا يرضون أن يتسكع اطفالهم فى الازقة ، فيتصل بهم الاشرار والكسالى ، فتفسد أخلاقهم ، ويتعلموا حب الراحة والكسل والبطالة فى الطفولة فيكونوا ضعفاء مخنثين· وكان المثل السائر الذى تعيه كل أم وكل أب وكل أسرة فى ذلك العهد وتأخذ به فى تربية أطفالها هذا المثل الحكيم : (من ليست له غابة يجيح أبناؤه) لان الغابة والمراد بها البستان والحقل هى التى تبنى شخصية الطفل فيتقوى عقله وخلقه وجسمه ، وتحفظه من قرناء السوء · فلذلك اتخذت كل أسرة فى ميزاب بستانا أو بساتين لا للمعاش فحسب ، ولكن لتربية الابناء وحفظهم أيضا ·

وكانت دار السيدة زغمومة دار نشاط وعمل ، وكذلك دار السيد عمر والد ابراهيم · وكانوا يغرسون حب العمل والجد والنشاط فى أولادهم من الصغر · وكان ذهاب الاطفال الى البستان كل يوم للعمل واللعب فيه من الواجب الاكيد فى ذلك العهد المبارك ·

وكان للسيد كاسى بن بهون جد ابراهيم فلاحة واسعة فى عدة أجنة كبيرة يقوم بها ابناؤه وعبيده · وكانت السيدة زغمومة تبعث أطفال الاسرة فى الصباح الى البستان وترسل ابراهيم معهم ، فيذهب الى أجنة جده واجنة والده التى يقوم بها اخوه بابا وعبد لوالده · فاذا وصل البستان فى الطفولة الاولى قبل السادسة يلعب بأقصى ما يستطيع مع اطفال الاسرة أو وحده · وكان شديد الحب للعب وللحركة والنشاط · فيتسلق النخل القصير والاشجار فيأخذ من ثمارها وزهورها وأوراقها الغضة ، فينزل ممتلىء الجيوب ، وبروعه الحقل بزروعه وزهوره ، فيقطف منه شقائق النعمان والزهور الصفراء والزرقاء والبنفسجية وغيرها ، فيجعلها طاقة يخللها بالورود الذكية التى يقطفها . وبالنعناع

الاخضر الذكى ، ويحفها بغصون الليمون الطرية التى تتفتح فيها زهور بيضاء ذكيـــة ، فتتجمع الالوان البهية ، والروائح الذكية ، فيربط الطاقة بسعفة خضراء رقيقـــة · فاذا وصل الدار أهداها الى مربيته حليمة وجدته زغمومة ، فيطربن للهديـة ، وينشقنها فى قوة فينتشين بالاريج وبحب ابراهيم وبره وجمال ذوقه فى رصف الطاقة وربطهـــا ، فيجعلها ابراهيم فى وعاء الماء فيضعها فى رف الدار أمام النول الذى تجلس فيه مربيته وجدتـــه ·

وكان ابراهيم يطارد الفراش الجميل الابيض والاحمـــر المزركش فى البستان الى ان يقبض عليه ، وينصب الفخاخ للحمام فيصطاده ، ويرميه بيده أو بمقلاعه وقد يصيبه فيسقط ، ويقلد فى اللعب الكبار فى أعمالهم · فيحفر بئرا صغيرة يتخذ لها سوارى من طين أو عيدان ، وينجر كربة النخل حتى تصير بكرة مدورة عليا ، ومستطيلة سفـــلى ، وتخيط له مربيته حليمة أو جدته زغمومة دلوا صغيرة فيدليها بخيطين على البكرتين فى بئره الذى يملؤه بالماء فينزحه حتى يجف فيملؤه· وأمام البئر حوض من طين ، وحـــوله فدادين عديدة قد غرس فيها عيدانا طويلة هى نخيله ، وفى بعضها حشيش مغروس هى زروعه ، وفى بعضها أغصان الشجر هى اشجاره ، فيسقيها جميعا ويرعاها ، ولا يرضى ان تمس بسوء من أحد ·

وكان يقلد الحراس فيتنكب بندقيته فيختفى قريبا من بستانه يحرسه · والبندقية هىعصى من جريد النخيل قدر ذراعين يشقها من أعلى نحو شبر ونصف فيضع فى أعلاها على حافة الشقين عودا على العرض يباعد بين الشقين ، فيتخيل هجوم اللصوص عـــلى بستانه فيزأر من مخبئه على اللصوص يحذرهم من المـــوت الاســود والاحمر بالبارود والرصاص ، ولكن اللصوص لا ينتهون ، فيسدد اليهم بندقيته الرهيبة ، فيضغط عـلى شقها فيطير عودها بعيدا وهو رصاصه الرهيب ، ويحدث التئام الشقـــين شقشقة هى دمدمة البندقية المدوية ، فيسرع ابراهيم من مخبئه ليرى اللصوص مجندلين كلهم تحـت نخيله وأشجاره ·

وقد تقلد جماعة الصبيان ألعاب البارود الجماعية فى ميزاب ، ولها نظام حســـن يعلم الفروسية والنظام · فيتنكبون بنادقهم من هذه العصى فيقلدون لعبة البارود ·

كان الاطفال يلعبون الالعاب التى تعدهم للعمل ، فيقلدون فى اللعب كل أعمـال كبارهم ، ليسوا كأطفال هذا اليوم المحرومين الضعفاء · إما أنهم لا يلعبون · أو يلعبون الكرة بالارجل لا يعرفون غيرها ، فتعلمهم الرمح كالبهائم بالارجل ، سيما اذا لعبوها فى الشوارع المزدحمة والازقة الضيقة فأضروا بالناس !

واذا مل ابراهيم اللعب يسرع الى أخيه بابا أو عبد والده ان كان فى بستانهم ، أو الى أحد أخواله ان كان فى بستان جده ، فيجلس بجانبه وهو يزجر الماء من البئر فيرى خروج الدلو من البئر وجرجرتها فى الحوض ، واقبال الدواب وادبارها أمام البئر فى (زقاق الجمل) كما يسمى فى ميزاب . أو يجد اخاه فى المزرعة يقتلع الحشائش الطفيلية ، أو يسقى الزروع أو النخل ، فيقف بجانبه يشاهد أعماله ، وقد يعين أخاه بما يستطيع . ولم يصل ابراهيم الثامنة من عمره حتى برع فى جل الاعمال الفلاحية وأحبها . وقام بها كلها ، فعادت عليه بالجدوى العظيمة فى جسمه وعقله وخلقه ، وصار البستان الذى يعمل اعمالا متعبة فيه حبيبا اليه كاللعب الذى يغرم به .

أثر بيئة الحكم فى ابراهيم

وكان السيد كاسى بن بهون حاكم القرارة وجد ابراهيم من أمه يزداد حبا لابراهيم كلما شب وازداد ظهور شخصيته وذكائه الوقاد وظرفه ومزاياه الاخرى . وكان اذا جلس فى دكانة الحكم فى السقيفة أمام باب حجرته الخاصة به فى داره الكبيرة دار السيدة زغمومة ، يهابه كل الصبيان وكثير من الكبار فلا يدنون من السقيفة ، الا ابراهيم فيسرع اليه حتى يجلس بجانبه فى الدكانة أو أمامه فى السقيفة ، وذلك لجراته ، وقوة غريزة الاطلاع فيه، وطبعه الاجتماعى القوى الذى جعله منذ الطفولة الاولى كثير الاهتمام بمشاكل الناس وأمراض المجتمع . فيقضى ابراهيم وقتا طويلا فى مجلس جده هادئا يسمع ويرى رغم شدة حبه للعب والحركة ، فيشاهد المشاكل والمظالم والجرائم ترفع الى جده فيفصل فيها ، ويسمع تجادل المتخاصمين أمامه ويعى كلامهم .

وكانت البادية الواسعة المحيطة بالقرارة ترجع امور الحكم فيها كلها الى القرارة . وكانت جرائم الاغتيال والضرب والسرقة وغيرها كثيرة فيها وفى القرارة فى تلك العهود العاصفة . وكان كل يوم يتقاطر المتظلمون الى حاكم القرارة فيشرحون مظالمهم ، ويؤتى باللصوص والمعتدين مقيدين فيبحثهم الحاكم السيد كاسى بدهائه فيستل الاعتراف منهم بذكائه ، أو يعرف براءتهم فيطلقهم ويدين المتهمين. وشاهد ابراهيم كثيرا من المضروبين والمقتالين يحملون الى مجلس الحكم وهم ملطخون بدمائهم السائلة . فعرف ابراهيم بما يسمع ويرى كثيرا من مشاكل الناس فى المدينة والبادية ، وفتح فكره ما شاهد ، وأورثته مظاهر الظلم فى المجروحين والمظلومين مقتا للظلم وأهله ، فنشأ ثائرا عليه . وعلمته مجالس الحكم التى يشهدها الاعتناء بمشاكل الناس ، والصلح بين المتخاصمين.

لقد استقر هذا فى عقله الباطن فكان نواة للتربية الاجتماعية القوية التى كانت له من والده ومشايخه الذين هم مثله الاعلى فى السلوك الاجتماعى الرشيد ٠

وكان وجدان حب الاصلاح والتحمس للمصلحين قد سرى الى ابراهيم من ابيه فى الطفولة الأولى وهو دون الثامنة ، فنشأ وهو يكره الفساد والمفسدين الذين يرى فظائعهم التى يأباها الطبع السليم ، تائرا على الظلم والاستبداد ٠ ان عزة النفس التى ورثها من أبويه ، وقوتها فى نفسه نشأته السعيدة فى حجر جدته زغمومة فى بيت الغنى والجاه والحكم وضاعفها نبوغه وما يشعر به من قوة الشخصية منذ صباه ، تجعله ثائرا على الظلم الذى يقع من الحكام العسكريين المستبدين واذنابهم على بلده وقومه ، سيما على المصلحين الذين هم الصفوة المختارة ، ومنهم والده ٠

وكان الصراع على أشده فى هذا العهد فى العقد الاول من هذا القرن العشرين بين المصلحين حماة الدين والنهضة ، وبين المفسدين أذناب الاستعمار التى سخرها لهدم الدين ومنع اليقظة ان تقع فى المسلمين ٠ وكان الاستعمار يسعى جاهدا لخنق النهضة العلمية والاصلاحية التى شبت فى القرارة وميزاب ، فصب أهواله على الاصلاح والمصلحين واذ جاءت أوامره الاسبوعية فى البريد بالقبض على المصلحين والتنكيل بهم ، هب أذنابه والحرس المسعور فاجتروا المصلحين من ديارهم وبساتينهم فتغص بهم سجون القرارة ، ثم يساقون مشيا على الاقدام فى الصحراء البعيدة فى كل قساوة ، والسياط والشتائم تنهال عليهم من الحرس المتعصبين المتجبرين فتغص بهم سجون الحكام العسكريين فى غرداية حيث تصب عليهم أنواع العذاب والاذلال ٠

وقد غصت سجون القرارة فى عام 1322 هـ 1905 م فى حملة من هذه الحملات المجنونة بالمصلحين وانصارهم ٠ فاعتقل سرى من سراة القرارة المصلحين مع الدواب فى الاصطبل اهانة له وتنكيلا به ٠ وكان هذا الاصطبل مجاورا لدار والده ودار جدته زغمومة ٠

وكان هذا السرى هو المصلح الهمام السيد الحاج مسعود بن يحيى ابن عمر رحمه الله ٠ وكان من أعيان المصلحين فى القرارة ٠ وكان سريا يعتز بنفسه وبحزب الاصلاح الذى ينتمى اليه ٠ وكان نظيف الثياب ، حسن البزة فيه وقار وجلال ٠ فقصد حزب الفساد اذلاله فسجنوه فى الاصطبل مع الدواب ٠ فشاهد ابراهيم هذا السرى الهمام الحسن البزة الوقور المنظر فى الاصطبل سجينا ، فتالم بذلك أشد الالم ، وازداد حقدا

على المفسدين ولؤمهم ودناءة نفوسهم · ولا يزال الشيخ بيوض يتخيل هذا المنظر المؤلم في شيخوخته لشدة أثره فيه في طفولته الاولى ·

وكان ابن السيد الحاج مسعود بن يحيى الشيخ الحاج عمر بن الحاج مسعود رحمه الله من طلبة العلم البارزين في القرارة · وكان قد حفظ القرآن واستظهره قبل البلوغ لشدة حب والده للعلم ، وحبه هوله ، وحسن نية والده فيه · لقد نذره للعلم فحقق الله آماله فيه · فلبس عمر ثوب حفاظ القرآن ، وهو حائك أبيض رهيف يلبسه العزابة وطلبة العلم الذين استظهروا القرآن مع البرنس أو مكان البرنس فوق ثيابهم في المسجد ومعاهد العلم واذا خرجوا الى المجامع · انه شعارهم في ميزاب يعرفون به · وهو جميل المنظر مهيب جليل ·

وكان عمر جميل الطلعة حسن الهيأة عليه وقار الطلبة الناجحين ، وعزة البيوتات الرفيعة · وكان يلبس حائك الطلبة الجميل وهو فتى دون البلوغ ، يكبر ابراهيم بست سنين ، فيزيد في جمال منظره · وكان يزور والده في محبسه في الاصطبل مرارا في اليوم يحمل اليه طعامه وشرابه وما يحتاجه · فيفتح له الحراس ومعهم ابراهيم · فيعجب بمنظر عمر الذي استطاع أن يستظهر القرآن مع صغر سنه ، فلبس هذا الحائك الجليل الذي تحترمه العامة والخاصة كل الاحترام ؛ ويحترمه ويمعن النظر فيه ويلازمه اذا زار أباه ، يتأمل زي الطلبة الجميل الذي يرتديه ، وفي عزة نفسه ونور العلم البادي في محياه وهيأته ·

وكان عمر على سيرة الطلبة في ذلك العهد · لا يخرج الى المجامع الا في الحائك شعار الطلبة والعزابة · وكان يزور أباه بالحائك اعتدادا بالعلم والاصلاح والدين التي ينتسب اليها ، وليقذى عيون أذناب الاستعمار الذين يسجنون اباه بمظاهر العلم والاصلاح التي يرونها ألد أعدائهم ، وليدخل السرور على والده اذا رآه في زي العلم والدين · ان السجن واهانته ووحشته شيء هين ولذيذ بجانب هذه الثمار العظيمة التي أنجبها الاصلاح من معاهده ، وبجانب ما تحقق من آماله العظمى بفضل الاصلاح ومعاهده ، فرأى ابنه من حفاظ القرآن العظيم ، ومن طلبة العلوم الدينية والعربية يبنيه أئمة الاصلاح العلماء بالتربية الرشيدة ليكون من الصالحين العاملين ·

وكان منظر عمر ووالده مما ترك آثارا راسخة في نفس ابراهيم ، فهيأته ليكون تلميذا ناجحا ، ومناضلا باسلا يتلقى أهوال الاستعمار وأذنابه الاخساء بثغر باسم ·

وكان أذناب الاستعمار يمكرون بالمصلحين وانصارهم أشد المكر فى أموالهم ووسيلة معاشهم · وقد أرسلوا عصاباتهم فى هذا العهد فى عام 1323 هـ 1905 م فاتلفوا غابات المصلحين من النخيل والاشجار ، فقطعوا عراجين نحو ألف نخلـــة وهى بسر أخضر ، وقطعوا الاشجار ، وأفسدوا الزروع ، وهدموا سوارى الآبار · وكانت أفظع حملـــة يشنها الاستعمار العسكرى واذنابه على المصلحين وانصارهم · ثم اتهموا المصلحين بهذه الفظائع التى حلت بهم وملأوا بهم سجون القرارة ، ثم سيقوا أمام الحرس المسعـــور المتعصب مشيا على الاقدام الى سجون الحاكم العسكرى فى غرداية · (I)

وثارت القرارة لهذه المناكر الواقعة بها ، وعم السخط على هذا الظلم الشنيـــع · وشاهد ابراهيم ما حل بغابات المصلحين ، ورأى الحرس يسوقون المصلحين الى السجون وشعر بوجدان الطفولة القوى بسخط المدينة فيملأ نفسه، وجعله حب الاصلاح الذى يملؤه من والده ناقما حاقدا على المفسدين المتجبرين · وكانت سنه يوم ذاك ست سنين · ولا زالت مناظر تلك الفظائع حية فى نفسه تورثه الالم الشديد وهو فى شيخوخته لشـــدة آثارها فيه فى الطفولة · وهى مما اعده للثورة على الاستعمار واذنابه ، وملأ نفسه منـــذ الطفولة بالمقت لهما ، فكان القائد العظيم الذى قاد ميزاب والقرارة فى جهادهما الطويل المرير ضد الاستعمار العسكرى الغاشم واذنابه المتجبرين المفسدين ·

وكان الحكام العسكريون الفرنسيون يفدون على القرارة مرارا كثيرة فى العام مـــن مدينة غرداية والاغواط · وكان السيد كاسى بن بهون جد ابراهيم من أمه وحاكم القرارة يولم لهم الولائم الفاخرة · وكان له محل خاص أثثه بالمناضد والكراسى ورياش آخـــر لنزول الحكام الفرنسيين اذا جاءوا القرارة · وكان أطفال الأسرة يخشـــون الدنو مـــن مجلس الحكام · وكان القائد كاسى ينوذهم ، الا ابراهيم فلجرأته وظرفه ، وقوة ذكائـــه وشدة اعجاب جده به ، وتيقنه انه سيشرفه ويشرف اسرته عند الحكـــام الفرنسيين المتعجرفين الذين يحتقرون المسلمين ؛ الا ابراهيم من صبيان الاسرة كان يقتحـم مجلس الحكام حتى يقف بين كراسيهم · فيتأملهم بعيون فيها ذكاء وقاد ، وجرأة شديدة ، وظرف قوى ومقت شديد لهؤلاء الحكام الذين عرف من أبيه وأسرته أنهم أعداء وطنه ودينـــه لا يبغون بهما الا شرا، وانهم لا يأتون الا لنصب الفخاخ وبث السموم واضطهاد المسلمين واذلالهم · وكان يتأمل هؤلاء الحكام فى قبعاتهم المزركشة المذهبة ، وثيابهم العسكريـــة

(I) أنظر تفاصيل هذه الفظائع فى باب (المعارك الرهيبة بين المصلحين والمفسدين) فى كتابنا (نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة) ص 195 من الجزء الثانى ط اولى فى الجزائر عام 1391 هـ 1971 م.

الأنيقة الزرقاء والخضراء ، وعلى أكتافهم شاراتهم العسكرية الذهبية اللون · وهم منتفخو الأوداج حمر الوجوه قد لوحتها الشمس فزادت في ظلمة عبوسها،فتبدو لابراهيم منكرة كقدور النحاس الحمراء الصدئة ، وتلمع من تحت قبعاتهم عيون الارقم تسيل بالسـم والعداوة والغطرسة ، رغم الابتسام واللطف الذى يتظاهرون به فى مجلس جده · كان ابراهيم يتأملهم ويحدق فيهم لا يهابهم · وكان الحكام العسكريون يستظرفونه وتتفتح له نفوسهم فيربتون عليه ، ويداعبونه ويحدثونه بعربية مكسرة فيعجبون بأجوبته وفصاحته وجرأته وصوته الجميل · فألف ابراهيم وجوه هؤلاء الحكام العسكريين فكان لا يهابهـم ولا يخشاهم أيام جهاده ونضاله ضدهم · وفتق فكره شهود هذه المجالس التى يـرى فيها ويسمع مناظر وأحاديث مفيدة ترقى العقل ، وتقـوى الشجاعة والثقـة بالنفس ، والخلق الاجتماعى ، وتجعل الطفل منذ الصغر يتأهب لرفع الاعباء الاجتماعية الكبرى ·

وعاشت السيدة نَانَّة زَغْمُومَة جدة ابراهيم الاولى من أمه ، ومربيته حليمة ، وجده كاسى حتى رأوا حفيدهم ابراهيم عالما جليلا، ومصلحا عظيما، وقائدا مظفرا للنهضة ينصر الدين ، ويقوض أركان المستعمرين وأذنابهم ·

حدثنى استاذى الجليل الشيخ بيوض أنه رأى جده كاسى بعد وفاته فى المنام وهو فى مسجد القرارة ، فتطلع الى المصلى الخاص بالناس وهم ينتظرون درس الشيخ بيوض الذى هو من أكبر أسباب تسابق الناس الى المسجد وعمارته ، فأشار الى المصلى الحاشد فقال : « انظر يا ولدى ابراهيم · كل هذا الخير لى كل هذا الخير لى » ·

ان الحسنات يذهبن السيئات · من يدرى لعل الله قد غفر له كثيرا من ذنوبه بما أورث لحفيده ابراهيم واحفاده الآخرين الصالحين من مواهبه العقلية الجبارة ، ودهائـه العظيم ، فصالوا به فى نصرة الدين وبناء النهضة ، وبما غمرهم به من حبه ، وخص به ابراهيم من الحب الشديد والرعاية له فى داره · كانت وفاته فى عام 1929 فى القـرارة ودفن فيها وعمره سبعة وتسعون عاما ·

اما السيدة نانة زغمومة فتوفيت فى 6 أبريل عام 1927 وعمرها تسعون عاما ، اما السيدة حليمة فانتقلت بعد وفاة السيد كاسى الى غرداية فتوفيت بها فى عـام 1348 أو 49 هـ 1930 م عن سن يناهز الثمانين ·

أثـــر أبويـه الكريمـين فيـه

كانت أم ابراهيم السيدة عائشة بنت كاسى بالغة الذكاء حازمة شديدة الحب لابنها

ابراهيم ، فصارت تراقب سيرته ونشأته ، وتعمل كل وسيلة لغرس الاخلاق العظيمة كلها فيه · وكان أبو ابراهيم السيد عمر جارا لصهره السيد كاسى ، فدار صهره الكبيرة التى تسكنها زوجته السيدة زغمومة جدة ابراهيم ومربيته ملاصقة لداره من الشمال ، يصل بينهما بابان من السطح جعلهما كدار وحدة·وكان ابراهيم يسرع الى دار والده كل يوم فيقضى وقتا طويلا من صبحه ومسائه مع أمه · وكان شديد الحب لها ، شديد الحب لدار والده التى تزخر بما يميل اليه طبعه الاجتماعى القوى · وكان الطابق الاول من دار والده حانوتا كما اسلفنا · تتولى البيع فيه أمه · وكانت تزخر بالنساء والفتيان الزبائن طول النهار · وكان يلذ لابراهيم هذا الجو النشيط الانيس فى دار والده · وكان يقف بجانب أمه وهى فى بيعها ، يصغى فى اهتمام الى أحاديثها اللطيفة مع النساء الزبونات · والنساء فى كل عهد وفى كل مكان كثيرات الكلام ، سيما مع امرأة ذكية ظريفة كالسيدة عائشة التى تستدر منهن الحديث الشهى ، وتسألهن عن أنباء الوطن ·

وكان أغلب النساء اللائى يغشين دار أم ابراهيم للشراء من الاعرابيات · فاذا اشترين جلسن فى ركن من الدار الواسعة جماعة للحديث · ومنهن من تأتى معها بصوفها ومغزلها فتجلس للغزْل والحديث والغناء · وكان ذلك العهد كما أسلفنا قوى الحيوية محبا للانشاد والغناء · وكانت هذه المجامع فى دار أم ابراهيم لا تنقطع معظم النهار · وكانت تلذ لابراهيم فيصغى باهتمام لكل ما يقال ويقع فيها ·

وكان أكثر الكلام فى حانوت أم ابراهيم بالعربية الدارجة الفصيحة · وكان أكثر كلام ابراهيم فى دار أمه بهذه العربية الدارجة الصافية الفصيحة · وكانت أمه فصيحة ذلقة اللسان تتحدث العربية الدارجة باللهجة البدوية الجميلة الفصيحة ؛ فازداد ابراهيم فصاحة فى اللسان وتمكنا فى العربية بهذه البيئة العربية التى يجدها فى دار والده ومن أمه الفصيحة · انها من أكبر اسباب ما يمتاز به من ذلاقة اللسان وبلاغة القول فى كبره ·

ازدهار الشعر التاريخى والدينى الملحون وأثره العظيم فى المجتمع وفى ابراهيم

سمى هذا الشعر ملحونا لانه بالعربية العامية التى لا تلتزم قواعد النحو · وكان النسوة الاعرابيات اللائى يجلسن للغزْل فى الدار لانفسهن أو لأم ابراهيم ، أو يدخلن

المنسج ينسجن لام ابراهيم يتغنين في عملهن بالشعر العربي الملحون الكثير الشائع في تلك العهود · وهو شعر ديني تاريخي وطني في تمجيد الدين الاسلامي العظيم والرسول والصحابة ، وفي تاريخ الرسول عليه السلام والصحابة وابطال الاسلام من الصحابة الذين شاركوا في فتوح المغرب ، كعبد الله بن جعفر ، وعقبة بن نافع وغيرهما · ان فاتحي المغرب الكبار في الحقيقة هم : عبد الله بن أبي سرح ، وأبو المهاجر دينار، وحسان ابن النعمان ، ولكن العصبية العربية وتقليد التاريخ الذي كتب تحت نظر الملوك ، فهو دعاية لهم في أكثره ،جعل الشعر الملحون يخص هؤلاء بالتمجيد ، ويسند اليهم الفضل ومعجزات البطولة في فتح المغرب ·

ومن الصحابة العظماء الذين أشاد بهم هذا الشعر العامي الملحون الامام علي بن أبي طالب رضي الله عنه · فقد نظم فيه السيد احمد بن الحرمة ملحمة تسمى (رأس الغول) شاعت في جنوب الجزائر ، وتغنى بها أهل البادية في اسمارهم · وحفظها ابراهيم · وهي طويلة · فيها أساطير بطولية غير صحيحة ولكنها تجدي الاطفال والعامة خلقيا ووجدانيا ·

ان الامام علي رضي الله عنه أهل لكل ما وصف به من فضل واكثر ، ولكن تمجيده دون الصحابة من بقايا الدعوة العبيدية الفاطمية في المغرب · تلك الدعوة التي رسخت في عهود الصنهاجيين والحماديين الموالين للفاطميين في أغلب عهودهم ، فظهرت في الادب الشعبي المغربي : في الشعر الملحون والقصة · ولا زالت ملحمة (رأس الغول) من أشهى ما يعمر به العوام سيما في البادية مجالس سمرهم · ولا زالت من أحسن ما يصغى اليه أطفالهم · انها وان تكن خيالية في كثير من فصولها ، ولكنها مملوءة بمناظر البطولة وحب الاستشهاد في سبيل الله ، وبالتضحية والفداء ·

وكان الناس ينشدون هذه القصائد التاريخية البطولية بألحان حماسية شجية تليق بمعانيها القوية · وكانت تحدث أحسن الآثار وأقواها في نفوسهم ، فتعرفهم بتاريخ كثير من الصحابة ، فيعرفون أسماءهم وبطولتهم ، وتحبب اليهم الشجاعة والجهاد في سبيل الله ، فينشئون وهم يعتقدون ان التضحية بالنفس والتفيس في سبيل الله واجب فرض على المسلم ، ويصبح هؤلاء الصحابة مثلهم الاعلى في السلوك سيما في الايثار والتضحية والبطولة ·

كانت هذه القصائد التاريخية التي يتغنى بها النساء والفتيات والرجال أيضا ويفهمون معانيها ، فتصدر من أعماقهم فيها حرارة الاعجاب ببطولة الرسول صلى الله

عليه وسلم والصحابة والحب الشديد لهم من أعظم الدروس التى أثرت فى المجتمع فى تلك العهود ، وفى الاطفال خاصة · فكان المجتمع يعرف من تاريـــخ نبيه وصحابتـه رضوان الله عليهم جميعا الشيء الكثير · وهى من أقوى الوسائل فى التربية الدينيـة والاجتماعية فى ذلك العهد ·

وكانت الاعرابيات يكثرن من التغنى بهذا الشعر فى دار أم ابراهيم · وكانت هى تحفظ الكثير من هذا الشعر وتتغنى به، فيصغىابراهيم فىنشوة كبيرة الىشعرمن الذى يفهمه ويستلذ ألحانه فيحفظه · وما وصل السادسة من عمره حتى حفظ الكثير من الشعر الذى يسمعه فصار يتغنى به مع أمه أو مع الاعرابيات ، فعاد عليه هـــذا الشعر الحماسى بالجدوى العظيمة فى خلقه ووجدانه ولسانه · لقد زاده فصاحـــة فى العربية وذلاقة فى اللسان ، وأجج جرأته وشجاعته الموروثة ، فتعلم منذ الصغـر ان يبتسـم للشدائد ، ويرحب بالاهوال فى سبيل الله ، ويتصف بقوة القلب فلا يجبن ولا يتزعزع · وعرف من هذه الملاحم من تاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابتـــه الشيء الكثير ، وحفظ أسماء كبار الصحابة وأعجب بهم ، وأحبهم حبا عظيما، وصاروا مثله العليا · وكان وهو ينشد هذه القصائد مع المنشدات ، أو يصغى اليهن يكـــاد يطير حماسا وتأثرا بمناظر البطولة التى تزجيها تلك القصائد ، انه يصغى اليهـــا بوجدان الطفل القوى المشغوف بالموسيقى والغناء ، وبطبع البطولة الموروث فى نفسه·

وكان أستاذى الجليل الشيخ بيوض يحدثنى بهذا الفصـــل من تاريخ طفولته ، وبريق الشوق والاعجاب والاعتراف بالجميل الى مجالس الشعر التـاريخى الحمـاسى يفيض من عينيه · وقال لى : « اننى مدين فى الفصاحة والشجاعة بالشيء الكثـير الى ذلك الشعر الملحون ، وهو الذى حبب الى تاريخ الرسول والصحابة فقرأت منـــه فى عهد التلمذة الباكر ما يجب » ·

وقد نبغ شعراء كثيرون فى هذا العهد فى الشعر الملحون فى الجزائر وانحـــاء المغرب الكبير ، سيما فى البوادى وفى جنوب الجزائر ، فسار شعرهم فحفظته العامة وأنشدوه وتغنوا به فى أفراحهم ، وحفظ منه ابراهيم كثيرا فأجدى عليه · ومن هؤلاء الشعراء النابهين فى هذا العهد الذى كان ابراهيم فيه طفلا ، السيد احمد بن الحرمـة والسيد عمر بن عيسى بلعيد ، وكلاهما من مدينة بريان فى ميزاب ، فرفعا راية الشعر الملحون فى جنوب الجزائر ، وترك كل منهما ديوانا يحفظ شعره · وسأورد ترجمة كل منهما فى ايجاز ونموذجا من شعره ،ا دمنا قد جعلنا الشعر الملحون وأثره فى المجتمع

فصلا خاصا فى هذا التاريخ،ليعرف القارىء حقيقة هذا الشعر ومكانته فى الفصاحة والفن الشعرى ٠

السيد احمد بن الحرمة
الشاعر الزجل فى جنوب الجزائر

هو السيد احمد بن الحرمة بن احمد بن محمد بن اسماحى ، بن أبى القاسم بن سعيد بن سعيد بن يحيى ٠ نشأ فى مدينة بريان فى وادى ميزاب فى جنوب الجزائر فتأثر بجوها الرائق وجمالها الخلاب ، فنشأ شاعرا محبا للجمال ، فصيحا فى لسانه ذكى العقل ، كما تأثر ببيئة بريان الدينية القوية ، فنشأ صالحا متمسكا بدينه شديد الغيرة عليه ٠ وقد حفظ القرآن الكريم فى بلده وفى الاغواط ، وعرف الفقه فازداد معرفة لدينه وتمسكا به ٠ وكان من أعيان بريان يحترمه أهل بلده ، وتحترمه البوادى المحيطة بميزاب ويقصده الكثيرون منها للزيارة ، وللتمتع بالجو الروحى الذى يجدونه عنده وفى بلده ، وبجمال محضره ولطف حاشيته ، ويسمعون شعره منه ويروونه ٠ ويستزيرونه فيقضى أسابيع عديدة فى مواطنهم سيما فى القرارة التى يحبها حبا شديدا ويزورها كثيرا ٠

وكان السيد احمد بن الحرمة من شيوخ الطريقة القادرية الصوفية فى جنوب الجزائر ٠ وكان أبيا معتدا بنفسه ، عفيف اليد واللسان ، قد تنزه عما تردى اليه كثير من مشايخ الطرق ٠ وكان يلازم داره ، ويمشى وحده لانفته وشدة حبه لخلوة التفكير ونظم الشعر ، سخيا مضيافا ، يعطف على الفقراء والمساكين ويكثر مجالستهم، ويرحب بهم ، ويغمرهم بكرمه ٠ قال تلميذه وراويته السيد على بن حسن مبارك فى الترجمة التى صدر بها ما سجله من شعره فصار ديوانه قال : « كان يجلس وحده وربما جالس بعض الفقراء ومغاربة السوس الاقصى وأهل اتوات لانه يقول فيهم : «ناس نية وأهل صدق ويكرمهم لوجه الله تعالى » ، حقا ما قال السيد احمد بن الحرمة٠ ان أهل السوس الاقصى لصفاء فطرتهم ، وكرم عنصرهم ، وشدة تمسكهم بالدين وبطولة نفوسهم ، هم الذين أنشأوا ثلاث دول اسلامية كبرى فى المغرب ، دولة بنى مدرار ، ودولة المرابطين ، ودولة الموحدين ٠ وكذلك أهل (اتوات) هم مثلهم فى الفضل وزكاء العرق ، وهم من أحسن أهل المغرب فى التمسك بالدين والغيرة عليه ،

وهم معدن الذكاء الوقاد ، نبغ فيهم علماء كثيرون فى العهد القديـــم · ولا زالت فى اتوات خزائن من المخطوطات النفيسة تدل على ماضيها العظيم فى العلم والدين · وقل من يعرف هذه الناحية من وطننا المغربى الكبير ·

لا زال كثير من شعر السيد احمد بن الحرمة فى صدور الحفاظ لم يدون · ولو دون لملأ ديوانا كبيرا · وما اطلعت عليه من شعره هو ما حفظه السيد على بن حســـن ودونه · وهو ثلاثون قصيدة تملأ 122 صفحة متوسطة الحجم · وفيه عدة قصائد تزيد أبياتها على الستين · وأكثر شعره موشحات يلتزم حرفا فى المصراع الاول وحرفا فى المصراع الثانى من أول القصيدة الطويلة الى آخرها · انه عمل صعب لا يستطيعــه الا الموهوبون المقتدرون فى النظم ·

وأكثر شعر ابن الحرمة فى المدائح النبوية وغيرها وفى المواعظ ، وفيه قصيدتان فى حروب الدولة العثمانية مع روسية والبلقان تحمس فيهما للدولة العلية والخلافــة الاسلامية ، ودعا لها بالنصر ، واعتـــز بها وبأبطالها فى الحروب كأدهم باشا · وهــذا دليل على ثقافته الحسنة وسعة أفقه فى التفكير ·

علاقتــه الوثيقــة بالقرارة
وصداقتــه الكبيرة لأسرة آل بهــون

لقد انتشر شعر ابن الحرمة فى جنوب الجزائر ، وفى القرارة وبواديها أكثــر · وكان من الشعراء الكثيرين الذين حفظت لهم أم ابراهيم وفتانــا ابراهيــم بيــوض · وكانت علاقة السيد احمد بن الحرمة بالقرارة وثيقة يزورها كثيرا ، وله أصدقاء كثيرون فيها فانتشر شعره فيها لذلك أيضا · وكانت أسرة آل بهون أخوال الشيـــخ بيوض تعـــده شاعرها ، لمدائحـــه لهم ، ورثائه لعميدها الســـيد ابراهيـــم بـــن بهـــون · وكانت الأسرة تستزيره فيعقدون الندوات والاسمار الكثيرة لسماع شعره الذى ينشده عليهم فى ألحان جميلة مصحوبا بالضرب على الدف · وكان السيد ابراهيم بن بهــون حاكم القرارة الذى تحدثنا عنه وأخوه السيد كاسى بن بهون جد الشيخ بيوض مـــن أمه صديقين له · وكان ينزل ضيفا عليهما فى القرارة ، فيقيم عندهما مدة طويلـــة ، وكان السيد ابراهيم بن بهون يعجب بشعره ويغمره بنواله ، ويوالى عليه جوائـــزه · ودامت علاقته وثيقة بأسرة آل بهون والقرارة الى أن توفى فى ليلة الاثنين 8 شعبـــان 1342 هـ 1924 م وهو فى العقد الثامن من عمره ·

نمـاذج من شعـــره

قال فى قصيدة يشيد ببطولة الامام على بن ابى طالب رضى الله عنه وفتكه بالكفار وتفريج الكربة عن المجاهدين المسلمين :

سَيْـــفُ اللَّهْ مَا يَحْفَى ـ:ـ ابْنْ عَمّ الْمُصْطَفَى ـ:ـ هُوَ جَدُّ الشَّرْفَـــة
زَوْجُ الزَّهْرَاء بَنْتْ الْمَدَانِى

ذَاكْ ابْقَاهْ الْمُخْتَارْ ـ:ـ دَايْرُو لاَنْفَارْ ـ:ـ شَـايَعْ فِى سَبْـــعَ ابْحَـــارْ
لِلْكُفَّارْ يَحْرَكْ (1) بَلْعَانِى

ثم يدخل فى قصيدته بعد مقدمة على نظام الموشحات المتقدم فيقول :

سِيدِى رَاقَدْ فَالِلّيلْ ، جَاهْ صَافِى الْجَبِينْ حِينْ انْقَرْ فَالْبَابْ ، نَاضَـــتْ الزَّهْرَا
قالـــو مَاكَاعْلِى أُو مَاكِي أَبِى احْسَـــينْ ارْكَبْ فِى ذَا اللَّيْلِ وَاقْصَـــدْ الْكُفْرَا
اقْصَـــدْ عَمَّـــكْ عَلْقَمَة اسْمَعْتْ اِينِينْ حَسْتُـــوا يَلْغَى كَتْفُـــوهْ فِى حَفْـــرَا
عِينُـــو سَالَتْ بِالْبْكَا اُو قَلْبُـــو حْزِينْ رَاهُـــم عَنْتُـــو دَايْرِينْ تَقْصِـــيرَا
امْسِيرَتْ رَبْعِـــينْ يَـــوْمْ فِى سَاعْتِـــينْ أَطْـــوَى رَبّ لِيهْ الأَرْضْ طَيْ ابْرَا (2)
كِي جَالِيـــهْ سِيدِى اعْلِى احْلَفْ بَالْيَمِينْ لاَ حَلِّيتَـــكْ · انْتْشُوفْ مَـــا يَجْـــرَا
الْكَافَرْ اعْنِيدْ جَـــابْ عَقْدُوا ارْزِينْ (3) الرُّهْبَـــانْ امْـــعَ الْمْلُـــوكْ وَالْـــوَزْرَا
جَاهُمْ الأَهْوَلْ بُوانْقَابْ صُـــوتُو خْشِينْ حَسْتُـــو يَلْقَا فَاجْبَـــالْ بَالنَّهْـــرَا (4)
اخْرَجْلُـــو كَافَرْ اشْبَابْ سَبَّابْ دِيـــنْ يَتْهَـــدَّدْ غَيْضَانْ شَـــارَبْ الْحَمْـــرَا
اتْلاَقُـــو نَعْتْ اسْبَـــاعْ مْـــزَايْمِـــينْ اَعْـلَى الْبِيتَـــا (5) حَاقْـدِينْ بَاعْقِيرَا ؟

جَاتْ الْحَمْـلاَ لِلإِمَـــامْ ـ:ـ زَلّ الْكَـــلاَمْ ـ:ـ زَبْدُو طَاحْ غَطَّى اللِّثَامْ
وَاقْصَدْ رَاسْ النَّصْرَانِى

ضَرْبُو فِى رَمْشَتْ عِينْ ـ:ـ طَاحْ يَا سَامْعِينْ ـ:ـ هُوَ وَالْعُودْ (الفرس) اثْنَيْنْ
زَلْ دُرْكْ اَكْلاَمْ الرُّهْبَانِى

الى آخر القصيدة التى صور بها قصة المجاهدين المسلمين مع أعدائهم وبطـــولة الامام على ·

(1) يحرك من الحركة الهجوم (2) ابرا الرسالة (3) جيشه رزين مدجج بالحديد (4) تـردد الجبال صداه (5) اللبـوءة

وقال فى قصيدة يشكو لؤم النفوس وفساد الزمـــان واحتلال فرانسا لوادى ميزاب فى عام 1882 :

حَسْرَاهْ يَالدُّنْيَـا ضَاقَـتْ الاَرْوَاحْ ... صَـــدُّوا ارْفَايْفِى وَابْقِيتْ أَنَايَا
عَـــادَ الزَّمَانْ يْتْقَلَّبْ كِى الاَرْيَاحْ ... الاَحْبَابْ تْتْفَـرَّقْ عَنْ جَالْ أوقِيَا
وَجْهَ الْحَبِيبْ ضَرُوكْ اتْبَاعْ ابْلاَرْبَاحْ ... يَتْحَاسْبُو عَلَى حَاجَـــة دُونِيـــا
كَانُوا اقْبِيلْ فَالدُّنْيَا نَاسْ امْلاَحْ ... رَحْلُـــوا اغْـــدَاوْ خَلُّوهَا مَحْكِيَا

الى آخر القصيدة التى يصف فيها الزمان الفاسـد والاستعمار المتسلط ويتذمر فيها من لؤم النفوس · وهذه القصيدة فى أربعين بيتا ·

لنكتف بهذين النموذجين اللذين اخترتهما لك من قصيدتين من شعر السيد احمد بن الحرمة الذى انتشر فى البادية لترى أسلوبه ومعانيه ولغته المغربية الدارجة · فهيا بنا الى شاعر آخر يروقك بأسلوبه وروحه ومعانيه هو الشاعر المصلح الثائر المـــؤرخ الاديب السيد عمر بن عيسى بلعيد ·

السيد عمر بن عيسى بَلْعِيـدْ
الشاعـر المصلح والأديب المؤرخ الثـائر

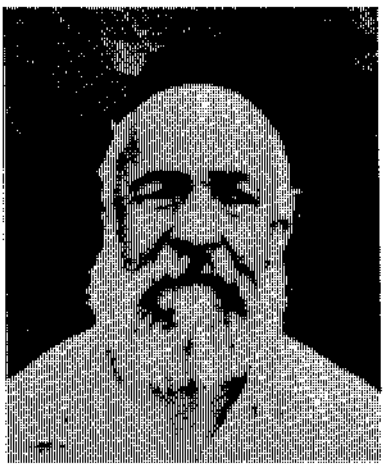

ولد السيد عمر بن عيسى بلعيد فى مدينة بريان حوالى سنـة 1880 م · أو قبلها بقليل فنشأ بها · وأورثته بجمالها وجوها الساحر حب الجمال فهام به فى كل مظاهره

الحسية والمعنوية · ولما وصل سن التعلم دخل الكُتّاب فختم القـــرآن الكريم وبرع فى القراءة والكتابة ، فقرأ كثيرا من الكتب فتحت فكره وحببت اليه الفصاحة · ورحـــل الى بنى يسقن فى العقد الاول من هذا القرن العشرين المسيحى فحضر دروس قطـــب الائمة الشيخ الحاج امحمد اطفيش فى معهده وصار من تلاميذه ، فتعلم الفقه وشدا من العلوم العربية · وكان شديد الحب للعلم ، ذكى العقل ، يتمنى أن يكون من كبار العلماء ليصلح بلده وينقذه من الجهالة ، ولكن فقره وزهد أهل بلده فى العلم فى ذلك العـــهد ، اختصر مدته فى طلب العلم ، فلم يكد يجد حلاوته حتى صرف عنه الى طلـــب المعاش · ولو استمر فى العلم لكان عالما وأديبا فذا ومؤلفا كبيرا ·

وكان السيد عمر شديد الحب للعلم والعلماء ، فلازم الشيخ الحاج الناصر كروش (I) لما استقر فى بريان فانتفع بمجالسته وازداد علما منه ، وامتـــلأ بروحه فكان مصلحا كبيرا مثله ، ينكر البدع التى أقحمت فى الدين وشلت العقول ، والخمول والاستخذاء للاستعمار وأذنابهم المفسدين · فكان داعية كبيرا فى بلـــده للعلم والنهضة ، يحارب المفاسد الاجتماعية والخلقية بكل الوسائل · وعرف فى نفسه الاقتدار فى الشعر · ولما كانت العربية الفصحى لا يفهمها زمانه ، وكان هو قصير الباع فيها ، ورأى غرام زمانه بالشعر الملحـــون وشدة تأثرهم به ، واقتياد الطرقيين الخرافيين للعامة به ، عزم أن يجعله وسيلته فى اصلاح المجتمع ، وسلاحه الرهيب ينقض به على الفساد والجمود فى بلده · فنظم قصائده الاولى فى الشعر الملحـــون فظهر نبوغه من أول قصيدة ، فأقبل الناس والشباب المثقف خاصـــــة على شعره يسمعونه ويتلذذون به ، ويروونه عنـــه فيتغنون به فى مجالسهم وأفراحهم · انه يعبر عن وجدانهم ، ويصور أحلامهم ، ويطب لامراض وطنهم ، ويليق بمزاجهم ، فكان اقبالهم عليه أكثر ·

وكان شعر السيد عمر بلعيد مشرق الديباجة ، سلس الاسلوب ، حسن المعانى ، ثائرا على الفساد والظلم والجمود · وكان السيد عمر شاعرا بحق ، له وجدان قـــوى يحس الجمال فيهيم به ويدعو اليه ، ويشعر بالقبح فيثور عليه ويعمل لازالته ، وفكـــر وقاد يدرك المفاسد الاجتماعية وكل الأمراض النفسية التى تقتل الامة وتفسد الـــدين فيجاهد بدعوته وشعره لتطهير النفوس منها · وكان أغلب شعره فى هـــذه المواضيـــع الاصـــلاحية ·

(I) انظر تاريخه فى كتابنا : نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ج2 ص151 ط أولى فى الجـــزائر عام 1931 هـ ـ 1971 م

وكان السيد عمر شديد الغيرة على الدين متمسكا به ، شجاعا لا يهاب الظلمة الاقوياء ، والجامدين المتسلطين ، ينقض عليهم بقصائده فيصف كل مخازيهم ، وقد يسميهم ، لا يجمجم ولا يستتر · وكان مرحا خفيف الروح ، فكه المجالس ، لا يمل حديثه ومجالسته · وكان هادئا فى مظهره ورنة كلامه ، ولكنك اذا حدقت فى عينيه رأيت فيهما لهيب الثورة ، وبريق الاسد الهصور ، ونور الاخلاص والصفاء والادب ، والظرف ·

وكان قصير القامة ، عظيم الهامة ، نحيف البنية ، كث اللحية ، أسمر اللون سمرة خفيفة ، يمشى فى تؤدة ورزانة مشية الحكماء المتأملين ، ويتحدث فى وقار والابتسامة تعلو شفتيه ، هادىء المظهر ، ولكنه فى شعره نار تتأجج على الفساد والمفسدين · وكان متقشفا فى عيشه ، أبيا معتدا بنفسه ، لا يأكل الا من كد يمينه · وكان فلاحا فى أول عمره · ولما هاجر الى الشمال واستقر فى الجزائر العاصمة اكترى محلا صغيرا لعمله ونومه · فصار يصنع القفاف ، وهى صناعة هادئة نظيفة يستطيع معها التفكير ونظم الشعر · وقد آثرها لهذه المزايا · فدرت عليه الكفاف ·وكان صناع اليد يتقن صنع القفاف ، فاشتهرت بضاعته فى الجزائر العاصمة فوقع الاقبال الكبير عليها · وكان يعيش وحده فى بيته فى الجزائر العاصمة ، فذاق وبال العزوبة فى الشباب ، مع كثرة المغريات ، ووحشة الوحدة فى الدار ، فأنشأ فى ذلك قصيدة ، وأشار الى ذلك فى عدة قصائد · وكان شعره مرآة لحياته الخاصة ، كما كان مرآة لميزاب وبلده بريان والجزائر عامة ·

وكان السيد عمر مصلحا بأتم معنى الكلمة · ناصر كل المصلحين الذين حاولوا خلق حركة اصلاحية فى بلده بريان فى العقد الاول والثانى من هذا القرن العشرين الميلادى ، الشيخ الحاج الناصر كروش ، والشيخ محمد الطرابلسى ، والشيخ عمارة بن صالح موسى المال (I) · وكان السيد عمر بلعيد من أكبر أنصار الشيخ أبى اليقظان فى جهاده الصحافى فى الجزائر العاصمة ، يزور الشيخ فى مكتبه ويقرأ عليه قصائد الملحون القوية التى ينشئها فى الدعوة الى الاصلاح ، والذب عنه ، ومحاربة المفسدين والمستعمرين ، فيرى فيه الشيخ ابو اليقظان أكبر نصير ، ويجد شعره من أحسن الوسائل لبث فكرة الاصلاح فى العامة · وقد حدثنى الشيخ أبو اليقظان رحمه الله

(I) انظر تاريخ الشيخ عمارة بن صالح فى الجزء الاول من كتابنا (نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة) ص 378 ط اولى وتاريخ الشيخ محمد الطرابلسى فى الجزء الثانى من الكتاب ص220 طاولى

مرارا عنه وأثنى عليه وعلى شعره · ولما أنشأ أول صحيفة له (وادى ميزاب) فـــرح السيد عمر فرحا كبيرا وأنشأ فيها قصيدة ينوه بها ويذكر مزاياها · ولما عطلت حزن حزنا عظيما وأنشأ فى ذلك قصيدة ، وسنقطف لك من القصيدتين ان شاء الله ·

وكان السيد عمر من أكبر أنصار نادى الترقى فى الجزائر (I) · ولما ابتدأ الشيخ الطيب العقبى جهاده فيه كان من أكبر مؤيديه ، والملازمين لدروسه الاسبوعية ، وهـو يعرفه ويجلس معه جلسات خاصة ، ويكن له الشيخ الطيب العقبى ودا واحتراما · ولما نشأت جمعية العلماء استبشر السيد عمر فـــرأى فيها حلما من أعظم أحلامه يتحقق ، فكان من كبار مؤيديها والمعجبين بها وبأساطينها · وكنت أجلس اليـه فى كهولته فى محل عمله فى بريان ، فيحدثنى عن أساطين جمعية العلماء · انه يعرفهم لملازمته لنادى الترقى مقر الجمعية المباركة · ولما ابتدأت حركة حزب الشعب فى الجزائر راقته روحه الثورية ومناداته بالاستقلال · فكان يقرأ مناشيره وصحيفته العربية باهتمام · وكان عميد حزب الشعب السيد ابراهيم غَرَّافَة من أصدقائه الكبار ، تعاشرا مدة طويلة فى الجزائر العاصمة · وكانا متشابهين فى كثير من الخلال ·

وكان رحمه الله كثير القراءة للصحـــف والمجلات العـــربية الوطنية المصرية والتونسية وغيرها · واذا زرته فى محلـــه فى بريان أجد بجانب أكوام السعف الذى يصنعه مجلات وجرائد عربية وطنية عديدة يستعيرها من أصدقائه فيقرؤها · فيحدثنى بأهم مواضيعها ، فيأخذ واحدة منها فيقرأ على أو أقرأ أنا ما يعجب به ، فيستوقفنى فى بعض فقراتها فيعلق عليها · ونمضى وقتا طويلا فى القراءة فى محـــل عمله ، وبوده أن تستمر القراءة والمجلس الادبى الذى يكون له مع المثقفين الذين يزورونه فى محل عمله · وفى دفاتره التى تركها قصاصات كثيرة من مجلات وجرائد عربية فيها ما يروقه من نظم ونثـــر ·

وكان السيد عمر بلعيد مؤرخا بشعره · ينشىء القصائد الطويلة فى أحـــداث وطنه ، وأنشأ قصيدة طويلة فى تاريخ الدولة الرستمية لما زار أطلال (تيهرت) عـلى غرار قصيدة الشيخ أبى اليقظان فى هذه الدولة ؛ فتغنى بمجدها وعدلها وحضارتها ، وأشاد بأئمتها العادلين العظماء · وفى ديوانه كثـــير من القصايد التاريخية الطويلة المهمة · وهى وثائق تاريخية نفيسة فى تاريخ بلده بريان والجزائر ·

(I) انظر نادى الترقى واثره العظيم فى نهضة الجزائر فى الجزء الثانى من الكتاب المذكور ص 92 ط أولى

ابتدأ السيد عمر بلعيد نظم الشعر الملحون فى أول شبابه فى العقد الثانى من القرن الرابع عشر الهجرى ، أول العقد الاول من القـــرن العشرين المسيحى ، فظهر نبوغه الباكر ، وشاع شعره الجميل فى بلده بريـــان • ولما نكـــب بلده بريان ومدن ميزاب بالفيضان الذى وقع فى خريف 1319 هـ 1901 م أنشأ قصيدة جميلـة قصصية طويلة عنوانها (قصة الوديان باللوح والسودان) ذكر فيها أحداث الفيضان ومناظره وأطواره وأضراره وضحاياه البشرية • وشاعـــت فى بريان وميزاب وحفظها كثيرون وتغنوا بها •

ولما كان السيد عمر بلعيد متفقا من تـلاميذ زعيـم النهضـة الشيخ الحاج امحمد اطفيش رحمه الله ، يملأ حب الاصلاح نفسه ، ويعرف واجبه فيه • فقد انســـاق فى شعره لهذا الحب ولعقيدته الاصلاحية فكانت أكثر قصائده فى الاصلاح والدعوة اليـه والذب عنه •

وكان فى بلده وغير بلده فى مدن ميزاب طائفة من القراء ، يحفظون القرآن بغـير فهم ، ويتظاهرون بمظاهر الدين • وكانوا جامدين يكرهون النهضة ويجهدون لقتلها ، لأنها تحارب البدع التى يتمسكون بها ، وتدعو الى العلم • واذا انتشر العلـم عـــرف الناس أنهم قشور فينفضون عنهم • وكانوا اعداء ألداء للعلماء والمصلحين • وقد اتخذهم الاستعمار آلته فى محاربة الاصلاح ، وحماهم ونفخ فى نيرانهم ، فتألبوا مـــع أذناب الاستعمار من حكام المدن الميزابيين وغـــيرهم ، فوقفوا سدا منيعا فى وجه النهضـــة وأشهروا عليها الحرب الضروس • فطلع السيد عمر بلعيد عـــلى الجامدين والمفسدين والظلمة المستبدين بشعره الاصلاحى الثائـــر ، فكشف سوءاتهم ، وأراهم للعامة فى حقيقتهم ، وانقض عليهم كالصاروخ يقوض أركان الجمـــود والفساد فى بلده • فرآه هؤلاء الجامدون والحكام الظلمة وأذنابهم أعوان الاستعمار ألـد أعدائهم ، وخطرا كبيرا عليهم • فأشهر عليـه الجامدون دعاينهم التى يتظاهرون فيها بالدين وشدة التمســك به ، وجعله حاكم بلده وأذنابه المستبدون نصـــب أعينهم يسددون اليـــه السهام ، ويتربصون به الدوائر ، ولكن السيد عمر لدهائه وحكمته وحكمـــة زملائه المصلحين لا يتركون سبيلا عليهم •

وكان فى بريان طائفة من الشباب المثقف الناهض على رأسهم السيد سليمان بن الناصر حسنى والسيد عمر بلعيد • ومن هؤلاء الشباب السادة على بن سليمان قَزُّولْ والناصر بن عيسى دبوز ، ومـــوسى بن احمد قلو وعمر بن سليمان آوراغ وغـيرهم •

وكانوا يسمرون كـــل ليلـــة فى منزل أحدهم ، فيقرءون الصحف الوطنية ويتداولون فى شئون الوطن · واذا تقدم الليل ونامت المدينة خـرجوا لحراستها · فيتجولون فى الازقة وحول المدينة · وقد اصطدموا مرارا بعصابات اللصوص فقبضوا عليهم · وقد أراد السيد عمر بلعيد وصحبه الاتصـــال بالجمهور لينشروا فيهم عقيدتهم الاصلاحية ويطبوا لأمراضهم ، فانشئوا منهم جماعة لقراءة الاناشيد والقصائد فى الأعراس بألحان أندلسية وعصرية شجية ، ونظموا فرقتهم أحسن تنظيم · وكانت قصائد السيد عمر بلعيد يخلل بها الحفلات ويطرزها بها · وكان ينشئها فى الاعيـــاد الدينية والاحداث الوطنية ، فيقرؤها على الجمهور جديدة بصوته المطرب الجميل ، وفى ألحان جميلة مؤثرة ، فتدلـــه على أمراضه ودوائها ، وينهال فيها السيد عمـــر على الجامدين والمستبدين ، والمتعصبين الأنانيين · فتقبل العامة على قصائد السيد عمر الاجتماعية تصغى اليها فى نشوة وتأثر ، فيحفظها الناس ، وتشيع فى المدينة · فوقع الاقبال على حفلات السيد عمر وصحبه ، فكانت دار العرس على سعتها تغص بالمزدحمين ، والسطح يكتض بالنساء والفتيات ، ينتظرون قصائد السيد عمر بلعيد ، وينتشون بحفلة الاناشيد التى تصدح بها فرقته · وكان السيد عمر بلعـــيد هو رئيس فرقة الاناشيد · وكان من أحسن الناس صوتا ، يطرب بصوته الحنون القوى الذى يتأجج فيه وجدانه كل من يسمعه · وأحس القراء الجامدون وحاكم البلد المستبد وحاشيته أذناب الاستعمار المتغطرسون صروحهم تتداعى بمعاول السيد عمر بلعيد وصحبه · وكانت قصائده صواريخ مدمرة تنقض عليهم ، فعزموا على خنق هذه النهضة الناشئة فى البلد بالقضاء على رؤسائها ، فضاعفوا حربهم وايذاءهم للسيد عمر بلعيد وصحبه المصلحين فشددوا عليهم الخناق ، وأثاروا عليهم الدهماء الجامدة ، واستهدفهم حاكم البلد وعزم فيهم على شر كبير · فأيقن السيد عمر وصحبه أن بلدهم بريان لم يستعد بعد للاصلاح الذى يريدونه ، فاكتفـوا بسقى بذور الاصلاح التى بذرها فى بلدهم الشيخ الحاج امحمد اطفيش وتلاميذه العلماء، فنمت تلك البذور فانشقت عنها الارض · وكان انشقاقها صدوعا عميقة دامية أحـس بها الاستعمار والجامدون فى رءوسهم · فرأوا أن يتركوا للزمان مهلته ليفعل فعله فى النفوس · فهاجر السيد عمر بلعيد قبيل الحـرب العالمية الاولى الى الجـزائر العاصمة ، وأقام فيها نحو عشرين عاما متصلة لم يزر خلالها بلـــده · واستمر فى العاصمة فى قصائده ينشؤها فى أحداث بلده وأحداث وطنه الواسع الجزائر · وكان يلتقى بزملائه وغيرهم من أبناء الجنوب فيعقدون العزم على انشاء جمعية خيرية قوية فى بلدهم تصلحه وتقضى على العصبية القبلية ، وعلى الظلم والاستبداد ، وعلى الجهل والفساد ، فتم مـا أراده السيد عمر وصحبه ، فنشأت الجمعية الخـــيرية المباركة فى آخر العشرينات ،

7

واشتد ساعدها فى أول الثلاثينات ، فاشتدت معاركها ضـــد الاستعمار والجمـــود والعصبية ، فرأى السيد عمر أوار المعارك فأسرع من العاصمة فاستقر فى بلده فى أول الثلاثينات ، فانضم الى صحبه المصلحين ينصرهم برأيـه وشعـره ، ويـــؤرخ لاحداثهم ومعاركهم بقصائده ، ويزيد لحماسهم تأججا بروحه الثائرة التى تغشاهم ٠

وكانت الجمعية الخيرية تحترم السيد عمر وتراه من ادارتها ٠ وكانـوا يستدعونه الى جلسات التدبير المهمة ٠ وكان والدى يبعثنى اليه كثـيرا لأخبره بجلسات الجمعية السرية ومكانها ٠ واستمر فى تأييد الاصلاح بكل وسائله ٠ وقرت عينه فى آخر عمره بانتشار الاصلاح فى بلده وفى مدن ميزاب وأنحاء الجزائر ، وشـــاهد صروح الجهالـة والجمود والاستبداد تتداعى ، ورأى نيران الثورة العارمة تتأجج بها عيون الجـــزائر المحمرة ٠ ووافاه المنون فى أول الاربعينات وهو فى شيخوخته على حمـــاس الشباب للاصلاح والنهضة ٠ فبكاه المصلحون ، وترك فراغا كبيرا فى نفوس عارفى فضلـــه ٠ وبقى أغلب ما قال من الشعر فى ديوان كبير ٠ لعل الله يعيننى فأوفى لشاعر الجنوب والجزائر حقه فأنشر منه كل ماله صلة بالتاريخ والاصلاح ٠

ومن عناية السيد عمر بلعيد بالتاريخ أن ألف كتابا مهما فى تاريخ بلده بريان بالعربية الفصحى ٠ ذكر فيه أهم الأحداث الواقعة فى وطنه فى العقد التاسع والعاشر من القرن التاسع عشر المسيحى الى آخر الثلاثينات من هذا القرن ٠ واليك نماذج من شعره فانه يمثل الشعر الملحون الذى ازدهر فى هذا العهد فتأثر به ابراهيم بيـوض وكان من أسباب فصاحته العظمى ، تلك الفصاحة التى هى من أبـرز صفاته ، ومـــن خصائصه التى تميزه ٠ وليس خروجا عن موضوع تاريخ الشيخ بيـوض اذا حدثتـــك عن بعض الشعراء الجزائريين فى اللغة الدارجة ، وهذا الشعر العامى الفصيح أيـــام طفولتـــه ٠

نمـاذج من شعـــره

قال فى الفيضان الذى أصاب بلده بريان فى خريف عام 1319 هـ سبتامبر 1901 فأغرق البساتين وما فيها ، ومات فيه غرقا ثمانية أشخاص وهو موشح طويل عدد أبياته 186 بيتا وصف به مناظر الفيضان وآثاره وصفا دقيقا واليك جزءا قليلا منها :

زبِّى جَاتْ امْـزَانُو هُوَ يَعْلَـمْ وِينْ كَـاقُو لِيَسْـقِى وِيـدَانُـو
يَسْـقِى مَـا عَطْشَانِى
جَـانَـا بَـابْـرَاقُـو هُوَ ايْرَفْرَفْ بَـيْنْ اطْبَاقُو وَ الْمَـلَاكْ صَـاقُـو
صَبَّ فِـى وِيـدَانِـى
جَـانَـا بَـرْعَـادُو هُوَ اِيقَـرْقَـعْ فِى افَّـادُو يُسْمَـع مِـن ابْعَـادُو
بِـكَثْرَتْ الَامْـزَانِى
هُـوَ جَـانَـا طَـالَـعْ مِنَ الْغَرْبْ رَعْدُو ايْزَعْزَعْ وَالِّى سَمْعُـو يَفْـزَعْ
يَمْسَـكْ الْأُذْنَـانِى
كِـى صَبَّـتْ امطَـارُو وَامْتَلَتْ مِنْـهُ اقْطَـارُو أو غَـطَّـتْ أَشْجَـارُو
مَـعَ طُـولْ اَغْصَـانِى

وقال قصيدة في خريف عام 1321 هـ 1903 م في زيارة قطب الائمة الشيخ الحاج امحمد اطفيش رحمه الله لبلدة بريان ، واستقبالها العظيم له ، وحفاوتها الكبرى به ، وما ألقى فيها من دروسه النافعة ، وترك فيها من آثاره الكبرى · وهى قصيدة تاريخية مهمة طويلة عدد ابياتها 192 بيتا اليك جزءا قليلا منها :

هَذَا الْعَامْ جَانَا شِيخِى فَرْحَـانْ وَالـلِّى اعْطَـاهْ رَبِّى لما ايعدو
هَذَا الْعَامْ جَاتْنَا سَبْـعَ وِيدَانْ حَتَّى مَـنْ الْمَـادَا انْفَرْ سَدُّو
أَرْوَاتْ الْجْنَايَنْ وَقْـتَ الرُّمَّانْ حَتَّى مِنَ الْغَـدِيرْ ابْيَارْ رَكْدُو
وَفِى غْمَامْ شَيْخِى ارْوَاتْ الاَوْطَانْ وِيدَانْ عْلَى وِيـدَانْ فِى سَعْدُو

ثم قال يصف حسن اصغاء الجماهير لدروس وعظه

يَصْغُـو لِلْقِرَايَةْ بَاقْلُـوبْ اشْغَافْ وَالشِّيخْ قَامْ يَخْطُـبْ بِالدِّين أَوَّلاً
الْسَانْ يَرْمِى وَالرُّءُوسْ اخْفَـافْ يَصْغُـولِيهْ قَالُـو نَعَـمْ وَبَلَى

وقال قصيدة فى مدح جريدة وادى ميزاب الوطنية العربية للشيخ أبى اليقظان فى عام 1347 هـ 1928 م وعدد أبيات القصيدة 74 بيتا منها :

أَنْشَـأَ لَنَـا مِنْ فِكْـرِهِ ... جَـرِيـدَةً فِيهَا الْبَيَـانْ
وَإِسْمُهَـا وَادِي مِيـزَابْ ... لأَنَّهَـا تَسْـقِي الْعَطْشَـانْ
جَـرِيـدَةٌ عِلْمِيَّـةٌ ... خاليـة من الْهَلْسَـانْ

جـريـدة سيـاسـية ... بعيـدة عـن الخسـران
قَطْـرَتُهَا بَـلَّ الثـرى ... قطـرتها فاضـت ويـدان
قطرتها تشـفي العليـل ... وكـم غليـظ القلـب لان
جـريـدة أسبـوعيـة ... ضـاء لهـا كـل مكـان

وقال قصيدة أخرى يبكي بها جريدة وادي ميـزاب لما قضى عليها المستعمرون بمساعي بعض المفسدين ، ويصف أذنـاب الاستعمار المتكالبين والمصلحين المقيدين . قال هذه القصيدة في عام 1347 هـ 1929 م . وعدد أبياتها 80 بيتا . وأنشأ قصيدة في عام 1931 في نشأة المطبعة العربية التي أنشأها الشيخ أبو اليقظان وعـدد أبياتها 67 وقد نوه فيها بالمطبعة ووصفها مستبشرا بها . وهكذا لا يقع حدث مهم للاصلاح لـه أو عليه في بلده بريان وفي الجزائر العاصمة أيام اقامته فيها الا وينشيء فيه قصيـدة ضافيـة .

وقال في الدعوة الى انشاء جمعية خيرية للتربية والتعليم والاصـلاح الاجتماعي في بلده بريان والجزائر . قالها في آخر شهر ابريل عام 1345 هـ 1927 م وعدد أبيات هذا الموشح الرباعي 91 بيتا ذكر فيه أمراض الوطن التي يجب علاجها . قال :

نَبْـغِي جَمَـاعَتِي فِي الْمَحْفَلْ ... اتْفَـكَّرْ فِي الْخَيْرْ وَاتْحَصَّلْ
وَالِّي يَنْوِي الْخَيْرْ مَا يَحْصَلْ ... صَـافِي مِنْ كُـلْ اغْيَـارْ
نَبْـغِي اجْمَـاعَتِي تَتَحَقَّـقْ ... وَاتْخَـيَّرْ الِّي يَصْـدَقْ
بِحُسْنْ الـرَّأْي إِيـوَافَـقْ ... لاَ يَبْلِينَـا بِالْعَـارْ
نَبْـغِي جَمَـاعَتِي اتـدَاوَمْ ... فِي كُـلْ جَمْعَـةْ تَتْـلاَيَمْ
تَحْـذَرْ مَـنْ كَـانْ إِنَمَّـمْ ... يَشْعَـلْ بينهم نَـارْ
نَبْـغِي اجْمَـاعَتِي تَتَنَظَّـمْ ... وَالِاتِّحَـادْ اتْـلاَزَمْ
تُـوقَفْ فِي كُـلْ امْرَاسَـمْ ... تَنْظَـرْ إِيـبِنْ وِيسَـارْ

نَبْغِي جْمَاعْتِي تَتْنَبَّـهْ لِلْمَضَـرَّاتْ تَتْـوَلَّـه
تَقْضِي بْجُودْهَا أُوتَنْـدَهْ قَبْـل السَّاهْـلَا تُوعَـارْ
نَبْغِي اجْمَاعْتِي جَمْعِيَّـةْ أَصْحَابْ الصِّـدْق وَالنِّيَّـة
إِذا جَمْعُـوا المْـَالِيَّـة فِي كُل اشْهَرْ مِقْـدَارْ

وقال موشحا طويلا سداسى الابيات عدد أبياته 93 بيتا فى جهاد طرابلس الغرب للايطاليين المغيرين ، وانتصار المجاهدين الليبيين عليهم بقيادة رئيسهم وقائدهم فى الحروب الشيخ سليمان باشا البارونى · وقد وصف نزول الايطاليين فى طرابلس والمعارك التى وقعت بينهم وبين المجاهدين · قال هذه الملحمة الطويلة التاريخية فى عام 1331 هـ 1912 م ·

وعدد القصائد التى أنشأها السيد عمر بلعيد تزيد على مائة قصيدة أكثرها طويلة · وجلها تاريخية اجتماعية ، وهى أصدق وأجلى مرآة للمجتمع الجزائرى والريانى فى بلده فى النصف الأول من هذا القرن العشرين الميلادى ، يرحمه الله على قدر غيرته العظيمة على دينه ووطنه ، وتضحياته الجسيمة ، وعلى قدر ما قاسى من الحاسدين ذوى النفوس المتعصبة الأنانية السوداء الذين خلقهم الله أصابع أثيمة تفقأ عيون الوطن الجميلة البصيرة وعيونهم··· ! ! ويتنكرون للنبوغ والفضل ويحاولون اخمادهما ، وما يخمدون الا أنفسهم لو كانوا يعقلون ·

هذه نماذج من الشعر الذى كان شائعا فى جنوب الجزائر أيام طفولة الشيخ ابراهيم بيوض ، فحفظ منه الكثير فأثر فى لسانه وخلقه ·

حب الأعرابيات لابراهيم
وأثرهن الكريم فيه

وكانت الاعرابيات اللائى يقصدن دار أم ابراهيم للشراء أو للزيارة يحببن ابراهيم حبا شديدا · انه غلام ظريف يتقد بالحيوية ، ويجدن فيه الذكاء الوقاد ، والفصاحة والجرأة والظرف·وكان يبدو كل ذلك فى محياه وعينيه البراقتين الضاحكتين، وفى جبينه الواسع الوضاح، وفى صوته العذب الجميل، وفى مرحه القوى، وفى وقوفه بينهن يتنصت الى كلامهن وغنائهن ، فأحببنه حبا شديدا · واذا جئن دار أمه ولم يجدنه يسألن عنه ، فتسرع احداهن فتأتى به فيسرع اليهن ويسرعن اليه ، فيحتضننه ويقبلنه

وهو غلام دون السادسة ، ويداعبنه ، فيعجبن بمرحه وظرفه وأجوبته التى تدل على الذكاء والجرأة . واذا تعب ابراهيم بمداعبة الزائرات أجلسنه بينهن فأخذن فى الحديث أو فى أعمال الصوف وهو يصغى الى غنائهن الذى يحفظ أكثر قصائده ، فيستفزه الطرب فينشد معهن فيمتزج صوته الرخيم الرنان بأصواتهن الجميلة فيتضاعف حسن غنائهن ، وقد يسحرهن بصوته وبراعته فى الانشاد فيسكتن فينشد وحده وهن يرجعن بعض مقاطع القصيد .

وكانت الأعرابيات القادمات من البادية يحملن اليه هداياهن من طرف البادية ، فتمد كل واحدة الى أمه هديتها . فهذه تحمل اليه جبنة طرية قد لفت فى نبات (القزاح) الأخضر العطر فيكسبها حسن الرائحة ويحفظ طراوتها ، وهذه تحمل اليه صرة من باكورة الكمء اللذيذ ، وأخرى شكوة من اللبن الصحراوى ألطرى الممتع ، وبعضهن جزة من الصوف الحسن الناعم لتصنع بها جبة لابراهيم . وكل واحدة تمد هديتها الى أمه قائلة : هذه لولدى ابراهيم . وقد يصنعن له من الحلفاء كوزا صغيرا دقيق الصنع مزخرفا بالألوان ليشرب فيه ، وطبقا صغيرا مزخرفا . وكانت أم ابراهيم تتلقى من هذه الهدايا لابراهيم الشىء الكثير . وقد يطلب ابراهيم من احداهن أن تصيد له ضبا ليلعب به ، فتأتى به فى كمها ، مربوطا بخيط فترسله أمام ابراهيم فيجرى فى الدار رافع الرأس ذا فحيح ، وأنيابه بارزة ، ومنظره يملأ قلوب الجبناء بالرعب ، فيجرى وراءه ابراهيم فيمسكه من قفاه ، فيرفعه اليه ، فيتأمل الزركشة الخضراء والصفراء التى تكسو ظهره ، والسواد الذى يجلل بطنه ، وأنيابه الحديدة البارزة ، وذنبه الطويل المعقد . فيلعب به أياما ، ثم يدفعه لمن يذبحه أو يرسله فى الغابة فيرجع الى البرية . ان غريزة الصيد الأصيلة فى النفوس تجعل الأطفال يولعون باصطياد الضباب والأرانب والحمام . وكان ابراهيم وأطفال ذلك العهد مولعين بصيد هذه الأشياء ، سيما الحمام فانهم يضعون له فخاخ السلك الحديدية ، ويرمونه بالحجارة بمقاليعهم الصغيرة ، وبأيديهم فيصيدونه ويذبحونه ، لا للقرم فان اللحم كثير فى دار ابراهيم ، ولكن لارضاء غريزة الصيد فى النفوس . وقد أهدت احدى الأعرابيات مرة لابراهيم غزالا صغيرا ففرح به فرحا عظيما ، واعتنت به والدته فأرضعته من عنزهم حتى كبر . وكان ابراهيم يصطحبه معه الى البستان فيرعى . وكان يحبه حبا شديدا ويراه أحسن ما أهدى اليه من البادية .

وكانت الأعرابيات يثرن ابراهيم للحديث فيتحدث معهن كثيرا ، فازداد بذلك طلاقة فى اللسان ، ومعرفة بالعربية الدارجة ، وحفظ فى مجالسهن الكثير من الأمثال

العربية الدارجة الحكيمة ، وقصص البطولة في البادية ، والأحاجي الطريفة ، وعرف من مجتمع البادية والحاضرة في تلك المجالس الشيء الكثير ·

ومع هذه الأعرابيات اللائي يختلط بهن ابراهيم · نساء فاضلات من الأسر الكريمة العربية التي حلت في القرارة · كن صديقات لأم ابراهيم يزرنها كثيرا ويجلسن لصوفهن في دارها وقتا طويلا ، وكن يحببن ابراهيم حبا شديدا ويقع في مجالسهن مايقع في مجالس الاعرابيات من شعر وقصص وغناء · قال الشيخ ابراهيم بيوض : « ومن هؤلاء النسوة الفاضلات الصالحات الحافظات السيدة ميرة بنت اشْوَطَّقْ· وهي امرأة صالحة شديدة التمسك بالدين ، من قبيلة الشرفة في القرارة · وكانت ذكية حافظة تحفظ جزءا من القرآن الكريم ، وحديث الرسول ، وتحفظ الكثير من الشعر الديني والتاريخي الملحون · وكانت صديقة لوالدتي ، تزورنا كثيرا وتمكث عندنا طويلا · وعنها حفظت والدتي أكثر ما حفظت من الشعر الملحون ، وهي التي دربتها على انشاء الشعر الملحون· وكانت تعرض شعرها عليها في أول الأمر » · قال الشيخ : « وكانت السيدة ميرة شديدة الحب لي · وقد أنشأت فيَّ أناشيد تتغنى بها وتشيد بآمالها وآمال أسرتي فيَّ ، وهي ترقصني وتحتضنني وأنا غلام ، كنت أحفظها فنسيتها ولم يبق في ذاكرتي الا هذا الشطر من بيت « إِعُودْ طَالَبْ بَاكْتَابُو ، وَيْصَلُّوا النَّاسْ عْلَى اعْقَابُو » قال الشيخ : وقد تحقق أملها الثاني بتولي لامامة صلاة الجمعة في القرارة ، وكنت أتعجب من قولها هذا في وأنا حينئذ فيّ بيت الحكم ، لا طالب للعلوم العربية في أسرتي وأسرة جدي من أمي · ان الله أنطقها بهذه الامنية التي تحققت والحمد لله » · ومن هؤلاء النسوة الفاضلات الحافظات السيدة فاطنة بنت الأبْعَيَّرْ ونساء كثيرات من الأسر العربية الكريمة الحالة في القرارة » ·

لقد تأثر ابراهيم بهذا الجو العربي الفصيح في حانوت أمه التي كانت في دار والده فعاد عليه بالجدوى في عقله ولسانه ، وهيأه لتسنم ذرى الخطابة ، ورفع راية البلاغة · واذا كانت فصاحته وبلاغته في دور الشباب والكهولة من أبرز صفاته ، وأعظم وسائله في خدمة الاصلاح ، فمن أسباب تلك الفصاحة وراثته ، وهذه البيئة العربية التي قضى فيها زمان طفولته كلها

وكان الشيخ بيوض يحب أمه حبا شديدا ، ويجلها ، ويعترف بجميلها العظيم عليه في كل نواحيه · لقد زودته بوراثتها وتربيتها بكل الصفات التي كونت شخصيته ثم كانت له في عهود جهاده أعظم سند ، تبث فيه الشجاعة والثبات والاقدام ، وتحمل

هموم أسرته وأعباءها فلا يعرف منها شيئا ، فتفرغ لجهاده العظيم · وسأشرح لك آثارها فيه ومساندتها له في دور الرجولة في أبواب قادمة ان شاء الله · وقد أطال الله عمرها فعاشت الى أن صار ابنها أستاذنا الجليل الشيخ بيوض في شيخوخته لأنها مصدر لطاقته العظمى في جهاده ، قد حفظه الله عليه ، وأبقاه له في كل عهود كفاحه المرير · يرحمها الله على قدر ما ربت ، وساندت ابنها في جهاده العظيم ·

آثـــار والـده فيـه

كان السيد عمر في الشخصية كما وصفنا : أبيا طموحا حازما ، معتدا بنفسه وبأسرته كل الاعتداد · وكانت آماله في ابنه ابراهيم كما ذكرنا : أن يكون من العلماء الأبطال الصالحين المصلحين ، فاعتنى بتربيته كل الاعتناء ، فكان يراقب نشأته وسلوكه في كل أحواله ، ويعرف أخباره في كل أعماله · انه عين يقظة لا تنام · فاذا رأى أقل اعوجاج فيه ينبه أمه لازالته ، وقد يتولاه هو ·

كان يغرس فيه الأخلاق الاسلامية العظيمة كلها بأسلوب عملي حكيم ، وينشؤه على الجلد والشجاعة والاعتماد على النفس · فكان يصطحبه معه الى البستان وهو صغير دون السادسة فيلعب ويكلفه من أعمال الفلاحة بكل ما يستطيع · ولما بلغ السابعة صار يأمره بالذهاب الى البستان مع أخيه الكبير السيد بابا · وكان السيد بابا حازما صارما كأبيه · فكان يأمر ابراهيم بالعمل ، ويغرس فيه الجراة والشجاعة والاعتماد على النفس ، ويعلمه كل ما يستطيع من أعمال الفلاحة · وكان اذا خرج من الكتاب أمرته أمه وأمره والده بالذهاب الى البستان والعمل فيه · وفي العطلة الأسبوعية وعطلة الأعياد يأمرونه بالذهاب الى البستان · ولما وصل البلوغ صار أبوه يكلفه أن يذهب مع أخيه بابا الى البستان في السحر في كل يوم من أيام الصيف ، فيعمل الى وقت الدراسة بعد طلوع الشمس · ان لوالده عبيدا يكفونه مؤونة أشغال الفلاحة كلها وكل الأعمال · ولكنه يريد تربية أبنائه وأن يغرس في ابراهيم كل أخلاق الرجولة ، وأكبر وسيلة لغرسها الأعمال المضنية في البستان : كسر الأرض بالفأس ، وزجر الماء ساعات كثيرة في حر الصيف الشديد ، وتسلق النخيل الطويلة ، وحمل الأثقال من البستان الى المدينة وهو يتصبب عرقا تحت عبئه الذي يحمله على عاتقه وهو منحن تحته ، فيقطع به المسافة الطويلة من البستان الى دارهم في المدينة ، فيصل مغبرا · وقد يكون ما يحمله جريدا يثير الغبار الشديد عليه ويدميه بالسلى ·

وكان السيد عمر موقنا بالفوائد التربوية العظيمة لتسلق النخلة · فكان يأمر ابراهيم منذ الصغر بتسلق النخيل الصغيرة ذات الكرب فيتمسك به فيصل أعلاها ويدخل في جريدها فيؤبرها · ولما وصل الثامنة أمره بتسلق النخيل الطويلة التى لا كرب فيها · فيقف تحت النخلة الطويلة وابراهيم يجهد فى تسلقها وقد يدركه العياء في وسطها فيتوقف فيأمره والده ببلوغ أعلاها ويهدده ، فيستأنف التسلق ويداه ورجلاه قد مجلتا والعرق يتصبب منه حتى يصل أعلاها ويدخل جريدها الملتف الشائك « وقد انزلقت رجلاى ذات مرة فى خشبة النخلة فتزحلقت منها الى حوضها فارتطمت رجلاى بالارض وقد دميت ودميت ذراعاى وصدرى فثار علىّ والدى فامرنى بمعاودة التسلق، فرجعت ودمائى تسيل الى نخلتى أتسلقها وقد نسيت أتعابى ودمائى وأوجاعى (I) » لأن روح والده القوية وما ينفخ فيه من الثقة بالنفس تملأ نفسه · فيمكث والده تحت النّخلة لا يبرح حتى يصل ابراهيم أعلاها ويدخل بين الجريد الشائك ، لا يخاف أن يسقط · واذا تزحلق لا تهمه خدوشه الدامية لأنه يريده رجلا جلدا قويا · وهذا لا يكون الا بالتعب والتعرض للأخطار ·

واذا سال وادى زقرير وامتلأت غابة القرارة ، وصارت بحرا متلاطم الأمواج · وغمرت المياه أزقة الغابة وخنادقها الكثيرة ، فصارت بركا عميقة تليق للسباحة ، يأخذ السيد عمر ابنه ابراهيم الى بستانهم فى السمار ، وهو دون السابعة فيسبح أمامه فى الزقاق العميق المغمور بالمياه ويريه حركات السباحة ، فيأمره بالسباحة ، واذا تهيب ابراهيم ربطه بحبل فى زنده فيلقى به فى الماء فيرخى الحبل ويتركه يتخبط فى الماء ، وقد يشفى على الغرق ، ولكنه يتركه يتعلم السباحة والشجاعة وضبط النفس، والاقدام على المخاوف · فتعلم ابراهيم السباحة فى الطفولة الأولى وبرع فيها وأحبها· وصار لا يرى النهر أو البحر فى وقت السباحة الا ويسبح طويلا وبوده أن لا يفارق الموج الذى يعانقه ·

وعلم السيد عمر ابنه ابراهيم السباحة فى الآبار ، وهى عملية صعبة فيها مخاطر كثيرة · وقد وصفناها فى أول هذه الأبواب· وكل ذلك ليعلمه الشجاعة وضبط النفس والاقدام على الاهوال ·

واذا وقعت حفلات البارود فى الأعراس الكبرى وغيرها · وكانت فى ذلك العهد كثيرة · تقع مرارا فى العام · فيخرج شباب كل عشيرة وكهولها جماعة فى نظام

(I) هذا ما حدثنى به استاذى الشيخ بيوض نقلته حرفيا وكل ما فى تاريخه هذا مادته منه اكتبها وأحللها باسلوبى .

حربي جميل ، وهم يحملون بنادقهم أو قرابيلاتهم فوق أكتافهم ، وقد يرددون نشيدا دينيا في سيرهم · ويقومون بألعاب البارود في ساحة المدينة الواسعة (النوادر) أو في السوق · وكان لهذه اللعبة نظامها الدقيق · وهي من الوسائل للتربية الحربية في ذلك العهد · وكان السيد عمر محبا لهذه الحفلات يشارك فيها ، ويرأس عشيرته فيها · وكان يصطحب ابنه ابراهيم اليها ، فيعطيه جراب البارود الذي تأخذ منه العشيرة لبنادقها في وقت اللعب ، فيحمله ويحرسه · وقبل الحفلة وبعدها يخرج به الى ظاهر المدينة أو بستانهم فيعطيه بندقيته فيعلمه كيف يحشوها ويطلقها ، فيتركه يحشو البندقية ويطلقها مرارا أمامه · وقد يعطيه غدارة صغيرة تحشى بالبارود ويعطيه بارودا ويأمره أن يلعب لعبة البارود أمامه أو مع أطفال الأسرة الذين يجمعهم لهذا التدريب ·

وكان ابراهيم شديد الحب لحفلات البارود لما يقع فيها من حماس ونظام وأفراح طاغية ، وطرب كبير بالمزامير والطبول وهتاف اللاعبين وأناشيدهم · وكان شعبان زمار المدينة يُرْقِصُ القرارة بألحانه الشجية وبراعته في مزماره · وتكاد الجدران ترقص والجبال تترنح اذا أرعد البارود في النوادر أو في السوق ممزوجا بالهتاف والزغاريد وشعبان الموسيقى العظيم يصدح بمزماره ، وهو في قامته المديدة في أحسن هندام ، عليه برنوسان أبيض واسود أو أحمر بني ، قد ركز ريش النعام في مقدم عمامته الرتيبة ، وحلية فضية جميلة تتدلى من طرف مزماره ، وهو يترنح بمزماره لشدة الطرب وحسن الأداء · ان ألحانه تصدر من أعماقه لغرامه بفنه وبراعته في الأداء · ومعه فرقة الطبول تضرب على ألحانه في براعة وهو يقودها · فاذا أخطأ أحدهم نبهه · ويستمر شعبان لبراعته وقوة جثمانه ساعة وأكثر في نَفَسٍ واحد لا يتوقف وهو يتنقل من لحن الى لحن وفرقته تتابعه · انه أبرع زمار في جنوب الجزائر في عهده ، ويقرب منه في البراعة يوسف رزاق في غرداية ، وحَيَّيْتَه وبلال في بريان · هؤلاء الفنانون البارعون الذين ارقصوا بلاد ميزاب ببراعتهم في حفلات البارود وغيرها · لقد كان ذلك العهد المبارك زمن الحماس والطرب والفتوة · وقد ترك في أطفاله أحسن الآثار ، وترك في ابراهيم ، فنشأ جريئا مقداما قوى القلب لا يهاب،وهذا ما قصده والده باشراكه في تلك الحفلات ·

اعتناؤه الكبير بتربيته الاجتماعية

وكان السيد عمر خيرا ذا نفس اجتماعية قوية كما بينا (I) · وكان اذا اشترى للمشايخ ولأقاربه حاجاتهم من السوق يأمر ابنه ابراهيم أن يحمل ذلك

(I) أنظر باب شخصيته في ص321من هذا الكتاب

في قفة على عاتقه الى دورهم · يستطيع أن يبعث ذلك مع الحمالين الكثيرين ، ولكنه يريد أن يعلم ابنه التواضع والبر بمشايخه وخدمة الناس · ان التربية الاجتماعية القوية لتكون بهذه الوسيلة العملية الحميدة لا بالدروس النظرية التى لا يفهمها الأطفال ·

وكان السيد عمر مضيافا · قلما تخلو داره من ضيوف عديدين للغداء أو للعشاء · وكان يأمر ابنه ابراهيم وهو دون الثامنة بخدمة الضيوف بكل ما يستطيع· ولما بلغ الحلم كان هو الذى يقوم بالخدمة فى كل شؤون الضيافة ، ووالده جالس مع ضيوفه كأنه واحد منهم لا يهتم بشىء ولا ينقصهم شىء · وكان هو الذى يفرش دار الضيوف ، ويهىء الموائد والمناديل والأوانى · ويقف على الباب فى بزة نظيفة ينتظر الضيوف فيصافحهم ويحييهم فى بشاشة ولطف كبير · وهو الذى يحمل ابريق الماء فيغسلون أيديهم قبل الطعام وبعده ، وينصب الموائد فيتحلقون حولها على الفرش الوثيرة ، والزرابى الجميلة ، فيحمل قصاع الطعام (الكسكس) الكبيرة ، ويحمل أوانى المرق فيصب لهم ، ويحمل اليهم اللبن فى وقته ويناولهم واذا لم يكن فآنية الماء البارد الزجاجية ومن الخزف المطلى المزخرف يقف بها عليهم فيمدها فى لطف وابتسام لكل شارب · وهو الذى يرفع القصاع بعد الطعام والأوانى ، ويسرع بأدوات الشاى ثم يديره عليهم · ويقوم بالخدمة فى نشاط وحبور ونشوة من أول الوليمة الى آخرها · واذا لم يكن فى دارهم يوما ضيوف كثيرون يخدمهم ويأكلون طعامهم أحس بالوحشة ورأى دارهم سمجة لارواء فيها ·

وكان والده يستبقيه بعد الطعام فى مجالس الحديث والسمر مع ضيوفه ليستفيد وكان يعلمه الجسارة وأن يسأل فى المجالس عن كل شىء لا يعرفه ، ويشارك فى الحديث فيما يعرفه ، وأن يكون واثقا بنفسه لا يتهيب ولا يعقله العجز عن الكلام ·

ولما كان ابراهيم يقوم بخدمة أستاذه الشيخ الحاج عمر بن يحيى ويقضى فى ذلك أغلب النهار ومعظم الليل سر والده بذلك سرورا كبيرا لأنه أحسن وسيلة للتربية الاجتماعية · ولولا ما يعرف الشيخ الحاج عمر من حب التضحية فى صديقه أبى ابراهيم وحرصه على غرسها بكل الوسائل فى ابنه ما جعله لخدمته · تلك الخدمة التى عادت عليه بأعظم الجدوى فى عقله وخلقه · وسنفصل فيها القول فى باب آت إن شاء الله ·

وكان السيد عمر حازما صارما حكيما عليما بالتربية الصحيحة المجدية · وكان اذا أذنب ابراهيم أو أخوه الكبير بابا ولم يجد فيهما الملام يجلدهما جلدا مبرحا بالعصا أمام أمهما · ولا تستطيع أن تتدخل وتعارض لعلمها بحزم زوجها ، ولحزمها هى ورغبتها فى تربية أبنائها ، واعتقادها أن الدار التى لا عصا فيها تدمدم فى ظهور المتمردين من الأبناء دار جاهلة خائرة لا تخلق الصلاح فى نفوس أبنائها ! انها صائغ بدون مطرقة لا يستطيع أن يصوغ الحلى النفيسة ! واذا كان أستاذنا الجليل الشيخ بيوض مثالا فى التضحية بالنفس والنفيس فى سبيل دينه وأمته ، وعلى الصلاح وكل الأخلاق الاجتماعية العظمى ، فان ذلك من والده العظيم بالوراثة والتربية ، ومن بيئته الميزابية العظمى ، ومن آثار مشايخه المربين يرحمهم الله جميعا ·

فى دكان والده فى السوق

كان ابراهيم وهو صغير دون السادسة تبعثه أمه الى والده فى السوق فيقضى وقتا طويلا فى دكانه · وكان والده يستدعيه · انه يحبه لا يستطيع أن يمر يوم لا يراه · ثم انه يريد أن يتصل به لينفخ فيه روحه ، ويأخذ أخلاقه ، ويوجهه كما يريد ·

وكان أكثر تعامل السيد عمر فى متجره فى القرارة مع الأعراب الذين يقصدون القرارة من البوادى الواسعة المتصلة بها ، سيما أولاد نائل ، وهم قوم أغنياء أصفياء أوفياء ، يكنون للقرارة وأهلها أعظم الود وتكن لهم ، وهم فصحاء ظرفاء يتكلمون العربية الدارجة بلهجة جميلة ، فمجالسهم بحلاوة الشمائل ، وعذب المنطق لا تمل · وكان حانوته يعج بهم طول النهار · وكانوا يحبون ابراهيم حبا جما · وكانوا يحملون اليه هداياهم كما تحمل الأعرابيات · واذا وجدوه فى متجر والده أسرعوا اليه فحملوه فاحتضنوه ، فيداعبونه ويدغدغونه ، ويتحدثون اليه فيجيبهم بعربية فصيحة فى لهجة بدوية جميلة كلهجتهم ، وبأجوبة سديدة تدل على الذكاء والجرأة ، وعلى الثقة بالنفس والاعتزاز بها · واذا لم يجدوه فى الدكان سألوا عنه والده ، فيرسل اليه ليأتيه · وكان ضيوف والده من البادية والمدينة لا يلذهم المجلس فى دار والده الا اذا كان معهم ابراهيم ، فيتخطفونه وهو صغير دون السادسة فيحادثونه ، وقد يسألونه فيغنيهم بصوته الشجى بما حفظ من الشعر الملحون ، وقد يطرحون عليه أحاجيهم الطريفة ليحلها ، ويطرح عليهم ما حفظ من الأحاجى ·

وكان ابراهيم لما يجد من زبائن والده ومن أصدقائه الذين يجلسون معه في دكانه من حب وظرف وأنس يلذه الذهاب الى دكان والده والبقاء فيه مدة طويلة . وكان الأعراب يجلسون أمام دكان والده جماعة فيتحدثون ويحكون أخبار البادية ويتداولون الرأي في مشاكلهم . وكانوا يجلسون ابراهيم في وسطهم ، فيسمع حديثهم ، ويصغي باهتمام الى مشاكلهم ، فعرف كثيرا من أخبار البادية ومشاكلها ، وازداد فصاحة في اللسان باختلاطه بالأعراب وحديثه معهم .

وكان السيد عمر حازما صارما سكيتا مع أسرته وأولاده ، لا يضاحكهم ولكنه يحبهم حبا جما . وهو حريص كل الحرص على تربيتهم . وكان يعمد الى الأساليب العملية في غرس كل الصفات الحميدة في أولاده . ولما كان الاختلاط بالأعراب من أكبر الوسائل للفصاحة آثر أن يختلط ابراهيم باصدقائه وزبائنه الشرفاء من الأعراب .

وكانت الدكاكين في ذلك العهد نوادي يجلس فيها مع أصحابها أصدقاؤهم فيتحدثون اذا لم يكن زبائن . وكان السيد عمر يقصده بعض أصدقائه من أعيان القرارة ومدن ميزاب المصلحين فيجلسون معه في دكانه ، فيقدم اليهم الشاي ومعه الخبز اذا كان صباحا . فيتحدثون . وكانوا يحبون ابراهيم حبا جما . فيتحدثون معه ويداعبونه . ولايلذهم الجلوس في الدكان اذا لم يجدوه فيه . وكان من هؤلاء السيد عمر بن قاسم شَرَّحْ وهو من أعيان المصلحين في مدينة العطف في ميزاب . وكان تاجرا في مسعد . وكان يحل في القرارة مرارا في العام للتجارة ولأنها طريقه الى مسعد . وكان صديقا حميما لأبي ابراهيم . وكان السيد شرح خيرا مرحا يحب الأطفال ويداعبهم . وكان كثير المداعبة لابراهيم . يمسكه فيربطه بخيط من يديه ورجليه فيعلقه في حلقة حديدية في دكان الحانوت الخشبي (كونتوار) ويتركه يتدلى وابراهيم يناوص ويحاول التخلص من رباطه ، والسيد عمر شرح يعابثه ويقول : تتهرب مني لتختفي ؟ ! أهرب الآن ان استطعت . وكان ابراهيم يحب السيد عمر شرح لشدة حبه له . ولكنه يخشى دعابة تقييده وتعليقه . ومن اصدقاء والده الملازمين له السيد الظريف المرح الفكاهي بابا الدَّلُّوْ لقبه وهو من أعيان القرارة . وكان يحتضن ابراهيم ويداعبه ويعضه لشدة الحب والحنان . وكان ابراهيم يتهرب منه . واذا أمرته أمه بالذهاب الى والده في السوق قال لها لا أذهب (الشَّرَّحْ اكتفني والدَّلُّوْ اكددني) (يعضني) ولكن حنينه الى الحانوت يتغلب عليه فيذهب اليه فيجد الدلو والشرح

وأصدقاء والده الآخرين ينتظرونه في شوق شديد · وكان لهؤلاء الأصدقاء أثر حميد في نفسه ·

وكان السيد عمر حريصا كل الحرص على التربية الاجتماعية في ابنه ابراهيم · فغرس فيه كل الأخلاق الاجتماعية منذ صغره · وكان يحضره مجالس المداولة والتفكير مع أصدقائه المصلحين في داره وحانوته · فعرف الاصلاح وأغراضه الطيبة وأهله الخيرين المخلصين فأحبهم حبا شديدا ، وصار كأبيه في شدة الحب للاصلاح والتحمس الشديد لكل قضاياه ، وعرف الفساد ووباله ، والمفسدين الذين يهدمون الدين والوطن ويعينون الاستعمار الصليبي عليهما ، فنشأ وهو يمقت الفساد مقتا شديدا ، ويرى المفسدين صلالا مسمومة تلتف على وطنه وتنفث فيه سمومها القتالة يجب محقها والقضاء عليها · وعرف من مشاكل وطنه في مجالس أبيه الشيء الكثير · وما وصل دور البلوغ حتى اكتملت تربيته الاجتماعية ، وصار من حزب الاصلاح ، ومن أعضاء والده ومشايخه المصلحين في الكفاح · وقد أجدت عليه مجالس أبيه في دارهم وفي الدكان كل الجدوى · فهي التي وضعت الأسس الصحيحة للتربية الاجتماعية التي أتمها مشايخه بعد ذلك · فلولا وراثة والده وتربيته الأولى بالوسائل الحسنة التي ذكرنا ما استطاع أساتذته أن يبلغوا به في الخلق الاجتماعي أرفع الدرجات ·

وغرس السيد عمر في ابنه ابراهيم الاباء والعزة والشمم والاعتداد بالنفس · لقد ربحت تجارته وكثرت أمواله ، فنشأ ابراهيم في عز الغنى · لقد كانت دارهم التي يسكنونها من أحسن الديار التي توجد في القرارة في ذلك العهد · بناها والده بناء حسنا عاليا ، وكانت جديدة وضيئة جميلة واسعة تامة المرافق والأثاث للأسرة والضيوف · ولبس أحسن اللباس · وكان والده يفصل له في الفصول والأعياد من أقمشة دكانه كل متين حسن من الثياب· وكان اصدقاء والده الكثيرون التجار في بلاد الشمال يهدون الى ابراهيم في الاعياد وعند قدومهم الى القرارة ثيابا كثيرة · وكان أبوه هو الذي يرعى أسرهم في غيابهم ويقضي حاجاتهم من السوق ، فعرفوا له مننه فصاروا يطرفونه وأسرته سيما ابراهيم بالهدايا الكثيرة من الثياب وغيرها · فصار ابراهيم كثير الثياب لذلك · وكان الطعام وفيرا في دارهم · وكانت دارهم من الدور القليلة التي تعرف الغداء الدسم الدائم في القيلولة في ذلك العهد · وجمهور القرارة وميزاب في ذلك العهد يطعون مرة واحدة في العشاء ، وبقية يومهم لا يعرفون الا التمر واللبن ·

وكان للسيد عمر فى القرارة عدة حقول للزراعة ونخل كثير ، وله بستانان جميلان قريبان من المدينة ومن داره مسوران حصينان • فيهما النخل والأشجار الكثيرة المثمرة ذات الزهور الأريجة فى الربيع • والظل الوارف فى الصيف ، أحد هذين البستانين فى السمار فى غرب القرارة ، والثانى فى قبلتها • وفى جنان السمار بنى دارا حسنة وكان هذان البستانان لنزهته ونزهة أسرته يخرجون اليهما كلما سئما المقام فى المدينة ، سيما فى الربيع والصيف والخريف • وكان ابراهيم شديد الحب لهما ، كثير الاعجاب بهما ، يذهب اليهما كثيرا للعمل والنزهة • فنشأ ابراهيم فى بحبوحة الغنى ، وفى التربية القوية الحسنة التى تولاه بها والده ، فكان عزيز النفس أبيا رافع الرأس زاهدا فى المال ومظاهر الترف لأنه شبع منها الى التخمة ، فلم يستطع أحد فى كبره أن يقتاده بذل الحاجة ، أو يخضعه بسطوة المال أو الحكم وكان رؤوس الفساد كلهم أغنياء حكاما أو ذوى منزلة رفيعة عند الحكام ، فهجم عليهم فى قوة ، ورآهم فى حقائقهم المنكرة ، ودس أنوفهم فى التراب ، وسحبهم كما تسحب الجيفة فى الرغام ، لأنه نشأ عزيز النفس أبيا ، لا يعبد المال ، ولا يجد له لهفة فى نفسه ، وذلك بفضل والده وتربيته ، وآثاره العظيمة فيه • يرحمه الله على قدر ما أنجب وربى •

تلك هى العوامل التى كونت الشخصية العظيمة فى زعيم النهضة أستاذنا الجليل الشيخ بيوض فى طفولته وقد عرفتها • وهى الوراثة ، والبيئة الطبيعية والاجتماعية والتربية الحسنة • ولما وصل السادسة انظم الى هذه عامل آخر قوى هو التربية والتعليم فى المدرسة.متى ابتدأ ابراهيم التعلم وعلى أى أستاذ ؟

دراسته الابتدائية

لما بلغ ابراهيم السادسة عزم والده على ادخاله الكُتاب ليحفظ كتاب الله ويستظهره ويستعد لمعاهد العلوم العربية والدينية التى يتمناها له ليحقق آماله العظمى فيه • لقد نذره للعلم ليكون عالما مصلحا • ولم يكن ابراهيم يحب العلم قبل أن يدخل الكُتّاب ويجلس أمام المعلم • لقد كان يكره العلم والكتاب وقيوده ، ويخاف الكُتّاب خوفا شديدا • لقد سمع أن فيه العصا • واذا مر على أحد الكُتاتيب المنبثة حول المسجد وفى انحاء المدينة وسمع التلاميذ يقرءون أطل خفية من عتبة الباب فيرى التلاميذ جلوسا أمام المعلم فى وقار ، وهو بينهم ، وعصاه الرهيبة أمامه ، فلربما

سمعه ينتهر بعضهم أو يجلده ، فيقشعر ابراهيم من شدة الخوف ، فيشتد هربا خوفا أن يمسك به أحد فيحشره فى الكتاب فى هذا العذاب • وكان يرق للأطفال الـــذين كتب عليهم الكتاب • انهم سجناء فى الأشغال الشاقة ، يلزمون بحفظ شىء لا يفهمونه ان تلاميذه جامدون محرومون لا يستطيعون أن يلعبوا فى ظاهر المدينة مع الرفقـــاء كل يوم ساعات فى النهار كما يفعل هو • ما أحلى اللعب والانطلاق ، وما أشد مرارة الكتاب وقيوده • ثم انهم يلزمون بلباس البياض والطاقية البيضاء ، وبحلق رؤوسهم فتكون صلعاء • منظر الشيوخ العجز المدبرين عن الدنيا ، وهيأة الجمود والتزمـــت الشديد يلزم بها المساكين فى نضارة الصبى • انه لا يستطيع أن يترك ثيابه الجميلة الثمينة الزاهية الألوان ، وبرانيس (الملف) الفخمة السوداء والبيضاء وغيرها مـن الألوان الزاهية التى لا يلبسها الا الحكـام والفرسان ، ولا يستطيع أن يهجر قلنسوته الحمراء الى الطاقية البيضاء • فيمد يده الى لمته فيجدها مسترسلة من أعلى رأسه تغطى معظمه من خلف وهى ناعمة كالحرير من كثرة الدهن والمشط وعناية أمه حليمة بهـــا عناية شديدة ، والعطر يتضوع منها • انها تاجه الذى يباهى به • واذا اعتـز الرجال بلحاهم الممشوطة فله هو لمته الطويلة الجميلة فهى جماله وما يملؤه بالفخر والاعتزاز • هل ترضى النخلة الجبارة الريانة أن ينزع جريدها الاخضر كله فتصير صلعاء ! انـــه موتها • كيف يكون منظرها ؟ لا لن يحلق لمته ولن يدخل الكُتاب • انه عذاب • كتب على اصحابه أن يكونوا مسجدين ينهضون فى السحر اذا حلى النوم لعمارته بقـراءة القرآن ، وللذهاب الى الكتاب قبل أن يستظهروا القرآن • هل يطيـق النهـوض فى السحر فى الليالى القصيرة بالخصوص من فراش جدته زغمومة الوثير ؟ وعليهـــم أن يذهبوا الى الكتاب أو المسجد فى الظهر عند اشتداد الظهيرة فى الصيف ، ويحرمـوا من نوم القيلولة فى (الدهاليس) (1) الباردة ، ويحشروا فى الكُتاب الذى يشبـــه الفرن بحرارته فى الصيف ، وهو بارد فى الشتاء • ان عملهم مرهق ، وسيرتهم عذاب ومظهرهم متزمت كتزمت أبيه الذى يهابه وتعافه نفسه • وهم أهل الآخرة يرضون من الدنيا بالكفاف • ان الكُتّاب ومعاهد العلم عذاب وحرمان يكتبه الله على الأطفال الفقراء التعساء الذين أراد لهم الشقاء • أما هو فمحظوظ وفى دار الغنى والحكـم والسطوة • فمال والده وجاهه ، وأموال جده من أمه وجاهه وسطوته تكفيه • يجب على الفقـــراء المدقعين الاذلاء أن يتعلموا أما هو فلا حاجة له الى التعلم • وماذا يزيده العلم عـلى مـا عنـــده ؟ !

---

(1) الدهليس .و (الدهليز) طابق يحفر تحـت الارض فى الدور الميزابية ويبنى احسن بناء يكون حارا فى الشتاء باردا فى الصيف .

كان ابراهيم قبل الكُتاب على هذا الخوف الشديد من الكُتاب ، وعلى هذا النفور الكبير من التعلم . وكان يسمع الثناء الكبير من أبيه وأسرته على العلم ويرى احترامهم الكبير واعظامهم وبرهم الكثير لطلبة العلم والعلماء . وكثيرا ما يرى أسرة والده وأسرا أخرى ماجدة تحتفل بالوليد الجديد ، بأن تستدعي طلبة احدى الكتاتيب فى اليوم السابع من الميلاد فيذهبوا صفا الى دار الوليد وأمامهم كبير التلاميذ وهو رئيسهم فيقرأ أحدهم فى أذن الوليد اليمنى سورة الفاتحة والاخلاص ثلاثا ويؤذن فى أذنه اليمنى أذان الصلاة ، وتكرمهم الاسرة بالطرف ، وتهدى لشيخهم صدقة لله فى هذا اليوم السعيد ويسمى أهل القرارة هذه الحفلة (آدْرِيمْ) وهي دليل على أكبار القرارة واعتزازها بالعلم وأهله . ولكن ابراهيم يقضى معظم وقته فى طفولته الأولى فى أسرة جده الحاكمة، ويرى فى أطفالهم النفور من التعليم العربى والمسجدية ، ويسمع من بعض كبارهم الهجاء له واحتقاره . وكان بعضهم يتمدح بأنه ليس فيهم طالبا ! ويقصدون أهل العلم والدين المسجديين . وكان الاغترار بسطوة الحكم وارضاء الحكم العسكرى الفرنسى الذى يحارب التعليم العربى الدينى ويرى أهله ألد أعدائه ، ويأمر أولياءه بمحاربته وتنفير الناس منه يغرس فيهم هذه العداوة للعلم والمسجدية ، فانتقلت الى صغارهم وأصيب بعدواهم ابراهيم ، فكان على ذلك النفور الذى وصفنا للعلم .

وكان ابراهيم اذا أقلق أمه بكثرة الحركة والضوضاء فى مقام يجب فيه السكون ولم تجد فيه أنواع التهديد تهدده بأنها سترسله الى الكُتّاب ، وأن الطالب (تقصد المعلم) قادم ليأخذه الى الكُتاب فيسكن . وكان أبوه يفعل ذلك لما يعرفان من شدة نفوره من الكُتاب .

ولكن ابراهيم يصل السادسة من عمره وهو سن التعلم فى ميزاب وعند كل الأمم الراقية . فاختار له والده كتاب الشيخ محمد بن الحاج يوسف العطفى لمزاياه التى سنذكرها ، وهو لتحفيظ القرآن والتربية الدينية فأمر أم ابراهيم أن تهيئه وتلبسه لباس الطلبة ، وتهيء خبزا كثيرا وتمرا يأخذه صدقة لتلاميذ الكتاب يوم بدل ابراهيم للدراسة فيه . فعرف ابراهيم عزيمة أبيه ففر الى دار جده ، وبكى وصاح واحتدم ، وكاد يتميز غيظا وحزنا ، واختفى . فذهب والده الى دار جدته زغمومة فأمره بالخروج من مخبئه ، فخرج لشدة هيبته له . انه صارم علمه الطاعة . وهو يعرف عاقبة عصيانه لوالده . انه الجلد الموجع والعقاب الشديد الذى يهون بجانبه هول الكُتاب . فخرج ابراهيم وألبسته أمه ثياب الطلبة البيضاء ، وأخذ والده بيده وهو ينتحب ويمانع ، فسحبه والده سحبا الى الكتاب ، وأدخله وهو يبكي وينتحب ويختنق بالبكاء ويرى

أنه مغبون قد حكم عليه بالسجن المظلم والأشغال الشاقة ! ولو لا شدة خوفه من والده ما دخل الكتاب · انه يفر الى حيث لا يجده أى انسان ، ويختبىء فيه ، ويفضل أن يموت جوعا فيه على دخول الكتاب والتعلم فيه · فدخل به والده كتاب الشيخ الحاج محمد بن يوسف العطفى فأجلسه أمامه ، فتغشته روح الشيخ ، وروح التلاميذ الذين يحفظون فى جد ويكتبون حوله ، وملأه روح الكُتاب ، فحدثت معجزة : وهى أن ابراهيم شرح الله صدره للعلم وملأه بحبه ، فانقلب من الدقيقة التى جلس فيها أمام الشيخ يحب العلم والمعلم والتلاميذ ، وأغرم غراما عظيما بالكُتاب ، وصارت لذته الكبرى فى التعلم ، يسرع الى الكُتاب ملهوفا منتشيا فى كل أوقاته ، لا تصرفه المغريات القوية الكثيرة التى يكون منغمسا فيها فى دار جده أو أبيه ، فيقبل فى غرام على حفظ كتاب الله ، وبوده أن لا يخرج من الكُتاب · واستجاب الله دعوات أبى ابراهيم فكان ابنه للعلم كما يريد ، فحفظ كتاب الله ونبغ فى العلم وصار من أئمة الاصلاح فى الجزائر · فما هى أحواله فى كتابه ؟ وما أثر شيخه الأول فى نفسه ؟ هذا ما سأحدثك به عزيزى القارئى فى الجزء الثانى من هذا الكتاب ان شاء الله لكى لا نظلم هذا الباب بالايجاز · والآن هيا بنا الى بطل آخر من أعلام الاصلاح فى الجزائر ، هو المجاهد الكبير المخلص الشيخ أبو اليقظان الحاج ابراهيم بن عيسى رحمه الله ·

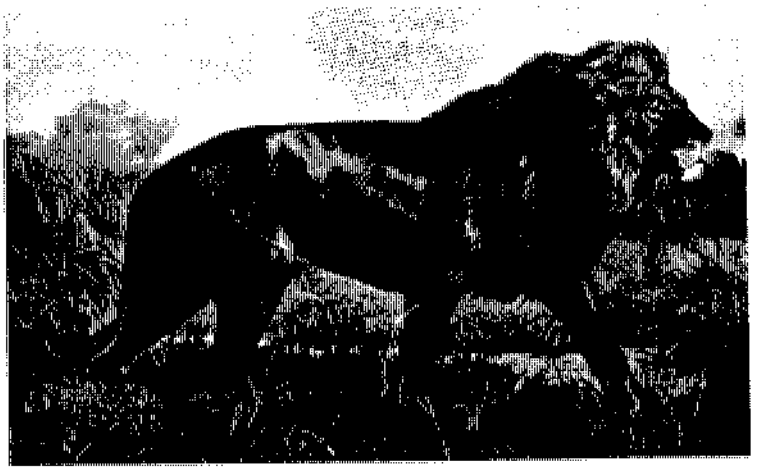

العلامة الجليل الشيخ

أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى

العلامة الجليل

الشيخ أبو اليقظان ابراهيم بن الحاج عيسى

العلامة الجليل الشيخ

أبو اليقظان ابراهيم بن عيسى

الشيخ أبو اليقظان ! هذا الرجل العظيم الذى كان مثالا فى البطولة والفداء ، والتضحية والاخلاص ، والتقوى والورع ، وكان علما للاصلاح فى الجزائر والمغرب ! هاجم أسود الاستعمار الهائجة فى عرينها فعفرها فى التراب ، ووالى صرخاته المدوية المباركة لأمته المغربية الكبرى فى جرائده الثمانية ، وفى دروس وعظه الكثيرة ، وفى شعره ومؤلفاته فازدادت يقظة وطهرا ، وغراما بالغايات المثلى ، وأعد للجزائر صفوفا من تلاميذه كانوا جند الاصلاح ، وروح الأمة ، وقدم الى دينه وأمته الاسلامية أيادى عظيمة، وذهب كما يذهب العود فى المباخر فيترك عطره، وكما يذبل العود بعد أن يملأالجو بثماره وأريجه وجماله ، ويسكت العود بعد أن يهز النفوس ، وينعش القلوب ، ويمتع الأرواح بنغماته ! ماهى العوامل التى كونته لنأخذ بها فى التربية ، ونعرفها فيكون علمنا بشخصية أعلامنا كاملا . ان التاريخ المفيد انما هو الكشف عن أسرار الحوادث ، أسبابها ونتائجها . واذا عرفنا السبب علمنا النتيجة . والعلم بالنتيجة سهل لأننا نشاهدها ، ولكن الأسباب يصعب علمها لأنها غيب لا نشاهده ، فعلينا فى التاريخ أن نكشف عن هذه الأسباب الخفية ، فان معرفتها يجدى الأمة الجدوى العظيمة وهى روح التاريخ ولبابه ، وبدونها فهو حطب يابس لا يثمر ، وتراب جاف عقيم لا يزهر ، وشىء ثقيل تمجه النفوس لأنه مضغ الحجر لا حلاوة فيه ، ولا جدوى منه . لهذا سأتبع فى تاريخ الشيخ أبى اليقظان وغيره من أعلامنا فى الشمال والجنوب طريقتى التحليلية فى تاريخ الشيخ بيوض ، فأجلو عليك نسبه الكريم ووراثته الزكية وأبين لك البيئة الطبيعية والاجتماعية التى أنشأته ، والعوامل التى تسلطت عليه فى أدوار نشأته وشبابه فأنضجت شخصيته العظيمة . وسأوجز فى البيئة الطبيعية والاجتماعية لأننى قد شرحت ذلك فى تاريخ الشيخ بيوض . وما الشيخ أبو اليقظان الا الشيخ بيوض فى البيئتين لأنهما أبناء بلد واحد ، ونشئا فى زمان واحد . واذا تقدم الشيخ أبو اليقظان ببضع سنين فان البيئة لا تتغير حتى تكون غيرها الا فى عشرات السنين .

تاريخ الشيخ أبى اليقظان رويته عنه

من حسن حظنا جميعا أن وفقنى الله فرويت عن الشيخ أبى اليقظان رحمه الله

كل ما أريد من تاريخه هو ، ومما شاهد وروى من تاريخ مشايخه ، وتاريخ ميـــزاب والجزائر والمغرب الكبير ، سيما تاريخ تونس الخضراء أيام اقامته فيها .

كانت صلتي بالشيخ أبي اليقظان وثيقة منذ أن استقررت في القرارة للتربية والتعليم في معهد الحياة في عام 1367 هـ 1948 م الى أن توفي رحمه الله في ليلة السبت 26 صفر 1393 31 مارس 1973 ، وكان يحبني حبا جما، ويسأل عن سبب غيابي. وكنت أحبه حبا عظيما ، وأجله اجلالا كبيرا ، وأراه شيخي وصديقي . ومما غرسه في أعماقي ورعه وصفاء نفسه وصراحته ، وتواضعه الذي هو نتيجة الورع التام والصفاء النفسي. وكان يعدني من أصدقائه وخاصته، فحدثني بكثير من أسراره الخاصة في الماضي والحاضر فعرفت بها من نفسه العظيمة وتاريخه الشيء الكثير . ولما أصيب بالشلل في صباح الأحد السابع من رمضان 1376 2 ابريل 1957 وفقد الحركة في جنبه الأيسر فلازم الفراش كنت أكثر زيارة له من ذي قبل ، لايناسه والاستفادة منه ، ولهذا الحب والتقدير الذي يحمله كل منا لصاحبه ، فيسأل عني ويحرص على لقائي ، فأندفع اليه مهرولا في مساء كل خميس أو صباحه فأجلس معه طويلا ، فاذا استأذنت للانصراف تمسك بي فتطول مجالسنا ، وتكثر فوائدي ، وأصدر عن كل مجلس من مجالسه بعلم كثير في تاريخه ، وازداد علما بشخصيته العظيمة وخلقه الكريم . .

وكنت قبل اصابته بالشلل أسأله عن تاريخـــه ، وتاريـــخ مشايخه ، وتاريخ القرارة وميزاب والمغرب ، وما شاهد من أحداث الوطن في الشمال والجنوب ومن عاشر من الزعماء كالشيخ سليمان باشا الباروني ، والشيخ عبد العزيز الثعالبي ، والامـير خالد ، والشيخ عبد الحميد بن باديس ، وأقطـــاب جمعية العلماء كلهم ، فيحدثني في استفاضة ، ويبوح الى بكل ما يعلم في الموضوع . فاذا كان هناك سر لا تجوز اذاعته ، قال لي : هذا تعلمه ولا تكتبه . انه ضروري لك لتمام المعرفة ، ولكن لا أقوله لسواك . وكنت أحفظ ما يحدثني به لشدة اهتمامي به ، ولكني لم أكتب منه الا مذكرات قليلـــة أجدها مبثوثة في دفاتري . ولما وقع شلله المريع الذي ملأ كل من عرف الشيخ بالهلع رأيت ذلك من النذر الكبرى ، فأسرعت اليه أعـــوده وأسليه وأطمئن عليه ، فوجدت وجهه الاحمر الجميل يزهر بالقوة والايمان ، وعينيـــه يفيضان بالعـــزيمة والاطمئنـــان والرضى بما قدر الله ، فصار هو الذي يسلينا لما رأى من جزعنا . ولما سكـــن روعي سألته أن يعيد علي تاريخه ، يحدثني به بتفصيل ، وبكل ما يحفظ من تاريخ مشايخه وغيرهم مما شاهد وروى ، يحدثني بكل ذلك على نحو يمكنني من كتابتـــه . فتواعدنا على أن يكون ذلك في العطلة الدراسية الصيفية المقبلة في مصطافه الجميـــل ، في داره

ببستانه الأنيق في (الصحن) بالقرارة · لأنه عقب اصابته بالشلل بأيـــام سافر به ابنه السيد عيسى وذووه الى الجـــزائر العاصمة للتداوى عند الاخصائيين الكبار فى مرضه ، فأقام فى المصحة وفى الجزائر أسابيع ، ثم واصل العلاج فى القرارة · وقـد أنعشته الادوية التى تعاطاها شهورا وصار يحرك رجله اليسرى ، ولكن لم يمن اللـه بالشفاء الذى يرجوه ، فلازم الفراش ، ولكن بصحة جيدة ، ونشاط فكرى حســـن ، ولسان طلق فصيح ، وذاكرة واعية قوية ·

وبدأت عطلتى الصيفية · فصممت على أن أبلـــغ مرادى · وكان الشيخ أبـــو اليقظان مثالا فى قوة العزيمة والنظام ودقة المواعيد وصدقها · فوجدته مستعدا لمـــا أريد · واتفقنا على أن يكون ذلك فى صباح كل يوم من السابعة صباحا الى التاسعـــة فى دار بستانه الذى أقام فيه الصيف والخريف · وقال هات أسئلتك مكتوبة تجـــد جوابها · فكنت قبل كل مجلس أقدم اليه قائمة الأسئلة الطويلة فأجده على استعداد· وكنا اذا بدأنا العمل لا يقبل زائرا · واذا طرق طارق أطـــل عليه من النافذة فأعتذر اليه وأرجوه أن يعود فى المساء لان صباح الشيخ للعمل · فعرف زواره نظامنا فتحاموا زيارته فى الصباح · فاتصل عملنا ثلاثة أشهر من أول يولية الى آخر سبتامبر · وكان الخميس والجمعة عطلة لنا فى هذا العمل · وربما توعك الشيخ فأعفيه اليومين والثلاثة وأكثر حتى يشفى فنستأنف العمل · وكان الشـــيخ يحدثنى بتاريخه فيتوقف فى المفاصل فأكتب ما سمعت · وكان علمـــى بتاريخه أحسن عون لى فى حفظ حديـــث الشيخ فكتبت جل ما قاله فلم يبـــق الا ما هو من التفاصيل المعلومة التى يثيرها فى الذهن أصولها التى أكتبها · وقد أرجع الى هذه التفاصيل أيضا خارج مجلس الشيـــخ فأكتبها رغم يقينى أننى لا أنساها · وكان مجلسى يستمر مع الشيخ ساعتـــين وأكثر ، وهو يحدثنى فى نشاط ونشوة وحماس لا يمل حتى أخاف عليه التعب ، فأطلب منـــه ايقاف العمل · وكان الشيخ يلذه عملى لانه ينقله الى عهود صباه وشبابه ، والى عهود جهاده الذى يستلذه ويعتز به ، رغم ما تجرع فيه من المرارة والاهوال التى لا تطـــاق · وقد أستأذنه فى ايقـــاف العمل أحيانـــا اشفاقا عليه فيقول : دعنى فى هذا الجـــو لا تخرجنى منه ! فيستمر فى حديثه وعيناه تبرقان بالنشوة والحماس · وانتهيت مـــن كتابة تاريخ الشيخ الى يوم مرضه فى يوم 6 ربيـــع الاول 1377 هـ 30 سبتامبر 1957 ، ثم استأنفنا العمل فى غرة ربيع الثانى 1379 هـ 13 اكتوبر 1959 فحدثنى عـــن حـــادث الشلل وعن جهاده فى جمعية العلماء ونشأة الجمعية وجهادها وأقطابها ، وعن شعـــره وتاليفه وعن أستاذه الشيخ الحـــاج امحمد اطفيش الذى حدثنى بكل ما يعـــرف من

تاريخه فكتبته ، وسألته عن حياته الزوجية وأثر المرأة الصالحة فيه ودفعت اليه أسئلة كثيرة فى الموضوع فتلكأ وقال : دع هذا تنظـــر فيه ، لعله لا يمكن اباحة السر فيه ، فأقنعته بأن عظمة الرجل تكون بناس كثيرين ومنهم الزوجة الصالحة • ألا تـرى كتاب السيرة النبوية كيف يتحدثون عن أمنا خديجة وزوجات الرسول عليهم السلام • فـلا بد أن أعرف هذا الموضوع لتتم معرفتى لتاريخكم • فحدثنى به فى مجالسى الاخـيرة معه غير أنه رجا منى أن لا أكتب بعض الأسرار العائلية باح لى بها • فاستمر عملنا فى الدورة الثانية هو يحدثنى بتاريخ جهاده وعن مشايخه وأنا أكتب استمر شهرا كامـلا الا يوما الى 12 نفامبر 1959 • فكتبت كل ما أردت من تاريخ الشيخ أبى اليقظان حدثنى به بنفسه ، وما يحفظ من التاريخ الذى لا يوجد الا فى صـــدور أمثاله من العلماء • والحمد لله على فضله ، وله المنة الكبرى على توفيقه •

وكان الشيخ أبو اليقظان مغرما بالتاريخ ، رواية وتأليفا ، قوى الذاكرة ، يكتب مذكراته فى أهم الاحداث • لهذا كانت مادته فى التاريخ غزيرة تلما تجد ما عنده فى جيله من العلماء • وكانت أغلب مجالسه معى ومع زواره يمزجها بالتاريخ الحديـــث وبالقديم أيضا يطرفهم به • وكان فى أغلب مجالسى معه بعد انتهـاء الكتابة فى التاريخ تجره اليه شجون الحديث • وقد أسأله عن بعض الحوادث القديمة فيسهب فى الحديـث فيها ، الى أن ثقل لسانه فى آخر عمره قبل وفاتـــه بنحو عام ، فأشفقت عليه فكنت لا أجره الى المواضـــيع الواسعة • فاستفدت من شيخى أبى اليقظان فائدة عظمى فى التاريخ ، وعرفته معرفة تامة بالمعاشرة الطويلة المفيدة الممتعة والحمـد لله • وأعطانى فى آخر عمره مجموعة كبيرة من رسائل الشيخ أبى اسحاق اطفيش والشيخ بيـوض ، والشيخ عدون وغيرهم من أقطاب الاصلاح الذين كانوا يكتبون اليه عن أهـم الاحداث الوطنية ويكتب اليهم ، فرأيت الكثير مما حدثنى به الشيخ فى تلك الرسائل الضافية المفيـدة • وكان الشيخ أبو اليقظان قد حافـظ عليها وصنفها • وهى سفر عظيم فى تاريخنا الحديث • وقد نقلت مذكرات كثـــيرة من تلك الرسائل • وأعطانى أستاذى الجليل الشيخ عدون بن بالحاج وكان الشيخ أبـــو اليقظان كثير الكتابة اليـه بأخباره الخاصة والعامة ، أعطانى مجموعة كبيرة من رسائل الشيخ أبى اليقظان اليـه ، فقرأتها فى اهتمام كبير ، فأفادتنى فائـــدة عظمى ، وزادتنى علمـــا بالشيخ أبى اليقظان • واطلعت على رسائل أخرى للشيخ أبى اليقظان كثيرة تصور نفسه العظيمة وخلقه الكريم.

الشيخ ابو اليقظان فى دار بستانه فى القرارة يحدث مؤلف الكتاب بتاريخه بتفصيل فيكتبه وأمامه على النضد طبق مملوءة بازهار الياسمين الاريجة مطرزة بازهار حمراء لشدة حبه للزهور والعطر ، فهى من قراه سيما العطر لزواره ، لذلك أتحف به ولده المؤلف فقرب طبق الزهور منه . يرحمه الله

وكان الشيخ ابو اليقظان لا تخلو داره فى موسم الزهور من طاقة كبيرة منها يزين بها مكتبه ومجالسه . وعلامة الاذن لزواره بالانصراف ان يعطيهم مرش العطر الشذى فيلح عليهم ان يتعطروا . لقد كان شديد الحب للجمال الطبيعى فى كل مظاهره . يرحمه الله

وأكبر شيء يدخل السرور البالغ عليه والنشوة الكبرى الحدائق الغناء ، والانهار الجارية ، ومناظر البحر ، ومجالس اخوان الصفا ، والنغمات العاطفية الطاهرة الجميلة . هذا ما يشغف به الشيخ رحمه الله مع القراءة المفيدة والتعبد فى المسجد . وقد عجلت لك بهذه العناوين التى سأشرحها فى باب شخصيته العظيمة بمناسبة طبق الزهور الذى لا تراه فى صورة مجلس الرواية .

أخذت الصورة فى ضحى يوم الاحد 5 ربيع الاول 1377 هـ ـ 29 سبتامبر 1957 م

وأعارني الشيخ أبو اليقظان كل ما أردت من مذكراته فقرأتها باعتناء · فاذا هى سفر حافل للأحداث المهمة الواقعة للشيخ وللاصلاح فى الجزائر فى الشمال والجنوب ، ونقلت منها كل ما أردت ، سيما ما يتصـــل بالاصلاح عامـــة وبالشيخ أبى اليقظان خاصة · وقد بـــدأ كتابة مذكراته فى عـــام 1919 فى تونس الخضراء مقتديا فى ذلك بالسيد باسعيد بن الحاج داود أحد زعماء الاصلاح فى القرارة (1) وقـد حدثنى الشيخ أبو اليقظان بهذا ·

ان مذكرات الشيخ أبى اليقظان تاريخ حافل له وللاصلاح والمصلحين في الجزائـر ولكنها لاتكفى وحدها ، لانها خلاصات في سطور لاحداث كبرى تملأ تفاصيلها صفحات كثيرة · فما لم يكن المرء عارفا بتفاصيل الاحداث لا تجديه تلك المذكرات ، ولا يستطيع استخراج تاريخ مفيد منها للشيخ أو للاصلاح ·

ان مذكرات الشيخ أبى اليقظان التى تملأ عشرات الدفاتر كنز ثمـــين لا أرى أن زعيما من زعماء الاصلاح فى الجزائر قد ترك مثله ، فكتب مذكراته لنصف قـرن كامل وأكثر · انها من تراث الشيخ الثمين تجب المحافظة عليها ، وهو سجل حافل لاهـــم الاحداث فى الجزائر والمغرب يفيدنا بتاريخ وقوعها الصحيح ·

وقد حمدت الله على أن عجلت بكتابة تاريخ الشيخ وهو صحيح الذاكرة ، طلـق اللسان ، قوى البنية ، لا يجهده الحديث الطـــويل · فلو أخرت ذلك بعض ســـنوات لفاتنى جل ما أدركته ، وتعذر الكثير مما فعلته ، وضـــــاع جل ما رويته ، لأن الشيخ قعدت به الشيخوخة بعد الثمانين ، وأجهده المرض ، فضعفت ذاكرته ، وثقل لسانـه ، وخفت صوته ، وضعف بدنه ، فصار لا يستطيع الكـــــلام الطويل ، والتفكير المجهد ، والمناقشة العميقة فى الحديث ·

وقد أعدت في محرم 1388 ماى 1968 قـــــراءة ما كتبت من تاريخ الشيخ الذى حدثنى به فكتبته كما سمعته لم أزد فيه شيئا من عندى ، فوجـدت بعض الغموض فى بعض النقط الموجزة ذات التفاصيل الكثيرة فأردت أن أكتبها ، وان كنت أحفظ الكثـير منها مما يحدثنى به دائما ، ولكنى أريد التثبت ، فأسرعت الى الشيخ فقرأت عليه مـا غمض فسر بما يسمع ، فتقاعد من شدة الاهتمام ، وانتشى بتاريخه الذى أذكره منـــه ما نسى ، وأنفقه الى عهـــــود جهاده الحلوة فقال : هذا صحيح كله · فمن حدثك به ؟ !

---

(1) انظر رسمه الكريم وتاريخه في صفحة 219 في الجـزء الثاني من كتابنا نهضة الجـزائر الحديثة وثورتها المباركة الطبعة الاولى في عام 1391 ـ 1971 بالجزائر .

فقلت ياسيدى رويته عنك وحدثتنى به أنت فى الشهور المباركة منذ أحد عشر سنة لما كنت أزورك فى البستان ، وحدثتنى أيضا بالكثير منه فى هذا المكان فى داركم بالمدينة . فسكت الشيخ هنيهة وهو يمسح براحته على جبهته العريضة يمرى ذاكرته ، ثم انتفض ونظر الى قائلا : تذكرت ! لقد حدثتك طويلا بتاريخى فكتبته . فسألنى أن أقرأ عليه ثانية ما غمض على ، ففعلت فتذكر بعض التفاصيل ، وزدت أنا فذكرته بما حفظت ولم أكتبه فتذكره أيضا ، ومدنى بعد جهد بما أردت ، وبصوت خافت لا أكاد أسمعه . لقد نسى حادث كتابتى الذى استمر شهورا ، ونسى الكثير مما كان على لسانه من تاريخه وتاريخ الاصلاح ، فلو أخرت رواية تاريخه عنه الى آخر عمره ، وفى أيام شيخوخته كما يرى كثير من الغافلين الذين لا يعرفون لفاتتنى الفرصة ، وضاع جل ما سجلته والحمد لله .

وكنت أتمنى أن أكتب تاريخ الشيخ العظيم للطبع وتاريخ زملائه (أعلام الاصلاح فى الجزائر) قبل وفاته لأعرضه عليه ، ويكون مرجعى فيما يشكل على ، فان المؤلف مهما استعد بجمع المادة الغزيرة ، وظن أن عدته كاملة فى موضوعه ، لتبدو له نواحى غامضة فى الموضوع اذا كتب ، لأن ذهنه حين الكتابة يكون أكثر توقدا ، وفكره فى التحليل الفلسفى الذى ألتزمه فى التاريخ يكون أكثر تفتيشا للأمور ، فيجد أشياء كثيرة يجهلها ، فلا بد له من مرجع يستعين به ، ولكن الله يؤثره اليه قبل أن أبدأ تأليف تاريخه ، يرحمه الله .

ان هذه الفصول والابواب التى أقدمها اليك فى تاريخ الشيخ أبى اليقظان ، مادتها الأساسية كلها من عنده ، أو مما شاهدته ورأيته فيه وتيقنته بالعشرة الطويلة ، وارتفاع الكلفة معى لحبه الصادق القوى ، وبالنظر الفاحص ، لاننى قد عزمت على كتابة تاريخه وتاريخ مشايخى منذ عشرين عاما . وليس لى فى تاريخ الشيخ الا أسلوب التأليف واستنتاج المؤلف ، لأننى أكتب هذا التاريخ بتحليل فلسفى ، استنطق الحوادث ، واستنتج المقدمات الصحيحة . واذا رويت شيئا فى نسب الشيخ وتاريخه عن غيره فاننى أنص على صاحبه ، وما عداه من مادة تاريخه الحافل العظيم فمنه . يرحمه الله ! يرحمه الله على قدر جهاده واخلاصه فيه ، وعلى قدر ورعه وتقواه ، وعلى قدر شجاعته الخارقة فى الجهاد ، واقدامه وثباته فى النضال . انه من أعلام الاصلاح فى المغرب الكبير . فما هو نسبه ووراثته ، وأدواره الاولى التى كونته ؟

نسبه الكريم ووراثته

هو الشيخ أبو اليقظان الحاج ابراهيم بن عيسى ، بن يحيى ، بن داود ، بن عيسى ابن داود ، بن الشيخ الحاج احمد ، بن الشيخ بلقاسم بن حمو بن عيسى ، حمدى • لقبه ولقب أسرته الكبيرة المتعددة الفروع • نسبة الى جدهم الخامس العظيم الشيخ الحاج احمد لاعتدادهم بشخصيته وعلمه ، ولكثرة حفدته • وهو من عشيرة البلات الكريمة فى القرارة ، وهى من العشاير الكبيرة الخيرة النشيطة الزكية فى وادى ميزاب ، ويصل نسبه الشريف ونسب قبيلته الى عبد المؤمن بن على الموحدى أعظم ملوك الدولة الموحدية فى المغرب • وهو من قبيلة كومية البربرية فى ناحية تلمسان وقد انتقل أجداد الشيخ أبى اليقظان من جنوب المغرب الاقصى فى الساقية الحمراء • وكان فيها جمهور كبير من الإباضية فاستقر بعض أجداد الشيخ فى ورجلان بجنوب الجزائر ومنها انتقل جده الشيخ بلقاسم الى القرارة •

أما كنيته (أبو اليقظان) فاقتبسها الشيخ من الامام العظيم الورع العادل أبى اليقظان محمد بن افلح رضى الله عنه خامس أئمة الدولة الرستمية المغربية العظيمة ، وهو الذى حفظ الدولة الرستمية من كيد أعدائها العباسيين وصنائعهم ، وقضى على الفتنة التى أشعلوها فى تيهرت العاصمة ليضعفوا الدولة ويمهدوا لغزوها من الخارج • وقد بينا شخصية الامام العظيم أبى اليقظان وتاريخه ، وذكرنا تلك الفتنة وبين أسبابها الداخلية والخارجية فى الجزء الثالث من كتابنا (تاريخ المغرب الكبير) صفحة 583 فارجع اليه • وكان شيخنا أبو اليقظان معجبا بالامام أبى اليقظان فتلقب بكنيته ، وسبب ميله اليه هو ما بين شخصية الشيخ أبى اليقظان وشخصية الامام أبى اليقظان من تشابه • وقد اختار الشيخ بيوض اسم الامام أفلح ثالث أئمة الدولة الرستمية فتسمى به • فأمضى به مقالاته فى جرائد الشيخ أبى اليقظان • وكان أحب أسمائه اليه • وسبب اختيار الشيخ بيوض لاسم الامام أفلح رضى الله عنه هو التشابه الكبير فى الشخصية بينهما • وقد صار أبو اليقظان لقبا للشيخ وأولاده وأحفاده ، وغطى على لقبهم الأصلى وهو (حمدى) •

وعند الشيخ أبى اليقظان شجرة طويلة لنسبه حققها واحتفظ بها • وقد اقتصرنا فى الدراسة على أجداده الأقربين لأنهم هم الذين أثروا فيه أكثر ، فهو فرع فى أرومتهم العتيدة ، يحمل وراثتهم الطيبة ، وخصائصهم العظيمة •

وأسرة الشيخ أبي اليقظان وآباؤه وأجداده تتسم كلها بالتقوى والورع ، وبالغيرة على الدين والدفاع عنه ، وبحب الخير والمسارعة اليه ، والجد فيه ، وبالشجاعة والحزم والنشاط وحب العمل ، وغير ذلك من الصفات الحميدة ، فسادوا بهذه النفوس فكانوا شخصيات بارزة في مجتمعهم ، اختارهم لكثير من وظائفه الدينية الكبيرة التي لا يرضى لها الا الأكفاء النزهاء . وكانوا وعشيرتهم الكريمة أهل المسجد ، يلقبهم الناس في القرارة في عهودها الاولى (بالمسجديين) لشدة حبهم للمسجد ، وكانت بيوت معظمهم حول المسجد ، لشغفهم به وملازمته ، وتفانيهم في خدمته . وقد وقفوا له أوقافا كثيرة من أموالهم واختصوا ببعض أشياء المسجد المهمة التي تبلى وتجدد في كل مدة فقاموا بها أحسن قيام . وهذه الأشياء هي المرجل الكبير الذي يسخن فيه الماء في المسجد للوضوء والطهارة ، وكسوة امام المسجد التي يصلي فيها بالناس . ولكل امام في مساجد ميزاب حجرة فيها كسوة الصلاة لا يخرج بها الى الشارع ، هي خاصة للصلاة . ولا زالت عشيرة الشيخ أبي اليقظان الكريمة تقوم بهذه الأشياء خير قيام ، ولا زالت مسجدية ، شديدة الاعتناء بالمسجد في القرارة وغيرها ، كثيرة الأوقاف له .

وقد تولت أسرة الشيخ أبي اليقظان في مسجد القرارة وطنها وظائف دينية هامة . امامة الصلاة ، والأذان ، والتربية والتعليم في كتاتيب المسجد وغير ذلك من وظائف المسجد المهمة ، وذلك لدينهم وعلمهم وحزمهم ومسارعتهم الى الخيرات .

أجداده الفضلاء

كان الشيخ الحاج بلقاسم الجد السادس للشيخ أبي اليقظان عالما صالحا ، ومن أعيان قومه ، والشخصيات البارزة في وطنه . وكان قبل في ورجلان مع قومه ، فأثر الهجرة الى القرارة لما نشأت في عام 1040 هـ للأسباب التي جعلت كثيرا من البيوتات الرفيعة في ورجلان وسدراتة تؤثر الهجرة الى وادي ميزاب . وقد فصلنا الحديث في هذه الأسباب في كتابنا (نهضة الجزائر الحديثة) الجزء الأول صفحة 154 فارجع اليه .

كان الشيخ أبو القاسم من المهاجرين الأولين الى القرارة ، وقد يكون معه أبناؤه وبعض قومه ، فأعجبت القرارة بدينه وعلمه وشخصيته ، فجعلوه من العزابة ، واختاروه اماما عليهم في الصلاة ، فقام بواجباته في امامة الصلاة وفي المسجد أحسن قيام ، وعمل لله في جد واخلاص كبير ونية حسنة ، فبارك الله له ، فرزقه أبناء وحفدة

كثيرين صالحين يحملون ورائته الكريمة ، وصـــلاحه وعمله لله ، ويتصفون بالجـــد والنشاط وحب العمل ، والمسارعة الى الخيرات ، وشدة الحب للمسجد وأهلـه ، فكانوا بهذا من أكرم العشائر التى بنت القرارة فأعلت صروحها فى كل نواحيها • وذلك كلـه بفضل صلاح جدها الشيخ أبى القاسم رحمه الله •

ان اختيار عشائر القرارة العديدة الفاضلة للشيخ أبى القاسم اماما لهـــا فى الصلاة ؛ وامامة الصلاة كإمامة الدنيا ورئاستها لا يسندها المسلمون سيما الاباضيـة الا الى الأشراف الصالحين النزهاء ؛ ان اختيار القرارة لأبى القاسم اماما لها فى دينها يدلنا على شرفه الأثيل ، وعلى ورعه وعلمه ، وعلى المواهب العقلية والخلقية الرفيعـة الأخرى التى تشترط فى الامام • فلو لم يكن من خيارهم وعلمائهم ما أسندوا اليـه وظيفة الامامة الكبرى ليتقدمهم بين يدى الله فى صلاتهم ، ويعمر محرابهم الذى هـو بابهم الى السماء ، ومنعرجهم الى الله •

وكان الشيخ أبو القاسم رحمه الله مع علمه وورعه ذكيا ومدبرا حكيما ، ودا مقام رفيع فى وادى ميزاب ، يدلنا على ذلك اختيار خاصة القرارة له فى مشكلة كبرى لهم مع مدن ميزاب فكان رئيس وفدهم الذى اختاروه ليسفر بينهم وبين مدن ميزاب فيحلوا المشكلة ، وينزعوا السخائم من النفوس • وكان العهد الذى نشأت فيه القرارة وهو أول القرن الحادى عشر الهجرى قد وقعت فيه فتن وحروب شققت العصا • وأرى أن المشكلة التى أرسل وفد من أعيان القرارة برئاسة الشيخ أبى القاسم لحلها مـــن هذا النوع الخطير • فلا بد أن يتصف الوفد بالكفاءة العقلية والخلقية الكبرى ، سيما رئيس الوفد لينجح فى معالجة المشاكل ، ويصغى اليه الخصوم لثقتهم به واجلالهم له •

ان امامة الشيخ أبى القاسم ، وسفارته من أعيان القرارة الى مدن ميزاب مـــن أقوى الأدلة على ما وصفنا به الشيخ أبا القاسم من الشرف الأثيل ، ومن ورع وحلم ، ومن ذكاء وحصافة ونباهة • وآثاره فى أبنائه وأحفاده الصالحين الكثيرين أدلة قوية حية يشهدها كل انسان •

ورزق الله الشيخ أبا القاسم ابنه الصالح العالم البطل ، فزانه فى حياتـــه ، وخلفه فى ثغور الخير بعد وفاته • وهو الشيخ الحاج احمد بن الشيخ أبى القاسم الجد الخامس للشيخ أبى اليقظان رحمهم الله •

وكان الشيخ الحاج احمد عالما صالحا اجتماعيا ، قوى الشخصية بطلا كأبيه • وقد يكون من العزابة • ان الشيخ أبـا اليقظان لم يذكـر لى هذا ، ولكنى أظنـه • وكـان

رحمه الله شخصية بارزة فى مجتمعه ، يعتد به بلده وعشيرته ، ويعتد به أحفـــاده ، فتلقبوا باسمه من دون أجدادهم الكثيرين الأمجاد ، فجعلوا لقبهم حَمْدِى ، رغم انقسام هؤلاء الأحفاد لكثرتهم الى خمسة فروع تُلَقَّبُ كلها بحمدى ، وتكوّن هذه الفروع معظم عشيرة البلات • وقد آثر أحفاده الكثيرون المثقفون التلقب باسمه الكريم ، وفضلـوا لقب حمدى على كل الألقا ، الحسنة ، لاعتدادهم بهذا الجد العظيم • ان هذا من الأدلة القوية على عظمته ، وحسن آثاره فى مجتمعه ، فآثر أحفاده أن يظهروا فى هالته ، فان لقب (حمدى) هو الذى يذكر الناس دائما بانتسابهم الى هذا الجد العظيم الـــذى يعتقدون عظمته ، ويعرفون حلاوة احسانه ، فيزدادون لهم حبا •

وقد وجد الشيخ أبو اليقظان كتابا قديما فى خزانة بعض المثقفين وهو ملك لجده هذا ، فتمسك به ، وجعله فى خزانة كتبه أثرا كريما لجده العظيم الذى يعتز به ، ودليلا لمستواه فى العلم يرحمه الله •

وأما عيسى بن داود الجد الثالث للشيخ أبى اليقظان فكان من علماء وقتـــه فى القرارة • حفظ القرآن واستظهره ، وعرف من الفقه الاسلامى ما يجب لمثله أن يعرفه وثقفته الحياة الصعبة فى تلك العهود ، ومجالسة العلماء ، وملازمة ذوى الحنكة والتدبير وكان ورعا ذكيا ، حازما شجاعا ، قويا فى الأمر والنهى اجتماعيا تحبب اليه نفســه التضحية والغرام بمصلحة دينه وأمته • لهذه الصفات الكريمة وغيرها اختارته القرارة لمجلس العزابة فكان عضوا بارزا فيه ، وأسند اليه العزابة وظيفة التربية والتعليم فى الكُتاب التابع للمسجد ، فقام بواجبه فى التربية والتعليم أحسن قيام ، فحبب كتاب الله الى تلاميذه فجدوا فى حفظه ، فاستظهره كله كثيرون • وحبب اليهم العلـــم ، فاتجهوا الى معادنه فى حلقة المسجد ودار التلاميذ ، ومعهد الشيخ بالحاج بن كاسى ، وغيره • وكان محبا للطلبة ، يحبونه ويحترمونه ويرهبون صولته • لقد كان حازمـــا فضبطهم فجعلهم فى وقت الكُتاب للعمل وحده ، وعلمهم السهر والجد فى حفظ سورهم وألواحهم خارج الكتاب • ومن تمرد على النظام أو قصر فى واجبه ، أو اعوج سلوكـه فى الكُتّاب أو خارجه ردعه ، فان لم يُجْد أدبه بمفتاح خشبى طويل يكون معه دائما • فهو مفتاح داره ودرته يستعملها فى تأديب تلاميذه ، ومن لاخلاق لهم من العامة اذا وجبت العصا فى الأمر والنهى • فلقب لهذا (بو مفتاح) فصار لقبا له • وكان رحمه الله من المربين الكبار ترك أثرا حسنا فى نفوس العامة بأمره ونهيه ، وفى تلاميذه بحسن تربيته • وهو ممن تشهد لهم القرارة بالكفاءة وحسن الجدوى • وكان السيد عيسى غنيا له أملاك كثيرة ، فزاد ذلك فى عز نفسه ، وعلو همته ، واستطاعته للخيرات •

وكان السيد عيسى بن داود فى عهد امام النهضة الحديثة فى القرارة الشيخ بالحاج بن كاسى رحمهما الله فى أول القرن الثالث عشر الهجرى · وكان من جيله وجيل السيد باحمد بن حمو جد آل باحمد البلانيين فى القرارة · وكان عزابيا معهما فى مسجد القرارة ، يذكر معهما فى اتفاقات العزابة المكتوبة ، مما يدل على مكانته البارزة فى العزابة · وهو من رجالات ذلك العهد المبارك الذى ولدت فيه نهضة القرارة الحديثة بقيادة الشيخ بالحاج بن كاسى أحد أئمتها الأولين فى وادى ميزاب · وكان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لتزكية نفوس العامة من وسائلهم الكبرى فى النهضة ، والتربية والتعليم فى الكُتاب وفى معاهد العلم وسيلتهم الأخرى · وقد شارك بقوة فى الوسيلتين لخلق النهضة الحديثة هذا الجد البطل للشيخ أبى اليقظان السيد عيسى بن داود بومفتاح رحمه الله ·

أما الجد الثانى للشيخ أبى اليقظان فهو السيد داود بن عيسى · وهذا لم يكن من العلماء والعزابة كأبيه · كان فلاحا ، ولكنه كان قوى الشخصية ، شديد التمسك بالدين كوالده ، وهو من أعيان عشيرته ، مرموقا فى وطنه · وقد بارك الله له فانجب أبناء عديدين صالحين ، يحملون مواهبه الزكية ، فسادوا فى مجتمعهم ، فكانوا شخصيات بارزة فى القرارة · منهم بكير جد آل تاعموت ، وعمر جد آل اجريبة ، وعيسى جد آل المردوخ ، ويحيى جد آل أبى اليقظان · وكل هؤلاء فصائل من عشيرة البلات الكريمة ·

هؤلاء هم أجداد الشيخ أبى اليقظان · وقد رأيت فضلهم فى اختصار وهم الذين أورثوه مع والده مواهبه العظيمة التى صال بها · فمن هو والده ؟

والده الكريم السيد الحاج عيسى بن يحيى

سمى والد الشيخ أبى اليقظان باسم جده الثانى السيد عيسى بن داود الذى أسلفنا الحديث عنه ، فكان مثله فى الشخصية وفى الوظائف الدينية التى تولاها ، وأعمال البر التى أجدى بها الدين والوطن ·

كان رحمه الله طويل القامة ، عظيم الهامة ، قوى البنية ، حديد البصر ، أبيض مشوبا بحمرة ، خفيف اللحية ، جميل الخلقة ، فزاد جماله فى قوة شخصيته ، وفى مكانته السامية فى القلوب ·

وكان ورعا ، شديد التمسك بالدين والغيرة عليه ، حازما صارما ، شجاع النفس لا يخاف فى الله لومة لائم ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر بلسانه ويده ، يفعل ذلك للكبار فى العشيرة وفى المسجد ، وللناشئة فى كُتاب المسجد الذى يتولى التربيـــة والتعليم فيه ٠

وكان ذا نفس اجتماعية قوية ، تجعله شديد الاهتمام بمجتمعه ، حريصا عـــلى صلاحه ، ينتشى بخدمة غيره ، ويجد اللذة الكبرى أن يحمل أثقال الناس ، احتسابـا لثواب الله ، ورغبة فى رضاه ٠ أمينا عفيفا ، محبا للنظام والجمال ، ولكل الأشيـــاء الطيبة الجميلة ، يدل على ذلك سيرته ووراثته التى سوف نراها فى ابنه أبى اليقظان٠

وكان رحمه الله أبيض القلب ، مرح النفس ، قوى الحيوية ، طموحا مقدامـا ، يكره الجمود والكسل والخنوع ، شديد الحب للخير ، يصرف جل أوقاته فى وظائفـه فى المسجد ، وفى خدمة العشيرة ، مسجديا ، لا يجد سكون نفسه ونشوة روحه الا فى المسجد ، وفى القيام بوظائفه الدينية الشاقة للمسجد ٠

وكانت حرفته التى يرتزق بها هى الفلاحـــة ، فنشأ فى البساتـين والحقـول وقضى فيها جل عمره ، فأورثته فى خلقه وعقله وجسمه كل الصفات العظيمة والآثـــار الحسنة التى تحدثها الفلاحة فى نفس صاحبها ، سيما اذا اقترنت بعوامل أخـــرى تربوية عظيمة كالتى أوتيها والد أبى اليقظان وهى البيت الرفيع ، والمجتمع الزكـى والمدرسة الرشيدة ، ومحن الحياة التى هى وحدها تربى المرء وتبنيه فى كل نواحيه ٠

وكان ذكيا قوى الذاكرة ، محبا للعلم ، فحفظ القرآن حفظا راسخا واستظهره وكان من أكبر حفاظه ، والملازمين لتلاوته وتدبر معانيه ٠

ولازم حلقة الشيخ الحاج قاسم بن الشيخ بالحاج فى داره وفى دار التلاميـــذ بالمسجد فاستفاد منه علما كثيرا ، سيما فى الشريعة الاسلامية ٠ وكان شديد الحـب للعلم والعلماء ، يسارع الى مجالسهم ، ويحسن الاصغاء اليهم ، شديد الحب لقطـــب الائمة وامام النهضة الحديثة فى جنوب الجزائر الشيخ الحاج امحمد اطفيش رحمه الله عظيم الحماس للاصلاح الذى ينشره ، والنهضة الاسلامية التى يبنيها ٠ وكان القطب يزور القرارة فى آخر عمره مرتين فى العام ، فى الربيع والخريف ، فيقيم فيها فى كل مرة أسبوعين وأكثر يلقى دروس الوعظ على الجمهور ، ويفتيهم فى الدين ، ويـــوالى تدريس كبار طلبته الذين يصطحبهم فى هذه الرحلات ٠ وكان السيد الحاج عيسى من

حاشية الشيخ التى ترافقه من بريان ، وترده الى بلده ، وتلازمه فى القرارة · وكان يحضر دروس القطب كلها ، ويسأله ويستفتيه · وكان القطب شديد الحب له لفضله ، وورعه ، وشغفه الشديد بالعلم والاصلاح ، ولشدة حبه واجلاله له · وكان السيد الحاج عيسى يكاتب القطب فيستفتيه فيجيبه القطب · وعند الشيخ أبى اليقظان بعض أجوبة القطب بخطه لوالده ·

وكان السيد الحاج عيسى مع ملازمته للقطب يسأله الدعاء الصالح لنفسه وأسرته والرقيا الصالحة لأبنائه ، ليشرح الله صدورهم للعلم والدين ، فيكون منهم عالما يحيى الأمة ، ويرفع لواء الدين فيها ، فيفعل القطب من أعماقه · وما انجابه لأبى اليقظان ونبوغه فى العلم الا نتيجة تلك الدعوات ونتيجة شغفه بالعلم ، وابتهاله الى الله أن يرزقه ولدا صالحا عالما يصل فى العلم الذرى التى لم يستطع هو وصولها ، ونتيجة تقديره للعلماء واجلالهم وخدمتهم ، ومن عرف النعمة وهبها ، وبارك الله له فيها ·

ومن شيوخ السيد الحاج عيسى العلامة الجليل الشيخ الحاج محمد ابن الحاج قاسم ابن الشيخ بالحاج· وكان شيخ المسجد فى القرارة يلقى فيه دروسه الدينية والاجتماعية الحية على العامة ، وشيخ دار التلاميذ يلقى فيه دروسه العلمية على الطلبة ، وله دروس أخرى للطلبة والعامة يلقيها فى داره · وكان من منابع العلم الشهية الغزيرة فى القرارة وميزاب يرحمه الله ·

وكان السيد الحاج عيسى متواضعا مشغوفا بالعلم ، يسرع الى حلقه فى كل أدوار عمره حتى فى شيخوخته ، وهو شخصية نابهة ، ومن كبار العزابة ، فيجلس مجلس التلميذ الخاشع المتعطش بجانبهم فى الدرس ، يصغى فى شوق واهتمام واكبار لدروسه ومشايخه ، فبارك الله لوالد أبى اليقظان بهذه النفس الطيبة ، فنال من العلم ما ثقف عقله ، وجعله من الخاصة العاملة المصلحة فى وطنه ، وزاده علما فى ولده أبى اليقظان · فلو لا الوالد وما قدم من الأعمال الصالحة فى العلم والاصلاح ، وما يحمل فى نفسه الطيبة الكريمة ما نبغ ولده أبو اليقظان · وكان العالم المصلح الذى سنرى ·

السفر الى العواصم الاسلامية وأثره فى ثقافة والد أبى اليقظان

ومن أسباب ثقافة السيد الحاج عيسى السفر الطويل الى الحج مرتين · احداهما مع قطب الأئمة الشيخ اطفيش رحمه الله ، وسفره الى تونس فى أيام شبابه للارتزاق·

وكان طريقه الى الحج مع القطب فى البر حتى وصلوا مصر فركبوا البحر · وكان مع القطب حاشية كبيرة من علماء ميزاب وأعيانهم حجوا معه ، منهم والدأبى اليقظان والشيخ الحاج صالح بن يوسف بن باحمد من القرارة ، والشيخ الحاج سعيد بن يوسف من بنى يسقن ، والشيخ الحاج محمد بن باحمد بكلى من العطف ، وغيرهم · ونزلوا فى عواصم الشمال فى الجزائر ومدنه الكبرى الشرقية ، فألقى فيهـــا الشيـــخ اطفيش دروسه ، واجتمع فيها بالعلماء الذين يسارعون للسلام عليه ، وسؤاله عما يشكـــل عليهم من المعضلات العلمية ، ووقع مثل ذلك فى تونس الخضراء سيما فى العاصمـــة ، وحضر والد أبى اليقظان دروسا كثيرة فى الجامعة الزيتونية فأعجب بغزارة العلم فيها· بوده لو قضى فيها سنين ، ولكن الفقر وما يحمل من اثقال المجتمع يأبى عليه · وحضر مجالس علماء تونس مع القطب ، ومباحثتهم له فى مسائل دينيـــة ، فـــازداد اعجـــابا بالقطب لما رأى من غزارة علمه ، واقناعه للعلماء ، وافادتهم بما يشكل عليهم · ونـــزل القطب وركبه فى طرابلس ومدنها المهمة ، وحل فى جبل نفوسة لزيارة صديقه الشيخ عبد الله البارونى فبقى فيها أسابيع ، فسمع دروس الشيخ عبد الله البارونى وشعره ومجالسه العلمية مع القطب · ولما وصلوا مصر أسرع الى الجامع الأزهر فحضر دروسا عديدة فيه ، وحضر مجالس علماء مصر مع القطب ، ووقع مثل هذا فى الحجاز · فازداد السيد الحاج عيسى علما كثيرا من هذه الرحلة المباركة الطويلة الى الحج ، وازداد عقله ثقافة بما شاهد ورأى فى سفره الطويل الذى دام شهورا كثـــيرة ، وازدادت صلتـــه بالشيخ اطفيش فصار يعده من خاصته فى وادى ميزاب ·

وكان السيد الحاج عيسى من أنصار الاصلاح الدينى والاجتماعى الذى يحمـــل رايته الشيخ الحاج امحمد اطفيش وغيره من العلماء فى بنى يسقن ، وتلاميذه فى القرارة الشيخ الحاج محمد بن الحاج قاسم ، والشيخ الحاج ابراهيم الابريكى ، والشيخ الحاج عمر بن يحيى ، وغيرهم فى مدن ميزاب الأخرى يرحمهم الله جميعا· وكان عظيم الحماس للاصلاح ينصره بقوله وفعله ، ويعمل كل ما فى وسعه لتأييده ، رغم عسف الجبابرة أنصار الفساد والاستعمار وتنكيلهم بالمصلحين فى ذلك العهد ·

وسافر والد أبى اليقظان الى تونس فى شبابه فأقام فى عاصمتها مدة ليتعلـــم حرفة يعيش بها ، فأعجب بتونس وحضارتها العربية الاســـلامية ، وبنهضتها العلمية العظيمة ، وبالجامعة الزيتونية ، وبكثرة علومها وعلمائها الأعلام ، وتمنى لو انقطـــع الى العلم فى الزيتونة سنين كثيرة ليشبع نهمه وتعطشه الى العلم ، ولكن الفقر وهمـــوم الأسرة التى يعولها تمنعه من ذلك ، وتركت تونس فى نفسه بما ذكرنا آثارا حسنـــة

وزادت فى ثقافة عقله . وحاول أن يحترف بعض الحرف فى تونس فلم يساعده طبعه ومزاجه الدينى القوى عليها ، فلم يجد أحسن من الفلاحة التى ألفها فى وطنه ، والذ من عمارة المسجد والتقرب الى الله بمختلف الأعمال التى يقوم بها لله فى المسجد والعشيرة ، وللارامل واليتامى والضعفاء فى بلده ، فرجع الى القرارة وطنه ، ورجع الى الفلاحة فدام عليها الى أن توفاه الله .

ولورع السيد الحاج عيسى وتفقهه فى الدين وشجاعته وحزمه وضبطه للأمور اختاره العزابة فى القرارة فأدخلوه فى سلكهم ، فكان من العزابة ، ومن البارزين فيهم فاسندوا اليه امامة الصلاة فى المسجد ، فقام بوظيفته أحسن قيام . ودام أربع عشرة سنة وهو امام المسجد ، يواظب فى كل الصلوات لا يتخلف الا لمرض مقعد أو سفر لازم . وكان السيد الحاج عيسى حفاظه للقرآن . وكان ينهض كل يوم فى السحر قبل الفجر بساعتين وأكثر فيذهب الى المسجد فيصلى ورده ، فيجلس فى مجلس القرآن فيتلو مع الجماعة الى الفجر ، أو يذهب الى الكُتّاب القبلى التابع للمسجد ، المصاقب له ، حيث يجد تلاميذه يتوافدون فى السحر الأعلى الى كُتّابه مسرعين ، فيحفظون ألواحهم فى القرآن ، ويستظهرونها عليه ، فيكتبونها ويصححها لهم ، وهو جالس على حصير فى دكانة فى لباسه الدينى المهيب الى الفجر ، فيذهب ليؤم الناس فى الصلاة . ودام السيد الحاج عيسى أربع عشرة سنة وهو امام القرارة فى الصلاة ، يجلجل محرابها كل يوم خمس مرات بالتكبير يدوى به صوته الحنون ، لا يكسل ولا يمل ولا يتقاعس، بل يجد نشوته الكبرى فى المحراب ، وقرة عينه العظمى فى الصلاة التى يؤم الناس فيهـا .

وكان السيد الحاج عيسى ككل العزابة فى وادى ميزاب يقوم بأعماله كلها فى المسجد وفى الكُتّاب لله ، لا يأخذ عليها أجرا ، ويأبى أن يجازيه عليها انسان .

واختاره العزابة للتربية وتحفيظ القرآن والادارة فى كُتّاب من كتاتيب المسجد (I) فكان خير مرب وأحسن معلم ، وكان حازما رءوفا بالطلبة ، يحبهم ويحنو عليهم ويداعبهم ، فأحبوه واحترموه ، فاستطاع أن يغرس فيهم أخلاقه ، ويملؤهم بوجدان حب الدين والخشية لله ، والغرام الشديد بالعلم ، فتخرج عليه كثير من

(I) كان فى ذلك العهد ثلاثة كتاتيب حول المسجد تابعة له منها الكتاب القبلى الذى تولى ادارته والتعليم فيه والد ابى اليقظان وكتاتيب اخرى فى انحاء القرارة غير تابعة للمسجد لتحفيظ القرآن وتعليم الدين والتربية .

حفظة القرآن الصالحين العاملين ، واصل التعلم منهم طائفة فى المعاهد العلمية فنجحوا بفضل اعداد والد أبى اليقظان لهم فى الكتاب يرحمه الله ٠

ولورع والد أبى اليقظان واخلاصه وحزمه وضبطه وشدة حبه للخير ، وانتشائه بخدمة الناس ، اختارته عشيرته وكيلا ليتامى كثيرين فقام بأمورهم أحسن قيـــام ، ورعاهم فى انفسهم وأموالهم وأسرهم أحسن رعاية ، واعتنى بتربيتهم وتعليمهم فكانوا رجالا صالحين عاملين ، ونساء صالحات سعيدات فى زواجهن ٠ وكان يحدب عليهـــم ويرعاهم كما يرعى أسرته وبنيه أو أكثر ، ابتغاء مرضات الله ، وارضاء لحبـه للخـير ، وطبعه الاجتماعى القوى الذى يجد النشوة والرضى فى خدمة الناس ٠ ولما توفى والد ابى اليقظان كان وكيلا لستة عشر يتيما لآباء عديدين ، فوجـــدت حساباتهم كلهـــا مكتوبة منظمة ، وأمورهم على أحسن ما يرام ، لم يهمل منها شيئا ، ولم يقصر فى شىء وذلك لحزمه وضبطه وشدة حبه للنظام ، وقوة خشيته لله ، وشدة عنايتـــه بشؤون الناس ٠

وكان السيد الحاج عيسى والد أبى اليقظان شجاعا ، يأمر بالمعروف وينهى عـن المنكر بلسانه ويده ، فى زمانه الذى كثر فيه الاستبداد ، فألجم الألسنة ، ومنع الناس من قول الحق ٠ كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكـــر بلسانه ويده فى المسجد ، وفى العشيرة ، وفى كل مكان يرى فيه ما لا يجوز فى الدين فيردع الناس عنه ، ويبين لهـم سوء ما أتوا ٠ وكان الناس سيما الشباب يهابونه ويخشون صولته ، فلربما اجتمعـوا فى سقيفة بالشارع فى وقت يجب أن يكونوا فى المسجد يسمعون مجلس التـــلاوة ، أو دروس الوعظ أو يتهيئون لصلاة الجماعة ٠ وقد يكون مجلسهم قد حلا فى نسيـــم السقيفة وهدوئها وفى مرح الشباب وأنسه فيرونه مقبلا من بعيد فيتفرقون خوفا من صولته ، ولقمة احترامهم وهيبتهم له ٠

وكان يأمر وينهى فى عشيرته ، ويجلد المتمردين الذين لا يجدى فيهم الكـــلام ٠ لقد كان رحمه الله أحسن مؤدب لبلده وعشيرته ، فترك أحسن الآثار فى نفوس مجتمعه ٠ واذا وجدنا القرارة فى العقد الرابع من هذا القرن الهجرى وما يليه على الصـــــلاح والفلاح ، فذلك كان بتربية المسجد والكتاتيب والمعاهد والعشائر التى كان فيهـــا رجال مربون صالحون شجعان مثل السيد الحاج عيسى من جيله وغيرهم ، قاموا باصلاح النفوس بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بكل ما استطاعوا من وسائل يرحمهم الله ٠

وكان عمل السيد الحاج عيسى الذى يرتزق منه هو الفلاحة ، فعاش على الكفاف وكان فقيرا لا يملك الا دارا ونخيلا • وكان يقتر على نفسه وعلى عياله لفقـــره وعسر الزمان وشدته • ولكن الفقر الذى تسلط عليه رغم شدته ، لم يستطع أن يخفض هامته ويعقل لسانه ، ويحد من طموحه واقدامه فى سبل الخير • فعاش عزيزا ، رافع الرأس موفور الكرامة ، مهاب الجانب من كل الناس !

وفـــــاته

وكانت وفاة السيد الحاج عيسى فى عام 1307 هـ 1890 م • وهو فى العقد الثامن من عمره • وقد أصيب بمرض الربو فكان سبب وفاته • وقد ترك ذرية صالحة يحملون وراثته وصلاحه ، ويزيدون فى درجاته عند ربه ، يرحمه الله •

هذا هو والد أبى اليقظان ! رابط فى سبل الخير فجازاه الله بالولد العالم الصالح الذى واصل جهاده بخطوات أوسع ، فحقق آماله العظمى لدينه وأمته ، وأورث لولده تلك الشخصية العظيمة التى نماها فى نفسه بالعمل الصالح ، فكانت فى شيخنا أبى اليقظان كما يرام • فهى من سعيه ، وسعى آبائه وأجداده رحمهم الله• فمن هى أم أبى اليقظان الكريمة التى زودته بوراثتها الطيبة ، وأحسنت تربيته وتوجيهه ، وكانـت من أسباب صلاحه ونبوغه ؟

والـــدته الكـريمة

هى السيدة الفاضلة عائشة بنت الحاج امحمد بن الحاج ابراهيم بوعروة مـــن عشيرة أولاد حمو بن ابراهيم الكريمة المعروفة فى القرارة • ولدت من أبوين كريمـين فى القرارة ، ونشأت فيها ، وقضت فيها كل حياتها ، وفيها أنجبت أولادها ومنهـم شيخنا أبو اليقظان •

وكانت عائشة من محتد كريم ، وأسرة شريفة • وكان والدها السيد الحاج امحمد قد تزوج فى القرارة فأنجب فيها عدة أولاد منهم والدة الشيخ عائشة ، ثم سافر الى تونس فملك فيها حمام التَّبَّانِينْ المشهور فى عاصمة تونس فى نهج الزاوية البكرية فى حى باب السويقة المشهور • وكون منه ثروة عاش بها هو وأسرته فى يسر وعز ورخاء

ثم امتقر فى تونس العاصمة ، وتزوج منها ، وترك من زوجته التونسية عدة أولاد منهم كبيرهم على الذى أدركته أنا فى أول الأربعينات فى تونس لما كنت طالبا بها · وكان وأولاده يقومون بحمام التبانين · وكان طويل القامة ، جميل الهيأة ، مهيب المنظر ولعله صورة لوالده · والشيخ أبو اليقظان لا يعرف الكثير عن جده هذا لما حدثنى بتاريخه ، ولكن يعرف عن أخويه السادة الحاج عيسى بوعروة ، والحاج بكير بوعروة · أما الحاج عيسى فكان شخصية بارزة فى القرارة ، ومن رجالات المجلس البلدى المصلحين الشجعان التابهين · وكان من أكبر أنصار الاصلاح ، وصديقا حميما للسيد الحاج بكير العنق زعيم الاصلاح والنهضة الحديثة فى القرارة (1) آزره مؤازرة كبرى فى جهاده ، وكان عضده الأيمن فى كل مواقفه رحمهما الله · وكذلك للسيد باسعيد بن الحاج داود (2) فى جهاده العظيم فى المجلس البلدى ، ومنازلته لأذناب الاستعمار الطغاة والمفسدين ·

أما السيد الحاج بكير بوعروة العم الثانى للشيخ أبى اليقظان من أمه ، فكان من حفاظ القرآن الكريم ، وعمار المسجد · وكان مديرا لدار التلاميذ ، اختاره العزابة لحزمه وأقدميته واستعداده لهذا الوظيف ·

واذا كان الأخوان على هذا النحو فان السيد الحاج محمد مثلهما فىقوة الشخصية وحسن الاستعداد · وما حققه فى تونس مما لا يستطيعه فى ذلك العهد الا الرجال الاقوياء ، وهو امتلاكه لحمام التَّبَّانِينْ الشهير ، فأحسن بناءه وتأثيثه وادارته ، فاشتهر فى تونس شهرة عظيمة ، على كثرة حماماتها البديعة ، وكون منه ثروة حسنة ، وتزوج فى تونس من عائلة شريفة ذات جمال ونباهة ؛ كل ذلك يدلنا على قوة شخصيته، وثقافة عقله ، وطموح نفسه ، وعلى جرأته واقدامه وقوة ارادته · وقد توفى السيد الحاج امحمد فى تونس ودفن بها فى المقبرة الميزابية الحصينة فى مدينة تونس · وقد اغتصبت الآن وجعلت غابة للسواح ، وهو مما لا يشرف تونس الحضراء الوفية النزيهة فى ماضيها العتيد ! وباد قبر جد أبى اليقظان ، وقبور رجالات كثيرين عظماء جزائريين دفنوا فى تلك المقبرة الأثرية التى هى ملك للميزابيين منذ أقدم العصور ·

أما والدة السيدة عائشة أم أبى اليقظان فهى البارة التقية الحازمة العمالة النشيطة الشجاعة ، والمربية القوية الحكيمة السيدة (بِيَّة) بنت باعلى ، بَكُّوش لقبها

(1) انظر تاريخه وجهاده فى كتابنا نهضة الجزائر الحديثة ص 208 ط اولى 1391 ـ 1971 فى الجزائر
(2) انظر رسمه وحقيقته فى ص 219 من نفس الكتاب .

من عشيرة البلات الفاضلة فى القرارة · و (بِيَّة) اسم بربرى ميزابى وأصله باية ومعناه أميرة فخفف ·

وكانت السيدة بية رحمها الله مثالا للمرأة الميزابية التقية البارة النشيطة ، وللنفس العملية التى تغالب الزمان والفقر وتنتصر عليهما · كانت مثالا فى الحزم والنشاط وحب العمل · وكانت تعتمد على نفسها فى النفقة على أسرتها ، رغم غنى زوجها · لقد كانت نساجة للصوف ، فاعتمدت على نولها وعلى عملها وعمل ابنتها ونساء دارها فى نسج الصوف ، فأغنت زوجها عن النفقة على أسرته فى القرارة فى مدة غيابه فأثل أموالا فى تونس الخضراء،واستطاع أن يشترى حمام التبانين ويكون من الأغنياء· ان ذلك كان بمؤازرتها ، ويمن ناصيتها · لولاها ما كان موسرا سعيدا · وقد كفت السيدة بية نفسها بنولها ، وعاشت فى يسر وعز · ولما تأيمت من زوجها ، وتايمت أم أبى اليقظان عن يتامى عديدين فقراء ، استطاعت بجدها ونشاطها وحسن تدبيرها هى وابنتها عائشة أن تعولا كل هذه الأسرة ، وتنشئا أبناءهن أعزاء ، بكد يمينهن ، وعرق الجبين ·

وكانت السيدة بية قد أورثت ابنتها عائشة كل صفاتها ، ونفسها العملية ، فكانت مغرمة بالعمل والكد مثلها · وكانتا تنهضان فى السحر الأعلى فى ليالى الشتاء الباردة فتنسجان كثيرا قبل بزوغ الفجر · ثم يستمر عملهما فى المنسج وشؤون الدار الأخرى المرهقة الى بعد صلاة العشاء · ان النهار كله وجزءا كبيرا من ليلهن للعمل · وكانت السيدة بية هى التى تقود الأسرة بشجاعتها وشدة حبها للعمل ، وأنفتها من المسكنة فى معركة الحياة ، تصارعان الفقر فانتصرتا عليه ، فعاشتا عيشة مستورة زادت فى شرف الأسرة وعزة نفسها ·

وكانت السيدة بية مثالا فى النشاط وحب العمل فى الغابة التى تذهب اليها فى يوم الجمعة وبعض الأوقات الأخرى ، فتقوم فى بستانهم بكل أعمال الفلاحة الصعبة التى لا يقدم عليها الا الرجال · تتحزم فوق جلبابها الساتر ، فتتسلق النخلة لجنى التمر والاحتطاب وغير ذلك من حاجات الأسرة، وتحمل على ظهرها قربة الماء من البستان الى دارهم فى المدينة · وكانت تكسر أحواض البستان بالفأس وتشقها بالمسحاة كما يفعل الفلاحون المهرة ، وتزجر الماء بالدلو الكبير على ظهرها ، فتسقى بستانهم ، وتقوم بشؤون الفلاحة الأخرى · لقد سافر زوجها وترك بستانهم فهل يجف ويموت · انه مورد المعاش الكبير · يجب أن يكون كالبساتين المرعية ، فشمرت عن ساعدها · ولما شب ابنها حمو صار من كبار الفلاحين فى القرارة ، ورث حب

العمل والفلاحة من أمه . وكانت والدته تشرف عـــلى أعمالـه وتحثـه وتشاركه فى أعماله الفلاحية . ولما توفاه الله فى بحبوحة الشباب ، واصلت رعايته لبستانهـــم ، وانشأت أحفادها أبا اليقظان واخوته على أخلاق الرجولة بعملهم معها فى البستـان . وكانت مثال المرأة البارة الحصان الأنوف التى برت بأسرتها فكفلتها بالعمل الحلال ، وحفظت ماء وجه الأسرة فلم ترقها المسكنة وذل الحاجة الشديدة . وكانت أحســـن راع ومرب للأسرة ، فأنشأت أبناءها وأحفادها كلهم رجالا أقوياء صالحين

ان الشيخ أبا اليقظان عظيم الاعجاب بجدته هذه ، كبير الامتنان لها . ولما كان يحدثني عنها كان بريق الحب والاعجاب تشرق بها عيناه ، ويبدو فى صوته الوقور ، وفى حركات يده التى يهزها ليزيدنى ادراكا لنشاطها ، وحزمها وشجاعتها ، وشدة حبها للعمل ، وحسن تدبيرها ، وشدة برها به وباخوته اليتامى يرحمهم الله جميعا .

أما والدة أبى اليقظان السيدة عائشة بنت الحاج امحمد بوعروة ، فكانت كأمهـا فى الشخصية وفى كل أخلاقها الحسنة ، شديدة التمسك بالدين ، غيورة عليه، حصان محبة للخير ، بيضاء القلب ، حسنة النية ، جميلة العشرة ، حازمة نشيطة ، شجاعة ، عمالة ، تكره البطالة والكسل ، تقوم بكل شؤون دارها ، وتقضي طول نهارها وكثيرا من ليلها فى منسجها ، وتبر زوجها وآله ، وتحسن تربية أولادها وتشبل عليهـــم . فجازاها الله على تقواها ، وبرها بزوجها وأمها ، وعلى حسن نيتها بالولد الصـــالح العالم ، وعاشت حتى رأت كل أبنائها من جنود الدين الصالحين ، ومن شباب الأمـــة العاملين ، ورأت ابنها أبا اليقظان من العلماء الكبار ، ومن المجاهدين الأبطال يصرع أعداء دينها ووطنها بجريدته (وادى ميزاب) التى اشتهرت فى الجزائر والمغـــرب ، وجنى الناس منها خيرا عظيما ، وفتكت بأعداء الاصلاح فتكا شديدا ؛ وشاهدت جهاده فى التربية والتعليم فى القرارة وتونس الخضراء ، وما أعد من أجيال صالحة نهضـــت بالدين والوطن ، وكانت عدة الجزائر والمغرب وزينتهما ، وشاهدت آثاره الجميلـة فى مجتمعها ، وسمعت دعوات الصالحين فى كل يوم لها ولابنها . وكان ما تراه من جهـاد ابنها أبى اليقظان ، وما تسمعه من ثناء الصفوة الخيرة عليه، أحلى عندها من كل لذيذ فى الدنيا ، مسح عنها مرارة الفقر وعسر الزمان الكالح الذى تجرعته مدة طويلـة فى سبيل أبنائها حتى شبوا وصاروا كلهم رجالا .

وكانت السيدة عائشة ذات جمال بارع ، وقوام جميل ، وأنوثة قوية ، يشوب جمالها ويُشَبِّه حياء الدين ، وذكاء العقل ، ومرح النفس وحيويتها القوية ، واعتـداد الشريفة الجميلة بنفسها . انها ترى مستقبلها فى جمالها الفتان ، وفى مرحها الشديد

فلا يفارق الابتسام عينيها الفتانتين ووجهها المشرق الجميل . لقد آتاها الله كل أنواع الجمال فى روحها وجسمها وخلقها فلم لا تنتشى وتتفاءل ، وتكون روضة غناء متفتحة ، تملأ الساحة بالعطر والجمال ؟ ! ان سحر المرأة الساحر بحياء الدين ، وقوة الأنوثة وابتسامة الصفاء والمرح التى لا تفارق وجهها ، فهذا ما أوتيته عائشة فضاعف حسنها فاشتهرت فى القرارة بالجمال البارع والشخصية الايجابية القوية فصارت أمنية السراة فيها لأنفسهم أو أبنائهم ، ولكن عائشة ترفض كثيرا من الشباب السراة الذين طلبوا يدها ، وشعرت بالنفور والانقباض الشديد عنهم ، رغم صلاحهم وشبابهم الغض وكرم عرقهم ، لأن الله ادخرها لوالد أبى اليقظان جزاء له على تقواه وورعه ، وعلى جهاده الطويل المخلص فى سبل الخير ، وعلى حسن نيته وبياض قلبه ، وزكاء سريرته لتجدد شبابه فى شيخوخته ، وتذكى حيويته فيواصل جهاده الذى يزيده رفعة عند الله . ان هذا من جزاء الله العظيم لعباده المؤمنين من الزوجة الفتية الحسناء مع نشوة الروح ، وسكون النفس ، وكل ما يشتهيه الرجل القوى الحصيف من فتاته ، وجنة دنياه . واعدهم أن يرزقهم من حيث لم يحتسبوا لا المال فحسب ، فهذا سهل المنال ، ولكن شيئا أعز وأصعب من المال يبدو وكأنه محال ، ثم يجدونه فى حجرهم ملكا لهم ينشقون عطره ، ويحْشُون سلافه ، ويغرقون فى المتع الكبرى فيه ، وهو الزوجة الصالحة الجميلة الفتية فى الكهولة . تحفة الله وجزاؤه لعباده المجاهدين الصابرين المخلصين ، تنسيهم عناء الجهاد وتريحهم من أتعاب المجتمع التى يعانونها ، فيقضون الشيخوخة وهم على حيوية الشباب وسعادته ومسراته ، ويكون آخر عمرهم كله فى سعادة ونشوة واطمئنان ، هى مقدمة الجنة التى تنتظرهم عند الممات . هذه هى عاقبة المتقين المجاهدين ، وكرامة الله لهم فى كهولتهم ، يتحفهم بالزهرات . رزق الله ذلك نبينا محمدا عليه السلام وكثيرا من الصحابة وكثيرا من مشايخنا المجاهدين المخلصين : الشيخ الحاج ابراهيم الابريكى ، وهو من جيل والد أبى اليقظان ، ورفيقه فى الجهاد ، والشيخ الحاج عمر بن يحيى (1) ، والشيخ بيوض ، والشيخ أبا اليقظان ، والشيخ عدون بن باالحاج وغيرهم كثير فى وادى ميزاب وحده .

زواج السيد الحاج عيسى بأم أبى اليقظان

كان السيد الحاج عيسى صديقا لأسرة عائشة يكنون له الود العميق ، والاحترام الكبير ، لدينه وورعه ، ولشخصيته الكريمة ، ومقامه فى المسجد ، وأثره الحسن فى

(1) انظر تاريخهما العظيم وجهادهما فى الجزء الثانى من كتابنا نهضة الجزائر الحديثة ص 159 و 162 ط اولى فى الجزائر عام 1391 هـ 1971 م .

البلد والعشيرة . لقد كان من أعيان القرارة النابهين ، ومن العزابة البارزين ، ومن المصلحين الصناديد المخلصين ، وله مع هذا جمال فى الخلقة ، ونبل فى الهيأة زاد فى شخصيته ، ولفت الأنظار اليه ، وزاده حبا فى القلوب ، ولطفا فى النفوس .

وكان السيد الحاج عيسى بوعروة هو وكيل عائشة وأسرتها فى غياب أبيها . وكان يرعاهم أحسن رعاية ، ويحبهم كل الحب ، ويشبل عليهم كما يفعل لأهله وأولاده وهو عميد أسرة آل بوعروة لشخصيته القوية ، ولصلاحه وجهاده وخلقه الكريم . وكان صديقا حميما لوالد أبى اليقظان ، ربط بينهما الجهاد فى الاصلاح ، ومقاومة الظلم والجهل والفساد ، ومزج بينهما التماثل فى الأخلاق ، والتقارب فى السن ، والتلاقى الدائم فى المسجد ، والحب فى الله. وكان كل منهما يحترم الآخر ويعجب به وبأسرته ويتمنى كل منهما للآخر ما يحبه لنفسه ، فيسارع كل واحد منهما الى خدمة الآخر وقضاء حوائجه ، وادخال السرور الكبير عليه . وكانت عائشة تثق بعمها وتعتد بحصافته وذكائه وحسن اختياره . فرأت ملازمته لوالد أبى اليقظان ، وكثرة ثنائه فى الغيب عليه ، فزادته حبا واكبارا ، ولفت نظرها اليه ثناء عمها فازدادت ادراكا لجمال خلقه وبهاء خلقته وما حباه الله من حيوية قوية حتى فى كهولته تبدو فى كل أشيائه ، وما يشب جماله ويضاعفه من نور الدين ، وجلال العلم ، ووقار الصالحين الاصفياء .

وكان السيد الحاج عيسى والد أبى اليقظان فى الكهولة ولم يرزق ابنا يحمل وراثته ويواصل جهاده ، ويشبع غريزة الأبوة القوية فيه . فكل ما رزقه انما هى بنت من زوجته الثالثة . لقد أعاد الزواج مرتين ابتغاء الولد فلم يؤت الا بنتا واحدة . انها وان تكن حبيبة الى نفسه ، صالحة أنيسة مهذبة ، الا أن الأبناء هو ما يريد . انه ينظر الى الولد نظرة دينية اجتماعية ، فهم الذين يستطيعون خلافته فى هذا الجهاد الذى يقوم به فى المسجد وفى بلده وعشيرته ، وهم الذين يقومون بالأسرة بعده ، ويكونون له سندا وظهيرا فى شيخوخته ، لابد من البنين . وكان يرى أبناء أصدقائه وأسرته الكثيرين فيزداد شعورا بالحرمان من هذه النعمة الكبرى . فثارت غريزة الأبوة فى أعماقه ، فغطت على نفسه ، فصار الأبناء الصالحون هم كل النعم العظمى عنده وقد حرمها ، وهم كل أمله ، وكل السبب فى سعادته . فازداد لهفة الى الأبناء ، فزاد شعوره بالحرمان الشديد الذى يكسف النفس ، ويكدر الصفو ، ويشعر به المرء بالفراغ الفارغ فى دنياه ، وكأنها مهما قفر ليس فيها ما يرضى .

وكانت زوجته الثالثة امرأة صالحة مواتية ، ولكنها لا تحقق غرضه فى الولد فتنجب له ابنا . لقد عقمت بعد بنتها ، فكان هذا ما أزرى به عندها ، وجعله مستعدا

للازورار . وشاء الله أن يطلقها ليتزوج بولود منجب . وكان قد اختار عروسه وفتاة أحلامه وأيقن بحصوله عليها واسعاده لها . انها عائشة . الفتاة الجميلة الأصيلة التي وجد فيها العرق الولود المنجب ، وكل الصفات الطيبة التي ينشدها . انها في البلوغ ، فتاة قوية الجسم ، طويلة القامة ، قوية الأنوثة ، وهو في نحو الستين . ولكن الشباب ليس بقلة السن ولكن بكثرة الحيوية . انه في الحيوية العارمة كما يرام . ان قوة الشباب في وجهه الصبوح الأحمر الذي يسيل بالنضارة ، وفي مشيته المتدفقة ، وروحه المرحة ، وفي كل أعماله . سوف لا يجد نفسه بعيدا عن فتاته . ان أسرتها تحبه ، وهي تعجب به وتحبه ، ستقبله زوجها الحبيب . لقد طال عناؤه في الجهاد المرير الذي يخوضه مع حزب الاصلاح لتطهير البلد وميزاب ، وكده في العيش في الزمن الصعب القاسي . ان هواجر الحياة تصليه فلا بد له من سرحة زاهرة يتقلب في ظلالها ، ويحسو أريجها الفواح ، وثمارها الحلوة ، وترطي نفسه المفرمة بالجمال وتجدده لجهاده . ان ذلك لا يجده كله الا في عائشة . فدخل عم عائشة السيد الحاج عيسى بوعروة ذات يوم عليها في دار أبيها وهو ضاحك الوجه ، باسم الثغر ، يبدو فرحه الشديد في عينيه وكلامه وحركاته ، فسَرَّ والدتها بشيء واخبرها بالخطبة السعيدة فرحبت وابتهجت ، ثم أخبرت عائشة فرضيت وشرح الله صدرها لهذا الزواج الميمون فزفت في البخور والعطور والزغاريد والأغاريد والأفراح الغامرة الى زوجها السيد الحاج عيسى فاسعدها وأسعدته ، ومسحت عنه كآبة الحياة ومرارة الزمان ، وظفر في ظلها بعمر حلو سعيد يطلع من غرة زوجته الجميلة ، وظفرت في ظله بمثل ذلك ، وحققت أمله العظيم في الولد . فانجبت له ثلاثة أبناء صالحين وبنتا : مريم أم لقمان حمو بن عمر واخوته ، ويحيى ، ومحمد ، وابراهيم أبا اليقظان العظيم الذي حقق كل آماله في الحياة .

وفاة والد أبي اليقظان

لم يتمتع السيد الحاج عيسى بولده ابراهيم طويلا ، لقد وافاه أجله وابنه ابراهيم صاحب عام وثلاثة أشهر . فنشأ يتيما ليكون اليتم له كما كان للرسول عليه السلام عاملا حسنا في تربيته . وكانت وفاة والد أبي اليقظان في شتاء 1307 هـ 1890 م . وهو في العقد الثامن من عمره . وسبب وفاته هو الربو الذي أصابه في آخر عمره . فمات مطمئنا لأنه ترك أولادا صالحين ، وزوجة صالحة حازمة تحسن تربيتهم ، وتحقق

كل آماله فيهم . متى ولد أبو اليقظان ؟ وكيف نشأ ؟ وما هي المؤثرات التي بنت شخصيته العظيمة في طفولته ؟

ميلاد أبي اليقظان ونشأته

ولد أبو اليقظان ابراهيم في فصل الخريف الجميل في ميزاب ، فصل الثمار الجنية ، والنضارة الجميلة التي تكتسي بها الحقول الحالية بمزروعات الشتاء الشديدة النضارة ، الكثيرة البهاء ، وموسم النشاط والعمل والحماس . في هذا الجو العمل النشيط الجميل ولد في يوم 20 صفر 1306 هـ 5 نفامبر 1888 من أبوين كريمين كانا غاية في الصحة والقوة والحيوية . أما أبوه فكان في سن الشيخوخة في آخر العقد السابع ، ولكن في الصحة التامة ، والحيوية القوية ، وأمه في نحو الرابعة والعشرين في عنفوان الشباب وقوته وحماسه ، وتفاؤله . فأورثاه قوة الجسم وكل خصائصهما . فكان مثل أبيه وأمه في شخصه وشخصيته . لقد كان مثلهما طويل القامة ، أبيض اللون تشوبه حمرة ، جميل القوام ، حديد البصر ، سالم الحواس ، جميل الخلقة والخلق . وورث منهما كل صفاتهما الاسلامية العالية فظهرت فيه منذ طفولته الاولى . وقد فرح أبواه وأسرته بميلاده فرحا عظيما ، وتوسموا فيه الصلاح والذكاء وأخلاق الرجولة . ولما كان والده مريضا مرض موته كان ابراهيم طفلا يحبو وكان شديد الحب لوالده ، فيحبو اليه وهو طريح الفراش ، فيجثم على صدره ، ويتمسك به ، فيحاول والده أن يزيحه عنه بيده المرتعشة فلا يذهب ، فيقول لأمه : هيا ارفعي ابراهيم . انه جرىء مقدام « ان فراستي فيه أنه اذا أحياه الله فسيصدر منه للأمة خير عظيم ! » هذا ما رواه لي الشيخ أبو اليقظان حدثته به أمه .

وكان أبو ابراهيم يحب ابنه ابراهيم حبا شديدا . لقد مد الله في عمره حتى رزق الأبناء الصالحين الذين تمنى . كانوا ثلاثة أبناء ، أكبرهم يحيى ثم محمد وبنت قبلهما شقيقة لهما تسمى مريم ، وابراهيم هو الرابع من أبويه . وكان أبو ابراهيم يتمنى أن يشفيه الله من داء الربو الذي أصابه في آخر حياته ، فيقوم هو بتربية أولاده وتعليمهم الى أن يكونوا رجالا صالحين ، ولكن الله يؤثره اليه ، فتوفي وابراهيم ابن عام وثلاثة أشهر . فصار هو واخوته الصغار يتامى . ان عمر يحيى أخيه الكبير سبع سنين لما توفي والدهم ، ومحمد خمس سنين . ولكن الرجل الذي قضى جل حياته وهو وكيل للبيتامى يحسن رعايتهم وتأديبهم ما كان الله ليضيع أبناءه . لقد أتاح الله

لهم أمهم الحازمة الصالحة الذكية ، وجدتهم من أمهم الحاذقة الجسور الحنون ، والرجل العظيم الشيخ الحاج ابراهيم الابريكي (I) الذى اختارته الأسرة والعشيرة وكيلا لهم فأحسن الرعاية • وقد يكون السيد الحاج عيسى هو الذى اختاره فحجر أولاده اليه • فتعاون هؤلاء جميعا على تربية الأبناء وتربية ابراهيم ، فعكفت الأم وجدتهم على تنشئتهم نشأة حسنة ، وكفالتهم كفالة طيبة ، فشبوا فكانوا كلهم رجالا صالحين •

وكانت السيدة بية بنت على بكوش جدة ابراهيم من أمه تسكن وحدها فى دار زوجها ، فلما تأيمت ابنتها عائشة ، وصار لها عدة يتامى ، أرادت أن تعينها على العيش والتربية ، فانتقلت الى دار ابنتها فسكنت معهم • وكان لهذه الجدة أثر عظيم فى أحفادها أبى اليقظان واخوته ، والشيخ أبو اليقظان حدثنى كثيرا بفضلها عليهم ، سيما فى التربية الحسنة القوية • واذا قلت فى هذا الفصل الجدة فهذه الجدة البارة أريد • فهى الجدة الوحيدة التى أدركها ابراهيم أبو اليقظان •

اباحة الحكام الجبابرة أموال المصلحين للمفسدين وعيثهم فيها ومجاعة القرارة الشديدة

كان السيد الحاج عيسى والد أبى اليقظان فقيرا • كان فلاحا ، ليس له مورد يتمعش به غير الفلاحة فى بلده • انه يملك بعض نخيل وأرضا صغيرة ، ويفلح أيضا فى غابات وأراض لغيره ويعطيهم الخمس من غلة الأرض ، والنصف من تمر النخيل • وكان الزمان فى العهود التى أعقبت زواجه بعائشة عسيرا ، والفتن كثيرة ، والجدب يصيب القرارة فيستمر سنين ، فتنضب الآبار ، وتقل الزراعة ، وتعقم النخيل والأشجار • وكان حكام القرارة الجبابرة ومعهم الاستعمار العسكرى الغاشم يجهدون للقضاء على النهضة الاسلامية الحديثة التى نشأت فى القرارة فترعرعت • وكان الصراع فى هذه العهود فى آخر القرن الثالث عشر الهجرى وأول القرن الرابع عشر وهى العقود الثلاثة الأخيرة من القرن التاسع عشر المسيحى وما بعدها• كان الصراع على أشده فى هذه العهود بين الصلاح والفساد والظلم والجبروت فى القرارة • وهى الأزمنة التى تلت زواج السيد الحاج عيسى بأم أبى اليقظان ووضعت فيه كل أولادها

(I) هو الوبى العظيم . احد زعماء النهضة الحديثة فى القرارة . انظر تاريخه العظيم فى الجزء الثانى من كتابنا نهضة الجزائر الحديثة ص 159 ط أولى فى 1391 هـ 1971 فى الجزائر

الى أن توفى زوجها · كان الصراع بين حزب الاصلاح وحزب الفساد فى القرارة على أشده · وكان الاستعمار العسكرى فى الجنوب ينفخ فى نيران حزب الفساد ، ويقويهم بكل وسائله فبلغوا النهاية فى الضراوة على المصلحين (1) ·

وكان السيد الحاج عيسى والـــد أبى اليقظان من كبار المصلحين فى القرارة · فاستهدفه الحكـــام الجبابرة هو وصحبـــه المصلحين الكثيرين فى أنفسهم وأموالهم ، فاباحوا القرارة لجيش من المفسدين يسرقون أموال المصلحين ، ويفسدون مزارعهـم ، ويقطعون الطريق على القوافل التى تمتار للقرارة أو تصدر منها · فوقعت القرارة فى بلاء عظيم وشر كبير ، فقلت فيها الأقوات ، وانعدمت الميرة ، فوقعت فيها وفى البوادى التى تحيط بها مجاعة شديدة ·

وكان اغلب ما يقتات به الناس فى تلك العهود فى القرارة وميزاب انما هو التمر الذى تنتجه نخيلهم · وهذه قد عقمت بالجدب الطويل الذى يبتلى به الله الأزمنة التى يكثر فيها الظلم والفساد عقابا وتاديبا · واذا أثمرت شيئا يأتى عليه اللصوص ، أو يفسدونه وهو بسر لم ينضج · ولا تستطيع القرارة أن تستورد ما يكفيها مـن الخارج لخوف الطرق وكثرة اللصوص فى الطرق المؤدية اليها من كل الجهات ، سيما جهـــة الشمال الذى تمتار منه عادة فى أيام الجفاف ، فوقعت فى بلاء عظيم ، فابتليت بالمجاعة الشديدة ، فأكل الناس نشارة الخشب ، وكاس الدرة ، وهو الحطب الذى يلتصق فيه حبها ، وصنعوا من طحين البسر الأخضر خبزا يتبلغون به ، وأكلوا ما يمكن أن يؤكل لسد الرمق ، وقشروا حيطان خوابى التمر بآلات الحديد فأكلوا ما فيها ، لانعدام التمر وما يقتاتون به من شعير وبر · وكانت الخوابى فى العادة ممتلئة ، تنفد أنواع المـــيرة كلها الا التمر ، لأن النخل كثير فى ميزاب والقرارة ، والميزابيون يحسنون الفـلاحة والقيام بالنخلة ، وتمر ميزاب لجوه الرائق الضحى ، وتربته الكريمة الصالحة أجـود التمر، يعمر أعواما كثيرة قد تبلغ الأربعين عاما وهو فى الخابية محتفظ بجودته لا يفسد، وانما يكون عسلا فى الخابية ، قد زادت حلاوته ، واحمر لونه · وكان الميزابيون يبنون خوابيء عميقة فى ديارهم بالجبس والجير ، ويطلونها بالرب بضم الـراء ، وهو التمـر يغـلى حتى يصير عســـلا ، فتنعدم شقوقها وما يمكن أن تتسرب منه ندوة أو هواء ، فيملؤونها بالتمر ويغطونها · وخوابى ميزاب واسعة عميقة كالبئر القصـيرة ، منها

---

(1) انظر تفصيل هذه المعارك الطاحنة الطويلة فى كتابنا (نهضة الجزائر الحديثة) الجـــزء الثانى فى صفحة 187 وما يليها ط الجزائر فى 1391 ـ 1971

ما يحمل خمسين قنطارا وأكثر . وفي كل دار عدة خوابي على حسبها في الغنى ، تملأ في سنى الخصب فيأكلون منها الأعوام الكثيرة ، يستخرج منها التمر يسيل بالعسل ، من أكل منه لا يحتاج الى غذاء آخر . وفي هذا العهد الذى نتحدث عنه أبيحت القرارة للصوص والمفسدين وأذناب الاستعمار سبـــع سنين ، فنفدت الخوابي فقشر الناس حيطانها بآلات الحديد فأكلوا طلاءها ، وما التصق بها من التمر ليسدوا به الرمق . لقد حكم الاستعمار اللاتينى العسكرى الحقود وأذنابه الحكام الجبابرة العتاة على القرارة بالاعدام ليخنقوا أنفاس الاصـلاح والنهضة فيها . وكان المصلحون أكثر حاجة لأن أموالهم أبيحت أكثر فاستهدفها المفسدون.وكان السيد الحاج عيسى والد أبى اليقظان فقيرا من قبـل فزادت عهود البـلاء في حاجته . وكان قد تـزوج أم أبى اليقظـان فابتلوا بالفقـر الشديد . وكان الجـوع الشديد يلـح عليها وعـلى اولادها الصغار فيصرخون حولها فيفتتـون كبدها فتقول لوالدهم : هـلا أتيتنا بتمـرات نسكت بها الأولاد ونسد بها الرمق ! فينظر اليها في حنـــان وحزن شديد فيقول لها : من أين آتيك بالتمر يا حبيبتى . انك تعرفين الأحـوال وشـدة الحاجة العامـة . أذهبى الى الخوابى فقشرى حيطانها وتبلغوا بها ، فتفعل المسكينة . ودام هذا البلاء وهذه المسغبة على القرارة سبع سنين . وما كادت تنجـلى ، ويبتدىء الفرج ، فتشرق وجـوه الناس بالنضارة ، ويظفرون بملء البطون من خيرات الغابة حتى أصيبت أم أبى اليقظان بوفاة زوجها ، فعاد اليهم الفقر فخيم على دارهم ، فالتصلت آلام الأسرة بشدة الحاجة ، وعرف ابراهيم في طفولته الاولى مرارة الدموع التي يشرق بها من شدة الجوع ، وعرف الفقر في طفولته وشبابه ليهيئه الله بالفقر الذى يربى به الأنبياء والزعماء لنبوىء المراتب العاليـــة .

لم تستسلم السيدة عائشة أم أبى اليقظان وجدته السيدة بيـة للفقر ليبتلعهما وأولادهما بالمسكنة ، بل ضاعفتا الجهود لمكافحته ، فلازمتا منسجهما يصنعان أثـواب الصوف وغيرها ببراعتهما . فكانا يبيعان منها في كل شهر ما يكفـى حاجات الأسرة ، فحفظتا ماء وجه أسرتهما ، ولم تخفض ذلة الحاجة الشديدة رأس ابراهيم واخـوته ، واستمر كفاحهما وحسن تدبيرهما الى أن شب أولادهما فعالوا أنفسهم .

وكانت السيدة عائشة وأمها مثالا في التقـوى ومخافة اللـه ، وألفة النفـس ، والاتكال على الله . وكانت الأسرة كلها أسرة الدين والطهر والعمل ، فرزقها الله من حيث لا تحتسب ، فنظر اليها المحسنون العديدون سيما من عشيرتهم عشيرة البلات ،

فكانوا ينفحونها بالهبات من زكاة أموالهم وغيرها ، فيرسلون اليها اللباس والدراهم والميرة ، ويطرفونها ببعض الطرف التى تدخل السرور على الأطفال سيما فى الأعياد ، يفعلون ذلك فى سر واعزاز للعائلة ، واكراما لها لرفعتها فى نفوسهم • فاستطاعت أم أبى اليقظان بجدها وحسن تدبيرها أن تقطع الأعوام السود ، وتنشىء أبناءها أعـــزاء شرفاء رافعى الرءوس •

وقد صبرت أم أبى اليقظان لفقر زوجها الشديد لوفائها ، وحسن تربية آلها لها ، ولحبها الشديد لزوجها • وبدا كرم نفسها وشدة وفائها لزوجها وأولادها فى صبرها على الضرة لما تزوج عليها والد أبى اليقظان ، ومال الى زوجته الجديدة بعض الميـل فى آخر عمره وهو ما يثير النساء ويؤجج غيرتهن فيكثر الخصام ، ولكن أم أبى اليقظـان تقابل الضرة بالسكون والحكمـــة ، وتجارى زوجها فيما اختار لنفسه • من هى هذه الضرة ؟ وما هى الأسباب التى حملت والد أبى اليقظان على زواجها • انه راض عـــن زوجته أم أبى اليقظان • لقد وجد فيها ما لا يجد فى غـــيرها من جمال الخلقة والخلق ، واسعدته السعادة الكبرى • لماذا تزوج عليها • لقد كان أبو اليقظان شديد الصلـــة بهذه الضرة فى طفولته وشبابه وهى ممن أثر فيه آثارا حسنة فلا بد من ذكرها •

كـرم نفس أم أبى اليقظان مع ضرتها وشـدة برها وحبها لـزوجها

كانت السيدة لُأَلَّة (1) بنت عبد الله كُعَيْبُرْش الفرارية من عشيرة البلات الكريمة امرأة صالحة تقية عابدة ورعة ، تلازم المسجد فى أوقات الصلوات والدروس ، وتصوم النافلة ، ولها أورادها العديدة التى تذكر الله فيها كثيرا فى يومها • وكانت شديدة الحب للخير وللاصلاح والمصلحين • وكانت فى الخمسين من عمرها ، قوية الجسم ، غضة الاهاب ، ناضجة الشخصية ، مدبرة حكيمة • وكانت قد تأيمت من زوجها ، وهى عقيم لم تلد • وكانت غنية لها عدة بساتين واسعة تليق للزراعة ، ونخل كثير ، فلا بد لها من قيم حازم أمين نصوح يقوم بمالها ويؤنسها فى وحدتها • وكان الزمان على العسر

(1) لألة اسم إبربرى معناه السيدة ويعنـــون به السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها وكانوا لا يذكرونها الا بالسيدة فلما علما عليها عندهم فاكتفوا به فى التسمية ولما فيه من اكبارها وعلى السيادة !

والجدب الذى وصفنا ، والفلاحون يتهافتون على الغابات فى النواحى التى فيها ماء فى آبارها • وكانت غابات السيدة لالة فى النواحى التى يرغب فيها الفلاحون ، ولكنها تريد قيماً دائما يقوم بمالها على أنه ماله ، وينتفع به انتفاعا يكون لها به أجـــر عظيم عند الله • ويكون أهلا لهذا الانتفاع الذى هو غنم عظيم فى تلك العهود •

وكانت السيدة لالة تعرف السيد الحاج عيسى والد أبى اليقظان وورعه وحزمـه وحسن تدبيره ، ورغبة الناس فيه ليكون وكيلا لهم ، لأمانته ، وعمله لله ، ومسارعته الى خدمة الناس وانتشائه بذلك ؛ وتعرف كثرة عياله وفقـره ، وحاجته الى بساتـين يتسع فيها فى فلاحته • انه أولى بهذه الغنيمة ، لمقامه فى المسجد ، وأثره الحسـن فى البلد والعشيرة ، ولمقامه الكبير فى نفسها ونفوس القرارة كلها ؛ فـــرغبت ان يكون زوجا لها يؤنسها فى وحدتها ، ويسعدها فى آخر عمرها • انها عقيم تسكن وحدها فى دارها الواسعة المؤثثة بأحسن الأثاث ، ويكون قيما عليها وعلى مالها • انه هو الكفء اللائق بها ، وهو أولى بالتمتـــــع بمالها ، والتقلب فى دارها الجميلة ، وفى أحضانها العطرة • ان زواجه بها لا يضر زوجته أم أبى اليقظان ، بـــــل يجديها بما تدر عليهم أموالها ، فتزول عنهم شدة الحاجة ، وعسر الزمان القاسى الطويل • ان أم أبى اليقظان حسنة العشرة ، واسعة الصدر ، بيضاء القلب ، عظيمة البر لزوجها ، شديدة الحب له ، لا تخالفه ، يروقها ما يختاره • ستكون أحسن رفيقة لها ، وأنيسة لها مـــع زوجها • وان لها أولادا مهذبين هادئين كالرياحين، سيكونون أولادها الأعزاء، وتكون أمهم الرءوم تجد فيهم شبع غريزة الأمومة القوية المحرومة فى نفسها • انها ليســـت كالعقيمات المسنات ، يكرهن الصبيان ، ويبعثهن الحسد والحرمان على النفـــور من الأطفال • ان والد أبى اليقظان منها من عشيرتها وبلدها يلتقيان فى جد واحـــد • فزوجته اختها الحبيبة ، وأولادها ابناؤها الأعـــزاء • ســـوف لا يكون لها اى حـــرج ولا لوالـد أبى اليقظان وأسرته من زواجـه بها ، فحدثت برغبتها بعض أسرتها الحكماء الصالحين ، فحدث بها والد أبى اليقظان ، فـــرأى لها ولأسرته ونفســـه كل ما رأت ، ثم انـه فى الشيخوخة ، وقد كثر أولاده فسوف يكون فى حاجة الى مكان هادىء يريح فيه أحيانا أعصابه ، وانسان على مزاجه قريب من سنه ينسجم به كل الانسجام فيزداد سعـادة به • ان دار السيدة لالة هى ذلك المكان ، وهى ذلك الحضن الهادىء الذى يسكن اليه• ثم انها أولى بخدمته والقيام بأموالها ، لورعها ، وملازمتها للمسجد • انهـا مسجدية مثله • فحلت فى نفسه كما حل فى نفسها ، ولم تمانع زوجته أم أبى اليقظان بوأمهـا لما عرض عليهما الأمر ، بل نظرتا اليه بدينهما وحصافة عقولهما ، وشدة حبهما لـه ،

واشفاقهما عليه وعلى الأسرة مما يكابدون من شظف العيش وعسر الزمان · فوقع الزفاف المبارك ، فعاشرت أم أبى اليقظان ضرتها أحسن عشرة ، وكانت تسكن معها فى دار واحدة هى دار والد أبى اليقظان ، واتخذتها أختا وأما ، وعرفت لها مقامها وسنها ، كما أعزت السيدة لالة ضرتها الشابة الجميلة وأحبتها ، وحنت عليها ، وتسامحت معها فى كثير من حظوظها من زوجها ، وأحبت أولادها حبا جما ، فأعانتها فى تربيتهم ، وفى نفخ الوجدان الدينى القوى فيهم ، وغرست فيهم مع والدهم وأسرتهم شدة الحب للمسجد ، والغرام الكبير للعلم ، وكل ما يقربهم الى الله · كما تعلموا منها أيضا سعة الصدر ، وحسن العشرة ، فصارت لهم قدوة فى هذه الخلال مع أبيهم وأمهم وجدتهم ·

وقد ذكرنا هذه المرأة الطيبة زوجة والد أبى اليقظان لأنه قد عاشرها اخوة شيخنا أبى اليقظان فى طفولتهم الاولى فتركت أثرا حسنا فى نفوسهم ، أجدى أبا اليقظان كل الجدوى · ان طيبة نفس أخيه الكبير يحيى الذى سيحرص هو على تعلمه ، وسماحة أخلاقه ، وشدة حبه للمسجد من والديه وأجداده ، ومن هذه المرأة الطيبة التى أكدت ما غرست وراثته الزكية وأبواه فيه · وعاشرها أبو اليقظان فى الطفولة والشباب فتركت فيه أحسن الآثار ·

ثم اننى قد تعرضت لها لنرى كرم نفس أم أبى اليقظان ، وذكاءها ، وقوة قلبها وشدة برها وحبها لزوجها · ان المرأة الميزابية معتدة بنفسها كل الاعتداد ، تكره الضرة وتعاف أن يتزوج عليها زوجها · ان المرأة الميزابية تشترط على الزوج فى عقد النكاح أن لا يتزوج عليها الا برضاها · فان فعل بغير رضاها كان طلاقها بيدها ، تستطيع أن تطلق نفسها ، والرجل الميزابى وقور وفى لزوجته ينظر الى الزواج بدينه وعقله الحصيف ووفائه لزوجته الاولى ، لا يقدم على الضرة الا للضرورة · وليست المرأة الميزابية متاعا رخيصا فيتزوج عليها بسهولة ، وتقبله الميزابية لتكون ضرة لأخرى بسهولة · ان لأم أبى اليقظان من شبابها الغض ، وجمالها البارع وصلاحها وكرم عرقها ويدها الصناع وخصائصها الأخرى ما يجعل كثيرا من الرجال الاكفاء يرغبون فيها لو طلقت نفسها، ولكن والد أبى اليقظان هو حبيب نفسها، وأب أولادها· انهم وشائج أخرى قوية تربطها به · ثم انه لم يتزوج عليها الا نظرا لها وللأسرة كلها· لو كان الدافع له الى الزواج هو شهواته وشدة الرغبة فى المتعة الحسية لوجد فيها هى أضعاف مايجد فى ضرتها · انها فى العقد الثانى من عمرها فى نحو العشرين أو أكثر من ذلك بقليل ، فى ربيع العمر ، وفى ذروة جمالها ، ونضرة عودها · ان غرضه غير المتعة الحسية ، بل ضرورات أخرى يجب أن تراعيها معه · انها قرينة حياته ، فلزام

أن ترفع أعباء الحياة معه ، وهو زوجها الحبيب فواجب عليها أن تنظر له ، وتحرص على راحته ورضاه عنها . ان رضاه وهو البر التقي ، والزوج الوفي من رضى الله ، وهو أقصى أملها في هذه الحياة .

ان السيد الحاج عيسى قد يكون قصد أيضا بزواجه هذا أن يخضع زوجته الشابة الجميلة التي يمكن أن تدل عليه في شيخوخته بشبابها وجمالها . وقد حدثني الشيخ أبو اليقظان بهذا ، ولكن الاسباب الاولى هي الدافع الكبير . واذا قصد والد الشيخ أبي اليقظان هذا الاخضاع الذي تأباه امرأة أبية كالسيدة عائشة وأمها ، فانهما رضيتا بزواجه ، مما يدل على الوفاء البالغ ، والحب العظيم ، والطاعة التامة للزوج ، فعاش مع زوجته الجديدة في سعادة ومتعة ، وخف على أسرة عسر الزمان ، وكان له من زواجه الأخير كل ما أراد .

وقد سكنت السيدة لالة بنت عبد الله كعبوش مع ضرتها في دار زوجها الى آخر عمره ، لكثر أولاده والضجيج في بيته ، فاحتاج الى بعض السكون في دار هادئة ، فاستقلت في دارها ، على علاقة حسنة بضرتها ، وبر كبير لها ولأولادها .

وقد اختار عزابة القرارة هذه المرأة السيدة لالة لصلاحها وذكائها وقوة شخصيتها ، وحسن تدبيرها ، وشدة حبها للخير فكانت عضوا في المجلس الديني للنساء (1) فأجدت كل الجدوى، وتركت آثارا حسنة في المجتمع النسوي وفي المسجد ، ودامت زمنا طويلا في وظيفها الديني الرفيع الى أن توفيت رحمها الله .

وقد عمرت طويلا هذه المرأة الصالحة بعد وفاة زوجها والد أبي اليقظان . فرأت أبناء زوجها رجالا صالحين ، ورأت ربيبها أبا اليقظان عالما مصلحا يرفع راية العلم والدين ، فسعدت كل السعادة بما ترى . وكان الشيخ أبو اليقظان يحبها ويجلها ويثني عليها . وقد حدثني عنها وعلامات الرضى والمحبة والاجلال بادية عليه . وكان يزورها في دارها وتزوره في داره ،فتثني على جهاده في الاصلاح ، وعلى مواصلته سيرة والده في سبل الخير ، وترى آمال زوجها العظيمة يحققها ابنه أبو اليقظان يرحمهم الله جميعا .

وقد ذكرنا هذه المرأة لانها جزء من أسرة أبي اليقظان التي عاشرها في طفولته وشبابه فأثرت فيه ، فكان على الورع ، وعلى مخافة الله التي اتصف بها في كل أدوار

---

(1) انظر حقيقة المجلس الديني للنساء ووظائفه وأثره العظيم في المجتمع الميزابي في الجزء الاول من كتابنا (لمحة الجزائر الحديثة) ص 228 ط اول عام 1385 هـ 1965 م

عمره ، فكان الطاهر النقي ، الصالح الزكي رضي الله عنه ، ولأن زواج والده أبي اليقظان على أم أبي اليقظان ورضاها هي وأمها وحسن عشرتهما للضرة يدل على نفوسهما الكريمة ، وأخلاقهما الاسلامية الرفيعة التي ورثها أبو اليقظان فكان على الصفاء والتواضع وحسن العشرة لجميع الناس . ليت النساء يقتدين بهما في محبة الزوج والوفاء له ، فانهما سبب السعادة الزوجية ، ورضى الله الذي ينيل كل الخيرات في كل حين . والآن هيا الى أم أبي اليقظان وجدته لنرى آثارهما فيه .

المنـــزل والبستـان
وآثارهـما العظيمة في أبي اليقظان

كانت السيدة عائشة بنت الحـاج احمد بوعروة والدة ابراهيم أبي اليقظان وأمها السيدة بية متصفتين بالتقوى والورع ، وبشدة الغيرة على الدين ، ومخافة الله ، تراقبان الله في كل أمر ، وتذكران الجنة وجهنم في كل الأعمال . وكانا يعتقدان أن الله سيحاسبهما على تربية الأبناء ، فصلاحهم لهما وكذلك العكس ان كان . وكانت أم ابراهيم أبي اليقظان ومعها جدته في كل الأعمال التربوية التي تقوم بها وفي كل الصفات . انها معها في دارها ، سكنت معها لتعينها في التربية وفي أعباء الحياة . فاذا قلنا الأم فقد قلنا الجدة أيضا لانها معها في كل أنواع التربية ووسائلها وقد هربنا من ضمير التثنية لثقله على اللسان وآثرنا الاقتصار على ذكر الأم . كانت أم ابراهيم تعتد بأبنائها كل الاعتداد ، وتعلق فيهم آمالها العظيمة . انهم بعد أبيهم سلوتها الكبرى ، فتريدهم على الحسن في كل أفعالهم سيما في السلوك ، وهم ذخرها في الحياة ، وعماد الأسرة ، وسندها في الشيخوخة . فلزام أن يكونوا رجالا صالحين سعداء أقوياء . ان الأسرة في حاجة الى عملهم ، فيجب أن تتخذ كل وسيلة لتعجل بنضوجهم ، فيحملوا أثقال الأسرة ، ويكونوا رجالا يحيا بهم الدين ، ويعمر بهم الوطن . هذا ما يريده والدهم ، ويوصيها به . فلا بد أن تنفذ وصية زوجها الحبيب، وتحقق كل آمالها فيهم ! فكانت حازمة حكيمة في تربيتهم ، حريصة كل الحرص على صلاحهم ، فغرست فيهم من الطفولة الأولى كل الأخلاق الاسلامية . غرست فيهم العقيدة الدينية ورسختها فيهم بكل وسائلها ، بوجدانها الديني القوي الذي يتدفق عليهم في كل حين ، وبهيئتها الاجتماعية الطاهرة في دارها وبلدها التي يسيطر عليها الدين . ويسمع فيها الأطفال في كل وقت نغمة الدين ، وهذا حلال وهذا حرام ، وهذا

واجب يورث الجنة ، وذلك محظور يدخل جهنم ،، فملأتهم بخشية الله منذ الطفولة ، وعلمتهم مراقبة الله فى كل شىء ، بايحائها القوى وأعمالها التى يقلدونها ، وبما يقع فى دارها فانه كما يأمر الله • وراقبتهم فى لعبهم وخروجهم ، فنهتهم عن قرناء السوء ، ووصلتهم بالزملاء الصالحين • وعرفت بتعليم زوجها وأمها وبيئتها الاجتماعية الحريصة على الصلاح : أن الأم قدوة الأبناء فى كل الأشياء ، فازدادت تمسكا بالرشاد فى أمورها ، فكان أبناؤها مثلها •

وغرست فيهم بكل الوسائل العملية والنظرية التى يفهمونها اخلاق الرجولة : الحزم والصبر ، والارادة الحديدية ، والشجاعة ، والاقدام ، والأمانة ، والقناعة ، وحسن العشرة ، وغرست فيهم حب العمل ، والاعتماد على النفس والثقة بها ، والطموح الى المعالى ، والأنفة ، وعلو المهمة ، والغيرة على الدين والوطن ، وكل الأخلاق الاجتماعية الأخرى ؛ فعلمتهم التضحية ، والاعتناء بمصالح الناس ، وعودتهم المسارعة الى خدمة الجيران ، وخدمة المسجد والعشيرة اذا ندبوا الناس الى الخدمة العامة لأحدهما ، وكذلك البلدية فى خدماتها العامة التى تخرج فيها المدينة ، وعلمتهم التواضع ، ولطف الحاشية ، وامتلاك القلوب بالاحسان ؛ غرست فيهم كل الأخلاق الحسنة بالوسائل الحكيمة الناجعة ، وبحبها الشديد لهم ، فأحبوها واقتدوا بها ، وبحزمها فرهبوها وخشوا صولتها • « وكانت اذا تمرد أحد تجلده بالعصا ، وتهدده بتعليقه من رجليه فى السقف ، فترفعه من رجليه تتظاهر بتعليقه » حدثنى بهذا شيخى أبو اليقظان عن أمه فى تربيتها له ولأخوته •

وكان أولادها الاربعة : مريم ويحيى ومحمد وابراهيم متقاربين فى السن • انهم كلهم فى الطفولة ، فمريم فى العاشرة من عمرها ، ويحيى فى الثامنة من عمره فى الطفولة الثانية ، ومحمد فى الخامسة فى آخر الطفولة الأولى ، وابراهيم أبو اليقظان فى عامه الثانى فى أول الطفولة الاولى ، فاعتنت بتربيتهم جميعا • وكانت مريم لما شبت تعين أمها فى شئون الدار ، وفى حضانة ابراهيم • وكانت قد غرست فيها أمها وجدتها صفاتهما الحسنة • فكانت أحسن قدوة لاخوتها الصغار ولابراهيم تركت فى نفسه آثارا حسنة • وكانت أم أبى اليقظان توقن أن يحيى ابنها الاول هو قدوة أخويه ، فملأته بالصلاح ، فكان قدوتهم الحسنة ، أحبه ابراهيم حبا عظيما فاقتدى به ، فأكد فيه ما غرسته أمه ، وكان عونا لها فى تربيته ، ومن أشخاص الأسرة الذين أثروا فيه التأثير العميق مع جدته يرحمهم الله جميعا •

ومع الام الصالحة جدتهم فى هذه التربية كلها · فنشأوا على الطهر والصلاح ، وعلى القوة فى نفوسهم وأجسامهم ، فكانوا صلحاء عاملين · وكان ابراهيم بطلا مصلحا وعالما عاملا ، ونور أمته وجناحها ، وسلاحها وحصنها بفضل تربيته الأولى فى منزله الصالح ، وبيئته الاجتماعية الميزابية الطاهرة فى بلده ، وبحسن نية أمه وجدته فيه ، وتقواهما ، وصبرهما لمرارة الزمان والتأيم والفقر فى تربية الأبناء ، فجازاهما الله بالولد العالم المصلح الذى هو أعظم نعمة فى الوجود ، لا يهبها الله الا للصفوة الخيرة الطاهرة ، فقرت عينهما فى الحياة وفى الممات يرحمهما الله ·

وكانت السيدة عائشة تغالب الفقر وعسر الزمان الكالح بجدها فى المنسج ، وبالتدبير الحكيم · ولما توفى والدها بعد وفاة زوجها بقليل ورثت منه مالا · وصار لها قسط فى حمام (التبانين) فى تونس ، فكان يأتيها منابها فى كل عام من دخل الحمام فتنفقه على أولادها · ودام جهادها فى سبيل العيش والتربية الى أن شب ابناؤها ، فنجت بهم الى بر السلامة . وضفة النجاة ، وحفظت ماء وجهها ، وأنشأت أبناءها أعزاء أعفاء · وعاشت أم أبى اليقظان طويلا ، وبارك الله فى عمرها حتى ناهزت الستين فجنت ثمار تربيتها العظيمة ، وقطفت نتائج صبرها وتضحيتها ، فرأت ابنها عالما ومصلحا عظيما ، ومن زعماء النهضة الحديثة ، وكاتبا شاعرا ، وصحفيا مجاهدا يرفع راية الدين ، ويزلزل أركان المفسدين والظالمين ؛ وشاهدته شخصية بارزة فى الجزائر والمغرب ، تلهج الألسنة عليها هى بالثناء والحمد لحسن تربيتها، ويثنى على أعماله وجهاده كل الأخيار الصالحين ، وهى أعمالها وجهادها ، لأنها كانت بتربيتها وحسن نيتها ، فقرت عينها وسعدت السعادة الكبرى بشرف الدنيا ، وأجر الآخرة الخالد · ووافتها منيتها وهى آمنة مطمئنة ، تودع دنيا طيبة وتستقبل الآخرة الزاخرة بالنعيم الدائم ·

وكان الشيخ ابو اليقظان يحدثنى عن أمه ووفاتها ، فظهر الحزن الشديد فى صوته ، فتوقف عن الكلام ، ثم قال لى ووجهه محمر يحتقن بالبكاء : « لقد رثيت والدتى العزيزة بقصيدة هى فى ديوانى » سنختم هذا الباب ان شاء الله بهذه القصيدة الحارة التى صور فيها شيخنا أبو اليقظان بعض حبه لوالدته ، واعترف فيها بفضلها الكبير عليه · يرحمها الله ·

اليتـم والفقـر وأثـرهما الحسن
في الأنبيـاء والزعماء وفي أبي اليقظان

نشأ ابراهيم يتيما فقيرا فذاق مرارة الدهر منذ الصبا ، وطالعه الزمان بالوجه الكالح منذ الحداثة ، فعاد ذلك عليه بالخير العظيم ، والنفع الجزيل . لقد بعثه الشعور بالضعف في الماديات على تقوية نفسه ، والاعتماد على عمله ، فنشأ قوى الأخلاق، طموح النفس ، حديدى الارادة ، شجاع القلب شجاعة خارقة ، مستعدا لمنازلة الأهـوال ؛ وطبعه اليتم والفقر بقوة الوجدان ، وشدة الشفقة على الناس ، فضحى بحياته وكـل جهده لمنفعة سواه ، وشعر بآلام أمته ، فكان في الايثار والتضحية لاعلاء كلمة اللـــه ، وللنهوض بأمته الاسلامية الكبرى في أعلى مكان . وغرس فيه الفقر واليتم التواضـع للناس ، ولين الجانب ، ودماثة الخلق ، ورقة الحاشية . هذه الأخلاق الاسلامية العظيمة التي كان مثالا فيها ، فأحبه الناس في كل أدوار عمره ، وعاش مبجلا في كل أطواره . فلو كان ابن الغنى والترف والتدليل لكان كأغلب أبناء الترف المدللين ، فظا جافيـا متكبرا كسولا خاملا ، وعلى كل ما تتصف به هذه الحماة التي تنتجها الغدران الراكدة : أبناء الأغنياء المدللين الفاسدين الذين هم ثُمَّلُ الأمة يعيش في ظهورها ،ويمتص دماءها، ويورثها أمراضها وحتوفها .

لقد جعل الله نبينا محمدا يتيما فقيرا وكذلك كثير من الأنبياء والزعماء ليهيئهم بذلك للزعامة ، لأن مرارة الدهر التي يتجرعها الانسان طويلا هي التي تخلق في نفسه حلاوتها ، شخصيته العظيمة الناجحة . والزعيم العظيم لا بد له من ظلامين طويلين يلتفان عليه في زمان نشأته ، أحدهما في أرحام أمه لبناء جسمه ، والثاني من عبوس الزمان ومرارته في صباه وشبابه لبناء شخصيته ! فاذا لم يبتل في حياته بمـــرارة الدهر كان سقطا تجهض به الدنيا يعيش ناقصا او ميتا طول الحياة ، لا ذكر له ولا أثر له في حياته . واذا سكب ابراهيم ابو اليقظان دموع اليتم والفقر وغص بمرارتها فلتشفيه من الضعف والمرارة ، ومن كل أسباب التعاسة والخيبة في الحيـــاة . وماذا بناه فأحسن بناءه في كل نواحيه مع العوامل الحسنة التي ذكرنا ؟ انه عمله ونشاتـه في البستان !

أثـــر الجدة والبستان في أبي اليقظان

كانت جدة ابراهيم السيدة بِيَّة شديدة العناية بتربيته ، قد أعانت أمه في كـل

ما غرسته فيه من أخلاق الرجولة ،وعلمتهالعمل فى البستان والغرام بالأجنة · لقد كانت فى جلدها ونشاطها وشدة حبها للعمل فىالبستان كما ذكرنا· وكانتتصطحب معها ابراهيم الى البستان منذ الطفولة الأولى فيعمل معها كل ما يستطيع · ولما بلغ السابعة كانت تأمره بتسلق النخيل المتوسطة فى الطول فيجنى تمرها ، ويؤبرها ، ويفرقها ، ويحتطب منها ، فبرع فى تسلق النخيل · وما كاد يصل العاشرة من عمره حتى كانت النخيل الطويلة لا تعجزه ، يقوم فيها بكل ما يقوم به الفلاح الماهر · وكانت تستعين بهفى نزح الماء من البئر اذا نزحت بالدلو الكبير الذى تجره بساعديها · فيمسك ابراهيم بطرف العمود الذى تربط وسطه الحبل فتجر به (1) ، فيمضى وقتا طويلا مع جدته أمام البئر يذهب ويجيء ينزحان الماء الى أن يمتلىء الصهريج ، فتشير عليه بسقى النخيل والاسجار وزروعها فيقوم بذلك ، وتستمر هى فى النزح وحدها · ثم يحش معها الحشيش لمعيزهم الداجنة التى يحلبونها · ويحتطب معها من النخل والأشجار ، ويرجعان الى المدينة وهى ترفع أدوات النزح ، وقربة الماء العذب على ظهرها ، وهو يرفع منديل الحشيش الكبير على ظهره ، وقد يكون معه حزمة من الجريد أو العراجين اليابسة أو الكرب لمطبخهم واصطلائهم ، فيسرع الخطا الى المدينة بحمله وهو يلهث ويتصبب عرقه سيما فى هاجرة الصيف ، وقد يكون حافيا يلهب تراب الهجيرة أقدامه ، وهو محمر الوجه من شدة التعب فى البستان وثقل الحمل على عاتقه وظهره ·

وأحب ابراهيم العمل فى البستان وأغرم كل الغرام بجمال الأجنة منذ طفولته الأولى ، فصار يذهب كل يوم الى بستانهم وحقلهم مع أخويه يحيى ومحمد ، فيعمل معهما كل ما يستطيع عمله ، ويلعب بملء نفسه النشيطة اللعوب فى هواء البساتين الطلق ، والأماكن الواسعة الجميلة ، فيجرى ويقفز ، ويتسلق ، ويسبح فى صهريج الماء فى الصيف ، وفى الآبار مع رفاقه ، ويرمى الحمام بمقلاعه ، ويتعلم الرمى مع زملائه فى الكَرَب الذى ينصبونه فى التراب غرضا ويرمونه بالحجارة من بعيد، ويتبارون فى تسلق النخيل ، وكسر الارض بالفأس ، وفى الأعمال الفلاحية الأخرى · فأجدت الفلاحة كل الجدوى على ابراهيم ، فنشأ قوى الجسم ، متصفا بأخلاق الرجولة كلها ، وأرثت فيه ورائته فظهرت شخصيته ونضجت ، وأذكت البساتين والحقول وجدانه فكان متأججا ، فأغرم بالجمال فى كل مظاهره وسعد به ، سيما جمال الطبيعة ، فكان شديد الحب للبساتين منذ طفولته ، لا يجد نشوة روحه ولذة عقله الا فى البساتين ·

(1) انظر صورة النزح بالسواعد فى صفحة 89 من هذا الكتاب .

فاذا وصلها تفتحت نفسه لجمالها تعب منه ، فيستبيه جمالها ، فيحدق فى حسن الله المبثوث فى كل أنحائها ، فى أرضها وسمائها ، فى أرضها زرابى الحشيش والزروع المفوفة بالزهور فى الربيع ، وفى سمائها نضارة الجريد الأخضر المتعانق ، وفروع الكرم الطويلة الظليلة المتشابكة ، وأنواع الشجر الأخرى التى تملأ الجو بخضرتها وجمالها وأريجها • واذا كان يسقى النخل والأشجار يجلس على حافة الحوض ينتظر امتلاءه ، فيطربه خرير الماء الذى ينساب صافيا عذبا فى الساقية ، فينصب فى الحوض فى خرير جميل ممتع ، ويحدق فى الزهور ونضارة الأعشاب التى تكسو الأحواض الخضراء الجميلة ، وينظر فوقه فيجد جمال النخلة يتوجها جريدها الأخضر وعراجينها الصفراء أو الحمراء ، ويصغى فى نشوة وهيام الى هديل الحمام الذى يملأ الحديقة فى نواصى النخل وفى الأشجار اللفاء • هذا فى الربيع والصيف والخريف • وفى الشتاء يجد ابراهيم ألوانا أخرى من الجمال فى البساتين والحقول يتمتع بها ، هذه الشمس الضاحية التى تملؤه بالدفء ، وتكسو الحقول الخضراء الواسعة فتشب نضارتها ، وتضاعف حسنها • وقد يكون سحاب فيحدق فيه فينتشى بألوانه ، وببروق رعوده ، وبالرذاذ الذى يوقع على الجريد والزروع ، ويلاحظ شروق الشمس اذا طلعت بأشعتها الصفراء فيرى نواصى النخيل المذهبة بها كأنها هامة العروس المجلوة تكسوها حمرة الغالية الفواحة ! ويرى هذا المنظر الجميل عند الغروب أيضا • فلا يكون شىء من جمال البستان الا ويلاحظه ابراهيم ويقف عليه ويتمتع به • وفى شهر فبراير اذا سبقت أشجار المشمش الكثيرة فى كل غابة الى ابراز زينتها ، فتجللت بالزهور البيضاء والحمراء ، تتخللها أوراقها الصغيرة الغضة الخضراء ، يجلس ابراهيم قبالتها يتأملها ، وينتشى بجمالها الفتان لا يشبع من النظر اليها • واذا تفتحت زهور الليمون وملأت الحدائق بروائح الجنة ، طرب ابراهيم طربا شديدا ، فينشق الأريج اذا دخل الغابة بكل قوته ، فينتشى نشوة عظمى ، فيسرع الى أشجاره فيرى أغصانه تبسم له ابتسام الاغراء بزهورها المتفتحة البيضاء ، فيراها ألذ من ثنايا الحسناء وأسنانها فى ابتسامة الاقبال • فينحنى الى الزهور المتساقطة تحت الأشجار فيجعلها صرة يأخذها الى أمه لتضع منها فى القهوة وتجففها لمثارب أخرى • واذا هم بالرجوع الى المدينة قطف الزهور الجميلة الكثيرة من العشب ، الصفراء والحمراء ، والبنفسجية ، والبيضاء وغيرها ، وقطف بعض أغصان الليمون الممتلئة بالزهور واذا وجد وردا قطفه ، فيؤلف منها طاقة كبيرة يأخذها معه ليتحف بها جدته وأمه ، ويزين بها دارهم ، ويملأها بسحر الحديقة • وكان وهو يمشى الى المدينة يحدق فى جمال البساتين ، وفى الطاقة التى فى يده ، فيرفعها اليه فينشقها فى قوة ويغمض عينيه من شدة النشوة • ان أجمل شىء عنده فى الحياة هو الزهور ،

والذ شيء عنده هو العطر الشذى ! وقد ورث الهيام بالجمال من والديه ، وأكدت فيه هذا الطبع البساتين التى قضى فيها طفولته وشبابه وكل أدوار عمره ٠

واذا سال وادى القرارة (زقرير) طار فرحا لا لأنه سيروى القرارة ويسقى بستانهم فيزداد ازدهارا فقط ، ولكن لمناظره الجميلة أيضا ، فيسرع مع رفاقه وهم يترنمون بنشيد زقرير ، فيستقبلونه على بعد أميال من الغابة ، فياتون به كالعروس يختال فى حاشيته وهم يهتفون ويترنمون بالأناشيد الشعبية التى تعبر عن الأفراح الكبرى،وعن الحمد والشكر لله ٠ ويلاحظ ابراهيم ألوان زقرير كلها فيتمتع بحسنها، اذا كان غثاء-أسود يجلله الزبد فى مقدمته ، ثم اذا كان مياها صفراء تكسوه الرمال بلونها الذهبى الجميل ، ثم اذا سكن فى غابة القرارة المترامية الأطراف ، وصار بحرا صافيا تتلاعب أمواجه ، وتنعكس خضرة النخيل والاشجار فيه فيبدو فى جمالها الفتان ٠ واذا لم يكن الشتاء يسرع ابراهيم مع رفاقه أو أخويه فى كل يوم فيسبح فى زقرير فى الغابة بين الأشجار والنخيل ٠ ويجلس ابراهيم فى بستانهم على حافة زقرير يتأمل اشجاره ونخيله وزرقة السماء فى صفحته فيراها على جمال جديد فتان ، ويمر عليه الوقت الطويل وهو مطرق يتأمل هذا الحسن فى صفحة زقرير ٠ وتنضب مياه زقرير ومناظره ولكنها تبقى فى خيال ابراهيم يزداد بها تمتعا ، ويذكر جمالها لوالدته وجدته ، ويتمنى أن يعود زقرير لتعود معه أعراس القرارة وجمالها الفتان ٠

هذا هو أثر البستان والعمل فيه فى نفس ابراهيم ٠ غرست فيه أخلاق الرجولة كلها ، فكان على الجلد والشجاعة والمغامرة والاقدام، وعلى صفاء النفس وطهارتها، فصال بهذه الشخصية العظيمة فى جهاده الطويل فنجح نجاحا عظيما ، وجنت منه الجزائر والمغرب خيرا عظيما ٠ وذلك كله بالتربية الحسنة التى سبقت الى نفسه ، وكان من أهم أسبابها شخصية جدته ، ونشأته فى البستان ، وكثرة اقامته وأعماله فيه ٠

والبستان هو الذى أرهف وجدانه وأرث شاعريته ، فنشأ يهيم بالجمال فكان شاعرا محسنا وكاتبا بليغا ٠ وقد دام فى كل أدوار عمره وهو مغرم بجمال البساتين لا يجد نشاط فكره للكتابة والنظم ، وللقراءة العميقة الطويلة ، ونشوة روحه الا فى البستان ، فكان يسرع الى البساتين فى القرارة ، والى الحدائق العامة فى أحراج (الحامة) فى الجزائر كلما هم بكتابة شيء مهم أيام جهاده الصحافى الطويل ، فيجد نشوة نفسه وهدوءها فى تلك الاحراج المخوفة الملأى باللصوص والفاتكين ٠

واذا كان الربيع وصار سمر أهل القرارة فى السطوح ، وكان الصيف فصار نومهم فيها أيضا ، يتمتع ابراهيم بالجمال الطبيعى الساحر فى المدينة أيضا فى ليالى الربيع والصيف ، فيجلس ساكنا فى سطح دارهم يحدق فى جمال النجوم وحسن القمر ، ويشاهد الشهب المنطلقة ، وهالة القمر الجميلة ، فينتشى بجمال السماء فيديم التحديق فيها ، ويتمتع بكل نفسه الشاعرة بالسحر الساحر الذى يكون فى سطوح ميزاب فى الصيف • واذا عطش يهب الى الدلوة الباردة التى يرقصها النسيم فينزلها من عمودها ، فيعانقها ويتمتع بمنظرها ونكهتها العذبة ، ويشرب من مائها البارد العذب • ويجد أمه قد هيأت من فواكه الصيف فى طبق تضعه فى رأس الحائط ليبرد ، فيأكلون منه فى السمر اللذيذ الممتع ، وهو يصغى الى قصص جدته وأمه ونساء الجيران اللائى يسرعن الى دارهم للسمر مع والدته الأنيسة ، وجدته المرحة ، فينتشى بما يسمع ، ويضاعف متعته بالسحر الساحر الذى تعب منه نفسه الشاعرة •

حدثنى شيخى أبو اليقظان قال : كنت مفتونا بجمال القمر • فاذا مشيت فى الأزقة كان رأسى الى السماء ألاحظه وأتمتع به ، فأراه وأنا صغير يمشى معى فى سمائه فاذا وقفت وقف ، فأعجب من ذلك أشد العجب • فقلت ذات ليلة لشقيقى محمد وهو طفل أيضا : قف هنا فى هذا الزقاق وانظر الى القمر هل تراه يتحول من مكانه ويتبعنى ، وأذهب أنا الى زقاق آخر بعيد ، وأرى هل أجد القمر هناك • قال فوجدت القمر يسير فوقى فتوقفت فى الشارع البعيد فوقف فوقى ، فرجعت الى اخى محمد فسألته : هل تحرك قمرك من مكانه ؟ قال لا • انه كما تراه فى مكانه • فقال له : أما أنا فتبعنى قمرى الى الشارع البعيد الذى كنت فيه ، وقد تركته هناك فى سمائه • ان فى قرارتنا والحمد لله قمران ! قال الشيخ وهذا يدل على حب الجمال وعلى سذاجة الصبا• وأرى فيه أنا أيضا روح الفكاهة التى جبل عليها الشيخ فلازمته فى كل أدوار عمره •

هذه هى وراثة ابراهيم أبى اليقظان الزكية عرفتها فى أبويه وأجداده ، وسوف تراها جلية متضاعفة فيه وفى جهاده العظيم • وتلك هى بيئة القرارة الطبيعية والاجتماعية الجميلة الطاهرة التى نشأ فيها • وقد أوجزنا فيها لأننا شرحناها شرحا مستفيضا فى مقدمة تاريخ أستاذى الجليل الشيخ بيوض • ان البيئة الطبيعية والاجتماعية العامة التى أثرت فيهما واحدة، ولا يكبر الشيخ أبو اليقظان الشيخ بيوض الا بعشر سنين وأشهر • إن زمانهما واحد لم يتغير • ان ذلك العهد لم تتوفر فيه أسباب تطور البيئة السريع بكثرة وسائل الاتصال بين أطراف العالم كما هو الآن •

لقد اثرت هذه البيئة في ابراهيم أبي اليقظان واتصل تأثيرها فيـــه في أدوار طفولته كلها وفي شبابه ، فهو ابن ميزاب يحمل خصائصه العظيمة في كل نواحيه • لم يعاشر غير ميزاب مدة طويلة في هذه الأدوار التي تتكون فيها الشخصية فيتـــرك فيه آثاره • لقد قضى في مدينة (باتنة) في شمال آوراس شهورا ، ولكن بـــين بني عمومته الميزابيين الذين يغمرونه بروحهم ، ويقتدى بسيرتهم ، فهو في البيئة الميزابية لم يخرج منها • ثم ان نفسه لم تتفتح لباتنة والاقامة فيها فتؤثر فيه • واذا احدثت فيه أثرا فهو تأريثها في نفسه حبه لوطنه ، وحنينه وأشواقه اليه • لقد وجد فيه وحده متع نفسه ، في كتاتيبه ومعاهده ، وفي بساتينه واعماله الفلاحية فيه •

ان التربية الأولى التي سبقت الى نفس ابراهيم فصاغت شخصيته العظيمة مـع وراثته هي من أمه وجدته• وقد هيأته تربيتهما أحسن تهيئة للكتاب والمعهد،فاستطاع أساتذته أن يؤثروا فيه بسهولة ، ووجدوه مستعدا كل الاستعداد لما يريدونه مـــن انواع الرشاد ، راسخ القدم في طريق الصلاح ، متجها الى سبل الخير ، فلـــم يـزد أساتذته أن زادوا في رسوخه في الصلاح ، وأتموا ما بنته والدته وجدته وبيئته مـن خلقه العظيم • وكان زكاء نفسه أعظم عون له على العلم ، فسار في طريـق التربيـــة العقلية بخطوات واسعة ، ووجده العلم وعاء طيبا فحل فيه • فلولا طيبة النفس الـتي كانت له بتربيته الأولى من والدته وجدته ما نبغ في العلم والأدب وصار من فحولهما • ان نبوغه في العلم والأدب من أكبـــر الأسباب فيه والدته وجـــدته بمـا ذكـرنا يرحمهما الله •

وفاة والدتـــه وحزنه الشـــديد عليـــها

كان ابراهيم شديد الحب لوالدته في كـل أدواره ، فاستطاعت أن تصبغـــه بصبغـ • ولما توفيت وهو في الأربعين من عمره حزن عليها حزنا شديدا ، وشعـــر باليتم الأليم وبفراغ كبير في دنياه ، وبكاها بكاء مرا ، ورثاها بقصيدة حرى تسيـل بالدموع ، وتشتعل بالأسى • وكانت وفاة أمه السيدة عائشة في ضحـــوة الثلثـــاء 12 جمادى الأولى سنة 1346 هـ عن سن يناهز الستين ، وسبب وفاتها هو سبب وفـاة زوجها والد أبي اليقظان ، مرض الربو ، ضيق التنفس يرحمها الله رحمة واسعة •

اليك بعض أجزاء القصيدة التي رثاها بها

على جدث الوالدة (1)

يا غراب البين حلق فوق أطلال خوال
وارفعن صوتك وانعق منذرا غير مبال
قائلا هذا أوان جاءكم بالانفصال

ثم قال :

هذه أمي الحنون ذات عز و جلال
والتي قد أرضعتني لبنا أصفى زلال
ثم ربتني بحب خالص لي و دلال
حيث ودعت أبي في سن عام و ليال
لي اخواني ولكن هم من اليتم مثالي
هذبتني علمتني كل آيات الكمال
وارتقت بي سلم الفضل لغايات المعالي
بلغت بي قمة تأ ملها لي في الرجال
هذه أضحت برمس جسمها في الرمس بال
يا حمام الأيك نوحي واذرفي الدمع لآلي
مه أقاسمك همومي و الى جنبي تعال
وانظري من بعد في أمري و قولي ما مآلي
أنني والله منها في اضطراب و خبال
عند مامات أبي كا ن لها أوفر مال
ورأت انفاقه فينا لمن خير الخصال
ثم لما بددته بقيت في سوء حال
عانت الآلام ألوا نا بأيام طوال
جرعت منها كؤوسا بين ربات الحجال

(1) ديوان ابي اليقظان ص 145 ط اولى في الجزائر عام 1350هـ .

فعـــراها ضيـــق نفـس جـاء يدعـــوهـا نـــزال
فتمـــادت فـي صـــراع معـــه بـل فـي قتـــال
لـــكن الجيـــش قـــوى بضـعـيـف لا يبـــالى
فلـــوى ذا الغصـــن منـها و ذوى زهـــر الجمـــال
أصبـــح الجســـم سريعـا مثـل طيـــف من خيـــال
و غـدا ، أمـسى صريعـا حمول سـاحـات النضـال
و هنـا أسلمـت الـــرو ح الى منـــولى المـــوالى
بـهـــدوء و ســكـــون و رجـــاء فـي النـــوال
ذهـبـت عنـا و نحـــن فـي حـــديث و ســؤال
رحـلت عنـا و لـم يخـــطـــر لنـا ذاك ببـــال
ألهبت فـي الجمـــع نـارا و هي دومـــا في اشتعـال
تـركتـــنا كســـكارى فـي ذهـــول و اختبـــال
نـلت منـــها قبلـــة اذ ذاك كـي يســـكن بـالى
لـــكـن القبـــلة ءالـــت لـى كـوخـز مـن نبـــال
فحملنـــاهـــا و دمـــع العـــين فـي الخـــد لآل
ثـم هلنـــا التـــرب عن جثـمـانهـا قبـــل الـــزوال
فســـكبنـا عنـه دمعـــا و دم المهجـــة غـــال

ثم قال :

أيهـــا الأم هنيـــئـــا روضـــه ذات جمـــال
بعـدها جنـــة عـــدن ذات ظـــل و ظـــلال
رحمـــات اللـــه ربـــي عنـك دومـــا بالتـــوالى
و ســـلام عنـــك منـــا يتـــوالى بـاتصـــال

وقد توفيت جدة ابراهيم قبل وفاة أمه ، وهو رجل ناضج ، وعالم مصلح ، فحزن عليها حزنه على أمه رحمهما الله . ومع أمه وجدته وبيئتة فى تربيته عامل آخـــر هو الكُتاب . فما هى أدواره فى تعلمه الابتدائى ، وما أثره فيه ؟

تعلمه الابتداءى وأدواره فيه

كان ابراهيم شديد الحب للعلم ، ورث حبه من والده الكريم ، غريزة حب الاطلاع المشبوبة فى أبيه صارت فيه ، فصار محبا للعلم منذ صغره • ثم ان أمه وجدته وأخاه الكبير يحيي شديدو الحب للعلم • وكانوا يحدثونه بشرفه وضرورته وجدواه ، ويرى شدة حبهم للعلم فى اجلالهم وحبهم للعلماء وكثرة ثنائهم عليهم ، وفى تبجيلهم لطلبة العلم وتقديمهم لهم ، فنشأ ابراهيم وهو يعتقد أن العلم شرف عظيم وهو أكبر قوة فى الوجود تعوضه ما فقد من عز الآباء وقوة المال • انه يتيم فقير ، ولا يورثه قوته فيطير الا العلم • وهو أكبر عبادة تنيله رضى الله • فبعثه طموح العرق القوى ومزاجه الدينى أيضا على العلم ، فنشأ مغرما به ، يتمنى أن يكبر ليسرع الى الكُتاب ومعاهد العلم فيأخذ منها بأوفى نصيب ، ويكون من العلماء •

وكان يرى اسراع الأطفال الى الكتاتيب ، وتلاميذ العلم الى المعاهد ، وانتشاءهم بما يتلقون ، واعتزازهم وافتخارهم بما يتعلمون ، وتنافسهم فيما يحفظون ويعلمون ، فازداد يقينا بأن العلم هو أشرف شيء يجب أن يطلبه ويبالغ فى حبه • وكان يمر على الكتاتيب فتطربه أصوات التلاميذ يحفظون ألواحهم ، أو يتلون سورهم فى صوت جماعى رتيب يسحر الألباب ، فيقف على باب الكُتاب فيطيل الاصغاء الى التلاوة ، والى أصوات الكُتّاب التى تشرح صدره ، وتدخل السرور عليه ، ثم يطل خفية من عتبة الكُتّاب ، فيرى تلاميذه فى ثيابهم وقلانسهم البيضاء ، والمعلم فى ثيابه الدينية البيضاء المهيبة يتصدرهم فى دكانه ، ودواته وأقلامه على يمينه ، والعصا بجانبه ، وهو يعلم التهجى لبعض ، ويملى على بعض فى كتابة ألواحهم ، ويصحح ألواح البعض ، ويسرع اليه بعضهم فيستظهر لوحه ، فيغسله ويطينه ، ويضعه فى الشمس ليجف ، فيكتبه بالاملاء أو من المصحف • الصغار بالاملاء ليتعلموا قواعده ، والكبار من المصحف لمعرفتهم لتلك القواعد • فيعجب ابراهيم بالكُتاب وما فيه ، ويتمنى أن يصل سن الدراسة سريعا فيتعلم فى الكتاب • وكثيرا ما طلب من والدته وهو دون السادسة أن تطلب من وكيله الشيخ الحاج ابراهيم الابريكى أن يدخله الكُتاب فتعده أنه سيفعل ذلك اذا وصل سن التعلم •

حدثنى شيخى أبو اليقظان قال : كنت وأنا صغير دون السادسة أقف على عتبة معهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى وكان فى شارعنا أتنصت الى دروسه فى العلوم يلقيها

على الطلبة ، فاطل خفية فأرى الطلبة حول أستاذهم تشخص اليه أبصارهم ، وهو يلقى عليهم درسه فى حماسة وعناية وحنان فأمتلىء اعجابا وحبا بما أسمع وأرى · وعصف بى حب العلم ذات يوم فدخلت معهد الشيخ فوقفت على حلقته وقلت له بصوت ملهوف الى العلم ، وفى اجلال كبير للمقام ، وشدة حب له : « حَمَّالُ دِيكٌ سَعْزَمْتِنِى إِرَبِّى » يرحم الله والديكم علمونى لله ! فاستدنانى الشيخ فربت على كتفى ، ومسح على رأسى ، ودعا لى ، وقال لى : أجل سنعلمك يا بنى متى كبرت واستظهرت القرآن · فخرجت من المعهد وأنا أتمنى أن أحفظ القرآن وأكون من تلاميذ الشيخ ·

ولما وصل ابراهيم سن السابعة ، كان يحدث أخاه يحيى وهم فى أعمال الفلاحة فى البستان برغبته فى التعلم ودخول الكُتّاب، فيفرح يحيى برغبة أخيه فى العلم، ويتنهد اذا تذكر حرمانه هو من التعلم · ان ضرورات المعاش وشدة الفقر عجلت بقطعه عن التعلم فلم ينل من الكتاب الا قليلا · يجب أن يعوض للأسرة ولنفسه ما فاتهم من التعلم بتعلم ابراهيم أخيه · كفى للفلاحة والمعاش هو وأخوه محمد · يجب أن يكون واحد منهم للعلم يخلف أباه الكريم فى الأسرة والعشيرة ، وفى المسجد والبلد ، ويكون من العلماء الكبار يحقق آمال والده الحبيب فى العلم والاصلاح · هذه هى عزيمة يحيى ، وهى عزيمة أم ابراهيم وجدته ، وعزيمة وكيلهم الشيخ الحاج ابراهيم الابريكى · فلما وصل ابراهيم نحو الثامنة من عمره أدخلوه فى الكُتّاب ، وهو الكُتّاب القِبْلِى المتصل بالمسجد ، وسمى قبليا لانه فى قبلة المسجد فى جهة الجنوب ، وهو الذى كان يديره والده ويربى ويعلم فيه ·

دخل ابراهيم الكُتاب القبلى وعمره ثمانى سنين · وكان تأخره فى بدء تعلمه الابتدائى الى هذه السن لحاجة أخويه اليه فى الفلاحة· لقد كانا يستعينان به، فعاقه ذلك عن الدخول فى الكتاب فى السادسة أو السابعة كما يفعل الأطفال فى ذلك العهد ·

وكان معلمه الأول فى الكُتاب هو السيد الحاج ابراهيم بن صالح بوصحابة ، وهو معين لمعلم الكُتاب الأكبر ومديره السيد الحاج على بن حمو ، يتولى تعليم المبتدئين ، فابتدأ ابراهيم التعلم عليه ، فعلمه القراءة والكتابة وحفظه جزءا من القرآن الكريم · وكان السيد الحاج ابراهيم لطيف الحاشية ، دمث الخلق ، عذب الروح ، حسن العشرة، مربيا حازما ، شديد الحب لتلاميذه ، فحبب الكُتاب اليهم بلطفه وعذوبة روحه وحكمته فى التربية ، فأحبه ابراهيم حبا جما ، فازداد غراما بالكتاب ، وأقبل على القراءة والكتابة يتعلمهما فى نشاط وحب كبير ، وعلى السور الاولى من القرآن يحفظها

في جد ونشوة ، فسرعان ما تقدم فى القرآن ، وتعلم القراءة والكتابة ، فانتقل الى معلم الكُتاب الكبير السيد الحاج على بن حمو قصار من تلاميذه ، يستظهر عليه لوحه ، ويصححها له ، ويشرف عليه فى الكتاب ٠

وكانت الكتاتيب التابعة للمسجد فى ذلك العهد ثلاثة : القبلى ، والشمالى ، والغربى ، وهى كلها متصلة بالمسجد ٠ وكان العزابة لا يعينون للتعليم فيها وادارتها الا واحدا منهم حفاظة للقرآن ، مثقف العقل ، ورعا حازما ، عليما بالتربية ٠ ان الكتاتيب للتربية الدينية قبل كل شىء ٠ ويعين المدير فى التربية والتعليم بعض العزابة أو كبار الطلبة الرجال الذين هم كالعزابة فى حفظ القرآن والورع والحزم وما تستلزمه التربية من الصفات ٠ إن الكُتاب فى ميزاب للتربية الاسلامية وتحفيظ القرآن ، وغرس العقيدة الاسلامية وتعليمها وتحفيظها ، وتعليم الصلاة ٠ ومن الكتاتيب من تحفظ جملة من الأحاديث النبوية مع القرآن ، سيما ما يتصل بالعقيدة والأخلاق ٠ والمعلمون فى الكتاتيب المسجدية كلهم يقومون بعملهم الشاق لله ، ليس لهم أى أجرة تأتيهم من انسان ٠ ان التربية الدينية والتعليم الدينى أعظم عبادة ، يأنفون أن يأخذوا عليها أجرة تنقص من أجرهم عند الله ٠

وكان مدير الكُتاب القبلى السيد الحاج على بن حمو بلاتيا من قبيلة ابراهيم ٠ وكان صديقا لوالده ٠ وكان يعرف ابراهيم وغرامه بالتعلم ، وطيبة نفسه ٠ ورأى جده واجتهاده فى التعلم وحفظ القرآن ، وشاهد السعار المتأجج الى العلم فى عينيه ، فقربه اليه ، وخصه بمزيد من عنايته ، وعلق فيه آماله ٠

وكان السيد الحاج على من العزابة ، وهو مدير الكتاب والمعلم الكبير فيه ٠ وكان حفاظة للقرآن ، ورعا حازما صارما ، يعتنى كل الاعتناء بالتربية الدينية العظيمة ، ويعود تلاميذه كل الأخلاق الحسنة بأساليب عملية ، ويراقب سلوك تلاميذه مراقبة شديدة فى الكُتاب وخارجه ٠ وكان يعتمد فى التربية على الأسلوب الحسن الذى يأمر به الدين والعقل الحصيف ٠ يعتمد على الوسائل اللينة والاقناع العقلى فى تقويم التلاميذ ٠ واذا تمرد تلميذ وركب رأسه فلم تجد فيه وسائل اللين يردعه بالعصا ٠ وكان له سوط صغير من جلد الثور طوله نصف ذراع يمسكه فى يده للعقاب الخفيف ، يؤنب به من يخل بالنظام فى الكتاب ٠ وله عدة عصى شديدة للعصاة ٠ واذا تقرر جلد العاصى يجمع التلاميذ كلهم فيجلس العاصى أمامه فيوبخه ، ويشرح له سوء ما أتى ، وعاقبته الوخيمة عليه فى دنياه وأخراه ، ويجعله موقنا بأنه يستحق العقاب ، فيأمر

أربعا من الطلبة الكبار الأشداء فيمدونه أمامه ، يمسك اثنان كل واحد بذراع ، واثنان كل واحد بساق ، ويمسكه المعلم من قفاه ، فيجلده جلدا شديدا موجعا ، يقوّم نفسه ، ويرغمه على التوبة ، ويجعله عبرة لسواه ·

وكانت العصا نائمة في جانب المعلمين في الكتاتيب ولكنها متيقظة حية في نفس كل تلميذ تذود عنه الكسل والشيطان ، فيستقيم ولا يعوج ، فيتعود ذلك ويكون خلقا دائما راسخا فيه لا يخالفه ·

لقد أنشأت هذه الكتاتيب ، والمعاهد الدينية التي تعتمد على هذه التربية الاسلامية الرشيدة للعالم الاسلامي والمغرب الكبير أجيالا كثيرة صالحة من الرجال الأقوياء العاملين ، والعلماء النبغاء المصلحين ، سعد بهم وساد وكان خير أمة · وكانت أخلاقهم حسنة ، ونفوسهم بيضاء ، وعملهم لله ، وعقولهم بصيرة نيرة ، وعلومهم متقنة راسخة ، وهي في رءوسهم ثابتة تحضرهم في كل حين لا في طروسهم ، وأخلاق كتاتيبهم ومعاهدهم وعلومها راسخة في نفوسهم لا تزول ، تصاحبهم الى الممات كأن نفوسهم ألواحهم الصلبة البيضاء المصقولة قد رقمت فيها بالحبر الثابت الذي لا يزول ! انهم خير وبركة ألف مرة للأمة من أبناء المدارس التي لا تعتني بالتربية الدينية ، وتعلم للشهادة لا للعلم والصلاح · ان أشياءها في التلاميذ كلها سطحية ضعيفة الجدوى سرعان ما تنمسح وتزول كأنها كتبت بالطباشير في نفوسهم ! ويصدر هؤلاء الطلبة الى المجتمع بعقول ضامرة ، وبطون واسعة ، لا تهمهم الا شهواتهم الدنيئة فيجهدون لاشباعها ، ويكونون للأمة حبالا متينة شديدة ترفعها الى الأعلى ، ولكن في المشنقة !

ان نكسات العالم الاسلامي وهزائمه وضعفه وتخلفه سببه سوء التربية للصغار والكبار · فما لم نرجع الى التربية الاسلامية العظيمة التي أخذ بها أجدادنا في عهود أمتنا الزاهرة لا نتخلص من الضعف والشقاء !

وكان ابراهيم مع جده في حفظ القرآن ، مغرما بالخط الجميل ، فقلد خط معلمه الأول والثاني حتى أتقنه · وجاء زميله في الكتاب الشيخ الحاج عمر العنق (1) من قسنطينة بخطه الجميل الذي تعلمه في أحد الكتاتيب هناك ، فأعجب به ابراهيم فقلده حتى تعلمه ، فصار يكتب به ، ثم أعجب بخط شيخه الحاج عمر بن يحيى فتعلمه فكتب به ، ولما استقر في تونس للتعلم أعجب بخط مشايخه في جامع الزيتونة فتعلمه ،

(1) هو زميل الشيخ ابي اليقظان في الكتاب والمعهد ومن جيله ، يكبر أبا اليقظان بست سنين انظر ترجمته وجهاده في الجزء الثاني من كتابنا نهضة الجزائر الحديثة ص 272 ط ،ولى .

فصار خطه الدائم الذى كتب به . ان هذا يدل على طموح ابراهيم وقوة ارادته ، وشدة حبه للجمال فى كل أشيائه .

وكان ابراهيم وهو فى الكتاب يتدرب على الخط الجميل فى كل مكان يستطيع ذلك فيه . واذا كان فى البستان وانتهى زجر الماء يجد فى (زقاق الجمل) أمام البئر حيث تسير الدواب التى تجر الدلو ، ترابا دقيقا واسعا فيكتب فيه بسبابته أو بعود ، فيحلو له ذلك فيستمر فيه وقتا طويلا ، ويفعل ذلك فى كثبان الرمل فى ظاهر المدينة اذا انتظر هناك عنوزهم فى آخر النهار لتروح من السرح فيأخذها الى الدار . فيكتب فى الكثيب ويمحو يحاول تقليد الخط الذى أعجبه . وكان له فى دارهم لوح كبير للكتابة تركه والده ، فصار يكتب فيه يتعلم الخط حتى يمتلىء من جهتيه فيغسله ، يفعل ذلك مرارا فى اليوم . ولم يكن فى تلك العهود عيون جارية تصل الديار كما هو اليوم والحمد لله . ان هو الا الاستقاء من الآبار الطوينة المزدحمة فى المدينة للغسل . وكان الناس يقتصدون فى الماء . فتنظر أم ابراهيم فتجد الدلو قد نفدت سريعا لكثرة غسل ابراهيم للوحه ، فتأمره ان يقتصد ، وتهدده ان تطلب من السيد قاسم بن الحاج الناصر اقدوره أن لا يعطه الحبر . وكان السيد قاسم يصنع الحبر من الصمغ الاسود من شجر الأثل ، فيعطيه لتلاميذ الكتاتيب والمعاهد ولكل كاتب احتسابا لأجر الله وتنشيطا لهم على التعلم . وكان ابراهيم يأخذ منه الحبر الجيد فتروق منه الكتابة ، فيزداد نشاطا فيها . وقد ذكرنا هذا لأنها تدل على أخلاق حسنة فى ابراهيم ، وهى دليل على شدة حبه للعلم ، ونشاطه واجتهاده فى الكتاب .

وقد استفاد ابراهيم فائدة عظيمة من الكتاتيب التى تعلم فيها . فانها ركزت فيه العقيدة الدينية وزادتها قوة ، ورسخت فيه الأخلاق الاسلامية التى غرستها فيه أمه وجدته وبيئته ، وانتفع بجو المسجد الذى يغشاه فى كتابه فى كل حين من معلميه العزابة ، ومن أصوات المسجد الجليلة فى الأذان ، والتلاوة والصلاة ، وتفتحت شخصيته الدينية فى الكتاب . وكان لمعلميه فضل كبير فى تربيته وحسن توجيهه . لقد حببا اليه المسجد وكتاب الله ، فنشأ مسجديا قرآنيا ، لا يجد نشوته الكبرى الا فى المسجد وتلاوة القرآن ؛ وحفظ القرآن كله حفظا تاما راسخا ، ورابط فى كل عهوده تحت راية القرآن ينصره بكل قواه .

شـدة حنق ابراهيم على أذناب الاستعمار وجبروتهم وفسادهم منـذ طفـولتـه

لقد وقع لابراهيم حادث أليم فى هذا العهد وهو تلميذ فى الكتاب وعمره اثناعشر سنة ، أجـج حنقه على الظلم والجـبروت الذى كان يتصـف به أذناب الاستعمار المفسدون فى القرارة · وذلك أن أحد رءوس الفساد الذين كانوا أذنابا للحكام الطغاة فى القرارة ، يغرونهم بالمصلحين ، فيعيشـون فى أموالهم ويعتدون عليهم · كان هذا الفاسد الشرير شريكا لابراهيم وآله فى بستانهم·وكان يظلمهم ويعتدى ويتجبر عليهم، فيطلـق دوابه على زروعهم وأشجارهم ، ويسرق ما يجد من متاعهم وأدوات فلاحتهم ، ويستأثر بماء البئر فى أعوام الجدب فيستنزفه فتجف زروعهم ، ويطلق عليهم كلابـه الضارية ، ويسبهم أقبح السب ، ثم لا يستطيع اخـوة ابراهيم الشجعان الأشداء أن يردعوه لأن حاكم المدينة بطانته ، وله جيش من المفسدين سيسلطهم عليهم فيكون الامر أدهى · وذات يوم ضاق ابراهيم بجبروت هذا الفاسد الشرير الوضيع وظلمه وشتائمه وأوساخه ، وغلت دماؤه الشريفة فى عروقه ، فسبه سبا خفيفا بأن عيره بعاهة كانت فيه ، فثارت ثائرة الرجل الفاسد الشرير ، فأسرع الى حبل غليظ جديد من قنب قد شرب الماء فتصلب وفى آخره عقدة ، فانهال به فى حنق وضراوة وحقد شديد عـلى ابراهيم يضربه بشدة فى رأسه وكتفيه ، وظهره ، وبطنه ، وفى كل مكان يستطيـع الضرب فيه ، وابراهيم الصغير المسكين يتلوى من شدة الضرب ويستغيث ولا أحـد معهما ينجيه ، فأوسعه ضربا وكاد يقتله · فرجع ابراهيم الى المدينة فشكى الى أمـه ، ووكيله ، وشكى الى معلمه ، وقريبه السيد الحاج على بن حمو · ولكن لمن يشكـون هذا الفاسد الخسيس المتجبر وكيف يستطيعون الانتقام منه وحاكم المدينة الطاغيـة وبطانته الكثيرة الفاسدة كلهم أصدقاؤه وهو من أشد أعوانهم على المصلحين ·

وكان لهذا الشريك الفاسد الشرير كلب ضار ضخم متوحش يجعله فى البستان فقطع الرباط فهجم على ابراهيم الطفل الصغير المسكين فسطا عليه ، وانشب قدميـه ومخالبه فى كتفيه من خلفه فصار ينهشه فى قفاه حتى غشى عليه ، فلولا مسارعـة أجير هذا الفاسد فى البستان فأبعد الكلب عنه لقتله · فرجع ابراهيم الى المدينة وهو ممزق الثياب مصبوغ بدمائه،فحلف لأمه أن يأخذ البندقية غدا فيقتل الكلب بالرصاص فسكنت غضبه ، وأرته انتقام الشرير لو قتل كلبه ، وكفته عما همّ به · وهذا دليـل

على شجاعة ابراهيم وانفته وابائه ، هذه الصفات التي سوف تجعله ينقض في قـــوة على المفسدين والحكام المتجبرين في جرائده فيهد أركانهم ويعفرهم في التراب ٠

وقد ترك الكلب أثرا في زند الشيخ أبي اليقظان اليسرى لم يزل ٠ أراه لي وهو يقص عليّ هذا الحادث المؤلم ٠

وشاهد ابراهيم جرائم البسر الفظيعة (1) وافساد مزارع المصلحين وقطع أشجارهم وسجنهم بعد ذلك والتنكيل بهم ، وارتياع القرارة بذلك وغضبتها ٠ فنشأ وهو شديد الحقد على الفساد والظلم واصحابهما ٠

زمـــلاؤه في الكتـــاب

ومن زملاء ابراهيم في الكُتّاب الشيخ الحاج عمر العنق ، والشيخ الحاج محمد بن حمو ابن الناصر ، والشيخ عبد الله بن ابراهيم أبو العلاء ، والسيد عمر بن الحـــاج يوسف الخرفي جد الاستاذ يوسف بن الناصر المدرس في مدرسة الحياة ، وهو صديقه الحميم ، لمشاكلته له في الخلق ولصفاء نفسه وحسن عشرته يرحمه الله ٠

وكان السيد الحاج محمد بن باسعيد من زملاء ابراهيم في الكتـــاب ٠ وكـــان ينافسه في الحفظ والحضور الى الكتاب ، وقد اتخذ ابراهيم لـــوحا ثانية في الـــدار فيحفظ خفية ، فيثب فيترك منافسه وراءه ٠

ومن زملاء ابراهيم في الكتاب وأصدقائه الأوفياء محمد بن الحاج يوسف مرزوق٠ وكانا متلازمين في وقت الكتاب ، وهو صديقه أيام الشباب أيضا لا يفترقان ٠ وكـــان السيد محمد بن الحاج يوسف من خيرة شباب القرارة ، كريم الخلق ، مثقف العقل ٠ وهو زوج الأم الأديبة الأريبة الفاضلة المعلمة السيدة بية بنت بكـير ، رحمـــة اللـــه عليهما ٠

ودام ابراهيم في الكتاب أربع سنين الى الثانية عشرة من عمره ٠ وكان التقـــدم في الكتاب بطيئا لأن التلميذ لا يقضي فيه جل نهاره ٠ ومن كان مغرما بالعلم والتقـدم لا يستطيع الاكتفاء به ، ثم انه لا علوم فيه ، فخلا من الجو العلمي الذي يرضي ابراهيم ويروى غلته٠وكان يذهب الى الكتابقبل الفجر بنحو ساعتين فيحفظ لوحه ويستظهره ويكتبه ، وبعد طلوع الشمس بقليل يخرج من الكتاب فيذهب الى البستان للعمـــل مع أخويه في الفلاحة الى الظهر ، فيذهب الى الكتاب فيحفظ لوحه الى العصر ، فيخـرج

(1) أنظر جريمة البسر والمعارك الرهيبة بين المصلحين والمفسدين في كتابنا نهضة الجزائر الحديثة ج 2 ص 195 الى 200 ط أولى .

التلاميذ ، ويرجعون اليه بعد صلاة المغرب فيتلون سورهم جماعات وفرادى لكي لا ينسوها الى العشاء فينصرفون · هذه هي أوقات الكتّاب ، والسبب في هذه القلة هو ذهاب التلاميذ الى حقولهم لمساعدة أهلهم في الفلاحة · ان ضرورات المعاش تستلزم هذا ، وما تريده كل الأسر من نشأة أبنائهم في الفلاحة لتورثهم أخلاقها العظيمة ، وخصائصها الكريمة التي ذكرنا ، فيكونوا رجالا أقويا عاملين · ولكن ابراهيم قد خلق للعلم فيجب أن يعطيه نفسه ، ويقضي جل نهاره وجزءا كبيرا من ليله في التعلم· ان أخويه يحيى ومحمد يأخذانه الى البستان للعمل معهما لشدة حاجتهما لعونه · وكان ابراهيم قد اشتد عوده وبرع في أعمال الفلاحة كلها ، فكثرت حاجة أخويه اليه · وكان يقضي جل نهاره في الفلاحة · وكان ملهوفا الى العلم ، يحترق شوقا أن يختم القرآن ويعيد حفظه ويستظهره ليدرس العلوم ! ورغم جده في الكتاب لم يستطع في أربع سنين أن يحفظ أكثر من نصف القرآن وثلاث سور · لايزال في سورة النحل · لو كان في معهد وأعطى نفسه للعلم سحابة يومه لاستظهر القرآن كله في هذه المدة أو أقل · وتاقت نفس ابراهيم الى معهد من هذه المعاهد التي تُحَفِّظُ القرآن أيضا ، ويقضي فيها التلميذ جل النهار · وأصبح الدخول في معهد هو شغل خاطره وأمله الكبير ، يحترق شوقا اليه ، ويسأل أمه وجدته أن تحدث وكيله وأخاه الكبير يحيى برغبته ، ولكن الأم والجدة تمنيانه وترجوان أن تساعد ظروف الأسرة الفقيرة التي تجعل الأخوين في حاجة شديدة الى ابراهيم في العمل ، فيحققون أمله ·

حدثني أستاذي الجليل الشيخ أبو اليقظان قال : « في هذا العهد وأنا أتحرق شوقا الى اعطاء النفس لحفظ القرآن ، فتح الشيخ الحاج ابراهيم بن كاسي إمام المسجد وأحد كبار العزابة كُتّابا منظما في غرفة واسعة مضيئة ، نظيفة مجصصة ، عالية يصعد اليها بدرج كثيرة · يقضي فيه التلاميذ جل نهارهم بعد خروجهم من كتاتيب المسجد · فأعجبت بالكُتاب ووضاءته ورونقة ، وبمعلمه ومديره العالم الحازم الأريب اللطيف الشيخ الحاج ابراهيم بن كاسي · ورأيت تهافت التلاميذ عليه ، وطربت لرنين أصواتهم يحفظون جل النهار · وكان الدخول فيه بأجر قليل هو ثلاث فرنكات في الشهر ! فسألت أمي أن أدخل هذا الكتاب · فقالت : انه لجميل ما تريد يا بني ، وواجب ، وهو ما أريد أنا ، ولكن من أين لنا ثلاث فرنكات في الشهر للكُتاب ؟ ! فقال الشيخ فحرمت من هذا الكُتاب المنظم ، ومن التتلمذ لمعلمه المخلص الوجيه الشيخ الحاج ابراهيم بسبب الفقر ! فبقي ذلك غصة في نفسي وكية في قلبي دهرا طويلا » وقد اتخذ الشيخ أبو اليقظان بعد ذلك في كهولته في الخمسينات ذلك المحل الذي كان

ملكا لعشيرتهم ، جعلوه لطلبة العلم الغرباء الوافدين ، جعله مكتبه يخلو فيه للتأليف والقراءة ، فأتم فيه تأليف كتابه سلم الاستقامة ، وألف فيه كتابه « سليمان باشا البارونى » فى جزأين ، وتاريخ الجزائر ، وقرأ وكتب فيه كثيرا · وعوض الله لليتيم الفقير فى كبره فى ذلك المحل بأحسن مما حرمه فى صغره لفقره · ان اللهفة الثابتة فى العقل الباطن الى ذلك الكُتاب هى التى دفعت الشيخ الى ذلك المحل فصار مكتبه سنين عديدة فى الخمسينات ·

واتجهت رغبة ابراهيم وآله وأخيه يحيى الى معهد آخر كان قد نشأ وازدهر وطار صيته ، وأقبل الطلبة عليه ، ولا أجرة فيه ، وهو للعلوم وتحفيظ القرآن أيضا ، وهو الذى يليق بابراهيم ، فتمنى ابراهيم وتمنوا أن يدخل فيه ، وهو معهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى رحمه الله ، فكيف دخل فيه ومتى ؟ وما هى أطواره فى هذا المعهد العظيم ؟

انتقاله الى معهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى

حدثنى أستاذى الجليل الشيخ أبو اليقظان قال : كان أخى الكبير يحيى مثالا فى الفضل ، وحب الخير ، والشغف بالعلم ، وحسن العشرة · وكان يحبنى حبا جما ، ويؤثرنى ، ويعلق فىّ آماله ، وكنت له كذلك · وكان يتمنى لى أن أتعلم، وأكون للعلم· فسافر وأنا فى الكتاب الى مدينة (خنشلة) فى شرق جبال آوراس ليعمل أجيرا فى متجر قريبنا السيد يحيى بن احمد تاعموت · أرغمته على ذلك ضرورات العائلة · ان الفلاحة لا تكفينا · ثم ان أخى محمد قد كبر فصار هو الذى يقوم بفلاحتنا وأنا أعينه · ورغب فيه السيد يحيى تاعموت ليكون من أعضاده فى تجارته لما رأى من ذكائه وحزمه ودينه ، وطيبة نفسه · فمكث أخى يحيى فى خنشلة مدة ، ثم رجع منها لزيارتنا ، ومكث طويلا فى القرارة ، فرجع الى الفلاحة أيام اقامته · وكنا نسقى ونقوم ببستان لأحد الأقرباء بنصف غلته ، وكنت معه أعينه · فذهبنا الى ذلك البستان ذات يوم فى آخر الخريف وجعلنا طريقنا على (الشرق) الناحية الشرقية لغابة القرارة الكبيرة فوجدنا الشيخ الحاج ابراهيم بن يحيى اسليمانى فى بستانهم يزجر الماء على دابته ، فذهبنا اليه فسلمنا ، فأحسن الترحيب بنا ، وأخذ يتحدث مع أخى يحيى فيما يهمهم · وكان السيد الحاج ابراهيم بن يحيى من العزابة البارزين ، ومن أعيان عشيرتنا الكبار وكلمته مسموعة فى القرارة ، وفى العشيرة ، وعند أخى يحيى ، لورعه وفضله وثقة

الناس به رحمه الله · وكان يعرف استعدادى الكبير للعلم ، وغرامى به ، وجدى واجتهادى فى الكتاب فعلق فى آمالا ، وتمنانى للعلم · فنظر الى أخى يحيى فقال : هلا أدخلتم ابراهيم فى معهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى · وكانت هذه رغبتنا جميعا ورغبة أخى يحيى · فقال له أخى : أفعل ان شاء الله بارك الله فيك · فقال له : هل أستأذن لكم الشيخ الحاج عمر بن يحيى ؟ قال : استأذن لنا بارك الله فيك · قال الشيخ أبو اليقظان : فطرت فرحا ، ورأيت الدنيا كلها جنات فتانة ، وورودا متفتحة وثغورا تفيض بالابتسام والزغاريد ، وأحسست بالنخيل تعانقنى مهنئة · وقضيت النهار كله فى سعادة وحبور ، ولم أنم فى الليلة المقبلة الا قليلا ، أتمنى أن أغدو الى معهد الشيخ ، وبشرت أمى وجدتى ففرحتا فرحا عظيما · وفى صباح الغد لما خرجت من الكتاب مع الشروق أسرعت الى معهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى أتأبط لوحى وأحمل دواتى وأقلامى · فشعرت بنشوة عظمى وأنا أدخل المعهد ، وكان ذلك اليوم أعظم عيد فى حياتى · فتطورت تطورا كبيرا فى المعهد ، فازداد نشاطى فى حفظ القرآن ، وشدة حبى للعلم ، وتفاءلت خيرا ، وأيقنت ببلوغ غايتى فى العلم ما دمت فى هذا المعهد الذى يمتاز بالنشاط والنظام والتربية والجو العلمى والدينى الرفيع ، وما دام شيخى هو الشيخ الحاج عمر بن يحيى المربى البارع ، والأستاذ المخلص العظيم »وكان ذلك فى عام 1317 أو 18 الهجرى 1900 م وعمر ابراهيم اثنى عشرة سنة ·

لقد فرح الشيخ الحاج عمر بن يحيى بتلميذه الجديد فرحا عظيما ، ورحب به ترحيبا حسنا ودعا له ، وأعجب بذكائه وشدة حبه للعلم ، وبجده ونشاطه ، وقوة عزيمته البادية فى عينيه المتقدتين فى وداعة وحياء وصفاء وتواضع ، وبصفاء نفسه وطهرها البادى فى سحنته الوضاءة ، وفى عينيه الصافيتين وفى كلامه وكل أشيائه · وكان الشيخ الحاج عمر شديد الحب لهذا الصفاء النفسى · فهو أول ما يطلبه فى نفوس تلاميذه ، وأهم ما يسعى لتقويته بكل وسائله التربوية وتكوينه فى طلبته ، ويراه علامة النجاح والفوز فى كل الميادين ، لأنه نتيجة التدين والأعراق الكريمة ، والتربية الحسنة ، وعلامة الانسان الذى خلقه الله ليكون نور أمته ، يقودها الى السعادة والقوة ورضوان الله !

وكان الشيخ الحاج عمر يزداد حبا لتلميذه ابراهيم على الأيام لتفتح شخصيته فى معهده ، وظهور كل خصائصه الكريمة ، فكان أثيرا لديه ، يتمنى أن تتصل دراسته ويحفظه الله من أسباب الانقطاع الكثيرة فى ذلك الزمان الى أن ينبغ فيكون من العلماء·

وكان ابراهيم يحب شيخه الحاج عمر حبا عظيما ، للطفه وحزمه ، وحسن عشرته وشدة حبه اياه ، وعنايته به · وكان يراه أباه الحنون ، وصديقه الوامق ، ويرى نفسه جزءا من شيخه · انه فرع في دوحته ، وثمرة في أغصانه · لقد امتزج به شيخه وامتزج بشيخه امتزاج الماء بالتربة الخصبة ، فتأثر ابراهيم بشخصية شيخه العظيمة كل التأثر لما أحب استاذه ، وأحبه أستاذه ، واختلط به غالب نهاره وجزءا كبيرا من ليله ، يتدفق عليه حبه وحنانه وعلمه ، ورعايته · فجد ابراهيم فى حفظ القرآن · وكان يقضى فى معهد شيخه جل النهار · ولم تنقطع صلته بكتابه ومعلمه فيه · ان نظام المعهد يوجب أن يذهب التلاميذ الذين يحفظون القرآن الى الكُتّاب فى الأوقات التى يكون المعهد مغلقا فيه · وهى : من قبل الفجر الى طلوع الشمس ، ومن الظهر الى العصر ، وبين المغرب والعشاء ، فيواصلون حفظ ألواحهم واستظهارها وكتابتها

شارع البلات في القرارة حيث دار ابراهيم ابي اليقظان التى ولد ونشا فيها . وهى فى آخر درب فى هضبة . يتفرع الدرب عن يمين هذا الشارع من حيث يشير اليه السهم فى الصورة .

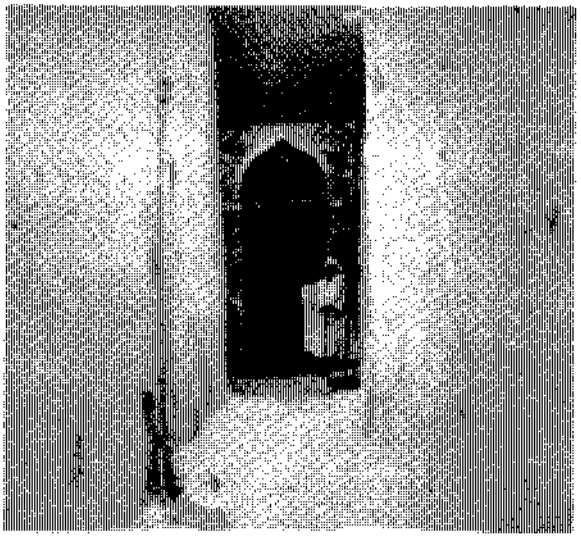

دار ابراهيم أبى اليقظان فى آخر الدرب فى هضبة فى شارع البـــلات فى القرارة ، وترى السيد عيسى بن يحيى تاعموت يشير اليها باصبعه . وقد اعيد بناء الدار فى السنين الاخيرة ولكن هذا مكانها .

دار السيد بهون بن الحاج احمد التى كانت اول معهد للشيخ الحـــاج عمر بن يحيى ، والتى تعلم فيها ابراهيم ، وهى فى شارع البلات بجوار المسجد فى الناحية الغربية منه. وقد اعيد بناء الدار فى السنـــين الاخيرة. وترى السيد عيسى بن يحيى تاعموت صديق الشيخ أبى اليقظان وعضده الأيمن فى جهـاده الصحافى يشير باصبعه الى الدار فى الصورة. اخذت الصور الثلاثة فى صباح الاربعاء 8 ذو الحجة 1393 2 يناير 1974 تصوير محمد بن عمارة حشحوش رعاه الله .

فى الكتاب ، كما يحفظون ويستظهرون على شيخهم ويكتبون فى المعهد · فتقدم ابراهيم بهذا فى حفظ القرآن تقدما كبيرا · وكان محل معهد الشيخ الحاج عمر الأول فى شارع البلات فى الدار الغربية للسيد بهون بن الحاج أحمد فى جوار المسجد · وهذا الشارع هو الذى يسكنه ابراهيم ودارهم غير بعيدة عن المعهد ·

النظام الدراسى
لمعهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى

وكان نظام الشيخ الحاج عمر فى معهده أن أول النهار من طلوع الشمس الى الضحى حوالى التاسعة للحفظ : حفظ المتون فى العلوم التى يدرسونها للذين حفظوا القرآن واستظهروه ، وحفظ القرآن واستظهار الألواح وكتابتها للذين لم يستظهروه · وحوالى التاسعة يبدأ الشيخ دروسه فى العلوم ، وهى لمن استظهر القرآن ، والذين لم يستظهروا يجلسون وراء حلقة الدرس مستمعين ، أو يواصلون حفظ ألواحهم أو كتابتهم فى الطابق الثانى من المعهد تحت رقابة واحد منهم · وكان ابراهيم كثيرا ما يجلس وراء الحلقة يتشرب دروس شيخه ، سيما فى العلوم التى يفهمها ، فيسمع درس الأخلاق فى الجزء الثالث من قناطر الخيرات للشيخ اسماعيل الجيطالى · وكان الشيخ يفتح دروس الصباح فى أيام الدراسة كلها بدرس الأخلاق الذى يحتفل به احتفالا عظيما ، ويدعو تلاميذه كلهم لحضوره · فيفهم ابراهيم هذا الدرس فهما عميقا ويتأثر به تأثرا كبيرا · ان الشيخ يحدثهم بما يأمره به عرقه الكريم ، ودينه الراسخ وتربيته الدينية الزكية الأولى ، فتزداد أخلاقه الحسنة تمكنا بهذا الدرس ، وبشخصية شيخه العظيمة · ان معانى الشيخ فى درس الأخلاق يراها الطلبة فى عينيه وسحنته وكل حركاته ويحسون بها فى وجدانه القوى قبل أن يتفوه بها · انه ينبع من أعماقه حارا بحماسه فيستقر فى أعماق نفوسهم · وكان الشيخ صادقا فى دعوة تلاميذه الى كل الأخلاق الحسنة فأثر فيهم ، فكانوا جيلا صالحا لأنهم يرون كل ما يأمرهم به من الأخلاق فى أعماله وعشرته لهم · وورث ابراهيم من شيخه شدة الحب لفلسفة الأخلاق وكتاب القناطر فكان دائم القراءة له لنفسه وتلاميذه وللعامة ، لا يشبع من دراسته ، ولا يمل النظر فيه ·

ويحضر ابراهيم من وراء الحلقة بقية دروس الشيخ ، فيفهم دروس الفقه الاسلامى فيحفظ منها الكثير ، ودرس السيرة النبوية وتاريخ الصحابة ، فيعجب به

كل الاعجاب ، ويتأثر به بالغ التأثر ، ويحضر دروسا أخرى يلقيها شيخه فى معهده على الطلبة أو على العامة · واذا كان درس النحو يصغى اليه ولكنه لا يفهم الا قليلا · وانما يعجب بالاعراب ، ويتمنى أن يتقن قواعد النحو فيستطيع اعراب الجمل والأبيات كالطلبة الكبار · وقد أشكل على ابراهيم الفرق بين الفاعل والمفعول ، وبعد الدرس دنا من شيخه وهو يتأبط لوحه ويحمل دواته للانصراف ، فسأله عن حقيقة الفاعل والمفعول فقال له : أنظر يا بنى الى يدك تحمل الدواة ، فيدك فاعل ، والدواة مفعول · قال الشيخ ابو اليقظان ففهمت القاعدة فهما جيدا بهذا الأسلوب الحكيم ·

وكان الشيخ الحاج عمر بن يحيى رحمه الله من أبرع الأساتذة فى تعليم الصغار المبتدئين مبادئ العلوم ، لأنه يمثل لهم بالمحسوس الذى يعرفونه ، ويخاطبهم على حسب عقولهم ومعارفهم ، ولطفه فى التعليم ، وشدة حبه للتدريس يرحمه الله ·

وكان الشيخ الحاج عمر يأذن للتلاميذ الذين يحفظون القرآن فى حضور الدروس كلها من وراء الحلقة ، ليجم نفوسهم التى كلت بحفظ القرآن من قبل الفجر ، ويمهد فى عقولهم بما يسمعون للعلوم التى سيدرسونها اذا استظهروا القرآن ، ويذيقهم حلاوة هذه العلوم ليزداد شوقهم اليها ، ويرقى عقولهم وينير بصائرهم بالجو العلمى الذى ينغمسون فيه كل يوم ساعات حتى اذا انقطع أحدهم عن المعهد قبل البدء فى العلوم لم تفته ثقافة العقل التى هى ضرورية للحياة · وسأحدثك فى تاريخ الشيخ بيوض عن الآثار الحسنة لهذا النظام الدراسى فيه ·

قطعه عن معهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى وأثر ذلك فيه

قضى ابراهيم فى معهد شيخه الحاج عمر بن يحيى ستة أشهر وهو سعيد بهذا الجو العقلى والخلقى الذى يرقى عقله ، ويبنى خلقه العظيم ، ويجد فيه نشوة نفسه الكبرى ؛ سعيد بشيخه الذى يحبه كل الحب ، وبزملائه فى المعهد ، مسرور أعظم السرور ، ومتفائل بما يقطع من المراحل الواسعة فى معهده فى حفظ القرآن وفى التربية · وكان قد حفظ جزءا كبيرا من القرآن فى هذه المدة باعطاء النفس للعلم ، وقضائه جل النهار فى القرآن يحفظه · وسافر أخوه يحيى الى عمله التجارى ـ كما أرى ـ وبقى أخوه محمد وحده فى الفلاحة ، فاحتاج الى من يعينه · وكان الفقر يأبو

عليه أن يستجير معينا · وكان قد رأى نشاط ابراهيم وكفاءته فى الفلاحـــة ، وذاق حلاوته فى العمل ، فلم يجد بدأ من قطعه عن معهده الذى يشغله صدر النهار ، وهـــو الوقت الذى تكثر فيه أعمال الفلاحة فيحتاج فيه الفلاحون الى أولادهم · فدعا محمـد أخاه ابراهيم أن يترك الذهاب الى المعهد ويعينه فى البستان ، وشكى له كثرة الأعمال وعدم المعين · فتضرع اليه ابراهيم أن يتركه يواصل حفظه وتعلمه فى المعهد ، وبكى بكاء مرا لما سمع طلب أخيه ، لنفور نفسه من أى عمل آخر غير معهده وما فيه · فغـدا ابراهيم الى معهده كعادته ، فانتظره أخوه أن يلحق به فى البستان فلم يفعل · فجاء متأثرا مزمجرا ، فناداه من المعهد فخرج اليه ، فجره من يده الى البستان وهـو يبكى وينتحب ويناوص ليفلت من قبضته فيرجع الى المعهد · ولكن أخاه كان أقوى · ثم ان ابراهيم رأى أنه اذا لم يعن أخاه فان فلاحتهم تضيع ، فيصيب العائلة شر كبير ، فرضخ لضرورة المعاش ، وانقطع عن معهد شيخه ، وبقى فى الكتاب يواصل فيه حفظ القـرآن فى بطء · وكان يغتنم الفرصة فيذهب الى معهده فى كل وقت يجده · وكان أخـــوه يأذن له فى الرجوع الى المدينة قبل الزوال ليستعد للذهاب الى الكتاب فى الظهـــر ، وبعد العصر يرجع الى البستان اذا كان النهار طويلا ؛ فيسرع ابراهيم الى المدينة وهو يلهث من شدة التعب بأعمال الفلاحة ، جائع يجب ان يذهب الى دارهم ليسد جوعتـــه بطبق التمر الذى يجده ، ولكن ابراهيم يذهب الى معهده فلا يكاد يدخله حتى تـزول أتعابه وينسى جوعه ، فيحضر درس الوعظ الأخلاقى الذى يلقيه شيخه الحاج عمر علـى العامة والطلبة قبل الزوال بقليل ويختم به دروس الصباح · واذا وجد وقتا بعـــد العصر يذهب الى معهده فيحفظ لوحه ، وقد يكون حفظ لوحه فى الكتاب أو فى البستان فيجد بعض الوقت فى الصباح فيلم بمعهده فيستظهره ويكتبه ، ويسرع به الى البستان ليحفظه فيه · ويسرع ابراهيم الى معهده بعد العشاء رغم تعبه الشديد فى النهار مـن قبل الفجر فى الحفظ والفلاحة ، ولكنه ينسى النوم الذى يصرع أمثاله من أول الليل ، فيسرع بعد أن يخرج من الكتاب ويتعشى الى معهده فيسمع دروس شيخـــه للعامـــة والطلبة بعد العشاء · انها دروس سهلة لذيذة فى السيرة النبوية ، وتاريخ الصحابة ، وفى فقه العبادات وغير ذلك من العلوم التى يؤخر الشيخ الحاج عمر تدريسها الى الليل ليحضرها التلاميذ الكبار القدماء الذين انقطعوا عن الدراسة واستأثرت بهم فى النهار الفلاحة أو التجارة فيواصلوا تعلمهم ، ويحضره الصغار أيضا من تلاميـــذ الكتـــاب العاملين فى نهارهم كابراهيم · وكانت هذه الدروس تستمر نحو ساعتين بعد صلاة العشاء · فيأوى ابراهيم الى مضجعه ، وهو يتمطق دروس شيخه ، ويجد حلاوتها فى نفسه ، ويكون منظر شيخه الحبيب ، ومعهده العزيز وما سمع فيه آخر ما يملأ عقلـه

الشاعر قبل النوم ، فيخلق أحلامه اللذيذة فى المنام ، ويستقر فى لا شعوره · فاذا هب الى الكتاب قبل الفجر وثبت صور معهده الحلوة الى خياله ، وتذكر دروس أمسه فيشعر بنشوة ولذة كبرى ·

وكان ابراهيم لشدة شغفه بالعلم وحفظ القرآن يصطحب لوحه الى البستان فيحفظه فى بعض الأوقات الفارغة ومع الأعمال التى يستطيع فيها ذلك · يفعل ذلك اذاكان ينتظر أن يملأ أخوه صهريج الماء ليقوم هو فيسقى الزروع واذا كان يسقى النخيل والأشجار ، يرسل الماء فى حوضها ، وربثما يمتلىء ليصرفه الى حوض آخر يأخذ لوحه فيحفظ ، فيحفظ لوحه فى البستان فيستظهره فى الكتاب ويكتبه · وكان لا يلذه فى البستان الا حفظ القرآن ، والا الكتابة فى الرمل والطين فى الارض المبتلة ، يتمرن على الخط الجميل · وكان حب العلم هو الذى يملأ أقطار نفسه جميعها· ان أعماله الفلاحية كلها يأتيها بارادة ، بوده لو تركها وتفرغ للعلم ، رغم ما فى العلم من أتعاب وقيود وقوانين تشق على النفس · ان عقله فى العلم، يفكر فى معهده ويتخيله فى كل أوقاته فى البستان ، ويستغرق فى لوحه يحفظه فى كل فرصة يجدها فى البستان · ولربما ناداه أخوه محمد فلا يسمعه لأنه فى جرجرة الماء فى الأحواض ، يحفظ لوحه بصوت جهير ، وفكره كله فى لوحه ، وفى أحلامه المتصلة كلها بالعلم وآماله فيه · ولربما وقف ساكنا لا يتحرك ، وعيناه زائغتان فيذهل عن عمله الذى هو فيه فتفيض أحواض النخل وهو لا يشعر ، ويتوقف عمله · انه يفكر فى معهده وفى العلم الذى يشغف به· ان البستان على شدة حبه له فى أول عمره ، وغرامه بالجمال الطبيعى فيه ، وانتشائه به ، ليحس به سجنا رهيبا يطبق عليه ، ويراه ضيقا أسود كالحا لا جمال فيه · ان الجمال الذى يستبيه كله فى معهده ، وفى طلعة شيخه ، ودروسه ، وفى حفظ القرآن !

واستطاع ابراهيم أن يختم القرآن فى هذه الفترة فى مدة عامين · وكان سيره بعد المعهد بطيئا · وتمنى أن يتفرغ للقرآن فى معهده بعد الختم ليعيد حفظه ويستظهره، ويمن الله عليه باعطاء النفس للعلوم في معهده · وكان يسأل الله ذلك ويعمر هذا أقطار نفسه · وكان يحدث به أمه وجدته فتمنيانه ، وتتقطع أكبادهما حزنا لابراهيم الذى خلقه الله للعلم فأبت عليه قسوة الظروف وشدة الفقر واليتم اعطاء النفس له ، وتتضرعان الى الله أن يفرج الكربة ، ويجعل بعد العسر يسرا ، فيرجع ابراهيم الى معهده ·

ابتداؤه الصلاة وانتشاؤه بالمسجد

كان ابراهيم في آخر سورة البقرة يحفظ القرآن الحفظ الأول متصعدا لما بلغ سنه الثالثة عشرة ، فتحقق بلوغه فابتدأ الصلاة . وكان كُتّابه ومعهده وأمه وجدته يلزمونه الصلاة مع الجماعة في المسجد في كل الأوقات ، فتَعَوَّدَ ذلك فأحب المسجد حبا عظيما ، وأحب درس الوعظ الذى يلقى فيه للعامة بعد صلاة العشاء ، ووجده سببا كبيرا لثقافته ، فسر به سرورا عظيما . وكان لمزاجه الديني القوى بالوراثة والتربية ، ولطيبة نفسه ، يجد لذته ونشوته في المسجد اذا كان يصلى الفرض مع الجماعة ، أو يسير سيرة الكبار فيصلى ركعات من النافلة قبل الفرض في بعض الأوقات أو يصلى ركعتين تحية للمسجد اذا وصل المسجد قبل صلاة الجماعة ، أو اذا جلس ينتظر الصلاة بين الكبار الخاشعين ، فيزيدون في خشوع نفسه ، فيذكر ربه ، ويتذكر ثوابه وعقابه ، ويتعلم مراقبة الله في كل أعماله ، فصار ذلك عادة فيه أورثه الورع والتقوى الذى كان خلقا فيه في كل أدوار عمره .

وكان ابراهيم يسارع الى المسجد في وقت الصلاة ، لا توافقه نفسه على الصلاة وحده في الدار ، يرى ذلك عيبا كبيرا ، ويجد فيه وحشة النفس وعتاب الضمير . وكان المسجد حبيبا الى نفسه يجد فيه نشوة روحه ، ويراه من ضروراته اللازمة في يومه ، فنشأ بفضل التربية الصحيحة في الدار والمعهد والكتاب ، من عمار المسجد الكبار ومحبيه في كل أدوار عمره ، لا يلوح له المسجد الا وتثور أشواقه اليه ، كما تثور أشواق الوليد الغرثان يرى أمه تفتح له أحضانها وتخرج ثديها ! وعاش عمره بفضل التربية المسجدية وآثار المسجد القوية فيه ، في وقار المسجد وطهره لا تستطيع الشهوات والأهواء أن تتسلط عليه ، فيطيش وراءها أو ينزلق الى طريقها . انه دائما في المسجد ، يشعر به في قلبه وان لم يكن فيه ، لشدة تعلقه به . ومن كان في المسجد لا يكون الاهه هواه ، ولا يكون للشيطان عليه سلطان !

لما ختم ابراهيم القرآن أعاد حفظه حتى وصل سورة (ص) وأشرف على ختم القرآن ، وتمنى أن يستظهره ويبدأ دراسة العلوم ، ويعطى نفسه للعلم في معهد شيخه ، ولكن الأحداث ترغم الشيخ الحاج عمر بن يحيى على اغلاق معهده والاقامة في الحجاز فبقى مغلقا ثلاث سنين .

كان ذلك في عام 1319 هـ 1901 م وكان الاستعمار الفرنسى العسكرى الغاشم وأذنابه الحكام المتجبرون قد ضاقوا ذرعا بالنهضة الحديثة التى ازدهرت في القرارة ،

فعزموا على القضاء على رؤوسها وقادتها فاغتالوا فى عام 1319 هـ زعيم النهضة فى القرارة الشيخ الحاج محمد بن الحاج قاسم فتخلصوا منه، وجعلوا نصب أعينهم خليفته فى الاصلاح الاجتماعى وقيادة النهضة الشيخ الحاج عمر بن يحيى ، فرأى كل السهام تسدد اليه · ورجته خاصة المصلحين أن يسافر من القرارة والجزائر الى مكان يأمن فيه على نفسه ، ويستمر فيه عمله فى التربية والتعليم الى أن يسكن الجو العاصف فى القرارة ، فآثر الحجاز فسافر اليه ، وأخذ تلاميذه الكبار معه فواصل تعليمهم هناك · وأقام فى الحجاز نحو ثلاث سنين متصلة الى عام 1322 هـ 1905 م فرجع الى القرارة وقد تبدل الجو ، وأصبح الاصلاح ذا شوكة قوية ، وأنصاره كثيرين ·

وكان ابراهيم فى نحو الرابعة عشرة من عمره لما سافر شيخه وأغلق معهده ، فحزن حزنا شديدا ، ولكن نفسه تحدثه بأن شيخه سيرجع ، والمعهد سيفتح فيأخذ حظه منه كاملا · وتمنى أن يواصل حفظه الثانى للقرآن فى كُتابه ويستظهره ريثما يرجع شيخه ، ولكن الفقر الشديد الذى يشتد على أسرته واليتم أرغمت العائلة على تسفيره للتجارة · فانقطع عن العلم · وسافر من القرارة ·

ادخال ابراهيم فى التجارة وشدة مقته لها

يبدو لى أن السيد يحيى شقيق ابراهيم الكبير الحر الحريص على تعلمه قد توفى قبل هذا الحادث · ان الشيخ أبا اليقظان لم يحدثنى عنه بشىء فيما حدثنى به من تاريخه الطويل المفصل منذ حادث ادخاله فى معهد الشيخ الحاج عمر · وكل ما قاله لى هو انه توفى شابا فرزئت فيه رزءا عظيما ، ولم يذكر لى زمن وفاته ولا سنه · فلو كان السيد يحيى حيا ما اشتدت الحاجة بالأسرة ، وما رضى بقطع ابراهيم عن العلم · انه يكفله ويكفى الأسرة بعمله فى التجارة · وأرى أن يحيى توفى فأرسلت الأسرة ابراهيم للتجارة ليعوضه ، ويكون له وللأسرة من عمله مورد يبنى مستقبله المادى ويكفلها ، لأن الفلاحة التى يقوم بها أخوه محمد لا تكفى · (1)

(1) بعد كتابة هذا الباب نقبت فى مكتبة الشيخ ابى اليقظان عن بعض النصوص فى تاريخه فوجدت فيما كتب : ان اخاه يحيى توفى فى عام 1901 م وعمره 25 سنة فصح ما استنبطته من ان تسفير ابراهيم للتجارة كان بعد وفاة اخيه يحيى يرحمه الله .

كان ابراهيم فى الرابعة عشرة من سنه فى هذا العهد · وكان فى البلوغ · وكان قوى الجسم ، طويل القامة ، قوى الحيوية ، شاعر النفس · وكانت الأسر فى ذلك العهد تعجل بزواج الأبناء لتحصنهم ، وتشعرهم بأعباء الحياة ، فيعتمدون على أنفسهم فى بناء مستقبلهم السعيد بعرق الجبين · ولابد لابراهيم من الزواج بعد عامين أو ثلاثة ، ومن لزواجه ونفقاته وأثقاله فى الرجولة ؟ ! يجب أن يستعد لذلك ولا يكون ذلك الا بالتجارة ·

وكانت أسرة ابراهيم قد عزمت على تسفيره للتجارة قبل هذا · فسمع أعيان عشيرته ، وكانوا يعرفون استعداده الكبير للعلم وجده فيه فعلقوا فيه آمالهم ، وطلبوا من أسرته أن تتركه للعلم وهم يتكفلون به وبزواجه ، فعدلت الأسرة عن تسفيره وعزمت أن يكون للعلم · ولكن هؤلاء الأعيان وقع بينهم تواكل فلم يصل الأسرة وابراهيم منهم شىء كبير يكفيهم · وكانت أسرة ابراهيم أبية أنوفة ، فعافت أن تبقى للفقر الشديد يمرغها فى الأقدام ، وأرغمتها قساوة الزمن والنظر لابراهيم على تسفيره للتجارة · فسافر بعد سفر شيخه واغلاق معهده فى عام 1319 وهو آخر عام 1901 م أو أول عام 1902 ان الشيخ لم يحدد لى العام المسيحى ·

واختارت له أسرته متجر أحد أعيان عشيرته النبهاء وهو السيد عمر بن الحاج امحمد اسليمانى وهو والد المرحوم الأديب المصلح السيد حمو بن عمر لقمان أحد رجالات القرارة العاملين الذين أنجبهم الشيخ بيوض فى معهد الحياة العظيم · وكان متجر السيد عمر بن الحاج امحمد فى مدينة باتنة فى شمال جبال آوراس · فسافر ابراهيم اليها ، واتخذ السيد عمر بن الحاج امحمد ومن معه وسائلهم لتحبيب التجارة اليه ، ولكنه مقتها مقتا كبيرا ، وضاقت نفسه فى المتجر وفى باتنة ، فأصفر لونه ، وغاضت حيويته الفياضة التى كانت ، وأحس فى التجارة بوحشة شديدة · انها بعيدة عن نفسه وآماله وما خلق له · ورأى المتجر سجنا موحشا يطبق عليه ولو كان مفتح الأبواب الى مناظر باتنة الجميلة · وتبلد فى التجارة ، وأصابه الركود · وكان لا يجد وقتا فارغا الا ويسرع الى المصحف فيتلو فى نشوة وهيام ، ويستغرق فى التلاوة وبوده أن لا يفارقها · وكان تواقا الى الرجوع الى القرارة ليستأنف حفظه للقرآن فيستظهره ويستعد لدراسة العلوم فى معهده · فأيقن السيد عمر بن الحاج امحمد ومن معه أن ابراهيم لم يخلق للتجارة ولكن للعلم ، وأنه لا ينجح فى التجارة لنفوره منها ، فأرجعوه الى القرارة بعد شهور قضاها فى باتنة · فسر ابراهيم سرورا عظيما برجوعه الى وطنه وكُتّابه الحبيب ، والى القرآن والعلم الذى خلق لهما · وازدادت أسرة ابراهيم

يقينا بأنه خلق للعلم لا لغيره ، فتركته يتخصص له ويعطيه جل نهاره فى كتاب اختاره له وكيله الشيخ الحاج ابراهيم الابريكى · وكان هذا الكتاب هو الذى ابتدأ فيه الشيخ بيوض حفظ القرآن وتعلمه الابتدائى· انه كتاب الشيخ محمد بن الحاج يوسف خلفاوى الذى عرفتك شخصيته وبراعته ونصحه فى التعليم فارجع اليه (1) · ووجد ابراهيم فى شيخه الجديد محمد كل ما أراد من دماثة فى الخلق ، وعشرة حسنة ، وحزم ونظام ، ووجد فى كتابه النشاط والاتقان فأحبه ابراهيم حبا شديدا ، وأعجب بورعه ونسكه وعمله لله · ان معهده ليس تابعا للمسجد ، وعمله فيه لله لا يأخذ عليه أجرا من أحد ؛ وأحب الشيخ محمد تلميذه ابراهيم حبا جما · لقد وجد فيه كل صفات الصلاح وشدة الحب للعلم والجد فيه ، فأثر فيه بشخصيته ، وزاده صلاحا ، ولوجدانه الدينى قوة · فعكف ابراهيم على ما أعاد حفظه من القرآن قبل سفره من البقرة الى سورة (ص) فاسترجعه وحفظه حفظا جيدا فاستظهره كله على شيخه ، ثم أعاد الحفظ باللوح من سورة (ص) الى آخر القرآن · فلما وجد شيخه محمد أنه قد حفظ القرآن كله حفظا راسخا متقنا أذن له فاستظهره كله على إمام المسجد فى عام 1323 وعمره سبع عشرة سنة فأصبح من الطلبة يستطيع دراسة العلوم على المشايخ فى دار التلاميذ التابعة للمسجد وفى أحد المعاهد · لو أعطى ابراهيم نفسه لحفظ القرآن فى كل أدوار تعلمه لحفظه واستظهره فى أول البلوغ ، ولكن سيره كان بطيئا لاشتغاله بالفلاحة والتجارة · ولكن هذا البطء وهذا الزمن الطويل الذى أمضاه فى حفظ القرآن نفعه نفعا كبيرا · لقد أتقن حفظ القرآن ورسخ فى ذهنه رسوخا عظيما ، وكان من حفظته ، والملازمين له بالتلاوة والتدبر · يقرأ حزبين منه فى كل يوم بعد صلاة الصبح من رأسه فى الحضر والسفر ، ويختمه فى كل شهر مرة · هذا دأبه الى أن لقى ربه ، وقد ازداد قرآنه رسوخا بفضل الاتقان الاول وهذه التلاوة الدائمة فى ورده · وكان يعتد بهذا الورد ويراه من غنائمه العظمى فى الحياة · قال لبعض الناس الذين ظنوا أنه سئم الحياة فى آخر عمره لما أصيب بالشلل ولازم الفراش : « انه ما دام يزداد كل يوم فى ميزان حسناتى الصلوات الخمس وحزبان من القرآن فأنا سعيد بحياتى » (2) ·

ولما رجع الشيخ الحاج عمر بن يحيى من سفره الى الحجاز فى آخر عام 1322 هـ 1905 م ووصل القرارة فى أوائل عام 1323 كان ابراهيم قد استظهر القرآن قبل

---

(1) انظر ذلك فى صفحة (207) من هذا الكتاب

(2) انظر تفصيل هذا فى باب (ابناء القرآن) الذى عقدناه لأثر القرآن العظيم فى زعماء نهضتنا الحديثة وهو باب مهم يروقك انظره فى صفحة 63 من كتابنا نهضة الجزائر الحديثة الجزء الثانى ط اولى فى الجزائر .

وصوله بأمد قصير ، ففرح بذلك فرحا عظيما · ورجا ابراهيم أن يفتتح معهده فيبدأ الدراسة فيه ، ولكن الحكام الجبابرة والمستعمرون الغلاة يسجنون الشيخ في سجن تاعظميت الرهيب شهرين لأنه ذهب الى الحج بدون رخصة · وفي أثناء سفر الشيخ وسجنه من عام 1320 كان الشيخ الحاج ابراهيم الابريكي يشرف على ابراهيم في كتابه ويحميه من العوائق ويزيده حبا للعلم ورسوخا في طريقه · وكان ابراهيم يلم بمعهد الشيخ الابريكي اذا خرج من كتابه فيحضر بعض دروسه من وراء الحلقة · وكان يواظب على دروس وعظه للعامة والطلبة في المسجد ، ويعجب بفصاحته وشجاعته وعلمه فتأثر به تأثرا عظيما · وهو من أكبر الأسباب التي حببت اليه الفصاحة ، وعلمته الشجاعة في الاصلاح ، والعمل لله في تواضع وقوة وثبات · انه من شيوخه · تأثر بشخصيته تأثرا عميقا لشدة اتصاله به لأنه وكيله ومن عشيرته ودورهم متقاربة في حي واحد ، ومن أساتذته الاجلاء ، يجد له الآثار العميقة في نفسه ، ويقر بفضله الكبير في توجيهه الى العلم وان لم يدرس عليه كثيرا كما درس على الشيخ الحاج عمر ابن يحيى ·

ورجع الشيخ الحاج عمر بن يحيى من سجن تاعظميت أسدا هصورا قد زادته محن الاستعمار وأذنابهم قوة وثباتا وغراما بجهاده في التربية والتعليم واصلاح المجتمع · ففتح معهده في عام 1323 وكان من تلاميذه الرسميين الملازمين ابراهيم فتحققت الآمال العظيمة لابراهيم بحفظ القرآن ، وباعطاء النفس للعلم في معهد شيخه ، فقطع المراحل الواسعة في تعلمه الابتدائي للعلوم وفي الثانوي في أمد قصير · فماذا درس في معهد شيخه وما أثره فيه ؟

دراسته على الشيخ الحاج عمر بن يحيى

ابتدأ ابراهيم دراسة العلوم على شيخه الحاج عمر بن يحيى وعمره سبع عشرة سنة ، وقد تثقف عقله ، وذاق حلاوة العلم ، وتأججت لهفته اليه · وكان من تلاميذه الرسميين لما أعاد فتح معهده بعد رجوعه من الحجاز في عام 1323 هـ 1905 م وقد أسرع الطلبة الى معهدهم فاستأنف الشيخ دروسه لهم من الأبواب التي وصلوا اليها قبل سفره · والذين سافروا معه وواصلوا دراستهم عليه في الحجاز زادوا في كتبهم يدرسونها عليه· وكان ابراهيم مبتدئا في العلوم،فسهل عليه الفقه الاسلامي والعقيدة فساير فيها زملاءه الذين سبقوه ، فلم يحتج فيهما الى دروس ابتدائية تعلمه أول

الكتاب · لقد حضر دروس الفقه والعقيدة سنين كثيرة من وراء الحلقة فى معهده وفى المسجد فأتقن المبادىء فيهما · فيستطيع ابتداء دراستهما من وسط الكتاب ، ويقرأ أول الكتاب وحده · ثم ان الفقه سيما الكتب المتوسطة فيه ليس متصل الحلقات اتصالا وثيقا سيما فقه العبادات ، ومن لم يفهم أوله يتعذر عليه فهم الباقى · وساير ابراهيم زملاءه فى الفقه والعقيدة وأتقن دروسه اتقانا كبيرا ، وفهمها فهما جيدا ، وأحب الشريعة الاسلامية ووجد فى دروسها نشوة نفسه وغذاء عقله· وكانت موافقةكل الموافقة لمزاجه الدينى القوى ، فوجد فيها متعة النفس فأقبل على دراستها بنهم شديد · وورث من عصره الذى يعتنى كل العناية بدراسة الشريعة الاسلامية ، ويراها أول علم يجب أن يتعلمه الطالب ويتقنه العالم ، ورث من عصره شدة الحب للشريعة فعكف على دراستها بنهم شديد حتى صار فيها من العلماء ·

أما النحو فخلاف الفقه ، لابد من اتقان مبادئه ليستطيع الطالب مسايرة المتوسطين فى النحو والذين وصلوا وسط الكتاب · فاحتاج ابراهيم الى درس فى مبادىء النحو ، فسأل شيخه أن يعلمه مبادىء النحو فى وقت يخصصه له ، فسكت الشيخ فلم يجبه · وكان من عادة مشايخ ذلك الزمان اختبار التلميذ ليعرفوا رغبته · وكان الشيخ الحاج عمر يعرف رغبة ابراهيم الشديدة ، ومع ذلك امتحنه ليتيقن · من يدرى ؟ لعل الأيام غيرته فى السنين التى فارقه فيها ، فلا يواظب فتضيع جهوده · ان تعليمه لله ، يقصد به أجر الله والنتيجة الحسنة من تلاميذه · فاذا وجد فى التلميذ برودة وزهدا فى العلم لم يخصه بدرس· وكان ابراهيم يلح عليه فى الطلب أن يخصص له درسا فى مبادىء النحو · وكان يرصده اذا خرج بعد صلاة العصر من المسجد فيقف فى طريقه فيسلم عليه فى خشوع بكلتا يديه ، فيقول له بصوت فيه حب واحترام وغرام مستطير بالعلم وعزيمة قوية : « حَمَّالْدِيكْ إِيقَّتْ الاَمْسَالَتْ إِرَبِّى » وهذا هو طلب الدرس الخاص بالبربرية الميزابية · ومعناه : يرحم الله والديك مسألة لله ، يريد مسألة العلم · فسكت عنه الشيخ الحاج عمر فى اليوم الأول والثاني وفى اليوم الثالث أجاب طلبه ، فخصه بدرس بعد صلاة العصر فى الآجرومية بشرح الشيخ خالد ، وتولى هو تدريسه فدام هذا الدرس مدة بعد العصر ، ثم نقله الى دروس الصباح · فختم ابراهيم الآجرومية على شيخه واتقنها ، فبرع فى الاعراب وتفتحت له أبواب النحو كلها ، فاعتمد على نفسه فيما درسه من كتب النحو على شيخه · فكان يبدأ الكتاب من وسطه ، فحيثما يجد زملاءه فى النحو يستمر معهم ، ثم يدرس أول الكتاب كله وحده ، واذا توقف شيخه ولم يختم كتابا ختمه هو فعرف كل ما فيه · وهذا كله

بفضل الغرام بالعلم ، وفضيلة الاعتماد على النفس والثقة بها التى غرسها فيه شيخه ، واتقان المبادئى اتقانا كبيرا على يد الشيخ الماهر فنبتت أجنحته فطار ٠

ودرس ابراهيم على الشيخ الحاج عمر فى النحو بعد الآجرومية : شذور الذهب لابن هشام ، وقطر الندى لابن هشام ، والألفية بشرح ابن عقيل ٠ وكان الشيخ يشرح قواعد النحو لتلاميذه بالميزابية فيفهمونها فهما واضحا ٠ وكانت دروسه رحمه الله لتلاميذه وللعامة كلها باللغة البربرية الميزابية ، فنفذ الى أعماق العامة لأنه يحدثهم بما يفهمون ٠

أما فى العقيدة والفقه فألحقه بالمتوسطين من الطلبة ، فوجدهم فى وسط الكتاب فختمه معهم ٠ وقد درس على الشيخ الحاج عمر فى العقيدة (عقيدة العزابة) للشيخ عمر بن جميع ، ورسالة (الصراط المستقيم) لأبى على المنذرى ، و (مشارق أنوار العقول) للشيخ أبى حميد السالمى العمانى ، و (الدليل والبرهان) للشيخ أبى يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتى رحمهم الله جميعا ٠ وكان هذا للتلاميذ الكبار فوق طبقته وكان يحضر معهم فاستفاد منه فوائد كثيرة ، ومهد حضوره لدراسته العميقة بعد ذلك ٠

أما فى الفقه فدرس ابراهيم على شيخه الحاج عمر الكتب التالية : مختصر الخصال للشيخ أبى اسحاق ابراهيم بن قيس الحضرمى ، والجزء الأول والثانى من قناطر الخيرات للشيخ اسماعيل الجيطالى ، والجزء الأول من كتاب الايضاح للشيخ عامر بن على الشماخى ، وقرأ بنفسه الجزء الثانى والثالث منه يستعين بهما على فهم كتاب النيل ٠ ان مطالعة الدروس قبل حضورها واجب حتم على كل تلميذ ٠ واذا استعصت نصوص النيل على ابراهيم وزملائه فزعوا الى الايضاح فيستعينون به ، فقرأوا بهذا الجزأين وعرفوا ما فيهما ٠ وبعد هذه الكتب درس فى الفقه كتاب النيل للشيخ عبد العزيز بن ابراهيم التميمى ، رحم الله مشايخنا جميعا ٠ وكان الشيخ الحاج عمر يشرح للطلبة متن النيل دون أن يعرجوا على شرحه الكبير ، فأسرعوا الخطا فيه ، ودرسوا أكثره ولم يتموه ، وعرفوا أسلوبه فصاروا يفهمونه ويدرسونه وحدهم ٠

ودرس ابراهيم فى الأخلاق والتربية وعلم النفس على شيخه الجزء الثالث من كتاب قناطر الخيرات ٠ وهو من أمهات الكتب الاسلامية فى العلوم الثلاثة المذكورة ٠ وكان الشيخ الحاج عمر مغرما بهذا الجزء ، عظيم الحب له ، يبدىء ويعيد لتلاميذه فيه ، لا يمل من قراءته وتدريسه ٠ وكان يوافق طبعه الاجتماعى القوى ، وما يريده من

التربية والأخلاق الاسلامية لتلاميذه · وكانت دروسه فيه مؤثرة ، فأحب الطلبة هذا الكتاب واحبه ابراهيم ، وحفظ كثيرا من شعره ونثره في الحكمة · فكان أول كتاب يعرفه بالأدب العربي القديم ، فقرأ منه بعد ذلك ما كونه ·

ودرس السيرة النبوية وتاريخ الصحابة على شيخه ، فحبب اليه تاريخ الاسلام ، فنشأ محبا للتاريخ ، يحب الصحابة ويراهم مثله الأعلى ·

وكان الشيخ الحاج عمر بن يحيى رحمه الله يعوّد تلاميذه الاعتماد على النفس والثقة بها ، فيأمرهم بقراءة دروسهم قبل وقوعها ومحاولة فهمها ، ومراجعتها بعد ذلك وهضمها هضما حسنا ، فترقت عقولهم ، وأسرعوا السير في دراستهم ، وختموا بدراستهم الخاصة كتبهم التي لم يستطع أستاذهم ختمها لهم ، وأتقنوا أيضا أول الكتب التي لم يحضروا دروسها ، ووثقوا بأنفسهم فقرأوا كل ما يشاءون من الكتب في العلوم التي أتقنوا مبادئها عليه ، فصار منهم علماء أجلاء في الشريعة والعربية ·

وكانت أغلب الكتب التي درسها ابراهيم على شيخه قد ابتدأها من وسطها ، فاستطاع مسايرة زملائه بفضل جده وحسن اعداده لدروسه ، واستعانته فيما يستعصي عليه في اعدادها بكبار الطلبة · وكان طموحه القوي ، واعتزازه بنفسه يأبى عليه أن يكون متخلفا فكان من الناجحين دائما في الدروس فهما وحفظا · ودرس الكثير في زمن قصير في معهده ·

وكان الشيخ الحاج عمر قد قسم تلاميذه في مطالعة دروسهم قبل وقوعها أقساما ، وجعل على كل قسم رئيسا من نفس الطلبة من الأذكياء الحازمين ، يقودهم في المطالعة ، ويدير مناقشتهم ، ويشرح لهم ما يستعصي عليهم بعد بذل الجهد فيه · وكان ابراهيم من الجماعة التي يرأسها زميله عمر بن الحاج ابراهيم العنق ، وكان يكبره بسنوات ، وأعطى نفسه للعلم قبله ، فكان من المتقدمين ·

ان اعداد الطالب لدروسه قبل وقوعها ، ومحاولته أن يفهمها كلها فهما عميقا ، وتعبه فيها تعبا كبيرا ، هو الذي يرقي عقله ، ويتقن به دروسه ، ويرسخها في الحافظة· وهو الذي يجعله في تلك العلوم في غنى عن أستاذه في أقرب وقت ، فينطلق فيها بأقصى سرعته ، فيصل فيها الغايات البعيدة في وقت قريب ، ويكون فيها من العلماء ، ويتسع وقت معهده لتكوينه في علوم أخرى فيدرس أيام التلمذة علوما كثيرة ويعرف لغات عديدة · لقد أخذت بهذا الأسلوب الحكيم المعاهد القديمة فأنجبت لنا علماء

فطاحل كثيرين رغم ضعف مادياتها وندرة الكتب وصعوبة الحصول عليها ، وقصر مدة الدراسة فيها ، وأهملته كثير من المعاهد اليوم فلم نر منها الا القشور : عقولا ضعيفة ، ومعلومات ضحلة ، وطلبة ينسون أكثر ما علموه ، ونفوسا رخوة قتلتها الاتكالية ، ومضغ المعلم لهم كل شيء من دروسهم ثم يزقهم ، فلم تنبت أنيابهم ليكونوا أسودا ، وأجنحتهم فيكونوا بزاة ، واذا طاروا فبأجنحة الدجاج الضعيفة سرعان ما تقع به ، وقوقة كثيرة ونفع قليل ، وانتفاش كانتفاش الدجاجة العقيم التى لا تبيض ، إن الوزر فى هذا على مربيهم فى بيوتهم ومعاهدهم القاصرة .

اعتناء المعاهد القديمة بحفظ المتون فى العلوم

كان معهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى رحمه الله ومعاهد ذلك الزمان المبارك تعتنى كل الاعتناء بحفظ متون العلوم التى يدرسها الطالب . انها أصولها ، وسبب رسوخها فى الحافظة ، وان تأمل فيها وهو يحفظها كانت سببا للفهم القوى للدروس . وكان الطلبة اذا قاموا من دروسهم يشرعون فى حفظ المتون ، وكذلك فى المساء اذا انتهوا من اعداد دروسهم ، وفى السحر قبل الفجر ، وفى كل وقت يجدونه ، فلزام على الطالب أن يحفظ المتن قبل أن يجلس أمام الأستاذ للدرس ، ومن لم يحفظ يطرد من الدرس ويعاقب ، وكذلك من لا يطالع دروسه قبل وقوعها ، ومن لا يراجع درسه بعد وقوعه . وكان كل طالب يتلو من حافظته فى يوم أو يومين من كل أسبوع ما حفظ من المتون لكى لا ينساها ، يستمر على ذلك أعواما كثيرة حتى ترسخ رسوخ القرآن فى الحافظة .

كان معهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى للتربية الاسلامية ، وللعلوم الشرعية والعربية وتاريخ الرسول صلى الله عليه وسلم ومبادىء المنطق فحسب ، ليس فيها غيرها . وكانت علومه قليلة ، ولكن العمل والجهد فيها كثير ، فأتقنوها اتقانا عظيما ، وكانوا فيها علماء حقا ، يعرفون كل ما فى كتبهم ، ويذكرونها ولا ينسونها لشدة العناية والاتقان .

ولما استظهر ابراهيم القرآن عكف على المتون يحفظها ، فحفظ عقيدة العزابة التى عربها الشيخ عمر بن جميع ، وشرحها ، ومنظومة مشارق أنوار العقول للشيخ السالمى فى العقيدة أيضا ، ومتن كتاب طلعة الشمس فى أصول الفقه للشيخ السالمى، وورقات الحطاب فى الأصول . وحفظ فى النحو متن الآجرومية وشرح الشيخ أبى داود لها ،

ومتن كتاب القطر ، وألفية ابن مالك · وحفظ فى علم البلاغة منظومة الجوهر المكنون وفى علم المنطق متن السلم وفى التجويد الدرر اللوامع ، وفى الحديث الأربعين حديثا النووية وأبياتا كثيرة فى الحكمة من قناطر الخيرات ، وشواهد كتب النحو التى درسها من الأدب البليغ · حفظ كل ذلك حفظا راسخا ، واستمر يتلوها مدة طويلة كى لا ينساها ، فتثير فى نفسه دروسه فتزداد رسوخا ، ويعيد النظر فيها فيزداد لها فهما · وكان تام العدة للرسوخ فى العلم بما حفظ · ولما انتقل الى الشيخ اطفيش الكبير ليتخصص فى علوم الشريعة كان أول شيء سأله عنه : ماذا حفظت من المتون ؟ فأخبره فسر سرورا كبيرا ·

وكان ابراهيم للهفته الى العلم وشدة حبه لأستاذه ومعهده ، من أول من يدخل المعهد عند افتتاحه ومن آخر من يخرج عند اغلاقه ، مواظبا لا يتخلف ، ينتبه الى الدرس فى الحلقة انتباها شديدا لا يغفل عنه · واذا لم يفهم شيئا فيما هو لطبقته يسأل عنه فيفهمه شيخه بوسائله البارعة · يثب فى السحر قبل الفجر بساعتين فيذهب الى دار التلاميذ فيبدأ أعماله العلمية ، لا يضيع وقتا من أوقات الدراسة فى اللهو · لا يجد لذته الا فى العلم ، فأعطاه نفسه ، وانكب على موارده وهو يتسعر ظمأ يرتوى منها · وكان الله معه ، لحسن نيته فى طلب العلم ، ولجده ونشاطه العظيم ، ولدعوات مشايخه وأهله له ، فبارك له ، وفتح الله عليه ، فاستطاع أن يقطع المرحلتين الابتدائية والثانوية فى التعلم فى وقت قصير ، ويستوعب ما فى معهد شيخه فى زمن قليل ، ويلمع نجمه فى معهده ، وتتجه اليه الأنظار فى بلده ، ويحظى بالدراسة العالية التى تمناها ·

كانت أيام ابراهيم فى معهده كلها عامرة بالتربية والتعلم الكثير المتقن ، فتفتح نبوغه على يد شيخه الحاج عمر وسطع سطوعه القوى ، وكان فى العلم كما ترى، بفضل شيخه وبراعته فى التربية والتعليم ، وتأثر تأثرا عظيما واسعا بشخصية شيخه العظيمة ، وورث منه الأخلاق الاسلامية العظيمة ، وصفات البطولة كلها ، فكان بطلا فى عصره ، جاهد جهاده العظيم فأحيا الجزائر والمغرب ، وعفر أذناب الاستعمار والفساد تحت أقدامه · فكيف كانت شخصية شيخه العظيم ، وما آثارها العظيمة فيه ؟

شخصية الشيخ الحاج عمر بن يحيى وأثرها فى ابراهيم

كان الشيخ الحاج عمر بن يحيى رحمه الله كما وصفنا فى تاريخه فى الجزء الثانى

من كتابنا (نهضة الجزائر الحديثة) فارجع اليه · وما نقوله هنا خلاصة صغيرة يوجبها المقام · فمهما أسهبنا لا نستطيع تصوير الشيخ كما تصوره أعماله وأنواع جهاده الطويل · فارجع اليها فى تاريخه ، فانه باب مهم فى تاريخ المغرب الحديث ، يريك أى عظيم بطل ، ومصلح كبير ، ومعلم ماهو هذا الرجل العظيم !

كان الشيخ الحاج عمر بن يحيى رحمه الله فى ذلك العهد وهو العقد الثالث من هذا القرن الرابع عشر الهجرى ، العقد الأول من القرن العشرين المسيحى · كان من قادة النهضة الحديثة فى القرارة ، ومن العلماء المصلحين المجاهدين هو والشيخ الحاج ابراهيم الابريكى رحمهما الله · فقد تعاصرا فى أول عهد الشيخ الحاج عمر بزعامة الجهاد · وكان الشيخ الحاج عمر أشد ظهورا فى ميدان الاصلاح وقيادة الكفاح ، لطول أمده فيه ، وحسن آثاره وبلائه ، وكثرة تلاميذه العلماء الذين أنجبهم · لقد آتاه الله شخصية معلم ممتازة فكان مربيا ماهرا ، يعرف كيف يبنى الشخصية الاسلامية ، ويربى تلاميذه فى كل نواحيهم ، ويكسبهم أحسن العادات فى كل جهاتهم ، كيف يكوّن أخلاقهم العظيمة وعقولهم النيرة ، ووجدانهم الصحيح بالتربية العملية الرشيدة ، وبالبيئة الطاهرة الحية من نفسه ومن كل ما يتصل بتلاميذه · كان يقضى أغلب نهاره وجزءا كبيرا من ليله ، يقودهم فى الدراسة ، ويؤثر فيهم بشخصيته ، ويبعدهم عن المؤثرات السيئة التى يمكن أن يتعرضوا لها لو ترك لهم وقتا فارغا يتسكعون فيه فى الأسواق · ان تلاميذه لا تراهم الا فى المعهد أو فى المسجد أو فى بساتينهم · لا توافق نفس أحدهم أن يتسكع فى الشوارع ، أو يتصل بمن لاخلاق له· ان الضمير الحى والوازع الدينى الذى كونه فيهم شيخهم ، ووراثتهم وتربيتهم الأولى تمنعهم من ذلك . واحترامهم لأنفسهم واعتزازهم بها كل الاعتزاز يأبى عليهم ذلك · انهم عند أنفسهم وعند الناس طلبة العلم والدين فهم مظهره فيجب أن يكونوا أحسن مظهر ، وعنوان أستاذهم ومرآته عند الأصدقاء والأعداء فيجب أن يكونوا أحسن عنوان · ثم ان شيخهم يراقبهم والتلاميذ القدماء وأهلوهم وحزب الاصلاح كله ، فيعرف أحوالهم فى الأوقات القليلة التى يقضونها خارج المعهد · انهم لشدة اهتمامه بهم وبتربيتهم دائما فى باله ، لا يغفل عنهم ، ولا تصرفه مهماته الكثيرة عن رعايتهم ·

كان يعتنى كل الاعتناء بالتربية الاسلامية ، لا يفرط فى شىء من أسبابها · يرى واجبه الأعظم فى الطالب هو بناء خلقه الحميد ، فاذا نجح فى ذلك نجح فى النواحى الأخرى : جسمه وعقله ووجدانه ، فهو الأساس لها · وتمام الأخلاق تستدعى تمام النواحى الأخرى ·

وكان مسجديا يصلى الصلوات كلها مع الجماعة ، وكان شيخ المسجد بعد الشيخ الحاج ابراهيم الابريكى ، وشيخ دار التلاميذ التابع للمسجد • وكان يوقن بأن عمارة المسجد سيما للشباب من أقوى الأسباب فى بناء الخلق الحميد ، فأورث لتلاميذه شدة حبه للمسجد ، وألزمهم صلاة الجماعة في المسجد فى كل الأوقات • وكان يراقبهم ويحاسبهم الحساب الشديد فى كل يوم حتى فى يوم الجمعة عطلتهم الأسبوعية على الصلاة مع الجماعة فى المسجد ، فغرس عمارة المسجد وشدة حبه فى نفوسهم فكان خلقا راسخا فيهم ، لا يستطيع أحدهم الصبر عن المسجد فى وقت الصلاة ، ولا تطاوعه نفسه أن يصلى فى داره • انه اذا فعل ذلك يوبخه ضميره وأهله • فكان تلاميذه مسجديين ، يزيدهم المسجد طهرا فى كل يوم ، فكانوا أوتاد الاصلاح وروحه ، وجند النهضة وحياتها ، بخلقهم العظيم الذى كان من أكبر أسبابه المسجد !

حدثنى الشيخ أبو اليقظان قال : « كان مساء الخميس عطلة لنا فى الأسبوع الى عصر يوم الجمعة ، ولكن الطلبة يجب بعد نزولهم من المسجد بعد صلاة العشاء ليلة الجمعة أن يذهبوا جميعا الى المعهد ليحاسبهم الشيخ الحساب الشديد على صلاة الجماعة من ظهر الخميس • فاذا تخلف أحدهم جلده • وصادف ذات ليلة أن وجدت عشائى حاضرا فتعشيت فأسرعت الى المعهد فوجدت الطلبة قد خرجوا من جلسة الحساب ، وفى الغد سألنى شيخى : لماذا لم تحضر • فقلت بارك الله فيك • لقد جئت ، فوجدت ملائكة النهار قد صعدوا وملائكة الليل قد نزلوا فسمعت الكلام فى الدهليز فهربت • يقصد دهليز المعهد وهو طابق أرضى فى دور ميزاب كان الشيخ يقرأ فيه ويسمر ليلة الجمعة مع رجال الاصلاح وكبار طلبته • قال الشيخ أبو اليقظان : فضحك الشيخ رحمه الله وسكت عنى • ان هذا يدل على طبع الفكاهة فى ابراهيم ، وعلى حزم الشيخ فى التربية وعدم المهاودة فيها •

وكان الشيخ الحاج عمر معلما ممتازا ، يتضرم شغفا بالعلم ، فملأ تلاميذه بوجدان حب العلم ، فكانوا مثله فى الغرام بالمعرفة ، وشدة الشغف بالعلم • وكان قدوتهم فى الاجتهاد وحب القراءة والاستزادة من العلم ، لا يجد وقتا الا ويعكف على كتبه يقرؤها فى شغف ونشوة • وكان لا يجد لذته الكبرى الا فى مجالس التدريس والقراءة • وأعظم هدية تتحفه بها كتاب مفيد يقرؤه • فأحب تلاميذه القراءة مثله ، واستطاع الكثير منهم بعادة القراءة التى غرسها فيهم أن يكونوا علماء •

وكان رحمه الله يعود تلاميذه الاعتماد على النفس فى التحصيل ، ويريهم أن الأستاذ البارع هو الذى يجعل تلاميذه فى غنى عنه فى أقرب مدة ! وذلك بتكوين

عقولهم ، وتعويدهم الاعتماد على النفس ، وتأجيج اللهفة فى صدورهـــم الى العلـم ، وتزويدهم بالمبادىء المتقنة فى العلوم فينطلقوا الى الغايات العليا ٠

وكان رحمه الله مخلصا يريد من تلاميذه أن يكونوا فى العلم أكثر منـــه ٠ ان زمانهم يدعو الى ذلك ٠ وكان يقول لهم : ان واجبى فيكم وما أستطيعه هو أن أعلمكـم المبادىء في العلوم فتتقنوها ، وأشعركم بحلاوة العلم ، وأخلق فيكم الغرام به لتنطلقوا الى طلبه من معاهده الكبرى ٠ « انما أنا سلم أصعدكم على كاهلى لتروا رياض العلـــم فتسعوا اليها » (I) ٠

وكان الشيخ الحاج عمر يحب تلاميذه حبا عظيما ، ويراهم جزءا من نفسه ، وأعز عليه من ذريته وأسرته ، فأحبه تلاميذه كل الحب ، فصار مثلهم الأعلى فحذوا حـذوه ، وتفتحت له نفوسهم فاستطاع أن يؤثر فيهم ٠

وكان ابراهيم قوى الوجدان ، طيب النفس ، فوجد فى شيخه الحاج عمر كـــل ما أراد ، من شخصية قوية ، وصفاء تام فى النفس ، وشدة حب له ، وعناية تامة به ، فأحبه حبا عظيما ، فصار مثله الأعلى فى أخلاقه العظيمة كلها ، سيما ورعه وصفـــاء نفسه ، واخلاصه وعمله لله ، وشجاعته الخارقة ، وسعة صدره فى المكـاره ، ولـــين الجانب للناس ، والتواضع وحسن العشرة ٠ فأثر الشيخ الحاج عمر فى نفسه تأثـيرا عظيما ، وكونه تكوينا حسنا ، وصبغه بصبغته ، وأورثه أخلاقه ، وركزت تربيتـــه وراثة ابراهيم الحسنة وما غرسته فيه تربيته الأولى ، وأنعش وراثته فازدهرت شخصية ابراهيم على يده ، وبدت خصائصه الكريمة ، وزاده صلاحا وزكاء فكان مثل شيخه فى الشخصية ، وأشبه تلاميذه به فى السلوك والاتجاه ٠

وكان الشيخ أبو اليقظان شديد الاعجاب باخلاص شيخه الحاج عمر وعمله لله فى كل ميادين جهاده ، وبصفاء طويته وطهر نفسه ، وتلألئها كالشمس بشدة الصفاء فانعكست أنوارها فى طلعته ، وبدا جمالها فى خلقه وسيرته ٠ وكان يحس به لهـــذا الصفاء والطهر نورا يخالط نفسه فيزيدها صفاء وبياضا ، فسماه لهذا (نور القلب) فكان لا يسميه الا نور القلب ! وقبله سماه بهذا الاسم زعيم المصلحين فى القـــرارة تلميذه وصديقه الشيخ الحاج بكير العنق لماّ وجد للشيخ من آثار فى نفسه كالتى يجدها ابراهيم ٠

(I) تاريخ الشيخ الحاج عمر بن يحيى فى كتابنا نهضة الجزائر الحديثة الجزء الثانى ص 175 ط اولى .

عنايـة الشيخ الحاج عمر بالتربية الاجتماعية وأثـر ذلك فى ابـراهيم

كان الشيخ الحاج عمر رحمه الله شديد العناية بالتربية الاجتماعية والخلقيـة فى تلاميذه • وكان يغرس فيهم عقيدة الاصلاح بوجدانه وأقوله وأفعاله ، ويشرح لهـم شؤون الوطن فى القرارة وميزاب والجزائر ، ويريهم انتشار الفساد والجهل وتكالـب أهلها ، واستبداد الحكام العسكريين الفرنسيين وظلمهم وعداوتهم للاسلام ، ويطلعهم على جهاده هو وصحبه المصلحين لحماية الدين ، وتطهير المجتمع من الفساد والجهـل والظلم ، وانعاش النهضة الاسلامية التى تشب فى الجزائر والمغرب الكبـير • وكان يغرس فيهم الأخلاق الاجتماعية بالوسائل العملية وغيرها ، ويعودهم خدمـة النـاس والمجتمع ، والعمل لله فى ذلك ، فنشأوا كلهم اجتماعيين ، راغبين فى اصلاح المجتمع وخدمة سواهم • وكانوا يعتقدون أنهم كواهل الأمة هى التى ترفع أثقالها ، فاستعدوا لذلك بالعلم الصحيح والخلق العظيم ، وكانوا نجوما متلألئة فى سمائها فيها النـور النافع ، والشهب المنقضة على الشياطين ، فنشأوا وهم راغبون فى الجهاد لحماية دينهم ورفع رايته التى ينكسها الاستعمار الصليبى ، وتطهير مجتمعهم من الفساد والظلـم والجبروت • فدخلت النهضة الحديثة الاسلامية بفضل جهادهم دور النضوج ، وقـرت عين الجزائر والمغرب بنتيجة كفاحهم الطويل المرير الذى تعرضوا فيه لكل الأهـوال ، وكانوا يقومون به لله •

وكان العراك على أشده فى هذا العهد وهو العقد الأول من هذا القـرن العشرين بين الصلاح والفساد فى القرارة وميزاب ، والمعركة مستحرة بين المصلحين والمفسدين• وكان الحكام العسكريون الفرنسيون ، وأذنابهم القيـاد والموظفون المتجبرون ينصرون الفساد وحزبه بكل وسائلهم ، وينكلون بالمصلحين وأنصارهم، ويجهدون لخنق الاصلاح الذى ازدهر ، والنهضة الاسلامية التى شبت فى القرارة وميزاب • وكان السـجن والتغريم والتعذيب والتقتيل وافساد الأمـوال وتخريب بساتين المصلحين • وكان الشيخ الحاج عمر بن يحيى هو رئيس حزب الاصلاح وقائده مع الشيخ الحاج بكـير العنق والسيد باسعيد بن الحاج داود فى القرارة• وكانت القوارع تسدد اليهم أكثر ، والبلاء يحيط بهم من كل جانب • ولكن ذلك لا يزيدهم الا ثباتا وشجاعـة وتصميما ، ومضيا فى القضاء على الفساد وأصحابه ، وعلى الحكام والموظفين المستبدين وجبروتهم• وكانوا يقومون بجهادهم العظيم لله ، ولنصرة دين الله • انه جهاد طويل مرير بالمـال

والفكر والنفس ، فتعلم ابراهيم من شيخه الشجاعة الخارقة ، والعمل لله ، والغيرة على الدين والوطن ، والتضحية والاقدام ، والاتكال على الله وعدم المبالات بجيش المفسدين وان كثروا ، وتشبع بعقيدة الاصلاح من شيخه وزملائه قادة الجهاد ، فنشأ وهو يعتقد أن تطهير الوطن من الفساد الذى ينشره الاستعمار ويحميه فرض عليه من الله وعلى جيله ، ومواصلة جهاد مشايخه فى قوة على حسب زمانه واجب حتم عليه من الله . لا بد من رفع رايته ، وقيادة جيله فيه . فجعلت هذه العقيدة الاصلاحية وتلك التربية الاجتماعية القوية ابراهيم أكثر جدا فى العلم ، وأكثر تمسكا بالأخلاق العظيمة ، وصفات البطولة كلها لأنها عدته فى الجهاد الطويل المرير الذى يستقبله ، وأعده شيخه البطل للجهاد فى سبيل الله وللكفاح بروحه الثائرة ، وتربيته القوية ، وبناه بناء الصواريخ التى تصنع لدك الأعداء،ونشأ وهو مستعد للانقضاض على الفساد والجبروت كالقلاع الطائرة !

ان الشيخ أبا اليقظان يقر بجميل شيخه الحاج عمر بن يحيى ، ويرى نفسه صنيعة يده . وكل ما ناله من علم وخلق فى المعاهد الأخرى غير الشيخ الحاج عمر فما هو الافرع من أصوله ، ونتيجة تولدت من المقدمات التى رسخها فى نفسه. انه هو الذى بنى شخصيته ، ووجهه التوجيه الرشيد فى العلم والعمل ، وعلمه الجهاد فى سبيل الله ، وأعده له . فلولا تربية هذا الشيخ العظيم ما استطاع فيه مشايخه الآخرون النتائج الباهرة التى كانت منه .

هذا هو أثر الشيخ الحاج عمر بن يحيى فى ابراهيم . هو الذى بنى عقله وخلقه وأجج وجدانه بحب العلم وكل المعالى ، وزوده بأصول العلوم الشرعية والعربية ، وأذكى فيه الطموح والثقة بالنفس فانطلق فى ميدان العلم ينهل على قدر طاقته القوية ، وغرامه الشديد بالعلم ، لا على قدر دروس أساتذته ونشاط معاهده الأخرى ، فكان من العلماء الأجلاء ومن أعلام الاصلاح فى الجزائر والمغرب .

وممن تأثر بهم ابراهيم فى طفولته وشبابه تأثرا كبيرا فى تربيته الاجتماعية ، وكانوا من أساتذته فى الوطنية ومن مثله العليا ، وغمروه بوجدانهم فكان مثلهم فى الثورة على الفساد والجمود والظلم والاستبداد ، الشيخ الحاج بكير العنق ، والسيد باسعيد بن الحاج داود . فقد كانا من زعماء الاصلاح والنضال فى القرارة مع الشيخ الحاج عمر بن يحيى ، ومن أركانه فى جهاده ، وأنصاره الكبار . وكانا يلازمانه ، سيما الشيخ الحاج بكير العنق كان من تلاميذه ، يحضر دروسه فى المعهد ، وندوات الشيخ الحاج عمر بن يحيى كلها ، هو والسيد باسعيد ، ندوات التدبير ووضع

الخطط للجهاد ،وندوات القراءة ، ومجالس الأنس والصفاء · وكان هـــذان الزعيمان وثيقي الصلة بالشيخ الحاج عمر وطلبته ، فأحبهما ابراهيم حبا عظيما ، وكـان يصغى الى حديثهما عن جهادهم ، والمعارك الدائرة بينهم وبـــين المفسدين والمستعمرين ، فى اهتمام وشوق كبير · وكان يسعى اليهما والى غيرهم من كبار المصلحين كالسيد الحاج سعيد بن ابراهيم ، والسيد الحاج مسعود بن يحيى ، والسيد الحـاج يحيى بوعبون ، والسيد الحاج مسعود بن سليمان الخياط وغيرهم ، فيحضر مجالسهم ، ويتأثر بحديثهم ويصغى لنصائحهم له وللطلبة ، وتغشاه روحهم ، فتعلم منهم أيضا الشجاعة والاقدام، والاخلاص ، وحب العمل للـــه ، والغرام بالجهاد فى سبيل اللـــه لرفع راية الدين ، وتنكيس راية المفسدين والمستعمرين المستبدين ·

ان آثار هؤلاء المصلحين كبيرة فى ابراهيم ، سيما الشيخ الحاج بكير العنق الذى عمر طويلا ، وحضر جهاد الشيخ أبى اليقظان التربوى والتعليمى والصحافى ، فكان من أكبر أنصاره فى هذا الجهاد ، ومن مصادر الطاقة العظمى التى تؤجج بطولة الشيخ أبى اليقظان فيثبت فى جهاده على الأهوال ، ويهزأ بالعقبات ، ويقوم بما قام به مـــن أعمال عظمى لنصرة الدين واحياء الوطن · ان فضله عليه أيام الجهاد لعظيم ·

ومما تأثر به ابراهيم فى عهد تلمذته على الشيخ الحاج عمر مجالس قراءة الشيخ السياسية والاجتماعية والأدبية ، فحببت اليه القراءة ، وأورثته حب الصحافة فنشـأ مغرما بها ، يراها أمضى سلاح ، ونورا ساطعا فى الهداية والارشاد ، ودواء ناجعا لكل أمراض الأمـــة ·

مجـالس الشيخ الأنيسـة للقـــراءة وأثـــرها فى ابراهيم

حدثنى أستاذى الجليل الشيخ أبو اليقظان قال : « كان الشيخ الحاج عمر بـــن يحيى بعد انتهاء دروس الليل فى المعهد ينزل الى الدهليز الذى كان مكتبـــه ومجلس أسراره ، ومعه أصدقاؤه زعماء الاصـــلاح وكبار طلبتـــه ، ومنهم أنا ، فيقرأ كتبا ونحن نصغى ، يتولى القراءة أحد الطلبة الكبار البارعين فى القراءة ، فيستمر مجلس قراءتنا للكتب النفيسة الى قرب منتصف الليل ، لا نشعر بالتعب وبطـول الوقت لانتشائنـا العظيم بما نسمع من حديث العظماء فى كتبهم · وقد قرأنا فى هذه المجالس الكتـــب

النفيسة التالية : تاريخ الشيخ محمد عبده للشيخ رشيد رضا ، ونهضة الأمة وحياتها للشيخ طنطاوى جوهرى ، والعروة الوثقى للشيخين العظيمين جمـــال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، وطبائع الاستبداد للشيخ عبد الرحمن الكواكبى ، وقد حفظت منـــه كثيرا ، وأم القرى له أيضا ، وأريج الزهر للغلايينى وغيرها ، وقد تأثرنا بهذه الكتب تأثرا عظيما ، وفتحت لنا نافذة واسعة الى الحياة الجديدة ، والى الشرق العربى فعرفنا زعماءه وما يجرى فيه ، ووسعت آفاقنا فى العلم ، وعلمتنا قراءة الكتب . وقد عادت علينـــا هذه المجالس بالخير العميم العظيم بما نسمع من الكتب ، وبتعاليق الشيخ الحاج عمـــر والشيخ الحاج بكير العنق على بعض الفقرات الممتازة والفصول الكبـــرى فى الكتاب ، وبما يحكيه الشيخ الحاج عمر وصحابته من أخبار جهادهم ، ويتداولون فيه أمامنا من مشاكل الوطن ليدربونا على التفكير الاجتماعى . انها مجالس مباركة ، وهى من أكبـــر ما كونني اجتماعيا وسياسيا وأدبيا » .

ومع هذه المجالس التى تقع فى أغلب ليالى الأسبوع للقراءة ، المجلس الأسبوعى الذى يضم الشيخ الحاج عمر وزعماء الاصلاح فى القرارة وكبار طلبـــة الشيخ فى دار المصلح الكبير السيد الحاج يوسف بن امحمد خلفاوى رحمه الله للقراءة أيضا وغـيرها فقد ترك هذا المجلس أثرا عظيما فى ابراهيم .

مجلس الشيخ الأسبوعى فى دار السيد الحاج يوســف ابــن امحمد خلفاوى وأثــره فى ابراهيم

حدثنى الشيخ أبو اليقظان رحمه الله قال : « ان مساء كل خميس عطلة أسبوعية فى المعهد وكذلك صباح الجمعة الى العصر . أما صباح الخميس فتقع دروس خفيفـة فى الأخلاق وغيرها فى معهد الشيخ الحاج عمر . وفى الضحى حوالى التاسعة نخرج فنذهب جميعا طلبة المعهد ومعنا شيخنا الحاج عمر بن يحيى الى دار المصلح الخير الكريم السيد الحاج يوسف بن امحمد فيكرمنا بالفطور الدسم وبالشاى الجيد ، فنحلق لشيخنا رأسه ونسوى لحيته ، ويحلق بعضنا لبعض . وفى وقت الشاى والحلاقة وبعدها يتولى أحدنا قراءة ما يصل الشيخ من الجرائد العربية التونسية والمصرية وغيرها ، فنسمع أخبـــار العالم الاسلامى ، ونقرأ مقالات زعماء الحركة الاصلاحية والوطنية فى مصر وغيرها . وكانت مصر فى عنفوان نهضتها الاسلامية العظمى ، وكانت صحافتها مزدهرة ، وهى

قبلة العالم الاسلامي ، تستمد منها النور والحماس ، وتقتدى بها فى النهوض • وكانت تونس شبيهة بمصر فى ذلك العهد فى النهضة وازدهار الصحافة العربية • وكانت جرائدها تشتعل نارا على عدونا المشترك ، فرانسا الصليبية العاتية التى تطأ على رقابنا وتكم أفواهنا • وكانت تنفس عن صدورنا المكظومة ، وتشفى غيظنا بضرباتها للاستعمار وظلمه وفساده • ونمضى وقتا طويلا فى هذه الصحف والمجلات المصرية والتونسية وغيرها الى الزوال • وكان الشيخ الحاج بكير العنق والسيد باسعيد بن الحاج داود وغيرهما من كبار المصلحين يحضرون هذه الندوة فيعلقون على بعض الأنباء المهمة ، وعلى بعض المقالات النارية ، فيزيدونها حرارة فى نفوسنا.ومع قراءة الجرائد يحكى لنا الشيخ الحاج عمر ومن حضر من الكبار أهم الأنباء الجزائرية فى الشمال والجنوب وأخبار الصراع الدائر بين المصلحين والمفسدين فى ميزاب والقرارة • وكنا نتمنى وصول الخميس لنحظى بمجلس أنس مع شيخنا ، ونعرف أنباء جهاد الاصلاح وأخبار الوطن ، ونقرأ الجرائد والمجلات العربية التونسية والشرقية التى كانت لنا أحسن غذاء ، وأوسع نافذة على العالم فتعرفنا عليه • وفى هذه المجالس عرفت تونس الخضراء ومصر العظيمة فتعلقت همتى بهما ، وعزمت على الهجرة اليهما للتزود من معاهدهما وأجوائهما الحية الثائرة التى تليق بمزاجى • وفى هذه المجالس ومن أحاديث الشيخ الحاج بكير العنق والشيخ الحاج عمر بن يحيى فىمجلس القراءة الليلى عرفت قيمة الصحافة فى انهاض الأمم ، وتطهير المجتمع ، والقضاء على الأعداء ، فنشأت محبا لها ، أتمنى أن أكتب فى الصحف وأكون صحافية مصلحا كهؤلاء الذين نقرأ مقالاتهم العظيمة فى الجرائد والمجلات •

ثم قال الشيخ : ان للسيد الحاج يوسف بن امحمد رحمه الله فضلا كبيرا على الاصلاح فى القرارة ، لاحتضانه للشيخ الحاج عمر بن يحيى وتأييده له بنفسه وماله وبحبه حبا عظيما لنا معشر طلبة الشيخ ، وسنه لنا سنة الاجتماع الحسنة فى داره المباركة فى صباح كل خميس لقراءة الصحف والمجلات الوطنية العربية ومعرفة أنباء الوطن ، وللحلاقة ، والأنس • ان آثاره وآثار تلك المجالس فى داره لعظيمة فى نفسى • وقد كونت نظرتى الصحيحة الى الحياة ونفعتنى نفعا عظيما ، وثقفتنى ثقافة سياسية واجتماعية كبرى •

ثم قال الشيخ : أما صباح الجمعة فعطلة أسبوعية ، ولكن لشدة شغف الطلبة بمعهدهم ، ولحرص الشيخ الحاج عمر على اتصاله الدائم بتلاميذه لشدة حبه لهم، وحسن عنايته ورعايته لهم ، كنا نلم فى الصباح الباكر بمعهدنا فنجد شيخنا فنجلس حوله ،

ويمتعنا بقراءة مفيدة ، فى كتاب جامع الشمل ، وكتاب وفاء الضمانة للشيخ اطفيش فى الحديث ، أو فى كتاب الجنة (بضم الجيم) فى وصف الجنة ، للشيخ اطفيش الكبير أيضا ، فيقرأ لنا الشيخ فى هذا الكتاب أوصاف الجنة الفتانة بصوته الحنون القوى · وكان الشيخ يرجو ثواب الله الخالد فى كل أعماله · وكانت هذه القراءة تثير فى نفسه صور الجنة فيزداد افتتانا بها ، ويقرأ علينا ودمع التأثر فى عينيه · ويقف فى بعض المقاطع فيقول فى صوت قوى يصدر من أعماقه : « آه ! لاَ مَنْ ادْخَلْ الْجَنَّةَ وَاتْهَنَّى » ليتنا ندخل الجنة فنستريح من عناء الحياة ! فيملؤنا وجدان الشيخ بحب الجنة وشدة الشغف بها ، ويزيدنا وصف الجنة شوقا اليها ، ونرى كل نعيم الدنيا شيئا تافها بجانب نعيم الجنة الذى أعده الله للصالحين · وقد أثرت هذه القراءة فى نفسى آثارا عظيمة ، وأذكت حب الجنة فى نفسى فاستهدفتها فى أعمالى الصالحة ، وكانت أحسن جاذب لى الى طرق الرشاد ·

ثم قال الشيخ : وكان الشيخ الحاج عمر بن يحيى زاهدا فى الدنيا لا يرى لها قيمة · وكان يرجو نعيم الله الخالد · وكان يرى الدنيا شيئا حقيرا كالعظم النخر فى أفواه الكلاب ! وقد ورثت منه الزهد فى الدنيا · ليس لها قيمة كبرى عندى · ان نعيم الله الخالد هو مقصدى وما أرجوه » ·

نضوج ابراهيم السريع فى معهد شيخه وانتقاله الى معهد القطب للتخصص فى العلوم

مكث ابراهيم بعد استظهاره للقرآن فى معهد شيخه الحاج عمر بن يحيى ثلاث سنين من عام 1323 الى شوال 1325 هـ وكان فى هذه المدة مثال الجد والغرام بالعلم وحسن النية فى طلبه ، ومثال الاستقامة فى السلوك والبر بمشايخه وأهله فبارك الله له ، فقطع الأشواط الكثيرة فى المدة القليلة ، وأتقن أصول العلوم الشرعية والعربية على شيخه الحاج عمر ، ونضجت مواهبه العقلية ، وقطع المرحلة الابتدائية والثانوية فى معهده ، ونال ما يستطيع معهده أن يقدمه اليه وما يتسع له وقت شيخه الذى يتزعم الاصلاح ويقود جهاد المصلحين · وبرزت شخصية ابراهيم القوية فى معهده ، وسطع نبوغه ، فصار من التلاميذ البارزين فى معهده ، فاتجهت اليه الأنظار ، وعلق فيه شيخه وكبار المصلحين آمالهم ، وتمنوا أن ينتقل الى معهد القطب الشيخ اطفيش ليتخصص فى علوم الشريعة والعربية ، ويكون عالما جليلا · وكان ابراهيم يطمح الى

هذا ، ويمنى به نفسه · وكان الشيخ اطفيش هو العالم العظيم الذى تشد اليه الركاب من أنحاء المغرب للتخصص فى معهده ، وهو أمنية كل نابغة من الطلبة · فتمنى ابراهيم أن يمكث مدة فى معهده ، يروى غليله من منابعه الثرارة العذبة ، ويعيش فى جـــوه العلمى الرفيع ، ويعطى نفسه للعلم أكثر فى بنى يسقن بعيدا عن العائلة ومشاكلها · فحقق الله مناه بفضل استقامته وحسن نيته فى طلب العلم ، وبفضل بره العظيـــم بمشايخه وذويه · ولطالب العلم لله المستقيم السيرة رزقان رزق له ورزق لكتابه فى كل ما يشتهى · هذا ما بشر به المصطفى · وانه لقاعدة صحيحة لا تكذب · فـلاحـت فرصة لابراهيم فطلب من شيخه أن يبعثه هو وزميله ابراهيم بن بكير للتخصص عـلى القطب فاجاب طلبهما وارسلهما الى معهد القطب فى بنى يسقن فى شوال عام 1325 هـ 1907 م ففرت عين ابراهيم وسعد سعادة كبرى بتحقق مناه ·

زواجـــــه

كان ابراهيم طويل القامة ، قوى الجسم ، فيه حيوية قوية · وكان ذلك العهـد المبارك يحصن الأبناء بالزواج الباكر ليقيهم من المفاسد التى يبثها الاستعمار والمفسدون لافساد الأخلاق · وكان ابراهيم فى السابعة عشرة من عمره فرغب فى الزواج فاختـار عروسه وهى بنت جيرانهم الفاضلة الصالحة الآنسة سَتِّى بنت عمر الناصر ، وأحبها حبا عظيما · وعرف أهله رغبته فى الزواج وحبه لهذه الفتاة فارتضوها له ، وخطبوها له · وكان يلتقى بها فى الشارع فيزداد اعجابا بها ، لحيائها وأنوثتها وجمالها وخصائصها الأخرى · وكان الهيام يعصف به ، ويعيش مع خطيبته فى خياله ، ويضرع الى الله أن يعجل بيوم زفافه ، فكان فى أثناء عام 1324 بعد سنة قضاها فى معهد شيخه · وأكرمـه الله بالأحضان الحبيبة وبالعطر والجمال · ولكن ذلك كله لم يستطع ان يلهيه عـــن العلم · لقد كان يعطيه نهاره وكثيرا من ليله · فسعد سعادة كبرى بزواجه ، وسخـر الله له الفتاة التى أحب وعُرسَه رغم فقـر أسرته فكان كما يريد ، حافـلا كثير المسرات أشرف على تنظيمه شيخه الحاج عمر وكبار عشيرته واهتموا به اهتماما كبيرا فكان كمـا ينبغى ·

وقد حكى لى شيخى وصديقى الشيخ أبو اليقظان حادثا من أسراره الخاصة وقع له فى زفافه يدل على شدة حبه لخطيبته وهيامه بها ، وسنورده عندما نتحدث فى فصل خاص عن المرأة وأثرها الجميل فى حياة أبى اليقظان . انه يدل على جانب من شخصيته

القوية · وقد استأذنته قبل وفاته باسبوع فى نشره فى تاريخـــه فأذن لى · وكـان صديقه السيد عيسى بن يحيى تاعموت معنا فى هذا المجلس ·

والحكاية الثانية التى وقعت فى هذا العهد وهى تدل على دالة ابراهيم على شيخه الحاج عمر بن يحيى لشدة حبه له ، وعلى جرأة ابراهيم وصراحته · حـدثنى شيـخى أبو اليقظان قال : ان العادة فى ميزاب منذ القديم الى الآن أن يوم الجمعة عطلة أسبوعية للرجال والنساء · ففى مساء الجمعة يتزين النساء ، ويقضى الأزواج سيما الشبـاب ليلة السبت فى العطر والاحضان والزينة ، وينالون حظوظهم من الـزوجة · انهـا ليلة غراء فى الاسبوع لحظـوظ النفس · وكان الشيخ الحاج عمر بن يحيى يطـيل دروس الليل فى معهده ليلة السبت ، فنذهب فنجد نساءنا قد مللن الانتظار ، ولـوى أعناقهن النعاس · ان صباح الجمعة كله لأعمال أخرى نسوية مرهقة لهن فى البستان غالبا غير النسج : غسل الثياب والصوف الخام لنسجه وغير ذلك · فلا يستطعن السهر الطويل · فشكى اليّ زملائى الطلبة المتوزجون طول الدروس ليلة السبـت · وكان الشيخ يطيلها لنشوته بالتدريس وشدة حبه لتلاميذه ، بوده أن لا يفارقوه ، وطلـب منى زملائى المتزوجون أن أطلب من الشيخ أن لا يطيل دروسه ليلة السبت · فاغتنمت فرصة فقلت للشيخ : « بارك الله فيك ان الشابات يشكونك ! » فالتفت الشيخ فقال وماذا فعلنا بهن ؟ قال ابراهيم : لأنك تطيل الدروس ليلة السبت · ففهم الشيخ غرضى فصار يقصر الدروس ليلة السبت ونخرج مبكرين بعد صلاة العشاء بقليـل · وكـان الشيخ اذا أوجز فى دروسه ليلة السبت وختمها يقول لتلاميذه : قوموا فهذا قانـون ابراهيم !

طبقـة ابراهيم وزمـلاؤه فى معهـده

وكان من طبقة الشيخ أبى اليقظان فى معهد شيخه الحاج عمـر وفى درجتـه فى النبوغ والعلم الشيخ ابراهيم بن بكير حفار ، يكبره الشيخ أبو اليقظان بنحو عامين ، والشيخ الحاج عمر بن الحاج مسعود ابن عمر لقبه · ومن زملائه فى معهده الشيخ الحاج محمد بن حمو ابن الناصر ، ويحيى بن بكير العنق ، ويوسف بن سليمان بربوشة أخو السيد صالح بربوشة ، وعم الدكتور محمد صالح ناصر ، ومحمد بن الحاج سعيد أخو الشيخ الحاج ابراهيم بن الحاج سعيد ·

أما الطلبة الكبار الذين سبقوه الى المعهد فوجدهم قد تقدموه فى العلوم ثم لحق بهم فهم : الشيخ الحاج عمر العنق ، والشيخ يحيى بن باحمد سليمانى ، والشيخ الحاج ابراهيم بن الحاج سعيد ، والشيخ عبد الله بن ابراهيم أبو العلا ، والسيد سليمان ابن الحاج يوسف الناصر والسيد ابراهيم بن باحمد النقشة وهؤلاء كلهم من القرارة ، وأغلبهم من عشيرته . وكان هؤلاء الزملاء كلهم من يكبره فى السن ومن هو فى سنه رجالا صلحاء ، ومنهم من صار عالما وجلس للتدريس ، وكانوا أوتاد الاصلاح وأنصاره وحماته يرحمهم الله جميعا . لم يبق منهم الا الشيخ الجليل السيد الحاج محمد بن حمو ابن الناصر مؤذن القرارة وأحد مؤسسى معهد الحياة بارك الله لنا فى حياته .

وكان ابراهيم فى التاسعة عشرة من سنه لما سافر الى معهد القطب فى بنى يسقن، فودع شيخه بأن أكب على رأسه يقبله قبلات حارة وهو حزين لفراقه ، وأوصاه شيخه بما يجب لمثله ، والحزن باد فى صوته ومحياه . لقد صعب عليه فراق تلميذه الحبيب . فوصل ابراهيم معهد القطب . فما هى أحواله وأطواره فيه ؟ هذا ما سيأتيك فى الجزء الثانى من هذا الكتاب يا عزيزى ، فأحدثك بتفصيل عن أطواره وأحواله فى التعلم العالى ، وعن جهاده العظيم فى التربية والتعليم ، وفى الصحافة ان شاء الله . والحمد لله على عونه وتوفيقه وحفظه وعلى كل نعمه فى البدء والانتهاء ، والصلاة والسلام على خير الأنبياء .

تم الجزء الأول ويليه الجزء الثانى ان شاء الله

الفهـــرســـت

ص

مقـــدمـــة 9

الاصلاح والمصلحون فى الجزائر 15

جناية المستعمرين والشعوبيين المتعصبين وأكاذيبهم على دولتنا العثمانية العظيمـــة 17

عهد الظلام فى الجزائر 18

الزوايا الصالحة فى الجزائر والمغرب وجدواها العظيمة على الدين والأمة 19

وباء الطرقية الاستعمارية 21

الفســـاد الخلقى 25

العصبيـــة المذهبيـــة 25

استيـــلاء الجهـــل والجمود 26

بث الالحاد والتفرنج بمدارس الاستعمار وصحافته فى النفوس 26

محاربة اللغة العربية واحتقارها 27

ادارة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 33

العلامة الجليل الشهيد الشيخ العربى بن بلقاسم التبسى 35

نسبه الكريم ووراثته وبيئته 37

أسرتـــه وأجـــداده 38

أمـــه الفاضلـــة 41

ميـــــلاده 42

اسطح بلد العربى ومنشؤه 45

الفلاحة وأثرها الحسن في العربي 47
دراستـه الابتدائيـة 48
وفاة والده وكفالة عمه له 49
في زاوية نفطـة 51
دراسته الثانوية في الجامعة الزيتونية 56
وفـاة والدتـه 65
مغامرته الى مصر 65
دراسته العالية في الجامعة الازهرية 67
تقشف عيشه في مصر وانقطاعه عن أهله 69
اعتماد العربي على نفسه في التحصيل وعكوفه في المكاتب العامة للدراسة .. 71
أثر الجو الادبي والسياسي في مصر في العربي اتبسي 72
اعجابه بالحضارة الاسلامية وسيادة اللغة العربية في مصر 74
رجوعـه الى الجزائـر 75
اعلام الاصلاح في الجنوب 79
الشيخ عَدُّون بن بالحاج اشريفي 80
الشيخ صالح بن قاسم با بكر 80
العلامة الجليل الشيخ ابراهيم بن عمر بَيُّوضْ 81
نسبه الكريم ووراثته 83
الفلاحة الصعبة في ميزاب وأثرها في بناء الشخصية العظيمة 87
الفلاحة سبب الاخلاق الاجتماعية العظيمة 96
الفوائد التربوية العظيمة للفلاحة في ميزاب 98
أثر الفلاحة الجميل في وجدان الفلاح 98
احتفال الفلاحين وميزاب بالاودية وأثر السيل في النفوس 99
شدة تمسك الفلاح الميزابي بالدين وأثر المسجد فيه وفي ميزاب 102

عامل العشيرة العظيم فى صلاح الفرد والمجتمع 103
الحرث فى البادية وأثره العظيم فى نفس الفلاح الميزابى 103
صعوبة التجارة فى عهود الاجداد وآثارها العظيمة فى نفوسهم 105
نشاط المرأة الميزابية وصلاحها 109
والد الشيخ بيوض السيد عمر بن بابا 116
والد السيد عمر بن بابا 116
والدة السيد عمر بن بابا 116
ميلاد السيد عمر بن بابا ونشأته وتعلمه 117
فى كُتَّاب الشيخ آدم فى الجلفة 119
زواجه بأم الشيخ بَيُّوضْ وأثرها الحميد فى حياته 120
أسباب تجارته فى القرارة 121
شخصيته وجهـــاده 123
شدة حبه للعلم والعلماء 124
جهـــاده الاصلاحى 127
اغتيال امام النهضة فى القرارة الشيخ الحاج محمد بن الحاج قاسم وأثر
ذلـك فى الاصـــلاح 128
والدة الشيخ بيوض الفاضلة السيدة عائشة بنت كاسى بن بُهُون 130
البطل الهمام السيد عمارة بن ابراهيم بن كاسى بن بُهُون 135
رثاء الحبيب ، قصيدة 139
والدة السيدة عائشة بنت كاسى 140
ميلاد السيدة عائشة ونشأتها 142
زواج والد الشيخ بيوض بأمه وسعادته وغناه بزوجته 144
شغف الزوجين بالولد النابغة الصالح 148
حيرة الزوجين وحسرتهما 149

الأفراح العظمى بتحقق الأمل الكبير 151
ميلاد الشيخ بيوض ونشأته والبيئة الأولى التى أثرت فيه 153
فى حضانة جدته زَغْمُوْمَة وأمه حليمة 155
السيدة حليمة وحضانتها وأثرها فى ابراهيم بيوض 156
أثر المربية حليمة فى ابراهيم بيوض 163
غرام ميزاب وعهود الأجداد بالغناء التربوى الطاهر الجميل 165
شدة عناية السيدة زَغْمُوْمَة بابراهيم وأثرها فيه 167
العمل فى البستان وأثره الحسن فى ابراهيم بيوض 175
أثر بيئة الْحُكْم فى ابراهيم بيوض 177
أثر أبويه الكريمين فيه 181
ازدهار الشعر التاريخى والدينى الملحون وأثره العظيم فى المجتمع وفى ابراهيم 182
السيد احمد بن الحرمة الشاعر الزجل فى جنوب الجزائر 185
علاقته الوثيقة بالقرارة وصداقته الكبيرة لأسرة آل بهون 186
نماذج مـــن شعـــره 187
السيد عمر بن عيسى بلعيد الشاعر المصلح والأديب المؤرخ الناثر 188
نماذج مـــن شعـــره 194
حب الأعرابيات لابراهيم بَيُّوْض وأثرهن الكريم فيه 197
آثـــار والـــده فيـــه 200
اعتناؤه الكبير بتربيته الاجتماعية 202
فى دكان والده فى السوق 204
دراستـــه الابتدائيـــة 207
العلامة الجليل الشيخ أبو اليقظان ابراهيم بن الحاج عيسى 211
تاريخ الشيخ ابى اليقظان رويته عنه 213
نسبه الكريم ووراثته 220

أجداده الفضـــلاء 221
والده الكريم السيد الحاج عيسى بن يحيى 224
السفر الى العواصم الاسلامية وأثره فى ثقافة والد أبى اليقظان 226
وفاة والد أبى اليقظان 230
والدة الشيخ أبى اليقظان الكريمة 230
زواج السيد الحاج عيسى بأم أبى اليقظان 234
ميلاد أبى اليقظان ونشأته 237
اباحة الحكام الجبابرة أموال المصلحين للمفسدين وعيشهم فيها ومجاعـــة القرارة الشديـــدة 238
كرم نفس أم أبى اليقظان مع ضرتها وشدة برها وحبها لزوجها 241
المنزل والبستان وآثارهما العظيمة فى أبى اليقظان 245
اليتم والفقر وأثرهما الحسن فى الأنبياء والزعماء وفى أبى اليقظان 248
أثر الجدة والبستان فى أبى اليقظان 248
وفاة والدته وحزنه الشديد عليها 253
على جدث الوالدة (قصيدة) 254
تعلمه الابتدائى وأدواره فيه 256
شدة حنق ابراهيم على أذناب الاستعمار وجبروتهم وفسادهم منذ طفولته ... 261
زمـــلاؤه فى الكُتَّاب 262
انتقاله الى معهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى 264
النظام الدراسى لمعهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى 268
قطعه عن معهد الشيخ الحاج عمر بن يحيى وأثر ذلك فيه 269
ابتداؤه الصلاة وانتشاؤه بالمسجد 272
ادخال ابراهيم فى التجارة وشدة مقته لها 273
دراسته على الشيخ الحاج عمر بن يحيى 276

ص

اعتناء المعاهد القديمة بحفظ المتون فى العلوم 280
شخصية الشيخ الحاج عمر بن يحيى وأثرها فى ابراهيم 281
عناية الشيخ الحاج عمر بالتربية الاجتماعية وأثر ذلك فى ابراهيم 285
مجالس الشيخ الأنيسة للقراءة وأثرها فى ابراهيم 287
مجلس الشيخ الاسبوعى فى دار السيد الحاج يوسف بن المحمد خلفاوى
وأثره فى ابراهيم 288
نضوج ابراهيم السريع فى معهد شيخه وانتقاله الى معهد القطب
للتخصص فى العلم 290
زواجه 291
طبقة ابراهيم وزملاؤه فى معهده 292

فهـرســت الصـــور

ص

الشيخ محمد البشير الابراهيمى 5
الشيخ احمد توفيق المدنى 29
ادارة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين 33
الشيخ العربى بن بلقاسم التبسى 36
رواية المؤلف تاريخ الشيخ العربى عن أهله وتلاميذه فى تبسة 39
أعلام الاصلاح فى الجنوب الشيخ بيوض ، والشيخ أبو اليقظان ، والشيخ
عبد الرحمن بكلى ، والشيخ سليمان بن الحاج داود 79
الشيخ أبو اسحاق ابراهيم اطفيش 80
الشيخ محمد بن الحاج صالح التمينى 80
الشيخ عدون بن بالحاج اشريفى 80
الشيخ صالح بن قاسم بابكر 80
الشيخ ابراهيم بن عمر بيوض 82
نزح الماء على الدواب من الآبار فى ميزاب 88
نزح الماء من الآبار بالسواعد فى ميزاب 89
تسلق النخيل فى ميزاب 92
رواية المؤلف لتاريخ الشيخ بيوض عن الشيخ بيوض حفظه الله 115
السيد كاسى بن بهون جد الشيخ بيوض من أمه 132
السيد عمارة بن ابراهيم بن كاسى بن بهون 135

القرارة بلد الشيخ بيوض والشيخ أبي اليقظان وقلعة الاصلاح الكبرى فى جنـوب الجزائـر 157
دار والد الشيخ بيوض الاولى التى ولد فيها الشيخ بيوض..... 169
جزء من الطابق الثانى للدار التى ولد فيها الشيخ بيوض..... 170
السارية التى ولد تحتها من جهة القبلة الشيخ بيوض..... 170
الحجرة التى تنام فيها والدة الشيخ بيوض وهى أول مكان ينام فيه بعد ميلاده 171
شارع أولاد منصور الذى فيه الدار التى ولد فيها الشيخ بيوض ونشأ فيها 171
القسم الشمالى من الطابق الأول للدار التى ولد فيها الشيخ بيوض 172
حانوت والدته فى الدار..... 172
قسم من الطابق الثانى لدار جدته زغمومة الذى نشأ فيه الشيخ بيوض.... 173
حجرة جدته زغمومة التى ينام فيها فى دارها وحجرة مربيته حليمة 173
الجزء الجنوبى للطابق الأول لدار جدته زغمومة الواسع..... 174
الجزء الشمالى لنفس الدار التى نشأ فيها الشيخ بيوض وأثرت فيه 174
السيد عمر بن عيسى بلعيد الشاعر المصلح الثائر..... 188
العلامة الجليل الشيخ أبو اليقظان ابراهيم بن الحاج عيسى 212
الشيخ أبو اليقظان يحدث مؤلف هذا الكتاب بتاريخه بتفصيل فيكتبه.... 217
شارع البلاث فى القرارة حيث دار الشيخ أبى اليقظان التى ولد ونشأ فيها 266
دار والد ابى اليقظان التى ولد فيها أبو اليقظان وأمضى فيها طفولته وشبابه 267
الدار التى كانت أول معهد للشيخ الحاج عمر بن يحيى فى القرارة وتعلم فيهـــا ابراهيـــم 267